



المعرفة

AL - MARIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٦٠٩ - السنة ٥٣ - شعبان ١٤٣٥ هـ - حزيران ٢٠١٤ م

صعوبة إلى الكتاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية.
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ كلمة.
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:
- اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً.
- ترحو المجلة من كتابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم.
- ترحو المجلة أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها.
- تلتزم المجلة بإعلام الكتاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلمها، ولا تعاد لأصحابها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة

رئيس تحرير مجلة المعرفة

تلفاكس: ٣٣٣٦٩٦٣

www.moc.gov.sy

Almarifa1962@yahoo.com

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يُعادلها

تُضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

رئيس مجلس الإدارة

أ. الدكتور لبانة مشوح
وزيرة الثقافة

رئيس التحرير

د. علي القسيم

أمينة التحرير

سمر الزركي

هيئة التحرير

د. إنصاف حمد - وضاح الخطيب

د. طيب تيزيني - د. غسان غنيم

د. جهاد بكفلوني

الإشراف الفني والطباعي

أنس الحسن

التصميم والإخراج

أحمد إسماعيل

التنضيد

ريما محمود - ابتسام عيسى

في هذا العدد

أفاق المعرفة

- ذكريات.. دمشق البرزخ
- ١٧٩ نصر الدين البحرة
- الإعلام.. مصنع الكلام إشارة من التاريخ
- ١٩٢ د. بغداد عبد المنعم
- جدل محمد عبده وفرح أنطون التاريخي
- ١٩٩ أسعد طرابيه
- أبو القاسم الشابي وقصائد حياته القصيرة
- ٢١٠ سامر مسعود
- الأمير مصطفى الشهابي.. العالم - الأديب
- ٢١٧ أحمد سعيد هوش
- سيكولوجية الصداقة وأهميتها.. لدى الأطفال
- ٢٢٥ حسين محيي الدين سباهي
- كيف تستخدم الصورة بالعلاج النفسي البدني
- ٢٣٢ هبة الله الغلاييني
- أساليب التحقيق كيف بدأت.. وإلى أين وصلت
- ٢٣٩ منيب هائل اليوسفي
- عندما يشهد الغرب للشرق
- ٢٤٧ ملاطيوس جبرائيل جفنون
- دور الصحافة اليومية في تشكيل الوعي الثقلي الاجتماعي
- ٢٥٣ عبد الباقي يوسف
- إدارة الجودة الشاملة.. المبادئ والأسس والأدوات
- ٢٥٨ د. حسان القيسي
- حل لغز الإكليل الشمسي
- ٢٦٩ ترجمة، محمد الدنيا
- الأشعة المؤينة.. ماهيتها وطرق الوقاية من مخاطرها
- ٢٧٥ وهدان وهدان
- الآلة الخضراء تصنع الحياة على كوكب الأرض
- ٢٨٥ عصام مفلح

حوار العدد

- مع الباحث سليم بركات
- ٢٩٣ إعداد: محمد خالد الخضر

كتاب الشهر

- مسألة الحرية في الفكر الإسلامي (الرجل المعتزلي)
- ٢٩٩ عرض وتقديم: منهل الفضبان

آخر الكلام

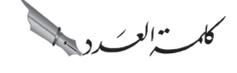
- الثقافة ومفهوم الحوار
- ٣٠٨ رئيس التحرير



كلية الوزارة

جدلية العلاقة بين الثقافة والماء

أ.الدكتورة لسانه مسعود
وزيرة الثقافة



كلية العدد

إبلا..

معجزة الحضارة السورية

وعلي الهكيم
رئيس التحرير



الدراسات والبحوث

- لفظ الأم وتجدد بنيته في لغات البشر
- ١٧ د. عمر الدقاق
- هل من أمل؟ وكيف؟
- ٣٢ د. أحمد عمران الزاوي
- الأدب العربي في زمن الاحتلال العثماني
- ٤٧ د. جهاد طاهر بكفلوني
- تشكل العقل النقدي
- ٥٨ د. صلاح الدين يونس
- مقاربات أدبية بين «الجاحظ وأحمد الجندي»
- ٧٢ ظهير الشعراني
- فلسفة اللامعقول
- ٨١ إبراهيم سلوم
- الجهاز المناعي النفسي
- ٩٧ د. ناصر ملوحي
- حضارات الساحل السوري
- ١٠٩ د. جمال حيدر
- أفريقيا ساحة صراع لعقود قادمة
- ١٢٥ د. خير الدين عبد الرحمن
- الثقافة والأنثروبولوجيا
- ١٤٠ لميس أحمد
- الإدارة الرشيدة وتطبيقاتها في القطاع العام
- ١٥٤ غسان وديع العيد

الإبداع

شعر

- شام العز
- ١٦٧ مفيد نبزو

- تاريخيات الماء
- ١٧٠ عصام ترشحاني

قصة

- رسالتان.. قبل الرحيل
- ١٧٣ محسن يوسف

- ضيف عزيز
- ١٧٦ أحمد ناصر



أ.الدكتورة لسانة مسعود
وزيرة الثقافة

جدلية العلاقة بين الثقافة والماء

تتجلى جدلية العلاقة بين الثقافة والماء في أوضح صورها في أساطير الشعوب وآدابها وما انعكس منها على عاداتها وتقاليدها وفنونها بمختلف أشكالها ومدارسها. فكما أنّ الثقافة ماء الحياة ونبع الإبداع ونهر الحضارات الدافق، فإنّ الماء ينفذ إلى جذور الثقافة.. يخصب تربتها بصور وأفكار ورموز.. ينفذ إلى عمق نسيجها ليغني بشفافية لونه كل مكّون من مكوناتها، ويسبغ عليها من عذوبة مذاقه، ويجملها بسلسلة انسيابه.

تنبئنا كتب تاريخ الفكر أنّ الفيلسوف اليوناني طالس (القرن السادس ق.م) هو أوّل فيلسوف في التاريخ عدّ الماء جوهر كل مادة في الكون وأساسها الأول، ليضيف إليه أقرانه من بعده النار والتراب والهواء. لكن الحقيقة أنّ

الفارسي زرادشت من القرن السابع ق.م سبقه إلى ذلك، كما سبقت شعوب الهند وفارس الإغريق إلى تقديس الماء. فالفرس قدسوا الماء والنار والتراب والهواء، وهو ما أخذه عنهم لاحقاً علماء الطبيعة الإغريق. واعتقد الفرس أنّ الله بدأ الخليقة بالماء، ثم أتبعها بالنار والنبات والسماء والأرض، ثم خلق الإنسان في اليوم الأخير. وقد بلغ حدّ تقديس الفرس للماء أن بنوا له المعابد وقدموا القرابين للينابيع.

وإذا ما عدنا بعيداً في تاريخ الفكر الإنساني وجدنا أن الماء في العديد من الثقافات القديمة هو العنصر الذي يبدأ به الخلق، ويصل الأرض بالسماء والإنسان بخالقه. وهو في الديانات السماوية الثلاث مصدر الحياة، وهبة الله ونعمته، ووسيلة الإنسان للتطهر والاستشفاء والاحتماء، ورمز التجدد.

سنّ البابليون قوانين تنظم استخدام المياه ضمنوها شريعة حمورابي الخالدة، وكان لهم وللآشوريين أناشيد وترانيم في تمجيد مياه دجلة والفرات. وفي الألف الثالث قبل الميلاد، قدّس السومريون، ومن قبلهم الأكاديون، الماء وجعلوا له ربة هي «آلهة الينبوع» تبوّأت في حياتهم منزلة مرموقة، فجسّدوها في تمثال امرأة ترتدي ثوباً طويلاً تزيينه تموجات ترمز لتموج الماء، يستر جسدها بالكامل ولا يظهر منه إلا مقدمة القدمين. وهي تمسك بيديها إناء تتضجّر منه المياه رمز الحياة والخصب. قدّس الأكاديون آلهة الينبوع وطبعوا صورتها على أختامهم الأسطوانية، لكن الفنان السومري هو من أبدع لها تمثالاً اكتشف في مدينة ماري وحفظ تحفة فنية

في متاحف سورية الحضارة، أمانة في أعناق السوريين للأجيال القادمة، لا بل للبشرية جمعاء.

كذلك مجّد المصريون القدماء نهر النيل كواحد من آلهتهم، واعتقدوا أنه نشأ من فيض دمع إيزيس وأزوريس. أسموه الإله «حابي» وتمثّلوه في صورة رجل امتلأت يداه بالخيرات تحف به الأسماك والطيور والحيوانات والنباتات.

لكن تقديس الهندوس لنهر الكنك من القديم وحتى يومنا هذا يفوق كل تصور. فجميع روافده مقدسة، ونقطة التقائه بالنهر الكبير «جمنا» محج يقصده مئات الألوف من المتعبدين، يغتسلون بمياهه ليتطهروا بها من ذنوبهم. يقول الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل»: «وعباد الماء طائفة من الهند يسمون الجهلكية، يزعمون أن الماء ملك ومعه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة (...) فإذا أراد الرجل منهم عبادته، تجرّد وستر عورته، ثم دخل الماء حتى يصل إلى وسطه، فيقيم ساعتين أو أكثر ويأخذ من الرياحين فيقطعها صغاراً ويلقي في الماء بعضها بعد بعض وهو يسبح ويقرأ. وإذا أراد الانصراف، حرّك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقط على رأسه ووجهه وسائر جسده، ثم يسجد وينصرف».

وتحفل آداب الشعوب وذاكرتها بالأساطير والحكايات التي تتمحور حول الماء مصدر الإعجاب والرهبية، أساطير تراكمت وهاجرت وتزاوجت لتنتج ثمرة يانعة لفكر إنساني متكامل، يغني كل جزيء فيه اللوحة الكاملة ويزيد في نضجها وجمالها.

فها هو (جلجامش) السومري يعبر الأنهار ويقطع البحار المترامية إلى حيث تشرق الشمس، ليعمر ما خزبه الطوفان. وها هي (أفروديت) الإغريقية الفاتنة إلهة الحب والجمال (ونظيرتها فينوس في الأساطير الرومانية) تولد من احتكاك أجزاء من جسد أورانوس إله السماء والحياة، بالماء عند سقوطها في البحر.

ومن أساطير الشرق حول المياه ما يورده النويري في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» إذ يقول فيما يقول: «إن بأرض الهند مكاناً يعرف بعقبة عورك، فيه عين ماء لا تقبل نجساً ولا قذراً. فإن ألقى فيها شيء من ذلك، هبت الريح وكثر الرعد والمطر. فلا تزال كذلك إلى أن يخرج منها ما طرح فيها».



تحمل صورة الماء في ثقافة الشعوب تضاداً ظاهرياً يدفع بمدلولاته إلى طرفي نقيض. فبينما يظهر في بعض الأحيان رمزاً للحياة والطهر والتجدد، يتبدى أحياناً أخرى رمز الضياع والفناء.. ففي حين تجري الأنهار العذبة في جنان الخلد تُنبت فيها طيب الثمرات، وبينما يثاب المستقيمون بماء غدق، يعاقب الضالون على اعوجاجهم بانحباس الغيث والقحط، ويؤخذون بالطوفان الذي يأتي عليهم وينهب بزرعهم وضرعهم.

إلا أن تلازم الماء بالفناء يظل رمزياً بحتاً. ففي كثير من الأساطير يُهلك الماء الضالين عقاباً لهم على ضلالهم وغييهم، ويبتلع إلى غير رجعة من حاد عن جادة الصواب ورضي أن يُسلب لبُّه ويُضلَّ عقله. على هذا النحو برز دور الماء في النشيد الثاني عشر من «الأوديسة»، ملحمة (هوميروس) الخالدة التي ترجع إلى أواخر القرن الثامن ق.م.

يروى النشيد قصة الملك أوليس العائد إلى دياره من حرب طروادة، وصراعه أثناء رحلته الطويلة الحافلة بالمغامرات والمخاطر ضد مخلوقات هجينة نصفها امرأة ونصفها الآخر طير (وفق الأساطير الإغريقية-اليونانية في العصور القديمة) أو نصفها امرأة ونصفها الآخر سمكة (بحسب أساطير العصور الوسطى الإسكندنافية)، تسكن قمة جبل يشرف على مضيق مسين في جزيرة صقلية، وتعزف على القيثارات والمزامير ألقاناً ساحرة، فلا يملك البحارة إلا أن يرهفوا السمع لأنغامها التي تسحر الأبواب وتذهب بالعقول. لكن تلك الأغاني التي تبدو في ظاهرها عذبة لها فعل السم القاتل. فهي تورد من يسمعها من البحارة موارد التهلكة، إذ تجعلهم يتيهون في اليم مفتونين، فترطم سفنهم بالصخور وتتحطم، مما يوقعهم فريسة سهلة لما فتنوا به.

وحده بطل الأوديسة تمكن من مقاومة هذا السحر بعد أن نبهته العرافة سيرسيه إلى خطر الانسياق إلى عذب الألحان التي تصدر عن تلك المخلوقات.

لم تكن مهمة أوليس سهلة. كان عليه في آن معاً أن يحصن نفسه ضد الغواية، وأن يمنع بحارته من الانجراف إلى موارد التهلكة. لم يكن يملك وسيلة لمنعهم من الاستماع إلى تلك الموسيقى العذبة القاتلة سوى أن يجعلهم يصبون الشمع في آذانهم ليصمموها عن الإصغاء للفتن. أما هو، فقد أمر بحارته أن يقيّدوه إلى سارية السفينة، وأن يشدوا وثاقه أكثر فأكثر إذا ما طلب منهم أن يطلقوه وألح في طلبه. وهكذا استطاع بالحيلة والإرادة

أن يتعرّف على عدوه ويقاوم ما يسلب الناس عقولهم وإرادتهم.
لم يكن هوميروس واحداً من حكماء اليونان السبعة الذين وردت أسماؤهم
في لائحة يعود تاريخها إلى عام ٥٨٦ ق.م، لكنه امتلك من الحكمة ما
يكفي لينبه في ملحمة الخالدة إلى خطورة الاستلاب الفكري والانسياق
الأعمى لما يضلل العقول ويهلك النفوس والأبدان.
لم تنته الحكاية الأسطورية بعد.. فللقصة عبرة ثانية: عندما فشلت
الحوريات في إغواء الملك وافتراس رجاله، تملكهن شعور قوي بالخزي
دفعهن إلى الانتحار بإلقاء أنفسهن في اليم من أعلى الصخرة التي كنّ
يشرفن منها على المضيق ويتصيّدن منها فرائسهن.
وتلك هي عاقبة المفسدين..





و.ع.س.ي. ر.ق.م
رئيس التحرير

إبلا.. معجزة الحضارة السورية

تمثل إبلا (تل مردوخ) الواقعة قرب بلدة سراقب في محافظة إدلب، والتي تحتفل الأوساط الثقافية والعلمية بذكرى مرور /٥٠/ عاماً على بدء العمل الأثري فيها، أحد أهم وأقدم المراكز التاريخية والحضارية في العالم القديم، التي مكنتنا الوثائق المكتوبة والبالغ عددها نحو /١٧/ ألف رقيم مسماري، من العودة إليها، لسلالات حاكمة فيها تعود إلى ما قبل /٢٦٠٠/ قبل الميلاد، أي إلى العصر الأسطوري.. عصر «جلجامش» الرافدي، والفرعون المصري «خوفو»..

لقد عرّفتنا ترجمات الرقم التي قامت بها لجنة دولية مؤلفة من عشرة علماء كبار ومن جنسيات عالمية مختلفة، على قائمتين من الملوك الذين حكموا إبلا، الأولى مؤلفة من عشر شخصيات بارزة عرفت بـ«الملوك المؤلهين»

والثانية وجد فيها أسماء ١٥/ شخصية، أربعة منهم هي أسماء أناس كانت تقدّم لهم الأعطيات، وقد ظهوروا وكأنهم الأجداد الأكثر شهرة، وقد ساهمت ترجمات هذه الرُقم الكتابية في معرفة مدى التنظيم الإداري الإقليمي المؤسس على مركز إبلا التي تبنت الكتابة المسمارية مع بداية القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد..

الدراسات والأبحاث والمقالات التي نشرتها البعثة الأثرية الإيطالية التابعة لجامعة روما، برئاسة البروفيسور «باولو ماتيه» في السنوات القليلة الماضية في مجلة «دراسات إبلائية» و«حوليات إبلا» وغيرها، قدمت لنا معيّنات لا ينضب عن حضارة هذه المملكة- المدينة التي كان أهلها يتكلمون ويكتبون لغة تتصل بالأكادية الرافدية والسومرية، ومن الواضح أنهم كانوا قد بسطوا نفوذهم وسيطرتهم على شعوب ذات أصول لغوية مختلفة، فأسماء العلم والأمكنة المنتهية بلواحق لا يمكن تفسيرها إلا وفق ذلك، ومجمع الأرباب في إبلا يظهر وكأنه مزيج من عناصر مختلفة، قرب المدينة «كورا» ورب الشمس «شاماش» والذي يكتب اسمه دائماً بالرمز السومري «أوتو» وهو كفيل بتحقيق العهود، هو مؤنث في إبلا كما هو في اللغة الأوغاريتية، والإله حدد أو هدا، رب العاصفة عند الشعوب السامية الشمالية الغربية، والذي كان مركز عبادتهم في حلب في الألف الثالث قبل الميلاد، وجدت آثاره في إبلا على اعتباره بين الأرباب المحليين الأكثر احتراماً، وارتبط اسمه مع الإله بعل (بعل حدد).. وتدل هذه الأسماء على تداخلات مع ملوك ودويلات رافدية واقعة في وسط وجنوب بلاد الرافدين..

وهناك تزامن آخر زوّدنا به غطاء من حجر الألباستر، لمزهريّة وجدت في المنطقة الإدارية من القصر الملكي، عليها شعار «بيبي الأول» وهو الفرعون الثالث من السلالة السادسة المصرية، مما يدل على وجود علاقات جيدة بين إبلا وفراعنة مصر في الألف الثالث قبل الميلاد..

في دراسة للبروفيسور «ألفونسو أركي» لمحفوظات القصر الملكي في إبلا قال بأنها ترتبط بأخر ثلاثة ملوك في إبلا، ولها علاقة بتوريد المعادن الثمينة، وتوزيع الأقمشة لأعضاء إدارة القصر وإلى المدن الأخرى. وتعد هذه الرُقم، من ضمن الوثائق الضخمة، والأكثر أهمية في العالم القديم، وتعود أهميتها إلى مدى قدمها، ويبدو وكأن دوامة قد عصفت بهذا الأرشيف، بسبب الحريق الهائل الذي حدث في القصر الملكي، الذي نتج عن الغزو، مما أدى أيضاً إلى إنهاء الحياة السياسية في إبلا في مرحلة الازدهار الأولى عام ٢٢٥٠ ق.م.. وإذا تأملنا هذا الأرشيف المركزي في القصر الملكي، سوف نجد أن محتوياته تتضمن (١٧٢٧) لوحاً كاملاً، أو معظمه كامل و (٩٤٧٣) قطعة كبيرة نسبياً، وآلافاً من القطع الأصغر، وما يهم العلماء، هو تلك القطع الكبيرة التي تتضمن رسائل وقوائم لغوية، ومعاجم، أمّا الأصغر التي تتعلق بحسابات خاصة، فقد تمّ تصنيفها من خلال المحتوى والنوع، بينما الألواح الكتابية الأصغر، تتعلق بحسابات خاصة، أو تتضمن نتائج سنوية لقطاع إداري بأكمله..

ترجمات رُقم إبلا سمحت لعلماء التاريخ القديم بإعادة تشكيل التاريخ السياسي والحضاري والتجاري في الشرق القديم.. لقد كانت الحاجة الإدارية في إبلا هي التي تحرك عمليات التطور الثقافي الذي أدى إلى تبني الكتابة، وبالتدرج أصبح لإبلا مدرستها اللغوية، وشخصيتها المميزة، التي أعطت لسورية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد، ثقلها الحضاري الذي لا يقل بأي شكل من الأشكال عن حضارتي بلاد ما بين النهرين، ووادي النيل.. لقد نجح ملوكها: إركب-دامو وإشار-دامو وأغريش خالاب وإنا-داجن في استدراج المدن والبلدات إلى مركزها مثل: إيمار (باكس- مسكنة) وحوّلت إلى ميناء على نهر الفرات تابع لإبلا، ولتوثيق هذه العلاقة، فقد تمّ زواج أميرة إبلا من ملك إيمار،

ومع قيام علاقات بين الملك (إشار- دامو) ومملكة ماري على الفرات الأوسط، أصبح هناك مساواة بين الممالك، ومع (ناغار) التي تسيطر على دولة إقليمية تغطي حوض نهر الخابور، فتعززت علاقات إبلا السياسية والتجارية، وكان هناك اتصالات بكيش، المركز الرئيسي في بلاد بابل وقد ازدهرت هذه العلاقات في فترة حكم الملك (أبي-زاكير) الذي خلف والده (إيبريوم)..



لقاءات كثيرة وحوارات حميمة، جمعتني مع الصديق الباحث البروفيسور «باولوماتيه» مدير البعثة الأثرية الإيطالية التي عملت في تل مردوخ.. سألته مرة كيف دخل اسم إبلا في تاريخ علم الآثار الحديث، فأجاب: في أعقاب الكشف عن القصر الملكي (G) والعثور فيه على المحفوظات الرسمية (الأرشيف الملكي).. تلك المحفوظات التي نقشت سطورها على ألواح الطين المجفف في الربع الثالث قبل الميلاد، وقد أماط هذا الاكتشاف اللثام عن أفق تاريخي، أصبحنا نطلق عليه اليوم اسم «الحضارة السومرية الناضجة» التي تبين أنها كانت معاصرة لآخر حضارة السلالة الأولى، وأوائل الحضارة الأكادية في بلاد الرافدين..

وأضاف الدكتور ماتيه: قبيل اكتشاف إبلا بسنوات عدة رجح صاحب المعجم الأكادي، العالم الألماني «فون سودن» بأن الحقائق التاريخية لحضارة الألف الثالث قبل الميلاد، في كل من سورية وبلاد الأناضول، ضاعت إلى الأبد، وذلك لعدم ظهور أي أثر مكتوب في أراضيها.. وبعد العثور على القسم الأعظم من أرشيف إبلا بثلاث سنوات، كتب العالم الأثري «جيلب» في عام 1978م، أن مكتشفات إبلا قد أزاحت الستار عن حضارة جديدة، ولغة جديدة، وتاريخ جديد.. لقد سلطت نصوص إبلا الأضواء، بصورة رئيسية، على الهيكل الإداري، والنظام المالي، والتعامل التجاري، وتنظيم شؤون الأضاحي، وشؤون المحاكم والقضاء،

وكشفت عن فن المخاطبة الرسمية، والتدوين الحكومي.. لقد انتزع مفهوم الحضارة السورية الناضجة اعتراف الأوساط العلمية النهائي، على أساس أن تلك الحضارة أصبحت مسألة تاريخية، وقيمة تاريخية رائعة..

في البداية، لقد تراءت حضارة إبلا لأناس كثيرين من الوسط العلمي ومن خارجه، وكأنها (معجزة) فريدة، خارجة عن مسار التاريخ، أو طفرة من طفراته، وبعد سنوات قليلة فقط، أصبح لهذه الظاهرة- الطفرة، إطارها التاريخي الثابت، ولو أن الصورة ستبقى غير متكاملة لفترة طويلة من الزمن، مع أن المكتشفات الأثرية التي تمت في محيطها الجغرافي واسع المدى، قد قدمت لنا المزيد من المعلومات التي تؤكد عظمتها وريادتها في جذور الحضارة السورية القديمة، التي ازدهرت فيها، خلال الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، كما تجلّى أيضاً من خلالها التطور اللاحق للحضارة السورية التي ازدهرت ثانية في إبلا، في الفترة التي أصبحنا نطلق عليها اسم، العصر السوري القديم، أو العصر الأموري، الذي انتهى في نحو (١٦٠٠ق.م) على يد ملكي الدولة الحثية القديمة (حاتوشيلي الأول، ومورشيلي الأول) فقد قاد هذان الملكان بين (١٦٥٠ و١٦٠٠ق.م) جيوشهما من الأناضول باتجاه سورية الشمالية، واستوليا على مدينة الآلاخ (تل عطشانه) واحتلا مدينة «أورشو» المدينة المهمة والقريبة من إبلا، والتي يحتمل أن تكون آثارها غائبة في تل طوفان، وهناك ما يؤكد تقريباً على أنّهما استوليا على إبلا، وحلب (عاصمة مملكة يمحاض القوية)، وفي نهاية المطاف احتل مورشيلي الأول، بابل، حيث كان يحكمها آخر ملوك سلالة حمورابي..



عظمة العطاء الحضاري والفني والثقافي والتجاري والاقتصادي لمملكة إبلا، فاقت توقعات جميع علماء الآثار والحضارات القديمة، ويمكن تلخيص هذه الريادة والتطورات والأهمية في أمور كثيرة، أهمها:

• موقع إبلا على الطريق التجارية الواصلة بين نهر الفرات، والبحر المتوسط.. تلك الطريق التي سلكها السومريون في فجر التاريخ، كما يرجع الفضل في نشوئها إلى قربها من مستنقعات (المتخ) التي سهلت ممارسة الزراعة المروية، تماماً كما هو الحال، في المناطق المروية من بلاد الرافدين.. كما أن الحاجة إلى أخشاب سورية الشمالية، كانت من دواعي تأسيس المدينة، ولاسيما أن اسم إبلا ظل لفترة طويلة مرتبطاً بتوريد الخشب، مع احتمال سيطرة إبلا على منابع المواد الخام الأخرى مثل: الذهب والفضة والنحاس مما كان سبباً من أسباب توسع إبلا السياسي في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

• ظهرت في مكتشفات إبلا أدلة مادية وكتابية تسلط الأضواء على خصائص اقتصادها ومصادر ثرواتها، التي تتجلى في حجر اللازورد، الذي كان يستورد من أفغانستان، ولم يتم العثور على قطع منه في أي مكان من بلاد الشام إلا في إبلا، وكشفت ترجمات الرقيم المسمارية عن مجلدات تتعلق بأنواع المنسوجات والصوف وحجم الصناعة النسيجية التي كانت مزدهرة في إبلا في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، كما كشفت عن حجم السبائك الذهبية والفضية التي كانت تتدفق بكميات هائلة إلى خزانة إبلا..

• أعمال الكشف الأثري، بينت أن إبلا كانت في الألف الثالث قبل الميلاد، تتألف من قسمين رئيسيين:

- القسم الأول، يضم القصر الملكي والمباني الإدارية (قصر المدينة أو السراي، وغيره من القصور) ويقع فوق رابية متوسطة (الأكروبول).
- القسم الثاني: يضم أحياء المدينة التي تنتشر في السهل المحيط بالرابية المتوسطة، ويحيط بالمدينة سور ضخمة، تخترقه أربعة أبواب.. ويتألف هذا القسم من أربعة أحياء، يشرف على الحي /٢٠/ ناظراً، و/١٠٠/ معاون وينتظم الناظرون في أربع مجموعات، ويشرف على الحي الثاني /٢٠/ ناظراً، موزعين

على أربع مجموعات خماسية، ويساعدهم /٩٨/ معاوناً، ويشرف على الحي الثالث /١٠/ نظار، موزعين في مجموعتين، ويساعدهم /٣٠/ معاوناً، أما الحي الرابع، فيشرف عليه /٢٠/ ناظرًا، موزعين على أربع مجموعات خماسية، ويجسد هذا التقسيم، صورة مصغرة للكون بقاراته الأربع، ويوحى هذا المشهد بتجسيد المفهوم الكوني في حكم العالم والذي عبّر عنه الملك الأكادي (نارام-سن) عندما لقب نفسه بملك أكاد والجهات الأربع..

• تكونت تصوراتنا عن حجم إمبراطورية إبلا في الألف الثالث قبل الميلاد، من محتوى معاهداتها السياسية مع الدول والممالك الأخرى، ومن تقارير حملات عسكرية لقادة إبلا ضد مدن أخرى، أو مراسلات ملوك إبلا مع ملوك مدن أخرى، كما ظهر لنا محتويات معاهدات دفاعية وتجارية تدل على علاقات واسعة تصل إلى ماوراء نهر دجلة وتمتد على البلاد الواقعة بين البحر الأسفل (الخليج العربي) والبحر الأعلى (البحر المتوسط)، وعثر في أنقاض القصر الملكي (G) على عدد من الأواني الحجرية المصرية المكونة من زيادي ذات صناعة ملوكية، لم يتم العثور على مثلها خارج مصر إلا في جيبيل (بيبلوس)، مما يدل على وجود علاقات بين مصر وإبلا..

• لقد كان في إبلا ما يقارب /٥٠٠/ إله، وكان سيد هذه الآلهة الإله (دجن) إله الغلال، الذي كان يخاطب دائماً بلقب «السيد» أو «سيدي» وهناك الإله (إيل) إله السماء وهو على الأرجح إله الشمس، والإله (زوينو) إله القمر، والإله (بعل) إله الأنواء والطقس، والإله حدد، وكاميش والإله (كورا) والإله (رشف) رب الحرب والعالم السفلي، و(دامو) الذي يعتقد أنه شكل من أشكال اسم الإله الرافدي الكبير (دوموزي) أو (تموز).. أما عشتار فتجلى في إبلا بأسماء أربعة، أو تجليات أربعة، فهي سيدة القصر، والسيدة الكبيرة، وزوجة إله القمر، وهي (حبات) التي

أصبحت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد (سيدة أرض الأرز في لبنان) وكذلك إلهة مدينة حلب، وكوماني، وأصبحت لاحقاً زوجة «تيشوب»..

• يعكس النتاج الفني الرائع الذي عثر عليه في إبلا، بأمانة، أصالة الثقافة السورية في الألف الثالث قبل الميلاد، وتحررها من الطرز السومرية، ويمثل الأثاث المنقوش، النوع الفني الأكثر تميزاً للضن السوري، وهو إنتاج حرفيين محليين يدينون بخبرتهم التقنية لتقاليد عميقة الجذور، تشهد على أسلوب أصيل، ومتطور، يمكن تصنيفه تحت عنوان واقعية تشكيلية صارمة..



لفظ الأم وتجذر بنيته في لغات البشر دراسة صوتية مقارنة

د. عمر الدقاق



قلّما عرفت لغات أهل الأرض لفظاً مشتركاً فيما بينها يضارع كلمة (الأم). ففي بنية هذا اللفظ، حيث حرف الميم هو العمدة، يلاحظ أنّ هذا الحرف أيضاً قاسم مشترك بين كثير من لغات الأمم، يدور على أسنتها ولاسيما على السنة أطفالها على الدوام، مع اختلاف يسير في نطق سائر حروف الكلمة.

ومن المرجح، وفقاً لمعطيات علوم الصوتيات واللسانيات وعلم نفس الطفل والأنثروبولوجيا، أن ما فطر عليه الطفل البشري في أي مكان من هذه الدنيا، من

✿ أديب وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنانة نغمي صالح.

أمَّا الأحرف الإيحائية فهي الحروف الباقية التي تمخضت عنها المرحلة الرعوية الواقعة في حقبة الألف التاسع أو الثامن قبل الميلاد، حين تحول الولاء بعد ذلك إلى الرجل.

وما نحن بصدده في هذا المجال متصل بالحقبة المتوسطة التي توصل الإنسان القديم خلالها إلى زمرة أولى من الحروف الصامتة وهي حروف الميم والفاء والباء التي يمكن تسميتها بالحروف الإيمائية.

- ١ -

وإذا عدنا إلى اللغة السنسكريتية القديمة، وهي الأصل البعيد لفصيحة اللغات الهندية - الأوروبية تبين لنا الجذر (ما MA) يعني فيها فعل (الصنع)، وهو يدل على معاني التكوين، والعمل، والايجاد، والخلق.. وهذا الفعل (صنع) إنما يتضمن في الحقيقة الدلالة الأساسية لمهمة الأم في الحياة ووظيفتها البيولوجية في الوجود، وهي مهمة الإنجاب، أي صنع الأطفال وتكوين النشء واستمرار النوع.

وهذا الجذر نفسه (الميم M) مشترك أيضاً في مجموعة اللغات السامية القديمة، مثل كلمة (أم) العربية، و(ايما EMA) الآرامية، و(ايم EM) العبرية.. كما ظهر

مناغاته لأمه بصوت: (ما) أو (مو) أو (مام) أو (مم)، أو (مامي) أو (ماما).. أو ماكان من هذا القبيل، إنما هو أصل إطلاق تسمية (الأم) على ذلك الكائن الإنساني الذي هو الوالدة عبر العصور، وعلى اختلاف الأماكن وتباين الأقوام.

ويقسم بعض الباحثين في علم اللغة حروف الهجاء التي نطقت بها الأقوام الغابرة إلى ثلاث فئات: هجائية وإيمائية وإيحائية. وهذا التقسيم ينطبق على اللغة العربية.^(١)

فالحروف الهجائية هي الهمزة والألف اللينة والواو والياء، أي حروف العلة. وهي أصوات أصلاً، ومتوارثة منذ أزمان موعلة في القدم. وتتوافق نهاياتها مع نهايات العصر الجليدي الأخير، أي حوالى الألف الثاني عشر قبل الميلاد.

(فالهمزة انفجار صوتي، ولذا ظل للنداء، والواو إلى فوق، والياء إلى تحت..).^(٢) والحروف الإيمائية، أو في اصطلاح أدق دلالة، الشفوية، هي الميم والفاء والباء.. وهي موروثه من المرحلة التالية المنتهية حوالى الألف التاسع أو الثامن قبل الميلاد، حين كان الولاء والزعامه للمرأة الأم في طور زراعة الأرض. وكان لزاماً على الرجل عهدئذ أن يعبد المرأة واعتباره إياها ربة للخصب.

الحروف المزيدة أو الملحقة، ومثال ذلك التصاق الحرف المزيد آ في بعض اللغات بالحرف الأصلي المجرد (م M)، كما هو الحال في الكلمة اللاتينية MATTER والألمانية MUTTER. والشأن نفسه في التصاق الحرف د، D بالجزر م M وهو مقارب في المخرج الصوتي لحرف T إذ يقترن أيضاً بكلمة (مادر) الفارسية وكلمة (مادري MADRE) الإيطالية. وقريب من ذلك حال الكلمة الإنجليزية في حرف ذ: MOTHER.

ومن جهة ثانية ثمة حروف مغايرة من هذا القبيل وهي مزيدة أيضاً، منها حرف الرءاء الملتصق بالألفاظ الأم ضمن لغات عديدة، إذ يكاد يوجد في جميع نهايات كلماتها، مثل: مادر الفارسية ثم MATER و MUTER و: MADRE، و MOTHER، و: MERE.. أي في الكلمات الدالة على الأم في اللاتينية وفي الألمانية وفي الإسبانية والبرتغالية، وفي الإنجليزية وأخيراً في الفرنسية.

وعلى هذا الفرار نجد في فصيلة الساميات كلمات مشابهة أيضاً داخل الإطار البنيوي المعهود، وضمن المفهوم الدلالي المطرد على صعيد الألفاظ التي تتطوي على معنى الأم والأمومة. وإذا ما أوغلنا في لغات أخرى بدت

هذا الجذر في العديد من اللغات، ولاسيما فصيلة اللغات الهندية - الأوروبية.

فمن بين اللغات الهندو - أوروبية يطلق على الأم في اللغة الفارسية لفظ (مادر) كذلك يطلق عليها في الألمانية لفظ (MUTTER). وفي الإنجليزية (مادر) وفي الأرمنية، هي أيضاً من زمرة اللغات الهندو - أوروبية (ماير MAYER).

وإذا تتبعنا على صعيد آخر اللفظ الدال على معنى (الأم) في مجموعة اللغات السلافية مثلاً وجدنا أن الجذر (م M) يشكل فيها الأساس البنيوي لكلمة الأم، وتلفظ مات (MAT) باللغة الروسية، وفي البولونية: (MATKA).

أمّا في الأصل اللاتيني فتدل على معنى الأم كلمة (ماتر MATER). ثم سرت هذه الكلمة إلى سائر لغات الأسرة اللاتينية، فأصبحت تلفظ بالبرتغالية (مادري MADRE)، وفي الإسبانية أيضاً، وفي الإيطالية (مادري MADRE) وفي الفرنسية (ماتر MATER) وأيضاً (مير^(٢) MERE).

وهذا كله يرجع أن حرف الميم M هو الأصل الثابت الراسخ في الألفاظ الدالة على الأم في العديد من لغات الأمم. وأمّا ماعده من الحروف الأخرى الملتصقة بهذه الكلمات فهو من قبيل

يقترن بحرف آخر صائت، سواء أكان الصائت سابقاً PREFIXE، أم لاحقاً SUFFIXE، فالسوابق تغلب على اللغات السامية مثل أم وام العريبتين، وايمو وايمو السريانيتين، ومثل ايم EM العبرية.. على حين تغلب اللواحق SUFFIXES على ألفاظ الأم في اللغات الهندية الأوروبية وسواها، إذ تبدأ عادة بالجزر الميمي نفسه مباشرة، مثل (مادر، - MADRE - MOTHER) (MERE - MUTTER)، وكلها مبني على الجزر (م) أو على المقطع (ما).. وقد تعزى غلبة السوابق على ألفاظ العبرية - وهي حروف نافذة مزيدة - إلى كون الحرف الأخير هو عمدة الكلمة، وبه ينتهي اللفظ ويختتم. وهذا ما تؤكد الطبيعة الاشتقاقية في كلام العرب التي تجعل الحرف الأخير هو الأظهر والأثبت. مثال ذلك فعل (كتب)، إذ تتوالد منه الكلمات: يكتب، اكتب، استكتب، مكتوب، مكتب.. إلخ. ولعل هذه السمة، أي الثبوت والرسوخ، هي التي جعلت أكثر اللغويين العرب يؤثرون اعتماد الحرف الأخير بدلاً من الأول في تصنيف معاجمهم الكبرى، وخلافاً للمعهد في سائر اللغات. غير أن هذه الظاهرة التي تكاد تكون متفردة في لغة العرب لا تبدو دائمة الاطراد، فكلمة (أم) وما شاكلها في المعنى تبين وجود بعض التداخل بصدد السوابق واللواحق

لنا كلمة ماما معروفة في عدد من لغات أفريقيا وآسيا، فنحن نراها في البنغالية (أما AMA)، كما نراها في السواحلية واليوربا وفي لغة شعب أوغندا، وتعرف باسم (لوغندا)، وايضاً في لغة الفولاني والماندي ولغة اللينولو والهوسا والمالديفية^(٤).

وهنالك أقوام آخرون ينطقون بكلمة (أم) قريبة من النطق العربي أو من نطق غالبية الشعوب، فأهل بنجلاديش، وكذلك البوذيون في بلاد سيريلانكا ينطقون بلغتهم البنغالية كلمة الأم هكذا: أمآه AMMAH. وفي لغة المالايالام ما يقارب ذلك أي أمآ UMMA، كذلك في لغة البنجاب^(٥) ما: MA.

وبوسعنا - تبعاً لما تقدم - أن نجنح إلى الاعتقاد من خلال ما أوردناه، وقياساً عليه، أن ثمة أقواماً آخرين ممن لم نذكرهم ينطقون بكلمة أم على هذا الفرار أو نحوه، وذلك يتيح لنا القول إن هذه الكلمة عالمية لدى شعوب الأرض، وتكاد تكون مشتركة في معظم لغاتها، ولعل هذا الأمر يبدو أكثر غرابة إذا عرفنا أن عدد لغات البشر يبلغ عدة آلاف^(٦).

ومن هذا المنطلق فإن جذر الميم وحده من دون سواء هو السائد، فهو العمدة من الوجهة البنيوية في الدلالة على مفهوم الأم في اللغات المتعددة.

ولما كان الميم حرفاً صامتاً وجب أن

PREFIXES أو لواحق SUFFIXES، هي في جميع الأحوال نوافل أو زوائد قد تثبت في الألفاء الأم أو تحذف، وقد تغيب في تلك الكلمات أو تظهر..

ذاك هو الإطار البنيوي المعهود الذي يتوضع داخله المعنى الدلالي السائد في لفظ الأم على صعيد كثير من لغات الأرض.

هذا التشارك البنائي، أو في أدنى الأحوال، هذا التشابه في الحروف بين الألفاء الدالة على الأم والذي يكاد يبلغ مستوى التواتر ضمن كثرة اللغة من من لغات البشر، جدير بأن يلفت الانتباه ويسترعي النظر. فكيف يتسنى لنا الآن تفسير هذه الظاهرة اللغوية عند الإنسان، هذا الحيوان الناطق، أي المفكر.

هل بوسعنا أن نعزو ذلك إلى قانون التأثر والتأثير الذي يشمل أيضاً، في جملة ما يشمل، جانباً من لغات الشعوب، وما يكون عادة من تأثير بعضها في بعض؟ في رأينا أنه من المستبعد إلى حد كبير حدوث ذلك على صعيد الألفاء الدالة على الأم على أقل تقدير، وإلا كان علينا أن نفترض أن قوماً أو أقواماً نشأوا أول عهدهم في أحضان أمهاتهم ثم عاشوا حقبة من الدهر معهن، من دون أن يكون في كلامهم منذ فجر وجودهم اسم لهذا الكائن البشري العطوف

في بعض اللغات أو بعض اللهجات. ففي العامية المصرية مثلاً يغدو الجذر (م) مقترناً بلاحق هو الألف بدلاً عن الحرف الأول المعهود، أي عن السابق الذي يلتصق بالجذر الثابت في بداية الكلمة الدالة على الأم، ويبدو ذلك في كون المقطع (ما) هو البديل للفظ (أم)، ولعل ذلك يتجلى على نحو أوضح في صيغة النداء (يماً)، وشبيهه بذلك حال العامية السورية في كون الحرف اللاحق واواً وليس ألفاً في المقطع (مو MO)، ويتجلى هذا أيضاً في صيغة النداء (يامو)، ويقابلها مناداة الأب بصيغة (يابو).. وقد حدث مثل هذا التبادل بين السوابق واللواحق في بعض اللهجات العربية، إذ انقلبت أم إلى مو، كما انقلب أب إلى بو، وغدا هذا المنحى الصوتي سائداً على الألسن عند أهل المغرب العربي في قولهم (بومدين) وهو علم لشخص، وبورقيبة، وأيضاً عند سكان حوض الفرات في المشرق مثل قولهم (بو كمال) علماً لبلدة (موحسن) علماً لقرية..

والذي تقدم، عبر هذه المفردات اللغوية المقارنة يفضي بنا إلى القول إن حرف الميم وحده هو دوماً المحور الدلالي لمفهوم الأم في أغلب فصائل لغات الأمم، على حين لاتعدو سائر الحروف الملتصقة بالجذر الميمي أن تكون سوابق

الذي ينطوي عليه العديد من السنة البشر؟ صحيح أن ثمة الفاظاً بعينها تبدو من حيث بنيتها ودلالاتها متأخية بين لغتين أو بين عدد محدود من اللغات، مثل كلمة قَطُّ أو قَطَع وكلمة CUT الإنجليزية، ومثل كلمة كسر وكلمة CASSER الفرنسية. كذلك تتماثل كلمتا طاس أو طاسة العربيتين وTASSE الفرنسية، وتعيان إناء من نحاس أو نحوه يشرب به أو فيه مثل الكأس والفضجان والأصل عربي سبق أن دخل الفرنسية. ومثل كلمة قَط وكلمة CAT الإنجليزية.. إلخ. غير أن هذه الحالات تبقى في النهاية ضيقة النطاق لا تتعدى مجال الاحتمالات أو المصادفات أو المقبوسات.. وبوسعنا القول على نحو يقارب اليقين أن عامل المصادفة في هذا الشأن غير قادر أيضاً على تفسير انتشار جذر الميم إلى هذا المدى من الكثرة البالغة في لغات البشر.

كذلك، وعلى صعيد آخر، هل مرد هذا التشابه النطقي في لفظ الأم بين اللغات إلى عامل الاكتساب أو التلقي؟ يبدو لنا أن الطفل الرضيع، حين ينطق بالمقطع (ما) أو المقطع المكرر (ماما) منادياً أمه خلال الأشهر الأولى من عمره، فإن نطقه هذا لا يمكن أن يكون لفظاً من الألفاظ التي يكتسبها من محيطه الخارجي، أي من أمه أو ممن حوله في أسرته. وإن صح ذلك ينجم

الذي أنجبهم وأرضعهم ورعاهم وكان محور حياتهم الأولى، وكيف يكون هناك مسمى أساسي من دون أن يستلزم في الوقت نفسه وجود اسم خاص به دال عليه. وهل يصح في هذا الحال قانون التأثر والتأثير، بحيث ينبغي على أولئك القوم أن يعيشوا آماداً قد تطول، حتى يتاح لهم أن يقبسوا التسمية من أقوام أخرى ويطلقونها على عنصر جوهري أصيل في كيانهم الاجتماعي الأول؟ وبافتراض وجود جماعة مؤثرة وأخرى متأثرة، فالسؤال يظل قائماً، أي كيف اهتدت هذه الجماعة المؤثرة الأولى أو الرائدة إلى النطق بكلمة أم؟..

الحق أن المبدأ السائد (الحاجة أم الاختراع) ينطوي على الوجهة كلها ولاسيما في مجال اللغة، إذ من الطبيعي لدى وجود الشيء أن يتلبس اسماً بعينه فيلتحم به ويلزمه، وبذلك يتم التطابق بين الاسم والمسمى، فيتكاملان بنيوياً ودلالياً. وكما أنه لا يوجد في المدركات كائن بلا اسم يسمه ويؤطره، كذلك لا وجود أيضاً في العقل لاسم مجرد من دون مسمى يقوم به ويتجسد فيه.

- ٢ -

والآن، هل المصادفة إذاً هي التي جعلت لمدلول الأم نطقاً متقارباً على ذلك النحو

المحدودة التي يتيسر له في البدء أن يلفظها هي التي تتفرج عنها الشفتان، مثل حروف الميم والباء والفاء، على حين لا يستطيع أن ينطق بحروف أخرى تخرج من تحت اللسان أو من خلال الأسنان، أو من بعض أطراف الفم وأقاصيه كالحروف اللثوية، مثل: الثاء والذال والطاء، أو حروف الزلق كالراء واللام والنون، أو بعض حروف الحلق كالعين والحاء والخاء ونحو ذلك من الحروف، إذ لا يستطيع الطفل أن يتلفظ بها إلا في مراحل تالية من نموه الفيزيولوجي المتكامل.

وعلى ذلك، إذا كانت الحروف الشفوية هي أسبق سائر الحروف نطقاً لدى الطفل الرضيع، وكذلك لدى الإنسان الغابر في أحقابهِ الموغلة في القدم التي تمخضت عن نطقه بالحروف الإيمائية أو الشفوية، فإنَّ حرف الميم هو الأسبق من بينها على الإطلاق. بل إننا نذهب إلى مدى أبعد حين نقرر أيضاً أن بعض الحيوان قادر وبيسر على نطق الميم بفضل سهولة مخرجه من الفم، ومن هذا القبيل الغنم والماعز التي تدأب على التقوه بالمقطع الصوتي (ماء أو ماه أو ماع..). وهنا نلمس بإعجاب إحدى لفتات الجاحظ البارعة حين قال: (وأما الغنم فليس يمكنها أن تقول إلا (ماء) ثم يقول بذلك لَمَاح: (والميم والباء أول ما

أماننا سؤال آخر يعيدنا إلى نقطة البدء، وهو كيف اتفقت الأمهات لدى الأقوام والشعوب على وضع اسم واحد تقريباً هو ماما أو أم أو نحو ذلك ثم اكتسبه منهن أطفالهن؟ يبدو جلياً أن العفوية والفطرة هما وحدهما اللتان تتحكمان في مسلك الطفل الرضيع في هذه المرحلة المبكرة من نموه وليس التلقي أو الاكتساب.

وتأسيساً على ما تقدم يغدو من اليسير على الباحث أن يستبعد في هذا الصدد عامل المصادفة، وأيضاً العامل الاجتماعي أو الاكتسابي، وعامل التلقي والتقليد في تفسير وجود جذر الميم المشترك في جمهرة اللغات السائدة. وهكذا لا بد لنا أن نجرح في آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن التعليل الوحيد الذي يمكن قبوله أو الركون إليه، والذي بوسعه أن يفسر وجود الجذر الميمي في أسماء الأم على هذا الصعيد الواسع من لغات البشر إنما هو التعليل الفيزيولوجي - الطبيعي، أي الناجم عن تكوين أعضاء الإنسان نفسه، وعن طبيعة الطفل الرضيع وآلية امتصاصه اللبن من ثدي أمه. إنَّ الطفل الرضيع في هذا الطور من حياته ومن تكونه الجسدي لا يمتلك من حيث الأساس إلا أدنى أدوات الكلام. وفمه - وهو جهاز النطق.. لا يحتوي أية أسنان نابثة، ولما يستكمل تكوينه بعد. والحروف

تتد عن الطفل خلال ضحكه وبكائه، بل إنها لتخرج من فمه منذ لحظة خروجه من رحم أمه وصرخته المعهودة لدى انتقاله إلى المحيط الخارجي المغاير.

فالميم المتبوعة بحرف مد أي (ما) هي عند الرضيع مجرد مقطع بسيط يتقوه به بسهولة ويسر إعراباً عن حاجة عضوية لديه، وذلك حين يطلق من فمه بعض الهواء الحبيس على نحو ضاغط عبر الشفتين، فهو تعبير صوتي أولي يتخذه الطفل وسيلة إلى إشعار أمه بالرغبة في الغذاء.

ولما كانت الميم في طبيعة الأحرف الأولى المفوظة في حياة الإنسان لأنها الأسهل نطقاً، فقد نجم عن ذلك أنها أيضاً حرف أصيل راسخ في معظم لغات البشر سواء أكانت هذه اللغات قديمة أم حديثة، بدائية أم متطورة، على حين لا تنطوي حروف أخرى عدّة على مثل هذا الشمول، فتكون في لغة ولا تكون في أخرى، وثمة أم لا تعرف في لغاتها وجوداً لحرف الراء كما في لغة أهل الصين، أو لحروف سواه في لغات أخرى مثل العين والغين والثاء والخاء والذال والصاد والقاف... إلخ. كذلك لا تعرف لغات أخرى حروفاً مثل G أو V أو P أو E أو U... إلخ، وما ذلك إلا لأن نطقها ينطوي أيضاً من الناحية الفيزيولوجية على صعوبة أكبر من النطق بسائر الحروف.

يتهيأ في أفواه الأطفال، كقولهم ماما و بابا، لأنهما خارجان عن عمل اللسان، وإنما يظهران بالتقاء الشفتين) وقد استطاع مؤخراً أحد هواة الكلاب في الولايات المتحدة أن يدرّب كلبه على النطق بالمقطع الصوتي المضاعف (ماما) كما ينطق به الطفل البشري تماماً، وقد أنطقه بذلك على ملامن الناس ووسط استحسانهم وإعجابهم^(أ). وهذا يعني أن النطق بالميم معهود لدى بعض الحيوانات وميسور لدى بعضها الآخر، ولعله الحرف الوحيد من دون سائر حروف الهجاء الذي يتمتع بهذه الظاهرة الفريدة.

ونحن حين نقرر أن حرف الميم هو الأسبق نطقاً بين حروف الهجاء لدى الطفل وأيضاً لدى الإنسان الغابر والأقوام البدائية، فإننا نعني حروف الهجاء الصامتة التي كانت الميم منطلقها الأول لدى الرضيع، إذ لا بد في هذا الصدد أن نستبعد من مجالنا مجموعة الحروف الصائتة أو ماسماه بعضهم الحروف الهجائية، أي حروف العلة، فهي الأسبق بطبيعة الحال على الإطلاق، لأنها لا تعدو أن تكون لدى الوليد أو الرضيع، وكذلك لدى الإنسان البدائي أصواتاً عفوية أو صيحات انفعالية لا تكاد تختلف في شيء عما يصدر من مثلها عن سائر الأحياء في عالم الحيوان، ومثل هذه الحروف الصائتة

من يجعل الراء غيناً، ومنهم من يجعل الراء ذالاً أو ظاء، ويأتي بمثال من شعر عمر بن أبي ربيعة في قوله:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد

وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة

إنما العاجز من لا يستبد

فيذكر أبو عثمان أن بعضهم يلفظ كلمة (مرة) مية أو مفة أو مذة أو مظلة. غير أن الجاحظ فاته أن يذكر حالة خامسة من اللثغة وهي جعل الراء لاما. فالألثغ، ليعيب في نطقه، حين يعجز عن التلفظ بالراء يعمد إلى ما هو قريب من مخرجها فيلفظها لاماً، وهذا ما يعمد إليه الأطفال بسبب قصور نطقهم في أوائل عهدهم بالكلام، وكذلك حال أهل الصين عامة في كلامهم. وقد أتيت لي أن أجد جمهرة منهم من دارسي العربية تلفظ هذه الأحرف لاماً ويتعذر عليها النطق بالراء على النحو المنشود^(١١). وعلى ذلك يمكن أن نضيف إلى مثال الجاحظ أن كلمة (مرة) في البيت قد ينطقها الألتغ أو نحوه لاماً، أي (ملة)، وما يؤكد صعوبة النطق بالراء أن ثمة شعوباً عديدة تضم لغاتها هذا الحرف ولكن كلا منها تلفظه على نحو يغير بطبيعة الحال لفظ العرب له. فالإسبان والطيالان يشدون ألسنتهم إلى أعلى حلوهم بقدر من التوتر

وقد فطن الأصمعي منذ القديم إلى مثل هذه الظاهرة في بعض لغات عصره ومغايرتها أحياناً في عدد من حروفها للعربية فقال^(٩): ليس للروم صاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسريان ذال.

وعلة ذلك في رأينا صعوبة نطق هذه الأحرف وكون مخرجها غير يسير من الفم إذا قيست بسائر الحروف. وآية ذلك أن الطفل في أية أمة بوسعه في أول عهده أن ينطق بأكثر هذه الحروف المذكورة، أي غير المطردة في كثير من لغات البشر. من هذا القبيل حرف الراء، إذ لا يتيسر نطقه لدى الطفل إلا بعد حين من نموه واكتمال جهاز النطق لديه. بل قد يتعذر على الكبار النطق بالراء على النحو القويم، فيما يعرف باللثغة، وأشهر هؤلاء عند العرب واصل بن عطاء المعتزلي الذي كان يحرص على إخفاء هذا العيب لديه ويجهد في تجنب النطق بالراء في كلامه. وقد عجب الجاحظ من ذكائه واقتداره في هذا الصدد، وأورد له خطبة كان ارتجلها من دون أن يرد فيها إطلاقاً كلمة تتطوي على حرف الراء. وقد فصل الجاحظ القول في هذه الظاهرة اللسانية ضمن كتابه البيان والتبيين وكان مما قاله^(١٠):
(وَأَمَّا اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف). ثم يبين الجاحظ أن منهم

بابا، دادا^(١٢).. ففي مرحلة تالية نشأت لدى الإنسان القديم حروف أخرى لعل أولها كان حرف الفاء القريب من الشفة السفلى، ولم يستكمل ذلك الإنسان سائر حروف الهجاء إلا بعد أمدٍ آخرٍ حين دخل مرحلة الرعي، فأبدع حروفاً جديدة أكثر تعقيداً، لتلبي حاجاته المستحدثة وتعبر عن تجاربه التي كانت تغتني باطراد.

- ٣ -

واعتماداً على ما سبق التوصل إليه من أن حرف الميم يحتل حيزاً واضحاً ضمن زمرة الأحرف السهلة النطق التي عرفها الطفل كما عرفها الإنسان الغابر في طور نشوئه قبل أن يتمكن هذا أو ذاك من الاهتداء إلى نطق سائر حروف الهجاء، فإننا نجد أنفسنا أخيراً في مواجهة سؤال ملح آخر في هذا الصدد وهو: لماذا كان حرف الميم وحده وليس حرفاً آخر سواه من زمرة كالباء والبدال والفاء، وما إلى ذلك من بواكير الحروف السهلة النطق، ليكون هو الجذر الدال على الأم في أصل اللغة. وهل كان وجود الميم في الكلمات الدالة على الأم في لغات البشر مجرد ظاهرة عارضة؟

نحن ننجح إلى الاعتقاد بأن وجود الجذر (م) المتمثل في المقطع (ما) مفرداً أو (ماما) مضعفاً إنما يعني قيامه بوظيفة

لتخرج الرء قوية جلية، على حين نجد هذه الرء لدى الفرنسيين لطيفة خفيفة تقارب حرف الغين، أمّا الإنجليز فيكاد يغيب هذا الحرف من لغتهم المنطوقة، وكأنهم يبتلعونه عند الكلام. كذلك يصعب على العربي أن ينطق ببعض الحروف الأجنبية التي ليس لها مثل في لغته إلا بعد مران طويل، ولعل الأمر أكثر صعوبة لدى غير العرب حين يحاولون النطق ببعض حروف العربية مما ليس له نظير عندهم. بل إن العرب أنفسهم لا ينطقون ببعض حروف لغتهم على النحو المنشود تبعاً لأقاليمهم وبيئاتهم مثل حرف الضاد والجيم والقاف^(١٣).

كل ماتقدم يفضي بنا إلى ما توصل إليه علم اللغة ولاسيما في مجال الدراسات اللسانية LINGUISTICS والبحوث الصوتية PHONETICS، وفحوى ذلك أن الأقوام الغابرة في طور نشوئها السحيق، شأنها كشأن الأطفال، لم تعرف في بواكير حياتها سوى عدد ضئيل من الحروف، وهي الحروف الجوفية أو الصوتية أو حروف العلة، وذلك في مرحلة الصيد الغابرة التي استمرت من بداية العصر الجليدي حتى قرابة بضعة عشر قرناً قبل الميلاد، وقد تولدت لدى إنسان ذلك العصر بعد أمد طووال بعض الحروف التي تقع مخارجها الصوتية قريباً من الشفتين لسهولة النطق بها وهي م، ب، ف، د، حين يلفظ ماما،

محددة عند الطفل الرضيع لزمته منذ الخليقة وصاحبه من الأزل. وهذه الوظيفة هي تلبية حاجة عضوية أساسية لديه، وهي إشباع غريزة حفظ الذات نتيجة الشعور بالجوع والعطش، وعندئذ يعتمد الرضيع إلى الإعراب عن حاجته بأن يظهر رغبته في طلب الغذاء، أي امتصاصه اللبن من ثدي أمه، فيقوم بزم شفثيه، أي شد إحداهما إلى الأخرى تعبيراً عن رغبته في تناول غذائه، وبذلك يكون قد لفظ على نحو عفوي وغريزي حرف الميم (فألية لفظ الميم وهو حرف شفوي أو إيمائي، كما سبق بيانه، تنطلق من الشفتين حبساً وانفراجاً في حركة إيمائية تمثل فعل المص والرضاع والحلب والاستخراج من الجوف).^(١٤)

فالتفلسف في هذه الحالة التعبيرية حين زم شفثيه ثم فتحهما، على ذلك النحو المفرد (ما) أو المتوالي بين الفتح والإطباق (ماما) قد قام سلفاً بإحداث حركة الشفتين، بقصد توليد صوت الامتصاص المعهود، أي الصوت الذي ينجم عن انفراج الشفتين وإطلاق الهواء من الفم، بعد أن كان حبيساً مدة لحظة أو نحوها، وهذه هي حقيقة الأمر وسيلة نطق الإنسان بحرف الميم.

الموضوعي في أذنه، أي بنطقه حرف الميم، وهو في حقيقة الأمر إنما ينادي أمه بلفظه المقطع (ما) ويطلب لبثها في الوقت نفسه.. ومعنى ذلك أن الطفل الرضيع في هذا الطور المبكر من مرحلة نشوئه إنما يستخدم هذا الجذر الصوتي قاصداً به اللبن وصاحبه اللبن معاً من دون تمييز، وعلى نحو من التداخل المبهم. إذ من الطبيعي أن لا تكون لدى الطفل في هذا الطور قدرة على الفصل بين العنصرين الأساسيين في عالمه البسيط المحدود وهما اللبن والأم، لأنهما بالنسبة إليه متلاحمان متمازجان متحدان. ولهذا كان من الطبيعي أن يكونا في مدارك الطفل المحدودة - إن صح أن نعدها مدارك - عنصراً واحداً يقتضي منه تبعاً لذلك اسماً واحداً هو (ما).

ثم لا يلبث هذا الطفل الرضيع في مرحلة تالية من نموه أن يركب مع الجذر (م) مقطوعاً لاحقاً فيلفظ المقطع (مام) أو (مم) على طريقة التضعيف أو التكرار. وبذلك تكون هذه (الكلمة - المقطع) لسهولة التلفظ بها باكورة نطق الإنسان وفتاحة لغته، كما كان حرف الميم بكر حروفه ورائد عباراته.

وإنه لما يقوي هذه المقولة التي تركز إلى فيزيولوجيا الطفل وامتصاصه، إلى جانب إحداث صوت معين تقليداً لآلية هذا الامتصاص في الطبيعة، بوسعا القول

وهكذا فإن الرضيع كلما اعتراه الجوع والعطش عبّر عن حاجته إلى لبن أمه بتقليد آلية الامتصاص من خلال معادلها

مارواه من أنه (قيل لصبي من أبوك؟ فقال: وو، وو، لأن أباه - كما علق الجاحظ - كان يسمى كلباً^(١٥)). وبوسعنا أن نجد نظيراً لما لاحظته الجاحظ في أمثلة عديدة من واقع لغة أطفالنا اليوم حين ينادون الكلب بلفظ (عو) والقط (نو) والخروف بلفظ (ماع).. الخ.

وإذا كان تلفظ الإنسان الأول لهذا الحرف (الميم) إنما يرتكز أصلاً إلى ظاهرة فيزيولوجية قوامها الارتباط بغريزة الجوع والعطش والتعبير عن ذلك بحركة المص بوسيلة الفم، فإنه لا يبعد عندئذ أن نرجع أيضاً فعل (مص) نفسه المرتكز إلى الجذر الميمي أيضاً، في اللغة العربية على الأقل، إلى هذا الأصل البعيد نفسه. إذ إن مرد الأمر في هذا الفعل (مص) كما في شأن المقطع (ما) أو (ماما) نفسه قد يعود إلى محاكاة الطفل للصوت الناجم عن آلية المص، وفقاً لنظرية المحاكاة في نشوء اللغة.

ولعل من المفيد هنا استكمالاً لهذا الظن أننا نلاحظ أيضاً في اللغة العربية كون كلمة (ماء) ترتكز إلى جذر الميم كما هو الحال في بنية كلمة (أم). وقد يعني هذا أيضاً أن الرضيع حين يجوع ويعطش - لا فرق لديه عهدئذ بين العطش والجوع - فإنه يلفظ كلمة (ما) مقصورة، قاصداً إلى

إضافة إلى ما سبق أن التلفظ بالجذر (الميم) لدى الطفل إنما يعتمد في جانب منه على تقليد صوت المص. فهذا الصوت يحدث بطبيعة الحال في أثر وضع الرضيع حلمة الثدي في فمه وشروعه في ابتلاع اللبن. غير أن ما نلاحظه بعد ذلك أن الطفل يعتمد إلى افتعال هذا الصوت وهو بعيد عن ثدي أمه، أي إنه يتكلم بأن يلفظ المقطع (ما) منادياً به أمه، فما يفعله هو محاكاة حالة يطلب استعادتها ووضع يبغى استرجاعه، وهذا الأمر في جوهره هو أصل من أصول نشوء اللغة لدى الإنسان.

وهذه الظاهرة العفوية الغريزية لدى الطفل الرضيع تشكل مصداقاً لإحدى النظريات البارزة في تفسير منشأ اللغة عند الإنسان وهي نظرية محاكاة أصوات الطبيعة. أي إن تلفظ الطفل بالمقطع (ما) وهو جذر كلمة (أم) إنما هو في أصله محاكاة لآلية امتصاصه للثدي. أنها محاكاة ذاتية داخلية لصوت الطفل نفسه وقت الرضاع وليست محاكاة لصوت آخر خارج عن ذاته. على أن هذه المحاكاة للأصوات تتنامى مع الزمن ومع نمو الطفل خلاله، وتتسع لتشمل أصواتاً عدة يحس بها الطفل أولاً، ثم يقارب إدراكها بعد حين. ولعل من طريف ما أشار إليه الجاحظ في صدد نزعته الطفل إلى إغناء لغته عن طريق محاكاة الأصوات،

ضاغط. وهذا ما يؤدي إلى النطق بحرف الباء المراد، وهو شقيق الميم وشريكه في زيادة الحروف المنطوقة في حياة الإنسان. وقد سبقت الإشارة في هذا الصدد إلى قول الجاحظ (الميم والباء أول ما يتهياً في أفواه الأطفال كقولهم ماما و بابا^(١٦)).

ولعلّ النطق بهذا الجذر الصوتي المبكر عند الإنسان هو ما يفسر أيضاً وجود حرف الباء في عدد من اللغات السامية واللاتينية للدلالة على تناول الماء، كما هو الحال في لغة العرب، كفعل (شرب) و(عب) وأيضاً فعل (غب) الذي يعني شرب الإبل يوماً وعدم شربها يوماً تالياً. كذلك نجد الباء نفسها في فعل شرب بالفرنسية BOIRE..

ويبدو على هذا الصعيد أيضاً أن في طليعة الكلمات الأولى التي يبدأ الطفل بتلفظها بعد كلمة ماما هي كلمة بابا باعتبار النطق بالباء يسيراً على الطفل، وكذلك الفاء لأنّ هذه الأحرف الثلاثة أي الميم والباء والفاء هي جميعاً حروف شفوية وهي - كما تبين لنا - أسهل حروف الهجاء نطقاً وأسبقها خروجاً من فم الإنسان.

ولعلّ هذا أيضاً ما يفسر وجود حرف الباء وشقيقه حرف الفاء في العديد من اللغات سامية أو هندية - أوروبية مثل أب العربية و: أبا ABA الآرامية و: أب AP العبرية، وباتر BATER اللاتينية، ومنها

ماء الشدي. ولعل لفظ (ماء) في العربية بانطوائه أيضاً على الجذر الميمي نفسه إنّما يشارك في أهميته البنيوية والدلالية لفظ (أم) فكلاهما أصيل، وكلاهما سبب الحياة..

إنّ كل هذا يتيح لنا قدراً وافياً من الاعتقاد بأنّ حرف الميم، من حيث التحامه الشديد بعالم الطفولة، واتصاله الوثيق بأسباب بقاء الطفل متمثلة في دلالات الأم واللبن والماء، إنّما هو حرف متأصل في كيان الإنسان، متجذر في لغات البشر. أليس بوسعنا بعد ذلك، وفي ضوء ما تقدم أن نقول بثقة: إنّ المقطع (ماما) اختراع أنجزه الطفل منذ الأزل، وسوف يدأب على ابتداعه إلى الأبد.

-٤-

وعلى هذا الغرار يمضي الطفل في إغناء لفته تبعاً للغنى المتزايد في تجاربه. فهو لا يلبث، بعد أن يقارب استكمال سنته الأولى، حتى يبدأ في حال شعوره بالعطش وحاجته إلى الماء، إلى إحداث صوت من شفثيه يقلد به صوت آية الشرب، وليس الامتصاص. وهو صوت قريب من حرف (الباء) وذلك بأن يحبس بعض الهواء داخل فمه ثم يدع شفثيه تنفلقان عنه بشكل

أبوه، إذ قال له: بابا. وباباه الصبي، إذ قال له: بابا. والبأبأة أيضاً معناه ترفيقص المرأة ولدها.. وهذا الترفيقص، كما هو معلوم، مصحوب عادة بنطق الأم بكلمة ماما أو بابا على مسمع رضيعها.

وإذا كانت ثمة حصيلة لكل ما تقدم بصدد بنية لفظ الأم في اللغة العربية وفي سائر لغات البشر فهي أن هذه الكلمة تفضي بنا من وجهة علم الصوتيات والفيزيولوجيا وعلم النفس والتاريخ إلى مقولتين متكاملتين متلاحمتين هما: بكرية جذر الميم بين حروف الهجاء المنطوقة، وفطرية كلمة الأم بين الألفاظ الأصلية.

بيير PERE الفرنسية، وبادري BADRE الإيطالية والإسبانية.. ثم فاذر FATHER الإنجليزية..

كذلك يدعى (الأب بابا BABA في اللغة البنغالية وفي بعض مناطق الهند وبنجلاديش. كما توجد هذه الكلمة في اللغة التركية وفي السواحلية وفي لغة تنزانيا وكينيا وزائير وشرق أفريقية، وأيضاً في الملايوية، وفي اليوربا والهوسا بنيجيريا..)^(١٧)

وقد فطن اللغويون العرب في القديم إلى أصالة هذا الحرف، أي الباء في بواكير كلام الطفل، ففي لسان العرب (بأباً الصبي

الهوامش

- نشرت أصول هذه الدراسة المقارنة في حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية الصادرة عن جامعة قطر بالدوحة، العدد السابع عشر ١٩٩٤م.
- ١- انظر بحث (الحرف العربي، بين الأصالة والحداثة) بقلم حسن عباس، مجلة (التراث العربي) الفصلية، العددان ٤٢ - ٤٣، كانون الثاني (يناير) - نيسان (ابريل) ١٩٩١م - اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- ٢- المرجع نفسه، بحث حسن عباس: (الحرف العربي، بين الأصالة والحداثة).
- ٣- حرف التاء هنا سقط من هذه الكلمة الفرنسية المتداولة MERE بعد أن كان موجوداً في الأصل اللاتيني MATER، ولعله هو، أو مايقاربه كحرف الدال قد سقط أيضاً من الكلمة الأرمنية (ماير). ومعنى ذلك أن هذا الحرف أي (T) ليس عمدة في الفاظ الأم في كثير من اللغات، وهو على أية حال يعاود الظهور في صيغة اسم المصدر لهذه الكلمة في اللغة الفرنسية وهي MATERNITE أي الأمومة، وأيضاً في الصيغة الوصفية عند النسبة إلى أم في لفظ MATERNEL أي أمومي.
- ٤- انظر مقالة: (هل كلمتا أب وأم غير عربييتين) بقلم الدكتور شوقي النجار، المجلة العربية، الرياض، العدد ٨٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ٨٤.
- ٥- انظر أيضاً مقاله: (هل كلمتا أب وأم غير عربييتين) بقلم الدكتور شوقي النجار، المجلة العربية، الرياض، العدد ٨٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤م.
- ٦- يقدر عدد لغات البشر بما يقارب خمسة آلاف لغة أو أكثر من ذلك. وفي بلاد الهند وحدها ٨٤٥ لغة.
- ٧- البيان والتبيين ١: ٦٢ تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٩٦٨م.

- ٨- تمَّ عرض هذا المشهد صورة وصوتاً في التلفاز الأمريكي وبعده في قنوات خارجية أخرى. وقد بثه التلفزيون السوري من دمشق في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩١م وذلك ضمن برنامج دوري ذائع يحمل اسم (طرائف الفيديو المنزلي الأمريكي): AMERICA'S FUNNIEST HOME VIDEOS
- ٩- البيان والتبيين، الجاحظ: ١: ٦٥ تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٩٦٨م.
- ١٠- البيان والتبيين، الجاحظ: ١: ٣٤ تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٩٦٨م.
- ١١- لمست هذه الظاهرة حين تمَّ إفادي من جامعة حلب عام ١٩٧٩م إلى معهد اللغات في بكين بقصد تأهيل مجموعة من دارسي العربية وتقويتهم فيها نطقاً وكتابة، فعلى حين تمكن بعضهم من نطق الراء على وجهها المنشود بعد محاولات عدّة، فإنَّ بعضهم الآخر لم يستطع ذلك قط، وقد لفظوا كلمات مثل عمر وجرح ورسم.. هكذا: عمل وطلع ولسم، كما لفظوا عبارة الجمهورية العربية السورية هكذا: الجمهورية العلية السولية.
- ١٢- بعض السودانيين مثلاً ينطقون الضاد قريبة من الدال وكثير من عرب الجزيرة والخليج وسكان العراق وبعض أهل الشام والمغرب يلفظونها ظاء والعكس صحيح. وشبيه بهذا حرف الطاء الذي يلفظه بعضهم قريباً من التاء. كذلك حرف الجيم في لهجة أهل القاهرة واليمن، وأيضاً حال حرف القاف الذي يتعدد نطقه على السنة العرب في أقطارهم المتباعدة حتى ليبلغ نحو سبع حالات تتراوح بين حرفي الهزمة والكاف.
- ١٣- مقالة (الحرف العربي والشخصية العربية) بقلم حسن عباس. مجلة الكاتب العربي، العدد ١، دمشق ١٩٨٣م.
- ١٤- الحرف العربي بين الأصالة والحداثة - حسن عباس. مجلة التراث العربي، كانون الثاني (يناير) نيسان (ابريل) ١٩٩١م - اتحاد الكتاب العرب - دمشق.
- ١٥- البيان والتبيين ١: ٦٤ تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٩٦٨م.
- ١٦- البيان والتبيين ١: ٦٢ تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٩٦٨م.
- ١٧- مقالة (هل كلمتا أب وأم غير عربيتين) بقلم د شوقي النجار. (المجلة العربية) العدد ٨٥، نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٤م.

المصادر والمراجع

- ١- الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦١م.
- ٢- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ - ج ١. تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٨م.
- ٣- الحرف العربي بين الأصالة والحداثة، حسن عباس، مجلة التراث العربي، دمشق، يناير ابريل ١٩٩١م.
- ٤- الحرف العربي والشخصية العربية، حسن عباس، مجلة الكاتب العربي، دمشق، العدد ٦ - ١٩٨٦م.
- ٥- دراسة الصوت اللغوي، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ٦- لسان العرب، ابن منظور (أمم)، (أبب).
- ٧- المدخل إلى علم الأصوات - صلاح الدين حسين - دار الاتحاد العربي - القاهرة، ١٩٨١م.
- ٨- نظرية حق الأم، اريك فروم - ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مجلة المعرفة، دمشق، فبراير ١٩٨٣م.
- ٩- هل كلمتا أب وأم غير عربيتين، الدكتور شوقي النجار، المجلة العربية، الرياض، نوفمبر ١٩٨٤م.

هل من أمل؟ وكيف؟



د. أحمد عمران الزاوي

ولكن أين هي الكهوف التي تحمي إنسان العالم الثالث؟

- أية كهوف أو مغاور أو جبال كانت قادرة على حماية الصربيين^(١) الذين قتل منهم مئة ألف وشرذ ثمانمئة ألف بعد أن دُمّرت منازلهم واقتلعت أشجارهم وهُدّمت مدارسهم ومشافيهم؟

- أية كهوف أو جبال أو مخابئ كانت قادرة على حماية الأفغان حينما نزل فيها زلزال الموت والتدمير والقتل والأسر والتشريد بمئات الآلاف؟

على الرغم من الآفاق البعيدة التي حققتها العلوم والتي انعكس أكثرها على الحياة فسهلت ما نراه سهلاً فيها.

وعلى الرغم من هذا الواقع فما يزال إنسان العالم الثالث، وخاصة الإنسان العربي يعيش التهميش والإبعاد والاستضعاف والاستغلال.

إنه يكابد تعاسة أكثر من التعاسة التي كابدها جده البدائي.

- الجد البدائي كان يلتجئ إلى الكهوف والمغاور هرباً من غضب الطبيعة وحيواناتها

✱ أديب ومفكر وباحث سوري.

- بدأ العراق يعيش حقيقة الجحيم.
كرامته تذبح كل يوم فرض عليه ألا يرى
إلا بعين الأسياد وألا يسمع إلا بأذانهم.
على الرغم من أن أقدم قواعد النظام
والإدارة في التاريخ وضعت ومورست
في العراق فقد فرض عليه قميص بوش
وبليزر.
لقد قرر هذان الإبليسان وصمًا على
مايلي:

- بما أن العراق متخلف يجب مراقبته
وعونه على التحضر.
- بما أنه ناقص الأهلية يجب مرافقته
حتى البلوغ.

فصلوا شماله عن جنوبه وفضلوا
الجنوب والشمال عن الوسط
نفخوا رياح الطائفية في شعبه فانبرت
تحرق أرواقه الخضراء.
العراق:

- الذي كان متخماً بالرفاهية صار
جائعاً يتسقط الفتات.

- ديناره الذي كان في سبعينيات القرن
الفأث يساوي ثلاثة دولارات انخفض حتى
غدا جزءاً من ثلاثة آلاف جزء من الدولار.
- حضارته أعرق حضارات التاريخ
اقتحمها لصوص الآثار فانتهبوا ما أرادوا
وأضرموا النار فيما تبقى من الوثائق
والمخطوطات.

- والفلسطينيون الصابرون منذ النكبة
الكبرى أين هي الكهوف التي كانت قادرة
على حمايتهم من قاذفات القنابل وجبال
الدبابات والتآمر الدولي.
تساقطوا في الوديان والحقول والبيوت
والمنازل والسيارات مثلما يتساقط الذباب
ومازالوا إلى اليوم فنار الجهاد المقدسة
تلتهم العشرات والمئات كل يوم، فتمتص
منها الحياة ولا تتركها إلا بعد التحم.

- والعراق الذي جحظت عيناه في
الوافدين الأميركيين والبريطانيين.
مئات الآلاف منهم اجتازت آلاف الأميال
فدخلت دياره مدججة بالأسلحة حتى
الأسنان والطائرات من فوقها والدبابات
أمامها وعلى مرمى الذراع تربض في المياه
مئات البوارج المدججة وحاملات الطائرات
الطافحة.
تساءل العراقيون وتساءل سواهم.

لماذا يبذل الأميركيون هذه الأطنان من
التضحيات والنفقات؟

لماذا؟ اجتازوا ألف كيلو متر بين (الكويت
وبغداد) تحت الشمس وفوق الرمل.

بماذا؟ وهم لا يرتبطون مع العراق بالجنس
ولا باللغة ولا بالصدقة ولا بالجوار؟
أية رسالة سماوية كان يحملها إلى
العراق «بوش» و«بليزر»
منذ ذلك اليوم.

تنتقل به من عتمة إلى عتمة في نفق من الشك واليأس لا يبدو له نهاية.

والذين ينظرون نظرة فلسفية إلى الحياة باتوا مقتنعين أن الإنسان العربي لم يكن مقيداً ومهمشاً مثلما هو اليوم إنه مقرون إلى عربة تسير إلى حيث لا يدري..

- وفي دنيا العلوم التي وضع أبجديتها وقدمها إلى الأمم صدقة بلا من ولا أذى أصبح اليوم غريباً عن مفاهيمها أجنياً عن قوانينها يتطلع إلى منجزاتها بانبهار طفولي.

وحقوق الإنسان التي يقرأها باندهاش في مصنّفات الغرب ودساتيره والتي كانت قد ولدت على يديه وتغذت من دماء تجاربه وعقله وقلبه أصبحت اليوم غريبة بعيدة عن واقعه الفوضوي بعد النجوم عن الحضر والأخايد.....

يجد العربي نفسه مقذوفاً تأتها في عالم من السمك يفترس قويه ضعيفه حتى يجيء الأقوى فيفترس القوي.

تساءل: لماذا؟ وكيف؟

وهل هي علة الدهر التي ترافق العمر؟ أم إنها- مهما تمادت وتغلغلت فسوف تتكمش وتزول؟

تساءل عن أسباب الانهيار.

أطال التحديق فيما غير وما حضر من الظروف. فوقع على الجواب.

- في العاشر من آذار سنة ٢٠٠٣م تقدم التين الأميركي إلى مجلس الأمن يطلب منه شرعنة وجوده في العراق فكان له ذلك بقرار معلوم أن لن يلغى إلا بالإجماع الذي لن يحصل أبداً لأن «الفيتو» بالمرصاد.

وما جرى في تونس وليبيا ومصر واليمن والبحرين.

وما يجري في سورية منذ ثلاث سنوات من تهديم وتشريد وقتل وتدمير للمشافي والمدارس والمنشآت وانهيار اقتصادي مزعم.

- على ما يبدو أنه صمم على ألا يقف إلا عندما تتطلب عملية هضم الفريسة فيتوقف الوحش برهة حتى يتم الهضم ثم يتابع بعدها.

إن ما قدمته ليس غير القليل من النماذج التي تغمر العالم الثالث من أقصاه إلى أقصاه فالعالم الثالث يعيش زمن الانسحاق زمن العقب الحديدية الهابطة عليه من أميركا وأوروبا.

العالم الثالث وخاصة العالم العربي يرى ثوابته تنهار واحدة إثر الأخرى لتقوم مكانها ثوابت مستوردة تختلف عنها وتتباين معها.

- الآداب التي كانت التعبير الأرقى عن همومه ومشاكله صار يتلقاها كتلاً من المطاط تقتل قتلاً بطيئاً خلايا الدماغ إذ

هي تعبير عن حالة الانسجام بين العناصر والجوارح التي تتألف منها الكتلة البروتينية فإذا اختل الانسجام واستكف بعض العناصر عن أداء مهمته التي أكلت إليه تفتت الشكل واختل الانسجام وعادت الحروف البروتينية إلى حالة التفرق باحثة عن تشكل جديد وانسجام جديد وبالتالي عن حياة جديدة.

وأضافوا موضحين:

إنَّ اختلاف الإنسان عن الحيوان واختلافهما عن الهوام والحشرات ناجم عن اختلاف عدد الحروف البروتينية وترتيبها في الشكل.

وقالوا:

- إنَّ الأشكال الإنسانية والحيوانية والهوام والحشرات تنتمي جميعاً إلى أسرة بروتينية واحدة اكتشفوا حتى الآن أكثر من مئة فرد سمي كل منها بعنصر.

- والهيكل الإنساني أرقى الأشكال البروتينية من حيث العدد والتركيب والترتيب.

حتى إنَّ كتاب الله أشار إلى هذا التمييز

فقال:

«وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً» (سورة
الإسراء: الآية ٧٠)

جميع ما جابه ويجابه به الظروف من الثوابت الاجتماعية أدركتها الشيخوخة. إنَّها تتوكأ على العصا وهي تشكو من التهاب المفاصل.

الأفكار التي يتعامل بها الإنسان هي- وإن كتبت أولاً بحبر عربي- تجاوزها أحفادها طويلاً وعرضاً وعمقاً.

- الدماغ الذي كان- في نظره- السر الأعظم الذي انبعثت منه حكمة الحكماء وعبقرية الأنبياء وخيالات الشعراء الدماغ الذي هو أول خلق الله وأشرف مخلوقاته لم يعد كما كان بعد أن أكد العلماء أنَّ جميع ما صدر وما يصدر عنه ليس غير تفاعلات كيميائية تزاخمت وتزاحم في ظلام الجمجمة.

وإنَّ ما يميز جمجمة الإنسان عن جمجمة الحيوان هو قدرة مخزونها الدماغية على تعدد التفاعلات الكيميائية حاملة معها الجديد من الصور وهذا ما تفتقر إليه جمجمة الحيوان ذات المخزون الدماغية الأملس.

- والروح التي أفتعته الثوابت أنها نفخة من الله زودت الهيكل البروتيني بالحركة والحياة وأنها محكومة بأن تعود إلى مصدرها حينما يعود التراب إلى التراب لقد غير العلماء اعتقادهم بالروح فقالوا:

الإنسان بكل مكان يجبوا على أدنى شواطئ المعرفة.

لقد أقاموا مزابض لسفنهم في أبرز الشواطئ البحرية فهم الذين أقاموا «قادس» و«قرطاجنة» و«مرسليا» و«مالطة» و«صقلية» و«سردينيا» و«قورسيقا» و«قبرص» و«رودس».

حيث ظلت تلك المرافئ حواضر ومستراحات بحرية.

«فقادس» على الأطلسي و«قرطاجنة» في ضاحية تونس و«مرسليا» مرفأ فرنسي على المتوسط و«مالطة» جنوب صقلية على المتوسط و«صقلية» جزيرة إيطالية يفصلها عن صقلية مضيق و«قورسيقا» جزيرة فرنسية في المتوسط و«قبرص» جزيرة على بحر إيجه و«رودس» جزيرة يونانية على بحر إيجه.

لقد أقاموا أول رباط تاريخي بين الشرق والغرب.

رباط حضاري كافح طويلا ضد بربرية تلك الأزمنة.

بنوا مدينة صور على الصخر وأطلقوا عليها اسم الصخر «صور» هذه التي أعجزت الاسكندر عن اجتياز البحر إليها فبنى لها الطريق إلى البحر الذي اعتبره المؤرخون أول أرسفة البحار.

وهكذا بدأت قلاع اليقين في العقل العربي تتهاوى شرفة شرفة.

صحيح:

لن يستطيع نسيان ما غبر ولكنه ليس قادراً على استيعاب ما حضر عناوين ثلاثة كمنت في أعماقه فامتلكت منه كل شيء. «استنكار ما مضى» و«محاولة التعامل بما حضر» و«تطلع فضولي إلى ما سوف يحمله الزمن».

عند كل من هذه الأقسام الثلاثة توقف وأطال الوقوف فنجم عنه الآتي:

١- في التكريات: وجد من المستحيل أن تمحو الظروف الشديدة من ذاكرته ما كان عليه أجداده فهو- على تفاوت الطبقات والثقافات- مدرك جداً أن أجداده تصدروا مسيرة الأمم وقادوا نشاطها الثقافي والسياسي قروناً عديدة.

فما كان لجامعات تلك القرون غنى عن روائع الأعمار العربية أمثال «الكندي» و«ابن حيان» و«الرازي» و«ابن سينا» و«الفارابي» و«ابن رشد» و«ابن خلدون» و«البيروني» و«الزهرابي» وسواهم.

وما كانت التكريات لتغيب عن الأجداد الفينيقيين الذي امتلأوا باللهفة إلى اكتشاف المجهول فحينما حجزتهم جبال فينيقيا عن الغرب في البراري الشرقية ركبوا متون البحار فامتلكوا نواصيها في زمن كان فيه

بؤراً تضيء آلاف السنين مثل «عكو- عكا» و«احلب- محلبا» و«قانة» و«صور» و«صرفة- صرفند» و«صيدونه- صيدا» و«بيرستوس- بيروت» و«بيلوس- جبيل» و«عرفه» و«أوغاريت - تل رأس شمرا»

لقد ظل أبناء هذه المنطقة الجغرافية يحملون الاسم والانتماء الفينيقيين حتى العهد الروماني حيث توزع ذلك على المناطق الجغرافية التي وزعها الاحتلال وخلافاً أكيداً، حديداً، لما قاله المستشرقون من أن الفينيقيين ليسوا من الأصل العربي نقول:

إنما يعودون إلى الأصل الكنعاني قدموا إلى فلسطين وشرقي الأردن كما تحدث عنهم الإصحاحان ٩ و١٠ من سفر التكوين.

تلك الذكريات التي لن تُنسى ليس من مهمتها أن تذهب وبعيناً بحاضرنا وأن تُخفي عننا آفاق المستقبل.

٢- أمّا في وعي الحاضر واستشراق المستقبل:

فمنها ومما سبق من الذكريات يتألف عنوان واحد وهو:

«استذكار الأمس أول خطوة على طريق استحضار الغد»

وذلك الاستذكار لن يساهم في استحضار الغد إلا إذا كان وسيلة أساسية من وسائل الاعتبار.

وصيدا الفينيقية التي قاومت الفرس وسقط من أبنائها أربعون ألفاً دفاعاً عنها وعندما عجزوا عن المقاومة اجتمعوا مع النساء والأولاد في البيوت وأضرموا النار فدخل الجيش الفارسي إلى بيوت محروقة وجثث متفحمة غير أن الاستثناء العظيم كان في السبق الجغرافي الذي حققه الفينيقيون الذي سبق الأمم عشرين قرناً هو اكتشافهم للقارة الأميركية.

كيف تحققت المعجزات؟ كيف وصلوا؟ أية أرواح عظيمة كانت تسكن تلك الأجساد وهي تخبط في بحر الظلمات على قواربها اليدوية البدائية أشهراً عدّة.

لولا تلك النقوش على جباه الصخور ونواصي الجبال والأماكن البارزة في «البرازيل» و«كندا» و«الولايات المتحدة» و«بهاما» و«كوبا» و«هايتي» و«جامايكا» و«الدومينيكا» و«الأورغواي» و«الأرجنتين» لما عرف المتأخرون أن الفينيقيين سبقوهم إلى اكتشاف هذه القارة بأكثر من ألفي عام.

ويخطئ من يحصر النشاط الفينيقي بالتجارة.

لأن الهدف الحضاري كان يملاً ذلك العقل العبقري.

فالمدين الساحلية كانت لها إلى جانب الهدف التجاري أهداف حضارية ظلت

هذا الخيار يوجب مراجعة القوانين والعلاقات الاجتماعية والأخلاق الفردية والعمل من دون توقف على مجيء القادة الحقيقيين.

في الأمم الأخرى وخاصة أمريكا وأمم أوروبا انطلقت رياح التطور انطلاقاً العملاقة من قماقمها ودخلت كل مكان وتغلغلت في كل بيت وترافقت مع الناس ترافقاً قيادياً في الأكل والشرب واللباس والسفر واليقظة والمنام.

في كل يوم يطالغنا التطور الغربي بنموذج استباقي لا محيد لنا عن استعماله ولا قدرة لنا على مماثلته.

لقد ملأت آليات الحضارة الغربية منازلنا واستعمرت عقولنا نستعملها في نشاطنا اليومي من الهاتف إلى السيارة فالطيارة فالباخرة فالقاطرة فالفاكس والتلفاز والإذاعة الفضائية وغيرها ونحن لا نعرف غير القليل والقليل جداً عن قوانينها.

ما يحتم علينا أن نعود إلى ثوابتنا الثقافية والفلسفية والتشريعية فنرمم ما تهاوى وننقى ببادرنا القومية من الأعشاب الطفيلية ونعيد إقامة البناء الاجتماعي بما يتناسب مع حركة العصر.

في عام ١٩٤٨م كنا نحن العرب جبهة شعبية وعسكرية واحدة ضد الهجوم

هو دعوة إلى الجيل الحاضر والأجيال القادمة إلى قراءة التاريخ والتحديث في تلك النماذج العظيمة التي كانت أجدادهم وبالتالي لكي يدركوا جيداً أنهم فروع عن أصول تعمقت في التاريخ الحضاري عمق الزمن ومن ثم لكي يرفضوا ما يفرض عليهم من الأفكار الجاهزة والهياكل الثقافية المصنعة.

فهم بما يختزنون من إرث ثقافي يستطيعون أن يضعوا لأنفسهم صيغاً ثقافية تمكنهم من الحضور الحضاري بين الأمم المتقدمة.

إنّ الركائز الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع العربي من قيم وأخلاق وتشريع تصدّعت فلم تعد تملك الحيوية والنشاط اللذين كان يملكهما في زمن الشباب فالبناء الحضاري الذي ينبغي أن يكون عليه اليوم غيره فيما مضى فقد توسع عمودياً وأفقياً بحيث لم تعد تستطيع أن تحمله الحوامل السابقة.

خياران لا ثالث لهما أمامنا وهما:

- إما أن نبقى على أخلاقنا مبهورين بقوافل التطور التي تعبر غير عابئة بنا.

- وإما أن نسلك الطريق الصحيح الصعب فنرمم ونضيف ونطوّر.

فالخيار الثاني ولو كان صعباً هو الوحيد الذي يصل بنا إلى المستقبل الكريم.

هذه الجامعة.. هذا العدد الكبير من الدول العربية لم تصدر عنه في أحلك الظروف السياسية والعسكرية غير التصريحات المدوية التي لا تمتاز كثيراً عن سهيل الخيل.

ولو انتقلنا من الجانب السياسي إلى الجانب الاقتصادي.

فإننا نجد كل مسخ من هذه المسوخ يعيش في قوقته الاقتصادية غير عابئ بشقيقه بل غير معترف بقيام أية صلة معه.

مشيخات الخليج: أقامتها الطبيعة على بحر من النفط يتحول به إلى قصور وفيل وسيارات وطائرات وملاعب وعلب ليلية تمارس فيها المبادلات وأرصدة أتخمت أرقامها سجلات المصارف وفي الوقت ذاته خلت الصدور من آثار الضمير.

مما جعلت الشاعر نزار قباني يقول:
«والحاكم العربي يخزن نبطه في
خصيته وربك الوهاب».

لقد ثبت:
- أن الدخل القومي للدول العربية مجتمعة لا يعادل الدخل القومي لإسبانيا.
- وأن أوروبا التي امتلأ تاريخها بالكرهية والحروب فيما بينها، تجاوزت ذلك ووضعته بكامله في سلة التاريخ وأقامت على أنقاض الماضي وحدة اقتصادية

الصهيوني مدعوماً بالقوى الاستعمارية. ولكن لم نلبث غير القليل: حتى تدهورت وحدة السلاح بين جميع الأقطار إلى وحدة سياسية بين قطرين ثم ما لبثت وحدة القطرين أن مزقتها الانفصال ثم صرنا إلى ما سميناه «وحدة التضامن» الذي لم يغادر الورق الذي كتب عليه.

إن أخطر القرارات التي تتعلق بنا هي قرارات دولية تكتب بعيداً عنا ويتم تنفيذها علينا من دون رأي لنا.

صحيح:
إن من يقوم بتنفيذها هم أبناء جلدتنا وأشقاؤنا في الوطن ولكن الارتباط بينهم وبيننا- كما يرون- على الورق فقط.
جامعتنا العربية بدأت بالدول السبع القائمة آنذاك.

وهي اليوم تضم ممثلين عن أكثر من عشرين دولة (٢٣) كان آخر هذا القطيع دولة «جزر القمر»^(٢) التي لا تزيد مساحتها على ألفي كم^٢ ولا يزيد عدد سكانها على نصف مليون وتسود فيها لغات ثلاث إحداهما اللغة العربية ومع هذا الاستثناء الدولي تواجه اليوم حركة انفصالية تقوم بها «نغازيجة» التي لا تزيد مساحتها على ثلاثين كم^٢ ولا يزيد عدد سكانها على مئة ألف نسمة.

منذ أن جفت الينابيع في الصدور بدأنا نسير في التاريخ على الأقدام الحافية المتعبة.

والحضور يتطلب القوة التي تحميه. منذ زمن ليس بالقريب صار الوجود الأبرز على هذا الكوكب لمن يتمتع بقوة تحمي حضوره السياسي والثقافي.

فمنذ الأزمنة الأولى حتى اليوم، لا يستطيع الصمود غير من يمتلك قوة الحماية، أمّا البنى الهزيلة ومتفسخو الأقدام الذين فقدوا القدرة على متابعة المسير فهم يتراكمون على جوانب الطريق الحضاري.

ظلت الحضارة العربية نموذجاً فذاً، تتمثل به الأمم ما دامت القوة إلى جانبها حامية داعمة.

وعندما انهارت القوة سقط احترام الحضارة العربية إلى الدرك الأدنى على الرغم من أن سلالها الفكرية كانت طافحة بالقيم الأخلاقية المثلى.

«أعظم الجهاد كلمة حق تقولها في وجه حاكم ظالم»

«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» (سورة آل عمران: من الآية ١٥٩).

عمّمت فيها نقداً واحداً وألغت فيما بينها مخاطر الجمارك وانفتحت أسواقها للسلع القادمة من أي بلد في الاتحاد.

- حتى دول أفريقيا السوداء المتخلفة البدائية تشكلت فيها وحدة الدول الأفريقية.

أيها العربي؛

إلى أي قطر انتميت وأية صورة سياسية حملت وأي مستوى اقتصادي حققت أنت تعيش حالة الاستلاب الحقيقي.

نعم:

نحن أكثر من ثلاثمئة مليون ومنتشر فوق أربعة عشر مليون كيلو متر مربع ونقبض على نواصي المتوسط والأطلسي والأحمر ولكننا في نظر الغرب لا نزيد على ثلاثمئة مليون صفر.

استضعفوك فجزأوك فهان في همتهم استعمارك.

ورحم الله أبا العلاء حينما قدم إليه في مرضه ديكاً مسلوقاً فخاطبه قائلاً:

«استضعفوك فوصفوك هلا وصفوا لحم السبع أو النمر وأبى أن يأكل»

الحضارة أيها العربي هي حضور مع الحاضر.

الحضارة لن تتجسد سلوكاً ما لم تتبع من الذات.

وأعوانه فقرعته بيت من الشعر سار حكمةً
على الدهر.

إبكٍ مثل النساء ملكاً مضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال

الثاني: مرتبط بالأول برياطة التأثير
والمصير.

فمنذ أن صارت كلمة الحق تورد قائلها
الهلاك.

منذ أن اقتصر على السلاطين جراً
اختراق القيم.

منذ أن ولغ المقربون في الثراء حتى
الاحتراق.

منذ أن كثر عدد الفقراء حتى حجبوا
عين الشمس.

منذ أن عدنا إلى الجاهلية نعيش القبلية
والطائفية والعشائرية.

منذ ذلك الزمن.

فقدنا الهوية التي وضعها النبي العربي
بنفسه «من تكلم العربية فهو عربي»
وصرنا نعيش بجلود غير جلودنا.

الجلد هو الشكل، بدساتيره النظرية
وقوانينه ومثله وأخلاقه ومنظماته وقوى
الرد التي تحميه.

والجسد هو المجتمع الذي يدخر القيم
في كل جارحة من جوارحه.

حقوق الإنسان التي قدستها قناعاتنا
واعتبرتها من حقوق الله^(٢) اقتلعت من
أعماقنا وألقي بها على مزابل التاريخ.

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَالْبُغْيِ» (سورة النحل: من الآية ٩٠).

«أيها الناس لقد وُلِّيت عليكم ولست
خيركم أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن
عصيته فلا طاعة لي عليكم القوي عندي
ضعيف حتى استرد منه الحق والضعيف
عندي قوي حتى أُرِدَّ له الحق».

«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» (سورة البقرة: من
الآية ٢٥٦).

«وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ
وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» (سورة الكهف: من
الآية ٢٩)

بهذه القيم وأمثالها قبضت الحضارة
العربية على نواصي الأمم، ولكنها هزمت
فيما بعد بقيام عاملين.

أولهما: ذلك الإيمان الذي ملأ الصدور
مكن لأصحابها في الأرض حتى ثلوا العروش
وأسقطوا الممالك والملوك وأرسوا الحكم
على قواعد العدل.

ذلك الإيمان تنكر له أحفاد الأجداد
فهجروه وانغمسوا في مفاتن الدنيا
مهملين إلى حد الهجران واجب الحفاظ
على الحماية مما مكن الأغيار أن يغيروا
فيجعلوا من أعالي الأمور أسافلها فكان
تقريع والده «الملك الصغير» لابنها الملك
وهو يبكي بين يديها نادياً عرشه ووصولجانه

فقد تغيرت المواقع .
فصاروا إلى عكس ما كانوا وصرنا إلى
عكس ما كنا .
حين كان همنا الأخلاق لا الغنى كان
همهم الغنى لا الأخلاق .
تحكمت المنافع فصارت لساننا الناطق
وقلبنا الخافق .
اقرأوا هذا الشرق العربي
من أعماق الفقر انبجست ينابيع الأخلاق
فعمّت الدنيا .
السيدة العذراء وضعت طفلها في مزود
إذ لم تجد بيتاً ومن ذلك المزود انتشرت
قيم المسيح وتعاليمه في العالم .
والإسلام الذي نشأ من قريةٍ منفيةٍ في
أعماق الرمال انبعث من هناك وانتشر شرقاً
وغرباً وشمالاً وجنوباً فكان منارة الأخلاق
والقيم والحضارة في عالم ذلك الزمان
يقولون:
الحية التي لا تغير جلدها تموت، نعم
وذلك ينطبق علينا .
فالأمة التي تبقى حبيسة جلدها الذي
نشر الزمان فيه كثيراً من الثقوب والأدران
بعيدة عمّا يتطور تتخلف عن القطار وتتحدرد
إلى غياهب التاريخ .
ماذا يفيدنا نحن في بواكير القرن
الواحد والعشرين أن نكون أحفاد السومريين
والبابليين وورثة الراشدين؟

حرّموها علينا تحريماً حسبنا بعده
أن تلك الحقوق لم تخلق لنا ولسنا بها
جديرين .
وقد تراكمت هذه المشاعر في ذواتنا
حتى لم نعد نرى شيئاً من ازدواجية
التقويم .
فهي مقدسة ومصانة في بلاد الغرب
تحميها القوانين والأعراف ولكنها مهانة
ومسفوحة الحدود عندنا .
من المحزن للعربي حقاً أن يلمس لمس
اليد ازدواجية المواقع بينه وبين المواطن
الغربي .
عندما كان العربي يعيش «الأمر
بالمعروف» و«النهي عن المنكر والبغي»
و«من أحيأ نفساً فكأنما أحيأ الناس
جميعاً» و«من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً
في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»
و«الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله
أنفَعهم لعياله»
عندما كان العرب يعيشون هذه الأخلاق
حكّاماً ومحكومين .
كانت سلاطين الغرب تتحكم دون
ضوابط «بحياة الناس» (حرية واقتصاداً
واعتقداً، وتقاليدهم)
وتدعي أن حكمها هو حكم الله وأن
قضاءها هو قضاؤه .
أمّا فيما بعد:

العربي من عام ١٠٩٩ حتى ١٢٩١ م لم يكن معروفاً في الغرب شيء عن لغة العرب وعلومهم وطقوسهم وإدارتهم الأخلاقية ولا عن مؤلفاتهم التي كانت تزخر بها المكاتب والمكتبات.^(٤)

صورة واحدة عن العربي كانت تملأ ذهن الغربي.

وهي: إنَّ العربي صنف من البدو المتوحش استولى بشراسة ووحشية على أقدس المناطق وعاث فيها فساداً وكفراً وتخريباً لذلك صارت محاربة العرب وتدميرهم جهاداً في سبيل الله لدى الغربي.

يقول المؤرخون كافة.

على الرغم من هذه الصورة الخاطئة فقد كانت أنوار الحضارة تغمر كل بيت عربي فيما كان الظلام يلف بلدان أوروبا وبعدها احتك الأوروبيون بالعرب وتعرفوا إلى ألوان حضارتهم وتنوعها وخبروا سُموم قواعد الحكم والإدارة لديهم عادت فلولهم إلى أوروبا مدججة بالثقافة والقيم والأخلاق العربية وعندما وصلوا إلى بلدانهم تخففوا من أحمالهم ونشروها في مجتمعاتهم مبددين بها الجهل والتخلف والفوضى وإذ تساءلوا عن هذه الظاهرة الحضارية التي انفجرت بسرعة أسطورية من بلاد كان أبناءها حتى وقت قريب يأكلون «الضَّبَّ والجراد والجربوع» و«يفترشون الرمل»

ماذا يفيدنا في هذا الزمن الرديء - والعالم في سباق حضاري - أن تكون أزهى فصول تاريخ الأندلس كتبها أقلامنا؟ وإن خيول الأجداد قد تعالي صهيلها عند أبواب لابواتيه وعلى جبال البيريه والقفقاس والهند والصين؟

ماذا يفيدنا في هذا الزمن الرديء أن تكون حضارتنا هي الأب الشرعي لحضارة الغرب مادمننا نعيش على هامش الحياة؟ (فقر، فرقة، تحاسد، طائفية، عشائرية) ماذا يفيدنا التاريخ في أمة ترجل إنسانها عن جواد الحياة؟ وسار على النكبات؟

ماذا يفيد التاريخ في وطن كان واحداً فتفرق إلى أوطان فقد كل منها ولايته على السياسة والاقتصاد وافتتحت أبوابه للطامعين؟

تساؤلات كثيرة وإن كانت تحمل لسع الصقيع فهي توجب علينا جميعاً أن نبحث عن معوقات المسير.

فالتشخيص الصحيح أول الطريق إلى المعالجة السليمة.

ومعرفة العدو المعارض لا تقل أهمية عن معرفة الصديق المعاون فإن كان يرجى من الثاني خيره يخشى من الأول شره.

وفيما يلي نبذة: تتضمن إشارة وتحليلاً لبعض الوقائع التاريخية حتى زمن الحروب الصليبية التي ظلت حملاتها تجتاح شرقنا

عليه (السومريين، الأكاديين، البابليين، الآشوريين، الحثيين) وسواهم.

هذه الأسماء أطلقوا عليها اسم الأمم في حين أنها أمة واحدة تتكلم لغة واحدة ولدت وماتت في مجمَع جغرافيٍّ واحد.

فالمنصفون عادوا بالأمر إلى نصابها وقالوا:

لقد تتبعنا رحلة إبراهيم الخليل من «أور الكلدانيين» في أقصى جنوب العراق إلى «حاران» ماراً «بهيث وعانا» منتقلاً إلى أرض الكنعانيين ثم صعد إلى مصر بسبب الجوع.

وبعد أن أمضى زمناً في مصر عاد بالطريق نفسه.

وإبراهيم مع ابن أخيه لوط وحاشيتهما التقيا بكثير من القبائل أفراداً ومجموعات حكاماً «كفرعون» ومحكومين ولكنهما لم يعجزا عن الحديث مع أحد ولم يكن أحد من الطرفين في حاجة إلى ترجمان وسيط مما يدل على أن لغة واحدة كانت تسود تلك المناطق الجغرافية من بلاد الكلدان حتى مصر مروراً بالعراق وبلاد كنعان وبلاد الشام ومصر (الإصحاح -١٢- من التوراة).

وما دامت ضرورة التتبع التاريخي دفعت بنا إلى ذكر التوراة.

بات من الأفضل أن نمرَّ بالقارئ على

«يلتحفون السماء» أجابتهم مصنفات العلماء العرب أن ما يسود العرب اليوم ليس انفجاراً بل هو حصيلة تراكم ثقافي حضاري استمر من دون انقطاع أربعين قرناً حتى جاء جيل الأحفاد فنفض الغبار عن ذلك التراكم وارتفع به إلى منازل النجوم إضافة وزيادة وتطويراً لأنه الميراث العظيم.

حينذاك أدرك المثقفون لماذا دافع العرب ويدافعون عن ذلك الماضي السحيق.

أدركوا أنَّ الحضارة العربية التي نشرت أنوارها في عالم ذلك الزمان لم تكن انفجاراً من العدم بل هي فرع عن أصل عميق عريق وأنَّ العرب حينما حرروا العراق من الفرس والشام من البيزنطيين كانوا يصححون واقعاً خاطئاً فرضه الاستعماران الفارسي والبيزنطي.

لقد امتلأت بلاد العرب ببعثات التنقيب باحثة عن الأدلة على تهاة التاريخ العربي ففاجأتهم آلاف اللقى والتماثيل والألواح والمومياءات التي أكدت على أنَّ الحضارة العربية ضاربةٌ في التاريخ منذ ما قبل كتابة التاريخ.

ولكن تلك الحقائق الدامغة لم تمح من العقل الغربي عواطف التحزب والهوى فنسبوا ما وجدوه من آثار ولقى لأسماء غادرت التاريخ ولكنها أبقت بصماتها

الادعاء اليهودي بأنهم أقدم الناس وأن التوراة هي التاريخ البشري الوحيد الذي احتوى على جميع حوادث البشر وحضاراتهم. غير أن «شامبليون» العالم الفرنسي بعد أن حل ما على «حجر رشيد» من رموز كتابية أكد في أوائل القرن التاسع عشر أن الرموز الثابتة على الحجر دلت على وجود تاريخ متقدم على وجود التوراة بأكثر من ألفي عام ثم تالتت الاكتشافات فثبت منها:

- أن الوصايا العشر «فخر التوراة» تكاد تكون مأخوذة حرفياً عن قانون حمورابي^(٥).

- كما اعتمدت التوراة على وصايا و«كتاب الموتى المصري» وهو مجموعة من الوصايا بصيغة النفي كانت توضع مكتوبة في تابوت الميت المصري لكي تكون وسيلته في الدفاع عن نفسه أمام الخالق. وفيما يلي جدول بالوصايا يقابل كل وصية منها وصية من كتاب الموتى.

من كتاب الموتى المصري

١- الإله الواحد.
٢- تمجد الإله الذي لا يمكن تصويره في حجارة منحوتة ولا تمثله في صورة مرئية لم يقف الإنسان على شكله وشبهه.
٣- أنا لم أجدف أنا لم أخطئ في حق الله ولم يخرج كلام من فمي ليغضبه.

٤- _____
٥- أنا لم أسئ في حياتي إلى أهلي.
٦- أنا لم أقتل إنساناً رجلاً كان أو امرأة.
٧- أنا لم أزن ولم أضاجع غير زوجتي.
٨- أنا لن أسرق ولم آخذ ما ليس لي ولم ارتكب عنفاً
٩- أنا لم أكذب لم أطلق لساني بالباطل على الغير، لم أطلع على دخائل أحد لأسبب له الأذى.
١٠- أنا لم أعتد على أرض رجل ولا على أرض محروقة ولم أزد ثروتي بالأشياء التي كانت ملكاً لغيري.

من الوصايا العشر التوراتية

١- لا يكن لك آلهة غيري.
٢- لا تضع لك تماثلاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما تحت الأرض من الماء.
٣- لا تتنطق باسم الرب إلهك باطلاً لأن الرب لا يبصر من نطق باسمه باطلاً.
٤- اذكر يوم السبت لتقدسه.
٥- أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك.
٦- لا تقتل.
٧- لا تزن.
٨- لا تسرق.
٩- لا تشهد على قريبك شهادة زور.
١٠- لا تشته بيت قريبك ولا امرأته ولا

عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيء لقريبك .
 «أنا لم أفعل الشر في حياتي بدلاً من الحق والصدق .
 «أنا لم آخذ أرض أحد .
 «أنا لم أسرق أرض أحد .
 لقد أطعمت الجائع وسقيت العطشان وكسوت العاري .
 ولم أتكر لعلامات الله
 لقد نفذت وصايا الإله وفعلت مشيئته» .
 بالمقارنة الحيادية بين منفيات المصريين وبين وصايا التوراة نجد أن تعميم النصائح موجود في كتاب الموتى من دون تخصيص بجنس أو دين . وأن خصوصية القريب في وصايا التوراة ظاهرة .
 وعلى سبيل المثال، انقل صورة حرفية عن بردية «نو» التي نصها في ص- ٣٦٠ من كتاب الموتى كمايلي :

الهوامش

- ١- صربيا: هي جغرافيا بلقانيه كانت مملكة قديماً ثم صارت جمهورية عاصمتها بلغراد تقع على الدانوب كانت عضواً في اتحاد جمهوريات يوغسلافيا .
- ٢- جزر القمر: أرخبيل بركاني في المحيط الهندي شمال غربي مدغشقر عند مدخل قناة موزا مبيق، مساحتها ١٧٩٧ كم٢ وعدد سكانها ٤٢٢٥٠٠ نسمة .
- ٣- «لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً» الكلمة لعلي بن أبي طالب .
- ٤- البابا أوبانوس هو الذي أمر أن يضع الزاهيون إلى الشرق صورة الصليب على صدورهم وظهورهم وسروج خيلهم فحملت تلك الحملات- فيما بعد- اسم الحروب الصليبية أما في كتبنا وأدبياتنا فقد أطلقوا عليها اسم حروب الفرنجة .
- ٥- حمورابي (١٧٩٢ق.م-١٧٥٠ ق.م) اكتشفت شريعته المؤلفة من ٢٨٥ مادة مكتوبة على نُصْبٍ من الدبو عام ١٩٠٢ في مدينة سوش ونقل إلى متحف اللوفر وموسى خرج بقومه من مصر في سنة ٢٩٠ ق.م ولم يكن قد نزل عليه شيء من التوراة .
 وشوش مدينة في خوزستان بإيران .
 وهي الآن موقع أثري وكانت فيما مضى عاصمة العيلاميين منذ ما قبل القرن الثامن عشر قبل الميلاد .



الأدب العربي في زمن الاحتلال العثماني شهاب يتحدى الظلام



د. جهاد ظاهر بكفلوني

الأرض الطيبة لينهبوا خيراتها وإن كان ذلك
النهب قد تمّ باسم الدين الحنيف.
وكما انقسم المؤرّخون في نظرتهم
إلى تلك الحقبة الزمنية مذاهب ومشارب
شئى لا تجتمع على صعيد واحد؛ بل
تمتدّ شقّة الخلاف بينها أفقيّاً وشاقوليّاً
فكذلك انقسم دارسو الأدب العربي في
العهد العثماني فريقين بدا أنّ راب الصرع
بينهما أمر يشبه النفخ في قربة مثقوبة، وأنّ
التفكير في دعوتها للجلوس للوصول إلى
رؤية متقاربة فيما بينهم لا يعدو كونه هدراً
لا طائل من ورائه للوقت وتبيداً للجهود

لم يختلف أبناء الأمة العربيّة على تقييم
مرحلة تاريخيّة كما اختلفوا على تقييم
الفترة التي خضعت فيها البلاد العربيّة
لسلطة الاحتلال العثماني الذي كان احتلالاً
بما تعنيه هذه الكلمة من معنى وإن لم ترقّ
لبعض أولئك الذين رأوا في إمساك بني
عثمان بزمام السلطة في البلاد العربيّة
انتقالاً للخلافة الإسلاميّة من بني العبّاس
إلى بني عثمان ناسين أو متناسين أنّ هؤلاء
القوم الذين وفدوا من آسيا لم يكونوا ولن
يكونوا يوماً ما من أبناء جلدتنا، وسنظّل
ننظر إليهم على أنّهم غرباء وفدوا إلى هذه

✽ أديب وشاعر ومدير التّأليف نبي الرّبئة العامّة السوريّة للكاتب..

«ثم تحرك الأتراك العثمانيون في آسية الصغرى فاستولوا سنة ١٤٥٣م على عرش قياصرة القسطنطينية، ثم امتدوا إلى مصر والشام، فكانوا ناراً في هشيم.

وهكذا عمّ الويل، وانتشر الضنك والقلق وجفت القرائح، وذبلت الحياة العلمية والأدبية، وتسلبت الخمول على العقول، فقصرت عن الخلق والابتكار، وانصرفت إلى الجمع والتقليد، وإلى الزخرفة والتعقيد.

وقد انحصرت موضوعات النثر الفني ضمن نطاق الكتابة الديوانية أو الرسمية، والرسائل الأدبية أو الإخوانيات، من مكاتبة بين الأصدقاء، أو مناظرات، أو وصف مشاهدات، أو فكاهات، أو مقامات أو نحو ذلك، وقد أصبح الأسلوب غاية الكتابة، وجعل الكتاب همهم في الزخرفة والتصنيع إلا في ما ندر، وأغرقوا في البديع أيها إغراق، وكثيراً ما انصرفوا إلى التأليف في الأدب والتاريخ واللغة والعلوم الدينية والمدنية، جامعين، ملخصين، مذيّلين، وكثيراً ما راحوا يتلهون بالألفاظ والصياغة، يغذون بها عقولهم الجائعة وبصائرهم الزائغة.

وجرى الشعر في طريقيين شقتهما الضيقة الاجتماعية، هما الإباحية والزهد. وكان على كل حال تقليداً واقتباساً مع زيادة في الزخرفة، لأن الزخرفة أصبحت كل شيء في الكتابة والشعر، والشاعر الشاعر

التي لن تنجح في تقريب وجهات النظر المتباعدة بينهما.

الفريق الأول يصور الأدب العربي في ذلك العهد وقد سقط جثة هامدة لا تستطيع الروح الاقتراب منها، فالشعراء والكتّاب لم يعودوا قادرين إلا على تقليد الأقدمين وكان تقليدهم ممسوخاً مشوّهاً جعل الأدب العربي يجرّ أسمال القبح عاجزاً عن تغطية سوءته حتى بورقة توت يابسة.

أما الفريق الثاني فلا يرى صورة الأدب العربي على ذلك القدر المؤلم من الكفهرار والاسوداد، لأن الأدب شهد حركة وضع كتب من أمهات الكتب في تاريخنا الفكري، وظهرت فيه أسماء لامعة في تاريخ الأدب العربي نثراً وشعراً، باختصار لقد شكّل هذا العصر استمراراً لحركة الفكر العربي التي اعتاد ماؤها الجريان إلى الأمام ليظلّ عذباً سلسيلاً.

والذين يرون أن الأدب العربي في العهد العثماني سقط أسير الجمود والتقليد يردون أسباب ذلك السقوط إلى الحالة السياسية المتردية التي رسف الوطن العربي في قيودها، كوطن محتلّ من قبل قوّة أجنبية غريبة لا يهّمها إلا نهب خيراته وثرواته.

يقول حنا الفاخوري متحدثاً عن الحالة التي انتهت إليها الأدب العربي في تلك الحقبة:

العثمانيّ انطلاقاً كان يشير إلى أنّها تسيّر إلى الهاوية بسرعة جنونيّة:

«وعلى الجملة فإنّ اللغة لم تتحدر في عهد المماليك انحدارها على عهد بني عثمان لأسباب: منها أنّ دولة المماليك كان وطنها عربياً. أمّا دولة العثمانيين فوطنها عجمي. وكان المماليك أهل جهالة جهلاء لا يعرفون غير السيف والحرب، فلم يستغنوا في تنظيم دولتهم عن علوم العرب وآدابهم، فأكثرُوا المدارس في مصر والشام، وقربوا العلماء ليؤثّفوا لهم، ويتولّوا أمور دواوينهم. وكذلك العثمانيّون كانوا كالمماليك في جهلهم وخشونتهم، إلاّ أنّهم تحضّروا بعد أن فتحوا القسطنطينية واتخذوها قاعدة لملكهم، وتحضّرت لغتهم شيئاً فشيئاً بما أفادت من العربية والفارسية واللغات الأوروبية.

وأصبحت صالحة للعلوم والآداب، فأعرضوا عن لغة العرب، وكانوا قد اعتمدوا عليها برهة من الزمن، وجعلوا التركية لغة رسمية في جميع الولايات العثمانية.

ولم يستثنوا الولايات التي تعمرها العناصر العربية، فإنهم استعملوا عليها حكّاماً من الترك، يرفعون شأن لغتهم، ويدفعون العرب إلى تعلّمها لتتريكمهم، وإضعاف عصبيّتهم.

من تفوّق على غيره في تكديس المحسّنات وتركيب الأسجاع، ورصف التوريات، والإكثار من الجناسات؛ وللجناسات دور مهمّ على مسرح الشعر في ذلك العهد، وهي موضوع واسع لتلهيّ القرائح، وتضييع الوقت في ما لا يفيد.

وقد شاعت في هذا العهد المدائح النبويّة، وكان على كلّ شاعر مشهور أن يقول في هذا الباب، وأن ينظم قصائد في المديح النبويّ ويضمّنّها كلّ أنواع البديع، فكلّ بيت فيه نوع من أنواع البديع وفيه تمثيل له؛ وقد سمّيت لذلك كلّ قصيدة من هذا النوع بديعيّة.

وأكثر الشعراء في ذلك العهد من وصف الأشياء المألوفة والحوادث العارضة، كما أكثروا من التواريخ الشعرية حتّى أصبح الشعر معهم أحياناً عملية حسابيّة.

وقد أفرطوا في أقوال الهجر بالفاظ عارية صريحة لا تورية فيها ولا إيماء، مع ضعف في الأسلوب، وضعة في المشاعر، وإغارة على معاني السابقين.

وعلى الجملة فقد سقط الشعر أسلوباً ومعنىً وعاطفةً وخيالاً إلاّ في القليل النادر»^(١).

وقد سبق حنا الفاخوريّ إلى الرأي نفسه بطرس البستانيّ الذي رأى أنّ اللغة العربية قد انطلقت في طريق انحدارها في العهد

الموضوعة في عصور الانحطاط. بعضها وُضِعَ في أواخر العصر المغولي، والبعض الآخر في العصر العثماني»^(٣). ونحن إذا قمنا بتشريح هذه الآراء المتحاملة على هذه الفترة تبين لنا أنها مبنية على نظرة متعصبة لا تجهد نفسها في تحري الحقيقة والتقيب عنها في مسارب التاريخ، لما يكلفها ذلك من عنتٍ ومشقة، وهي تؤثر إطلاق الأحكام السريعة الجاهزة، لأنها لا تريد أن تجهد نفسها بتجشّم أعباء الوصول إلى الحقيقة المشرقة الدقيقة.

فالأدب العربي في ذلك الحين لم يكن بقعة هائلة من السواد انتشرت في أرجائه كافة انتشار بقعة النفط العملاقة في مساحة ضئيلة من البحر، ولم يكن جثة هامة يمرّ الناس بها فيتحاشون الدنو منها خشية أن تزكم أنوفهم بصديدها، بل كان شهاباً حاول ألاّ يكتفي بلعن الظلام، ومضى رغم وعناء السفر وعنّت السُرى يحاول تحطيم القيود التي لُفّت على عنقه ويديه وقدميه ولم يستكن لذلك الواقع المزري بل حاول بكلّ ما يملك شقّ كوة تسمح للضوء بالتسلّل من تلك الشقوق الضيقة هازئاً بالظلام والظلام.

وبعيداً عن إطلاق الأحكام الجاهزة، وحرصاً على إنزال الحقيقة في المكان اللائق بسموّ مكانتها وجلالة قدرها لابدّ من

فهبطت اللغة في عهدهم هبوطاً مشوّوماً، وفسدت ملكة البلاغة، وتصلبت أذهان الأدباء، وران عليهم خدر الخمول لا يستفيقون منه إلاّ على مدافع نابليون في مصر، ونواقيس الأديار في شعاب لبنان»^(٤).

بينما ذهب جرجي زيدان بعيداً في تسفيه هذه الحقبة وجعلها رمزاً للانحطاط والجمود حين قال:

«أمّا في العصر العثمانيّ فتمكّن فيه الذلّ من النفوس، وفسدت ملكة اللسان، وجمدت القرائح، فلم ينبغ شاعر يستحقّ الذكر خارج البقعة العربية.

أمّا الآداب العربية على الإجمال فأصبحت في أحطّ أدوارها ونذر نبوغ العلماء المفكرين أو المستنبتين فيها. وأكثر ما كُتِبَ في هذا العصر إنّما هو من قبيل الشروح والحواشي والتعليق وشروح الشروح ونحوها.

ويصحّ أن يُسمّى هذا العصر عصر الشروح والحواشي، كما سمّينا العصر المغوليّ عصر الموسوعات والمجاميع.

وشاع في هذا العصر التصوّف، وتعدّدت الطرق الصوفيّة، وكثر التأليف بلا نظام مثل الكشكول، وانحطّ أسلوب الإنشاء، حتى أوشك أن يكون عامياً، كما في قصص بني هلال ونحوها؛ ممّا وصل إلينا من القصص

اللاتينية بالعربية وحاول سلخ المجتمع التركي عن جذوره الإسلامية والباسه اللبوس الغربي فأخفق هو ومن جاء بعده في محاولة تغريب المجتمع التركي المسلم.

والتتريك حركة غريبة غذّأها كما هو معروف يهود الدونما الذين اندسوا في الدولة العثمانية وأخذوا ينخرون في جسدها نخر السوسس وتعاونوا مع كل أعدائها في تقويض أركانها، وهم الذين لعبوا تاريخياً ذلك الدور المشبوه في إفساد العلاقة بين العرب والأتراك بعد أن استطاع الشعبان التعايش بشكل رائع في ظل الدولة العثمانية مدة تقارب أربعة قرون.

إن دراسة موضوعية متأنية لحركة الفكر العربي في العهد العثماني توصلنا إلى حقيقة تفيد بأن هذا العصر تعرّض لظلم كبير، ولم ينل حقه من الدرس والتمحيص والاحتفاء به، وفي الأحوال جميعها لا يمكن شطبه هكذا شطباً كاملاً من تاريخنا الغني، بل يجدر بنا العودة إليه لاستخلاص ما فيه من كنوز لما يكشف النقاب عنها بعد.

إن مشكلة الباحثين الذين أطلقوا أحكامهم الجائرة المتسرّعة على نتاج ذلك العهد أنهم تأثروا بأولئك الذين سبقوهم، ولم يستخدموا المنهج العلمي الذي يقصي دور العاطفة ويديني دور العقل، يستغني عن الرأي الجاهز لأنه يريد الوصول إلى الرأي

القول إن القرائح لم تجف في تلك الحقبة بل استمرت حركة الفكر العربي حيّة نشطة، وظهرت مؤلّفات أغنت المكتبة العربية بذلك الفكر الذي نعتزّ به أيّما اعتزاز.

أما اتهام الشعراء بأنهم سعوا وراء الجناسات وشغلوا أنفسهم بتافه القول، فمردود على من يقول بهذا الرأي، لأن المحسّنات البديعية لم تظهر في هذا العصر بل كانت بدايات ظهورها في العصر العباسي، عندما ظهرت المذاهب الأدبية المختلفة والمدارس المتنوّعة، وقد انتشر عقب الحقبة العباسية التي تعدّ من أزهى عصور أدبنا العربي وامتدّ إلى العصور التالية، وفتن كبار الأدباء العرب الذين ظهوروا في العصور التالية بالأدب العباسي واتخذوه مثلاً أعلى ينسجون على منواله، وليس في ذلك عار يلحق بهم بل هو شرف يفاخرون به.

وفيما يخصّ استغناء السلاطين العثمانيين عن اللغة العربية بعد أن كانوا محتاجين إليها في البداية، نقول إن أثر اللغة العربية كان واضحاً في اللغة التركية وفي كل قوم اتصلوا بالعرب واحتكوا بهم فكرياً أو تجارياً، وليس أدلّ على ذلك من أن اللغة التركية ظلّت تستعمل الحروف العربية في الكتابة إلى أن جاء مصطفى كمال أتاتورك وأعلن إلغاء الخلافة الإسلامية واستبدل

- الموسوعات والمجاميع مثل: «سفينة الراغب ودفينة الطالب» لمؤلفه محمد راغب باشا والتي مصر سنة ١١٥٩-١١٦١ وصار صدراً أعظم وهو صاحب المكتبة المعروفة باسمه في الآستانة ولها أوقاف، «رسالة في الخضاب» لابن كمال باشا، «خلاصة الحساب» لبهاء الدين العاملي، وقد قال عنه جرجي زيدان «هو من أحسن كتب تلك الأيام في هذا الموضوع، وقد طبع مراراً في الآستانة وكشمير ومصر. وترجم إلى الفارسية وطبع في كلكتا، وللالمانية وطبع سنة ١٨٤٣م في برلين، وللفرنسية طبع في رومية سنة ١٨٦٤م، وعليه شروح عدة غير مطبوعة»^(٤).

يقول جرجي زيدان ذلك عن هذا المؤلف النفيس لكنّه يظلّ متمسكاً برأيه القائل إنّ العهد العثمانيّ كان عهداً خاوياً على عروشها في جنباته كلّها، كان عهد انكماش العقول على نفسها ودورانها في دوائر مغلقة، عهد ذبول اللغة العربية وسقوط أوراقها الصفراء الذابلة، عهد العقول التي انتظرت الغيث زمناً طويلاً فما بلّت ريقها بقطرة ماء.

إنّ العلّة كما يتبيّن بعد دراسة النتائج الفكريّ لتلك الحقبة تكمن في الباحثين، بينما يقف النتاج مبرراً منها على رغم من محاولتها المستمرّة للالتصاق به ووسمه بميسمها، لكنّ التاريخ سيبقى شاهداً على

بالدرس والتحليل، لذلك خلت دراساتهم من أدنى أثر يلحظه القارئ واكتفوا بإطلاق الأحكام الجاهزة المتعصبة.

ماذا يقولون عن تلك المؤلفات النفيسة التي وضعت في العهد العثمانيّ ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- مؤلّفات في اللغة العربية وعلومها مثل: «تاج العروس في شرح جواهر القاموس» الذي وضعه مرتضى الحسينيّ الزبيديّ، «خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب» وضعه عبد القادر بن عمر البغداديّ، «شفاء العليل بما في كلام العرب من الدخيل» ألفه شهاب الدين الخفاجيّ.

- مؤلّفات في التراجم والسير مثل: «سبل الهدى والإرشاد في سيرة خير العباد» لشمس الدين الشامي، «ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر» لابن طولون الصالحي، «تراجم الأعيان من أبناء الزمان» وضعه الحسن البوريني.

- مؤلّفات في الجغرافيا والرحلات مثل: «حادي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية» الذي ألفه محبّ الدين بن داود الحموي قاضي معرّة النعمان في أواخر القرن العاشر الهجري، «الجواهر الثمينة في محاسن المدينة» لمحمد كبريت الموسوي المدني، «تحفة الأدياء وسلوة الغرياء» للشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المصريّ المدني.

مصر - للذود عنه، وأصدر كتابه «الأدب المصري في ظل الحكم العثماني» سنة ١٩٦٥م، ولكنه - مع أهميته - كتاب صغير، درس فيه الأدب شعراً ونثراً، ويعدُّ بدايةً طيبة؛ لكنه لا يروي نهم الباحث المتعطش للإنصاف.

ثم قدّم الباحث (محمد صقر) إلى جامعة الأزهر عام ١٩٨٥م بحثاً لنيل درجة الدكتوراه، عنوانه: «الشعر في مصر في العصر العثماني»؛ لكنه لم يتقدم كثيراً عن كتاب أ. كيلاني، فضلاً عن أن بحثاً واحداً لا يمكن أن يفي بدراسة الشعر في شتى أغراضه وقضاياها، في عصر يمتد إلى أربعة قرون (أربعة: من ١٥١٧م) تقريباً.

وثمة دراسة بآداب القاهرة عن «الشعر في كتب الجبرتي التاريخية».

وهناك دراسة مدققة أصدرها د. عمر موسى باشا، بعنوان: «تاريخ الأدب العربي في العصر العثماني»؛ ولكنها مع جودتها، ركّزت على شعراء الشام، ونوّهت في عجالة ببعض شعراء مصر.

لقد مثّلت ندرة الدراسات الأدبية لأدب مصر في العصر العثماني إحدى مشكلات هذا البحث، كما كانت كثرة آراء مؤرخي الأدب المهاجمة لهذه الحقبة من تاريخنا الأدبي مشكلةً أخرى أمام الباحث، في طريق وعر غير معبّد، وشاقّ غير ممهّد،

عدم انحدار أدب تلك الفترة إلى ذلك القعر السحيق من التردّي، و سيبقى في الوقت نفسه شاهداً على تعصّب الكثير من الباحثين واشتراطهم في إطلاق الأحكام الظالمة عليها.

«فلقد درج كثير من الباحثين على وصم الأدب العربي في العصر العثماني، في مصر وسائر العالم العربي، بالانحطاط والتكلف، وزعموا أنه لا أثر للحياة فيه، وأنه لا يستحق البحث والدرس؛ لأنه - في تعسفهم - خلا مما يصح أن يُطلق عليه اسم الأدب، ولم ينبج من الشعراء من يستحق اسم الشاعر، وهم في ذلك يتابعون ادّعاء جورجي زيدان، أنه كان أدباً منحطاً متكلفاً، وهؤلاء المنساقون خلفه لم يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث، ولا مشقة التتقيب في دواوين الشعراء، أو الآثار الأدبية المخطوطة، أو جمع ما تثار منها هنا أو هناك، فما أكثر الموضوعات التي تحتاج إلى الدرس والاستقصاء! وعندئذ يتبيّن خطأ الأحكام التي أصدرها جورجي زيدان، وعجلة من تابعوه من الباحثين، تلك العجلة التي لا تعرف الإنصاف».

وقد نبّه الأستاذ محمد سيد كيلاني إلى هذا الظلم، فانبرى - بعد قراءة واسعة في المخطوطات الخاصة بأدب هذا العصر في

الحرمين الشريفين، متسترة وراء الكشوف الجغرافية، وكان شعارهم الصليب أو المدفع، وهدموا ثلاثمائة مسجد في مدينة كلوة بشرق أفريقيا، وهاجموا قوافل الحج، كما امتدت الجيوش العثمانية إلى الممالك الأوروبية، فتفتحت القسطنطينية، واليونان (المورة)، والبلقان (بلغاريا، رومانيا، الصرب، المجر)، وألبانيا، والجبل الأسود، والبوسنة والهرسك، وبلجراد، وكوسوفو، وبودابست، حتى مشارف فيينا، وعوضت التراجع العربي الإسلامي في الأندلس، ورأى المسلمون فيها حامية حمى الإسلام.

كما رفض د.بكري ربط الأدب بالاضطراب السياسي، والحكم بانحطاطه لتهافت الحياة الفكرية، وكأنه آمن - يقصد المتحامل - أن ازدهار الأوضاع سوف يعني ازدهار الأدب والعكس، والواقع أن الحركة الثقافية لا تسير في خط مواز للحركات السياسية دائماً، وكثيراً ما كانت السياسة تسير في خط منحدر، والثقافة في خط صاعد، وخير دليل على ذلك العصر العباسي المتأخر والمملوكي - والعثماني أيضاً - وحين نطلع على تاريخ الحقبة الأخيرة من العصر العباسي، نجد الخط السياسي منحدرًا؛ فهناك مقاطعات تتور على الخلافة، ثم تستقل في حكمها، وهناك مؤامرات وفتن، ودسائس واغتيالات لا

وكانت آراء بعض الباحثين مجرد صيحات أو ومضات على الطريق، لم تنتقل إلى حيز التطبيق؛ منها: ما قرّره د.بكري شيخ أمين، حيث يقول: «ويخيل إلينا أنه ما من عصر من عصورنا الأدبية أصابه من الظلم في الأحكام، والإهمال في الدراسات، ما أصاب هذا العصر (يقصد المملوكي)، وهو ما ينطبق على العثماني أيضاً)، ونال منه، والأكثر من هذا اعتقادنا الجازم أن هناك عملية خفية تهدف إلى صرف الباحثين عن دراسة هذه الحقبة، والاكتفاء بحكم سريع ظالم عليها، ولسنا نرى لذلك سبباً».

اللهم إلا أن يكون هذا العصر هو الذي قاوم جحافل الغرب، التي استحكمت حيناً من الدهر في هذه البلاد، ودفع الوثنية التي جاءت على سيوف التتار ورماحهم، وملا المكتبة العربية التي خوت بمصيبة بغداد وسواها بالتراث العربي والإسلامي المشرفين، وأعاد إلى النفس العربية عزتها وثقتها، ويكفي سبب واحد من هذه؛ ليشحن قلوب الشعوبيين، والأعداء والمبغضين، والمارقين والمنحليين، حقدًا ضد العصر وآله، وكل ما فيه.

فإن اعتدّ بذلك سبباً في التحامل الاستشراقي، وأذنا به العربي، فإن العثمانيين أيضاً قد صدّوا هجمات البرتغاليين في البحر الأحمر المتجهة لهدم

في هذا العصر، ذكر ذلك في إطار حديثه عن أغراض الشعر، حتى أوشك أن يغيّر حكمه على أدب العصر العثماني بالضعف والانحطاط، ذلك الحكم المتعجل الذي أقرّه في كتابه الأول، لكنه لم يغيّره، وليته فعل!

إضافة إلى أن معظم تراثنا الأدبي في هذا العصر لا يزال مخطوطاً؛ بل لا نبالغ إذا قلنا: إن دواوين الشعر كلها - تقريباً - مخطوطة، متناثرة في المكتبات وخزائن الكتب، في مصر والعالم العربي والغربي، ففي مصر مثلاً بعض هذه الدواوين موزعة بين مكتبة معهد والمكتبة الأزهرية - حيث كان الأزهر مركز دراسات هذا العصر - ودار كتب المخطوطات العربية - التابع لجامعة الدول العربية - المصرية، ومكتبة بلدية الإسكندرية - بمكتبة الإسكندرية حالياً - وبلدية سوهاج، ومكتبة الجامع الأحمدى بطنطا، وقد أفاد الباحث من تلك المكتبات، ولكن بعض هذه الدواوين يصعب قراءتها»^(٥).

ففي الوقت الذي يصرّ كثير من الباحثين على أن أدب تلك الفترة كان انحطاطاً شاملاً من الرأس إلى القدم، يرى عدد منهم أنه لم يكن كذلك، بل شهد تلك الومضات المضيئة، وعرف تلك الأسماء التي بقيت في ذاكرة الأجيال حتى يومنا هذا.

حصر لها، وفي الوقت ذاته نجد مؤلفات رائعة تصدر إلى الوجود، ندر مثلها، وعزّ نظيرها، وبها نجد الخط الثقافي صاعداً. كما شاع بين الدارسين أن الفتنة التالية لسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ بعد نكبة التتار، تُسمّى بعصر الانحطاط، ومهما يكن من أمر الأدب في هذه العصور، فإننا لا نستطيع أن نضرب عنه صفحاً أو نهمله، وإلا فإننا بذلك نهمل جانباً من حياتنا، ونقطع حلقة من حلقات تطورنا الفكري والفني؛ بل والاجتماعي أيضاً، وذلك أن حياتنا المعاصرة متصلة - دون شك - بأصرة شديدة بحياتنا في عصر المماليك والعثمانيين؛ بل ربما خلف هذا العصر - الذي امتد لأكثر من ستة قرون - في حياتنا المعاصرة ما لم تخلفه العصور العربية والإسلامية السابقة مجتمعة، وعلى هذا؛ ينبغي لنا أن نعيها وعياً صحيحاً، ونعرض عن خبثها، إذا كان ثمة جوهر وخبث في الحياة والأدب.

أمّا الدكتور شوقي ضيف، فبعد أن حكم على أدب العصر العثماني في كتابه «الفن ومذاهبه» بالانحطاط، وهاجمه هجومًا عنيفاً ساخراً، فإنّ في كتابه «عصر الدول والإمارات- مصر» ما يدل على وجود نهضة علمية في العلوم اللغوية والشرعية والعقلية، وعدد من الشعراء المطبوعين

الخاصة به ليبدأ تشييد صرحه الشعري المتميز الذي يضمن له مقعداً متقدماً على سرر الخلود.

ولو عدنا إلى قضية الاقتباس لوجدنا أنّ الأمر طبيعي، حتّى إنّ الفرزدق قيل فيه وفي شعره (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة) كان يقول (خير السرقات ما لا قطع فيه) وهو يعني بذلك السرقات الشعرية التي لا يستحقّ فاعلها إقامة الحدّ عليه بقطع يده»^(١).

لقد وقع على الأدب العربي في العهد العثماني ظلم كبير وإذا أردنا الانتصار للحقيقة والحقّ فعلينا العمل لرفع ذلك الظلم عنه بالعودة إلى ما وضع فيه من مؤلفات قيّمة قدّم أصحابها البراهين الحيّة أنّهم كانوا قادرين على تلمّس معالم طريق الأدب وإسراج شموع كريمة المحتد وسط ظلامه الدامس، ليثبتوا أنّ الأمة العربية كانت وستظلّ أمةً حيّةً تتسامى على الجراح وتنهض ساخرة بالقيود لأنها أمة اختارت أداء رسالة الخير والجمال والحقّ لينتفع بها الناس في كلّ زمان ومكان لأنّ الزبد يذهب جُفاءً أمّا ما ينفع الناس فيمكث في

«لا جرّم أنّ عصر الانحطاط قد شهد تراجعاً للحركة الفكرية عموماً وللشعر خصوصاً نتيجة الظروف السياسية والاقتصادية التي كان من الطبيعيّ أن تترك تأثيرها المباشر على حياة البشر والمجتمع العربيّ، والأدباء جزء من ذلك المجتمع؛ لكنّ ذلك لا يعني بحال من الأحوال أنّ الأدب قد هوى إلى الدرك الأسفل من نار العجز والتقليد، ولم يعد همّ الشعراء إلاّ نبش جثث المعاني القديمة المتفسّخة في محاولة يائسة لبعث الروح فيها، ففي هذا القول من الظلم والتجنّي ما فيه، وحبذا لو تمّت دراسة ذلك العصر من قبل نقاد منصفين يعطونه حقّه بعيداً عن التعصّب عليه أو التعصّب له، ولن أكون متعدياً على الحقيقة إذا قلتُ إنني واثق أنّهم سيجدون فيه نتاجاً قيّماً يستحقّ كلّ اهتمام وتقدير. أمّا بالنسبة لموضوع الاقتباس الذي وصل إلى حدّ الإغارة على معاني الشعراء السابقين فهذا الأمر لم يخلُ منه عصر أدبيّ، والشاعر يبدأ حياته ناسجاً على منوال غيره ممّن سبقوه حتى إذا اشتدّ عوده وأسلس الشعر له القيادة أخذ يجمع الأحجار

المصادر والمراجع

١- الموجز في الأدب العربيّ وتاريخه، الجزء الثالث، حنا الفاخوريّ، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥م، ص ٣٨٦ و ٣٨٧.

٢- أدباء العرب، بطرس البستاني، دار الجيل، الجزء الثالث، ص ٢١٠ و ٢١١.

- ٣- مؤلفات جرجي زيدان الكاملة، الجزء الرابع عشر، دار الجيل، بيروت- لبنان، ص ٦٢٣ و ٦٢٤.
- ٤- مؤلفات جرجي زيدان الكاملة، الجزء الرابع عشر، دار الجيل، بيروت- لبنان، ص ٧١١.
- ٥- مقال مأخوذ من الشابكة بعنوان: إنصاف أدبنا العربي في العصر العثماني، أحمد حامد حجازي، تاريخ الإضافة ٢٠٠٩/٤/٨ م.
- ٦- مقال بعنوان (سبط ابن التعاويذي كوكب دري في سماء الشعر، د.جهد طاهر بكفلوني، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، العدد ٥٢٤ أيار ٢٠٠٧ م، ص ٢٥١ و ٢٥٢).



تشكل العقل النقدي التصورات الجمعية والإجراءات الفردية

✱

د. صلاح الدين يونس

والثاني هو أبو علي أحمد بن محمد المعروف بـ«المرزوقي» ت. ٤٢١هـ-١٠٣٠م تلميذ اللغوي أبي علي الفارسي، والمرزوقي لغوي وكاتب وناقد وصاحب شرح «الحماسة» لأبي تمام، وصاحب شرح المفضليات وشارح أشعار «هذيل» و«الأمالي» وصاحب «الأزمة، والأمكنة».

من الشفوية إلى الكتابية

ما إن أفضى الزمن السياسي بالخلافة من دمشق إلى بغداد حتى أخذ الشعر يتوضع على شكل حرفة «فن، صناعة» على

تظهر قراءة المتون النقدية القديمة - أنها في الأعم الغالب- متون متشابهة إلى حد التباس، وكأن الأوّل يفضي - عند تحليل إستراتيجي من خارج الاحتراف النقدي- إلى الأخير... وفي تلك القراءة يظهر قطبا النقد العربي القديم الأوّل هو: أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى من أمد مولود في البصرة، وهي منشؤه، وهو كأسلافه، لغوي، نحوي، عالم بالشعر راوية له وللأخبار. وكل هذا جعله ناقداً رائداً ومؤسساً، ومن أشهر ما اشتهر به كتابه الموازنة بين الطائيين ولقبه «الأمدي» ٣٧٠هـ-٩٨٠م.

✱ كاتب وأديب وأستاذ في كلية التربية- جامعة تشرين.

عنهم، وإنما تبدو المسألة منتظمة في مشروع دولة الخلافة وهو الانتقال من السديم الشفوي المرافق للبيئة القبلية إلى الانتظام المؤسسي القائم على التراث المدون والمجتمع المُؤسَّس، وفي النصف الأوَّل من القرن الثاني ١٣١هـ تتحوُّ دولة الخلافة العباسية باتجاه دولة مركزية عديدة الأعراق متجاذبة الثقافات يجمعها أمران:

الأوَّل هو الإسلام كعقيدة للدولة ومسوّغ في الوقت نفسه لاستمرار المركبين: الاجتماعي والسياسي.

والثاني هو اللغة العربية، وعلى الرغم من العمر القصير نسبياً للمجتمع الجديد، إلا أنَّ العربية قد أقصت سائر لغات الشعوب الأخرى من التداول المركزي لتغدو اللغة الوحيدة، والأمر عائد - كما نرى - لضعف اللغات الداخلة في تركيب المجتمع الخلافي أولاً، ويعود ثانياً إلى أنها لغة الإسلام نفسه «وحيّاً، حديثاً».

ومن البشائر التأسيسية للمدونات الكتابية «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ت ١٧٠هـ - ٨٤٤م وفيها يدون تسعاً وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً، رتبهم في سبع طبقات، كل طبقة تشتمل على سبعة شعراء

أنقاض «الطبع. السليقة»، والفارق بين الطرفين كالفارق بين الحاضرتين: فدمشق عاش بها الزمن الأموي العهد القائم على الانحباس الداخلي وعلى فكرة «الاكتفاء» في حين عاش الزمن العباسي في بغداد عصرًا من الأممية الثقافية، بدأت طلائعه مع مشاركة «الموالي» في الإنتاج الأدبي واللغوي في إثر مرياهم بالبصرة أو الكوفة، والحاضرتان المذكورتان داهمتها أعداد من القبائل العربية من موقع الحضانتين: المذهبية والسياسية.

ولعلَّ أهم أنشطة القرن الثاني «أن جمعوا ودوّنوا الكثير من اللغة وأشعار الجاهليين والإسلاميين وأقوال النقاد السابقين، كما جمعوا ودوّنوا ما نقل إلى العربية من أقوال اليونان والفرس والهند في البلاغة وكل ما يتصل بها»...^(١)

والجامعون - كما المدوّنون - كثر ندكّر بأغناهم، ففي الرواية أبو عمرو بن العلاء ١٥٤هـ وعبد الملك بن قريش الأصمعي ٢١٤هـ، ومن اللغويين عبد الله بن إسحق الحضرمي وفي الشعر حماد الراوية ١٥٦هـ والمفضل الضبي ١٧١هـ.

ومن المغني إبداء رأي مؤداه: «أن الرواة والمدونين في القرن الهجري الثاني وحتى الثلث الأوَّل من الثالث لم يتصرفوا بشكل فردي، كما تظهر لنا مدوناتهم والمدونات

ثم يكرر ذلك مقابلاً بين نص شعري ونص قرآني، ففي قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

وكل أخ مضارقه أخوه

لعمر أبيك إلا الفرقدان.

فجعل «إلا» بدلا من «الواو» والمعنى «و» الفرقدان، وقال تعالى: «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّم». «إلا» هنا بمعنى الواو - وهي زائدة لا قيمة لها... وتأتي أهمية «الجمهرة» وخاصة المقدمة في جرأة المؤلف على الموازنة بين لغة الوحي ولغة البشر، وهنا يظهر الشعر العربي الجاهلي والإسلام الباكر في موقع الريادة والتأسيس للعقيدة العربية التي فرضت نفسها على «اللغة»، واللغة تغدو يوماً في إثر يوم غرضاً لازماً لمجتمعات الخلافة ومشروعاً يفصح عن نفسه في مرحلة ما بعد جمع الشعر ونقده، ونعني «الكلام والتفلسف».

المشروع الثاني بعد الجمهرة هو

طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي

١٥٠هـ-٢٣٢هـ.

ما كان لابن سلام الجمحي أن يؤسس لمنهج نقدي من دون مهاد يسبقه في الرواية واللغة، فقد سبقه أبو سعيد عبد الملك بن قريب... بن أصمغ ١٢٢هـ-٢١٦هـ اللغوي

والطبقات هي: طبقة أصحاب المعلقات «القصاصد المحكمة السبك» وطبقة أصحاب المنتقيات وطبقة أصحاب المذهبات، وطبقة أصحاب المراثي وطبقة أصحاب المشويات «شابهة الكفر والإسلام» وطبقة أصحاب الملحقات «الملحقات النظم»^(٢) ومن اللافت أن مقدمة الجمهرة تشي بمشروع نقدي باكر، على الرغم مما أبداه المؤلف من تصورات غيبية، نسب فيه الشعر إلى قوى خارقة للطبيعة، كما رأى أن أصل الشعر قديم موغل في القدم، وما كان مؤلف «البدائية» بقادر على تجاوز عصره، ليدرك جدل الإنسان والطبيعة وثنائية المصادفة والضرورة لوجود اللغات وارتقائها..

وتأتي أهميتها في حيازتها على مجموعة شعرية منتقاة بذوق - يبدو - فردياً، إلا أنه في واقع الأمر مفصح عن ذوق جمعي ومستجيب لمشروع دولة، ومن هنا نتفهم رأيه في المقدمة، قال أبو زيد: «وفي القرآن مثل ما في كلام العرب من اللفظ المختلف ومجاز المعاني فمن ذلك قول امرئ القيس ابن حجر الكندي:

قفا واسألا الأطلال عن أم مالك

وهل تخبر الأطلال غير التهالك.

وبما أن الأطلال لا تجيب، فإنما قصد أسألا أهل الأطلال، وفي قوله تعالى: «وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ» (يعني أهلها).^(٣)

يمكن أن نصنّفه مع علماء القرنين الثاني والثالث.

والمتبع لسيرته الذاتية يدرك أنه اختزل علماء عصره في منهجه، فقد عايش حماداً الراوية وخلفاً الأحمر وأبا عبيدة والأصمعي وزائدة بن أبي الرقاد، وهؤلاء كانوا مصادر اللغة والنحو والأدب والأخبار، وأما من نقل عنه فهم كثر ونوعيون «أحمد بن حنبل، المازني وأبو حاتم السجستاني» ولهذا يعدّ الجمعي واصلًا بين مرحلة الاختيار الفردي وبين مرحلة الجمع النقدي، وفاضلاً بين النقد الشفوي الإطلاقي وبين النقد المنهجي، ولهذا تجد في مدونه محاولة للحفاظ على الذوق الجمعي المتراكم، وتجد فيه تطلعا فرديا لابتداء فضاء فردي في الحكم النقدي.

وبناء على ذلك نفسّر مقولة ابن النديم في «الجمعي» كتب التراجم تنعته بأنه أحد الإخباريين.. كما تصفه بأنه كان له علم بالشعر والأخبار، وهما من جملة علوم الأدب.^(٥)

هذا الرأي لابن النديم يختزل مقولة «التحول الكمي إلى كمي» تحت شرط خاص يتعلق بالجمعي نفسه مؤداه «أن العمل الكتابي المنهجي لا يمكن له أن ينعتق من تراكمات المد الشفوي السابق على الإنجاز الكتابي، ويقع تحت شرط عام مفاده: إنَّ

والنسابة المعروف، وإذ انطلق الأصمعي من البصرة، فإنّما حاز فيها على الأخبار والأشعار جمعاً واستقصاء، وكان يعد على رأي المبرد. «بحراً في اللغة، لا يعرف مثله فيها» - في كثرة الرواية- ولعلّ مجموعته «الأصمعيات» من أهم الموسوعات الشعرية في طور الاختيار المزاجي الحر والاستقصاء القائمين على الذوق الفردي، وهي ثاني المجموعات الشعرية من هذا القبيل بعد «المفضليات».

وفي الموسوعتين شعراء جاهليون وإسلاميون ومخضرمون، ومن الشعراء الذين اختار لهم دريد بن الصمة، وعمرو ابن معد يكرب والمهلهل بن ربيعة والمتلمس والمنخل والسموئل ومالك بن نويرة، وبلغ عدد هؤلاء (٧٢) شاعراً ودون لهم (٩٢) قصيدة، وبلغ عدد الأبيات الشعرية فيها ١٤٣٩ بيتاً.^(٤)

وتعدّ المفضليات والأصمعيات ركني التأسيس لمرحلة التدوين، والتدوين حجر الأساس لعصر الكتابة «النقد، النحو، الفقه، الشعر، البلاغة».

لكن طبقات ابن سلام هي الأقدم من المدونات التراثية في النقد إذا لم نصنّف «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي في مجال النقد، وابن سلام عاش الشطر الأكبر من عمره في القرن الثاني، ومن هنا

إنَّ أوَّل من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيل، كان بعد عاد، ثم إن معدًا وهو الجد الذي قبل الأخير من جدود العرب المعروفين كان بإزاء موسى عليه السلام، فكيف لعاد وثمود؟ ومعنى هذا أن العربية لم تكن موجودة في عهد عاد...^(٦)

حماسة أبي تمام ١٩٨-٢٣٧هـ-٨٤٥م

انكسار الفارق بين الشاعر والناقد:

حفل القرن الثالث بنشاط فكري شامل حتى وصل حد التخصص، بين علوم وفنون وآداب، فاللغويون يكتشفون - بعد الجمع- مجالات الاجتهاد في النحو والعروض والفقه الخاص، وعلى الجانب الآخر ينبري علماء «الكلام» للمجادلة لترتفع وتيرة هذا العلم حتى يصل تخوم التفلسف، ولم يكن المترجمون بأقل أهمية، بل كانوا أكثر منهجية، ولاسيما من اليونانية إلى السريانية إلى العربية تحت رعاية دولة الخلافة، وعن الفارسية كان النشاط قد توقف بسبب اكتفاء الساحة البغدادية من علوم الشرق، وما كان لعلوم الشرق أن توازن علوم اليونان الوافدة، وأما في مجال التدوين فقد جدَّ النسابون والإخباريون في إيجاد مناخ لهم يرفدون به علماء «الكلام» وعلماء «اللغة»، وأما النقد فقد أفاد من هذا المناخ ليتجاوز نفسه إلى «الموضوعية» متأثرًا بالمناطقة،

القرن الهجري الثالث -على إثر تراكمات النصف الثاني من القرن الثاني- هو قرن التنازع بين أعراق دولة الخلافة على مستوى «اللغة - البيان - العرفان - الخلافة» هذا التنازع ساهم في تكوين الفضاء الكتابي الذي أفضى -في طور لاحق- بدوره إلى إنتاج «المعاجم اللغوية ومعاجم الأمكنة، ومعاجم الشعراء» وكان من النتائج الأخرى قيام معاجم القافية لإعانة الشعراء المتأخرين على إنتاج المطولات الشعرية، وعلى الأخص «القاموس المحيط» للفيروزآبادي ٧٢٩-٨١٧هـ-١٤١٥م وابن سلام. على الرغم من تأثره بمعاصريه وبسابقه. إلا أنه عبر اجتهاده الفردي توصل إلى الفكرة المنهجية في طبقاته توصلًا اجتهادياً ينم عن استقلابه لعلوم عصره، مؤسسًا للنقد المنهجي العربي، مغرباً غيره بالنزعة الكتابية تحت شروط المنهج والمحاكمة والاستدلال».

وقد أدخل المحاجة العقلية في مشكلة النقد وخاصة في نفي شعر الأقوام ما قبل التأسيس للعربية ولاسيما ما ادعاه محمد ابن أبي إسحق من وجود شعر لنساء في عهد عاد، «أفلا يرجع- ابن إسحاق - إلى نفسه، فيقول: مَنْ حمل هذا الشعر؟ وَمَنْ أداه منذ ألوف السنين، والله يقول:» وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقي» و...

أمّا بنية الكتاب فقد اعتمد فيها أبو تمام «التبويب: باب الحماسة، باب المراثي، باب الأدب، النسيب، الهجاء، الأضياف، الصفات، السير والنعاس، المَلح، باب مذمة النساء» ومن منهجه أنه كان يختار من المطولات ما يراه مناسباً، وكان يستبدل لفظاً بآخر، أو يزيح عبارة ويحل أخرى من خلال رؤيته لها من حيث المنافرة أو المناسبة، والمرزوقي شارح الحماسة يثبت ذلك في المقدمة «حتى إنك تراه ينتهي إلى الجيد فيه لفظة تشينه، فيجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده».

فالإجراءات الفردية الفريدة لأبي تمام لم تكن كما تصور المرزوقي وغيره، إنّما نراها ضمن خصوصية الفرد الإشكالي الذي أراد أن يُخرج الموروث الشعري من مخارجه، فكأن الشعر الذي لم يجمعه أو لم يروه ليس بذِي وزن، وعلى الرغم من الخلاف بين اللغويين والنقاد حول أبي تمام إلا أنهم قبلوا تدخلاته النقدية كما قبلوا طريقته في النظم، فالزمخشري ٥٣٨هـ يرى في أبي تمام . عبر الحماسة «وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه».^(٩)

وهذا التجاوز عبرت عنه قضية النزاع بين الجديد والقديم – وهذه القضية كانت من نتائج القرن الثاني، إلا أن القرن الثالث أمدها بأدوات جديدة، مما ساهم في تكوين فئات في النقد أهمها. فئة اللغويين والنحاة وفئة الشعراء المحدثين، وفئة المفيديين من العلوم الوافدة وفئة القديم وأنصاره.^(٧)

ويروي أبو زكريا التبريزي. خلال شرحه لحماسة أبي تمام: إنّ أبا تمام قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان وفي العودة إلى العراق مرّ بهمدان فاستضافه أبو الوفاء ابن سلمة، ثم تراكم الثلج فمنعه من السفر، وفي إثر الثلج المتراكم أحضر له خزانة كتب، فصنّفها! خمسة كتب في الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات وهي قصائد طوال.^(٨)

وربما كانت هذه المروية صادرة من موقع «تبخيس» العمل النثري في مقابل «تعظيم» الشعر، فأبو تمام شاعر يحمل مشروعاً قوامه -على اعتقادنا- رفع وتيرة الشعر إلى مستوى التفلسف الذي نتج عن عاملين: الأول المتأقفة مع اليونان عبر الترجمة، والثاني التطور الداخلي للبنية العربية ولاسيما علم الكلام... ومن هنا نستبعد أن يكون أبو تمام قد صنف الحماسة بالمصادفة كما ذكر التبريزي، سواء تراكم الثلج أم اشتد الحر!

أبو تمام بين الأول والآخر:

المقولة معروفة «ما ترك الأول للآخر شيئاً» والمقولة انبثقت من عمق «التأصيل المحتملي» بالنصوص المقدسة، وكأن الإبداعات الأولى هي الأخيرة والنهائية، وهي مقولة تفهم على اتجاهين: الأول الإحساس بالاكتمال للأنشطة العلمية «اللغة البلاغة، الشعر» لقربها من العهد الإسلامي الأول، والثاني هو قطع الطريق على العلوم الأممية الوافدة، من حيث هي علوم يمكن الاستغناء عنها، لاعتقاد قارب الوهم، مفاده: الإسلام أعطى كل شيء ولم يعد المسلم يحتاج لعلوم غيره.. وهنا تبدو المشكلة، فأبو تمام من موقع انفتاحه على العوالم الأخرى وإحساسه بانغلاق آفاق الشعر في عصره يخالف المقولة، فيقول:

لا زلت من شكري في حلة

لا بسها ذو سلب فاخر

يقول من تقرر أسماعه

كم ترك الأول للآخر^(١)

إن قلب الصورة المثالية لـ «عامّة» النقاد ولد «عمومية» الذوق الشعري من قبل أبي تمام هي عملية فردية لا يتمكن منها شاعر ينتمي إلى «العادي أو المألوف» ولو أن شاعراً آخر أو ناقداً تلفظ بها لا تتلقّى بالطريقة نفسها، فأبو تمام -بعد احتوائه للركام الشعري المتقدم عليه والمعاصر له - قوي

هذه المقولة للزمخشري على مستوى مهم من تفهم خصوصية أبي تمام الفردية، وهو يتعامل مع النصوص الجمعية، والمدخل الأول لفهم هذا الرأي هو أن رجل التحول النوعي الناتج عن التراكم النقدي الكمي ينوب عن ذلك التراكم - نصاً وناصاً - من خلال استيعابه للمدونات النصية المقدسة «القرآن. الحديث» أولاً، والمدونات الشعرية ثانياً والمدونات النقدية ثالثاً.

وقد داهم أبو تمام حصون معاصريه ثم امتد إلى تابعيهم، فكثّر شرّاح الحماسة حتى جاوز العدد العشرين، أوسعهم شهرة «المرزوقي، التبريزي، أبو بكر الصولي، ابن جني، الأمدي، العسكري، الأعلم الشنتمري، المعري، ابن سيده، أبو البقاء العكبري، ولو راجعنا خصوصية كل شارح لوجدنا أن كلاً منهم علم في مجاله البلاغي أو النحوي أو الشعري أو النقدي، وهذا الاهتمام المتابع من المرزوقي ٤٢١ هـ - ١٠٢٠ م ومن بعده العكبري - ١٢٢٩ م - ٦١٦ هـ ينم عن انتماء جماعة العلماء إلى الفرد الجامع، والمسألة تشبه اجتماع المصنفات في الحماسة وانتسابها لإجراءات أبي تمام. وكأن «الجدل» بين الكم الإبداعي والفرد الناقد قائم ومستمر بين الشعراء المنتخب لهم والمصنّف، وبين المصنّف وشرّاحه»..

لكن الناقد المعاصر إحسان عباس يرى أن ثلاثة أشخاص «قوى» قد منحوا القرن الرابع الاتساع وهم أبو تمام وأرسطو والمتنبي، لذلك يمكن أن يدرس القرن الرابع في ثلاثة فصول: هي الصراع النقدي حول أبي تمام، والنقد في علاقته بالثقافة اليونانية، ومعرفة النقد التي دارت حول المتنبي.^(١٢)

ومن معالم القرن الرابع إقالة الناقد الأدبي للناقد اللغوي، والإقالة مسوغة من موقع تلاشي العلوم اللغوية أمام العلوم الوافدة تلاشي الواحدة أمام التعددية. ومن النقاد من كان مؤرخاً كأبي الفرج الأصفهاني ٣٥٦هـ-٩٦٦م صاحب الأغاني واضعاً الأساس النظري لما يعرف اليوم بالسير الذاتية للأديب ودورها في أنشطته المعرفية، ومنهم صاحب بن عباد الشيعي المعتزلي ٣٨٥هـ-٩٩٥م وتبدو أهميته في ازدواجية إنتاجه «شاعر، ناثر»، وعلى الرغم من أنه ليس شاعراً يصنف مع شعراء القرن الرابع، إلا أنه استعاض عن هبوط الشاعرية بتساعد النثرية، فقد كتب رسالة تحت عنوان «الكشف عن مساوئ المتنبي» في النصف الثاني من القرن الرابع، والرسالة مفايرة -من حيث المنهج- للنقد المنهجي في القرن المذكور، فهي ذاتية الطابع أراد من خلالها رفع شأنه على حساب المتنبي،

على الاعتراض مدعماً بإنتاجه النقدي وشهرته الشعرية؛ وهو في هذا الموقف يقف فاصلاً بين قديم كمي يتراكم وجديد نخبي يشق طريقه عبر النخبية التي شرعت تفرض صيغتها منذ التجربة المأمونية ٢٠٩-٢١٨هـ في مسألة خلق القرآن، واصلت بين عقليتين: العقلية المحافظة والعقلية المجددة، واضعاً الشرط التاريخي للتجدد وهو التعامل مع الآخر المختلف، وكأنه يشير -عبر الآخر- إلى عدم كفاية «المحلي» وأن المحلي يحتاج إلى «الآخر» وأن من يأخذ بـ «الآخر» يحتاج تحت شرط الضرورة إلى المعرفة «المحلية».

الأمدي ٤٢١هـ المشكلة- الاختلاف:

يعد القرن الرابع أغنى العصور العربية الإسلامية على مستويات عدة، أهمها النقد والشعر، ففي النقد يظهر عالمان متميزان: الأمدي في موازنته «والجرجاني القاضي» ٣٩٢هـ في «وساطته»، ومما أغنى الثقافة النقدية نضج العلوم الأخرى كالفلسفة ومن قبلها علم الكلام، وبموازنتهما علوم التجريب، ولهذا وذاك ظهر النقد في هذا القرن شاملاً متسع الآفاق منطقياً، إلى حد يعتمد التحليل إلى جانب الذوق المثقف السليم، وفي المستوى اللغوي كان النقدة استمراراً لنقدة القرن الثالث من حيث اتباع الأصول اللغوية.^(١٣)

كان «التطرف» قائماً بين أنصار «الطائيين» فإن الأمدي قد قام بعملية رجعية على المستوى التاريخي، فاللجوء إلى «الوسطية» تعدُّ انحيازاً إلى سلطتين: الأولى هي سلطة الخلافة وتدخلاتها في الشأن الثقافي والثانية هي سلطة النقد، وسلطة النقد - كما يرى توفيق الزيدي- «تشكلت عند العرب القدامى على مستويين: مستوى الشمول، ومستوى التخصص، وإن تميز المستويان حيناً فإنهما تداخلا في كثير من الأحيان، والأمدي في قوله: إنَّ العلم بالشعر قد خص بأن يدعيه كل أحد وأن يتعاطاه من ليس من أهله» الموازنة ج ١/ ٣٧٣

والنزاع بين الفريقين هو نزاع - في شكل من أشكاله - نزاع بين القومي والأممي، وإن شئت بين التعددي والواحد، والأمدي يميل بطبيعته إلى النموذج الواحد الذي مثله البحري، ورغم ميله لا ينسى فضائل أبي تمام، لكنه جاهد لوقف امتداد أبي تمام وإنعاش نموذج البحري «وإذ كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لها حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة اليونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس، ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونسج مضطرب، وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظر

وكان الناقد أراد إقالة الشاعر من ذاكرة التداول، والصاحب لغوي وله من الرسائل: جوهرة الجمرة وكتاب الرسائل ومعجم في سبع مجلدات إلا أن للشعر دائماً سلطانيته وخاصة أن «وزنية» المتبني أكبر من أوزان النقاد .

لكن الأمدي هو صاحب الوزن الأهم من خلال «الموازنة»، وهو كتاب ذو خصوصية، ففكرة الموازنة قبلت التعميم. فالمقصود المباشر هو «الشعرية العربية من خلال نموذجين من منشأ قبلي واحد، لكنهما متغايران في الثقافة تغييراً عمودياً، ومن خلال تغييرهما جال الأمدي على الشعر ومشكلاته، وعلى اللغة وشؤونها، وحاول الربط بين الشعر والعلم من جهة وبين طبقة العلماء وطبقة الشعراء من جهة أخرى، والطبقة هنا مختلفة الدلالة عن مفهومها الاقتصادي السياسي اليوم، ولعلَّ التساؤل المنطقي ما الدافع عند الأمدي لكتابة منظومة الموازنة؟

إنَّ تحليل كلمة «الموازنة» تفضي إلى أمرين: الأول هو أنها انتقلت من كلمة إلى «مصطلح» الثاني هو محاولة الناقد النخبي، مصادرة الرأي من العامة لصالح الخاصة، فالفصل بين الشعراء النخبين من مهام الناقد النخبي وليس من حق المتذوق أو المتلقي من وسط العامة، وإذا

السبك وقرب المأى والقول في هذا قولهم
واليه أذهب»^(١٥)

فالموازنة التي ادّعاها الأمدي لم تكن مقصودة لذاتها، فقد انتصر فيها للتقليدي على الوليد، ومن بعد انتصاره أعاد المناخ لتقبل التقليدي ورفض الجديد أو لخدمته، والنزاع بين القديم والجديد تجاوز اللغة وما نتج عن فروعها، وإن كان قد بدأ من خلال رؤيا علماء وشعراء جدد ومحدثين في القرن الهجري الثاني، والموقف كان رفضياً، والرؤيا كانت متركزة حول القديم الذي صار «معجزاً»، والمحدثون ليسوا توأماً.

وساطة القاضي علي بن عبد العزيز

الجرجاني ٣٩٢هـ ١٠٠١م

الجرجاني القاضي ميّزه القضاء عن الجرجاني الإمام-إمام البلاغة طبعاً - عبد القاهر ١٠٧٨م-٤٧١هـ والجرجاني «المتوسط: بين المتبني وخصومه شاعر وقاض، فكيف يجتمعان؟ القضاء فقه إسلامي ولغة نحوية وازنة واعتدال في الرؤيا، والشعر تجاوز وفضاءات، ولكنه انتظام في البنية المعروفة، وربما كان هذا هو الرابط الوحيد بين الشعر والقضاء. والوساطة كتاب غايته فصل القول في الخلاف على شاعرية المتبني، وتركز النقد

قلنا له: قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة، فإن شئت دعوناك حكيماً أو سميناً فيلسوفاً، ولكن لا نسميك شاعراً ولا ندعوك بليغاً، لأنّ طريقك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم»^(١٦)

ومن نافل الرأي الذي يعرّز رأينا بأن الأمدي أراد اختزال النزاع لصالح الميل العام نحو السلطة السياسية والفقهية هو ما أضافه ياقوت الحموي ١٢٢٩ م عن الموازنة «هو كتاب حسن... ونسب إليه الميل إلى البحري فيما أورده من التعصب على أبي تمام فيما ذكره... فإنه جدّ واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مردول البحري»^(١٧)

ولم يُخفِ الأمدي في إعلانه وإضماره ميله نحو البحري، ولم يكن الميل لفرد شاعر، إنّما كان لمنظومة التفكير وطريقة في النظم، تؤثر إقرار القار والاحتماء به، على أنّه الصيغة الجمعية المثلى، وسواء عن وعي سياسي صدر أم عن وعي تخصصي في الشعر وقضاياها، فإنّ الأمدي خدم سلطة الخلافة، يقول: «والمطبوعون وأهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والانحراف في الوصف، وإنّما يكون الفضل عندهم في الإلمام بالمعاني، وأخذ العفو منها كما كانت الأوائل تفعل مع جودة

الإبداع الفردي، وإن الفضاء بين المعيارية والفرديّة كان المجال الذي تحرّك فيه الجرجاني، ومن هنا وجد في نفسه منزلة بين منزلتين، ولدى مواجهته للمشكلة دفع بذهنية القضاء إلى الأمام إذ وجد «القوم» فريقين تصعب التسوية بينهم» من مطب في تقريره منقطع إليه بجملة منقطة في هواه بلسانه وقلبه يلتقي مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم، ويعجب ويعيد ويكرر ويميل على من ينقصه بالاستحقاق والتجهيل... وعائب يروم إزالته عن رتبته، فلم يسلم له فضل ويحاول حطه عن منزلة بؤاها إياها أده، فهو يجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه.^(١٦)

والقاضي «هنا وإن تحلّى بالنزاهة - إلا أنّ المتخصصين لا يقبل أي منهما بالحكم الصادر عن ذلك لأن الانقسام اتخذ الشكل الرأسي العمودي» ولهذا كان الجرجاني ينص على أن كل أدب ينتسب إلى عصره وبخصائص العصر يقاس. وأنصار «الجاهلي» ينكرون الإبداع فيما وراء العفوية الجاهلية، وثمة خصوم اعتقدوا بشاعرية المحدثين، لكنهم لا يعترفون بشاعرية المتبّي، وفي إثر الانقسام العمودي تنتج ثنائية ضدية هي ثنائية الجاهلي والمخضرم والقديم والمحدث.

مرفقا بالذوق العام حول شعرية المتبّي لم يبلغ الانشغال بالخلاف بين القديم والجديد، ولم تنبثق ظاهرة «الوساطة» فجأة، وإنما جاءت صورة فردية عن صورة كلية، وقد سبقت الوساطة بإنتاجيات نقدية متحاملة منها: الانتصار المنبّي على فضل المتبّي للأفريقي المعروف بالمتيم، ثم أصدر كتاباً بعنوان «بقية الانتصار» وكتاباً ثالثاً بعنوان «التبّي على ردائل المتبّي» ثم كتب حمزة بن محمد الأصفهاني رسالة في «كشف عيوب المتبّي» وغير هذا كثير، لكن جميعه مخبر عن المناخ العام، وهو مواجهة شخصية مركزية كالمتبّي في عصر ضعفت فيه الدولة المركزية.

وكثر الرسائل المحمومة المتعصبة على المتبّي كرسالة صاحب بن عباد التي لم تكن تؤمن بالعقل النقدي كمنهج في التفكير ولا كإجراء لغوي، إنما استحضرت كمنظومات كمية لمواجهة الذهنية الفردية مشخصة بالمتبّي الذي تجاوز في شعره وفلسفته الخاصة تصورات النقاد وأفاقهم المحدودة، وانحسارهم في شؤون اللغة.

الجرجاني القاضي في الوساطة «يحاول العمل على اتجاهين: الأول هو المعيارية، والمعيارية هي مسعى الحركة النقدية في القرن الرابع، والثاني: وهي تحفيز

- والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء القصيدة على تخيير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكله اللفظ والمعنى وشدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ولكل باب منها معيار»^(١٨).

ولعل السؤال المنبثق من بين المصادفة والضرورة هو لماذا كان عمود الشعر؟ أما أن الضرورة تفضي بهذه الخلاصة فإن المصادفة أن يأتي لغوي من القرن الهجري الخامس يقوم بعملية استقلال لمن تقدمه ليصوغ «عمود الشعر» وما عمود الشعر برأينا- إلا صيغة إرضائية ينتهي عندها عامة النقاد ويقبل بها عامة الشعراء، إذ لا يخلو عمود المرزوقي من مساهمة النقاد الكبار (الأمدي، قدامة، الجرجاني، ابن طباطبا)، وإن اصطلاح النقاد في إثر هذه الصيغة إنما ليصطلح عليها الشعراء، وكان الناقد يستبق الشاعر في أسس النظم، وهنا يصادر الناقد آفاق الشاعر، فتعدو عملية النظم إرضاءً للمقياس الناظم (العمود) وانتظاماً في النسق أكثر من كونها عملية خلق فردي يمارس فيها الشاعر حريته مع اللغة لفظاً ومعنى.

وإذا كان المرزوقي في نظريته قد أحكم الطوق على الشاعر والناقد، فإنما جعل الشاعر مسؤولاً أمام الذائقة الجمعية،

المرزوقي حاكم لا قاض بـ«عمود الشعر».

توفي المرزوقي في العقد الثالث من القرن الخامس ٤٢١هـ وهذا يعني أنه وثيق الصلة بمشكلات القرن الرابع، ومن خلال مقدمته لشرح الحماسة يكتب عن أزمات النقاد ومشكلاتهم، وقد حصرها في ثلاث: الأولى هي مشكلة اللفظ والمعنى، ولكل منهما أنصاره، والثانية هي مشكلة الاختيار، والثالثة هي مشكلة العلاقة بين النظم والنثر.^(١٧)

ومن خلال استرساله في بناء فضائه النقدي يظهر للقارئ أنه عاين عن قرب آراء ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة بن جعفر والأمدي، لكنه لم يقف منبهرًا بواحد منهم، بل على العكس مضى في مشروعه على شكل صيغة فردية، لا يتنكر فيها لجهود من تقدموه أو عاصروه، ولا يقبل بالأستاذية لأحد، فقد مرّ على الثنائيات التي مر عليها غيره «الشكل والمضمون، اللفظ والمعنى» المطبوع والمصنوع، المنظوم والمنثور... ثم بيّن فهمه لـ «عمود الشعر» كما ذكر في مقدمة شرح الحماسة قائلاً: «الواجب أن يُتبيّن ما هو الشعر المعروف عند العرب؟ إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات

«عمودية» وهنا يحقق مبدأ الصدق، والثاني: هو «التجاوز» أي يحتمل بنفسه مسؤولية غلوه وإفراطه، وبناء على المبدئين السابقين فقد اكتشف النهج الثالث وهو «القصدية» رافضاً الانتظام في أحد المنهجين: «أعذب الشعر أكذبه» «أحسن الشعر أصدقه»، ليقول أحسن الشعر أقصده والأقصده هي «الشاعرية أي المستوى الفني» وكلما ازدادت شاعرية الشاعر ازدادت سلطته وسوغت لنفسها الانتشار.

ومما يتبين في إثر المراجعة للمتون النقدية في القرنين الهجريين الثالث والرابع أن المعمارك في «علوم اللغة» و«النقد» و«الشعر» لم تكن معارك لذاتها، إنما يتبين أيضاً أن خاصها نقد لغوي. أدبي، وأما عامها فيعكس النزاع الثقافي والفلسفي بين الفرقاء منذ أن تشكل الفقه وعلم الكلام بمدرستيهِ: الأشعرية والمعتزلة، ومن ثم تشكل الدرس الفلسفي على أساس من جدل الداخل «المعتزلي» و«الخارج» الدرس اليوناني، وعلى الأخص بعد الترجمة التي أغنت الساحة البغدادية لتظهر فيها ثلاثة مدارس: الأولى المدرسة الفارسية مختزلة الشرق القديم مشخصة بالغنوصية، والثانية المدرسة العربية متجلية بعلوم الدين واللغة والثالثة المدرسة اليونانية عبر الفلسفة والعلوم التجريبية.

والذائفة الجمعية تختزل بالناقد الذي قد ينصب نفسه نائباً عنها، وقد تنبه إلى شمولية نظرية المرزوقي الناقد إحسان عباس فقال: «نستطيع أن نقول: إن نظرية «عمود الشعر» رحبة الأكناف واسعة الجنبات، وأنه لا يخرج من نطاقها شاعر عربي أبداً، وإنما تخرج قصيدة لشاعر أو أبيات في كل قصيدة وقد أساء الناس فهم هذه النظرية وحملوها السيئات، ولكنها أساس كلاسيكي رصين، فالثورة عليها لا تكون إلا على أساس رفض الشعر العربي جملة».^(١٩)

إنما «الثورة» أية ثورة لا تعترف على «النسبي» ولا تعمل على مبدأ «الاعتدال» أو الوسطية، ولكنها تقوم على الإزاحة الكلية، لتزيح قائماً، وتُحلّ مزاحاً محلّه، ومن هنا كانت مرحلة شعر «التفعية» - في عصرنا - نقلة غير ثورية، بدأت من العراق «نازك الملائكة، والسيّاب، وعبد الوهاب البياتي» لكنها مرحلة ضرورية بين «الإحيائية» وبين «قصيدة النثر» التي أسس لها أدونيس ورادها إبداعاً ودافع عنها نقداً، وهنا تبدو فكرة الثورة أو صيغتها في مكانها.

ولم يكن المرزوقي يابيه برأي العامة، فالقرن الخامس وريث القرن الرابع، وكلاهما قام على الفردية النخبية، وما حصّلت العامة منه إلا ما يكفيها للتلقي المباشر، ولذلك وضع الشعراء أمام مذهبين: الالتزام بالمبدأ

الهوامش

- ١- د. عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٢٧١.
- ٢- د. أمجد الطرابلسي (حركة التأليف عند العرب) - أحمد أمين - ضحى الإسلام ٢-٢٧٦
- ٣- راجع الجمهرة ط ١٩٦٧م، محمد علي البجاوي - المقدمة.
- ٤- راجع مصادر التراث العربي، د. عمر الدقاق - دار الشرق، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٤٦.
- ٥- الفهرست، ابن النديم، ص ١٧١.
- ٦- الجمحي، طبقات الشعراء ٤-٥.
- ٧- راجع د. عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد حتى القرن الثالث، الفصل التاسع.
- ٨- التبريزي، في مقدمته لشرح الحماسة الصغرى والكتب هي «الوحشيات، فحول الشعر، مختار أشعار القبائل»، أما الخامس فلم يعرف.
- ٩- البغدادي، خزانة الأدب، ج ١، ط بولاق.
- ١٠- ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف المصرية.
- ١١- مراجع تاريخ النقد الأدبي من الجاهلي إلى القرن الرابع، أحمد طه إبراهيم، دار الحكمة، ص ١٤١-١٤٢.
- ١٢- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني إلى الثامن، مؤسسة الرسالة، ١٩٧١م، ص ١٢٧.
- ١٣- الموازنة، ج ٤٠١-٤٠٢
- ١٤- معجم الأدباء، ٨-٨٧.
- ١٥- الموازنة، ج ١-٤٩٦.
- ١٦- الوساطة: المقدمة.
- ١٧- راجع ما كتبه إحسان عباس، تاريخ النقد، ص ٣٩٨، مصدر سابق.
- ١٨- شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١٩٩١م، ص ٨-٩.
- ١٩- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مصدر سابق، ص ٤٠٩.



مقاربات أدبية بين «الجاحظ وأحمد الجندي»

✱

ظهير الشعراني



السياسي والازدهار الحضاري، أو من حيث الثورات والحروب والغزوات الخارجية، ومدى التأثير الفعال في حدود الأدب

مابين ولادة الجاحظ، وولادة أحمد الجندي، حوالى أحد عشر قرناً من الزمن، غير أنّ المقاربة الأدبية بين الاثنين قد تكون متشابهة إلى حدّ كبير من حيث ظروف البيئة المحيطة بكل منهما، والأحداث

التاريخية والسياسية والاجتماعية التي مرّ بها كلا الأدبيين من ناحية فترات الاستقرار

✱ أديب وناقده سوري.

العمل الفني: الفنانة وناء كريدي.

والهادئة والمتوافقة مع حياة الجاحظ كانت فترة استقرار سياسي، وازدهار حضاري، وتقدم ثقافي ومما ساعد على تقدم الدراسات في مختلف مجالات العلم والأدب، وهيأت فرصاً ليجدد الأدباء والنقاد من أدواتهم ومعاييرهم النقدية بما يتناسب وهذا الواقع الحضاري والثقافي، وهذا ما هيأ فرصاً كبرى للجاحظ الذي كان مولعاً بالاطلاع على كل ما يقع بين يديه من كتب وأوراق، واستيعاب ما فيها كي يتقضى الأصول النقدية التي قام على أساسها النقد العربي القديم.

والاطلاع على أكبر قدر من الملاحظات الأدبية التي أطلقها الشعراء والأدباء في تقويمهم للأدب، وحكموا بمقتضاها على الشعر والشعراء. فكانت أساساً لابد منه لثقافته النقدية. هذه الثقافة العربية التي اطلع الجاحظ عليها صادفت في مجتمعه البصري واقعاً ثقافياً متطوراً له أصوله وجذوره التي استمدها من تمازج الثقافات العديدة التي انتشرت في مدينة البصرة، نتيجة لتواجد عدد من السكان غير العرب والذين أتوا إلى البصرة، وحملوا معهم ثقافتهم وعاداتهم، فقد كان يعيش فيها إلى جانب السكان العرب سكاناً من النبط واليونانيين والفرس والهنود ومنهم الزط والسيابجة وأقوام من الزنج، فتشكل في البصرة هذا المزيج من العناصر العرقية،

والثقافة على كلٍ منهما. وسنحاول في هذه السطور أن نتبع مسيرة كلٍ من الأدبيين، ومدى تأثرهما بالمحيط الذي عاش فيه كلٌ من «الجاحظ وأحمد الجندي» وما قدّماه للأدب العربي والثقافة العربية من آراء وأفكار في مسيرتهما الأدبية والثقافية.

الجاحظ:

تعتبر البيئة من العوامل الهامة المؤثرة في تكوين فكر الإنسان، وتوجيه نوازعه. لهذا كان لابد من العودة إلى عصر الجاحظ وبيئته التي ترعرع فيها لنرى مدى تأثره بمعطيات عصره وواقع بيئته الاجتماعية والثقافية.

تفيدنا الدراسات الأدبية التي تناولت عصر الجاحظ، أنه ولد في حي فقير من أحياء البصرة، ولم تُثر ولادته أي اهتمام يساعد على تحديد زمنها، شأنه في ذلك شأن العديد من رجالات الفكر والأدب، وهذه إحدى المشكلات التي تصادف الباحث في حياة العديد من الرجال في تاريخ العرب القديم، لهذا فلا غرابة إذا تضاربت الروايات حول ولادة الجاحظ،⁽¹⁾ والذي يعنيها من تحديد زمن ولادته أنّها راقت بداية عهد عاشت فيه البصرة فترة هدوء نسبي.

والذي يهمنا من الأمر أنّ هذه الفترة

كما انصبَّ تجديد بعض الشعراء على موضوعات الشعر المتعارف عليها في القصيدة الجاهلية ومثّل هذا الاتجاه «أبو نواس»^(٥) وبشار بن برد^(٦) وابن الرومي^(٧) والبحري^(٨).

كان الجاحظ مطوعاً لمعطيات العصر، فأخذ بجوانب التطور والتجديد في مفاهيم الأدب والنقد، وصفة الطوعية هذه تُعتبر من أبرز خصائصه كما يقول طه الحاجري: «وكان من أبرز خصائصه هذه الطوعية لعصره والبيئة التي يحيا فيها، فهو في حقيقة الأمر صورة بصرية كاملة تتمثل فيه هذه المدينة بنواحيها المختلفة، ومهما يكن في الجاحظ من تناقض أو تعارض فإنما يرجع إلى تناقض مظاهر الحياة في هذه المدينة، فهو قد تأثر تأثراً كاملاً، إذ قد أتيج له بطبيعته الخاصة وطبيعة الظروف التي أحاطت به أن يعيش عيشاً حقيقياً، وينفذ إلى بواطنها وتنفذ إلى بواطنه»^(٩).

كما أنّ الجاحظ تأثر تأثراً كبيراً بأستاذين من أكبر أساتذته هما: الأخفش^(١٠) والنظام^(١١) وكان على اتصال دائم بهما أفاده فائدة جُلّي جعل ياقوت الحموي يقول: «إنّ الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش، وأخذ الكلام عن النظام وتلقف الفصاحة من العرب شفاهةً بالمرید»^(١٢).

وغني عن القول إنّ الجاحظ كان من أصحاب الاعتزال بل من أئمة المعتزلة

فتمازجت العادات والتقاليد والأعراف إضافة لكونها ميناءً بحرياً يغشاها أصناف من شعوب الشرق والغرب.

وهكذا فقد دخلت الأدب العربي في البصرة عناصر جديدة حضارية وعرقية وثقافية، وخضع المجتمع البصري لتأثير تراث قديم لثقافات حية من يونانية وكلدانية وفارسية وهندية مازجت الثقافة العربية المتطورة وتعاليم الإسلام الجديدة وجرى صراع غير صراع الأقسام العرقية والفئات المتقاتلة يومذاك، صراع من نوع آخر يمكن أن نتوسع في التعبير ونسميه «صراع الحضارات»، وتمازج الثقافات، هذا الصراع الحضاري والثقافي شكّل الوجه الآخر لمدينة البصرة، وظهرت به كأهم حاضرة من حواضر الثقافة العربية خلال القرن الثاني للهجرة وحيث انتقل الصراع من ميادين الحرب وساحات الوغى، إلى حلقات المسجديين وندوات المربيين، ومساجلات المتكلمين وحوارات الفرق المذهبية، ومن خلال هذا الصراع بدأت العقلية البصرية تتضج وتتبلور سماتها، وتشكل أبعادها لترفد العقل العربي بأكثر مقوماته الفكرية، وأعظم مشخصاته الثقافية وكان ذلك فاتحة لتجديد واسع في الحياة الأدبية والفكرية فنشأت مذاهب جديدة في صناعة الشعر مثلها «مسلم بن الوليد»^(١٣) و«أبو تمام»^(١٤) و«ابن المعتز»^(١٥).

تجريبي، يستند إلى المنطق والبرهان، وكان ذلك من آثار الثقافات الأجنبية التي اطلع عليها اطلاعاً واسعاً وخاصة الثقافة الهيلينية، وتأثره بكتب أرسطو بشكل خاص. لهذا كان أمراً مألوفاً أن يجنح الجاحظ إلى المنهجية والتأمل العقلي في معالجة المشاكل الأدبية، إذ إن هذه المنهجية لازمتها في مختلف أبحاثه العلمية والأدبية.

وتدلنا آثاره على ثقافة عميقة متشعبة تناولت مسائل عصره، فهو لغوي فصيح، ورجل علم وفلسفة وبخّاتة، وراوية للأخبار والأشعار، والصحيح أن الجاحظ قد لخص معارف عصره أو كما قيل: «إنه عقل امتزجت فيه الثقافات المختلفة».

ومن آثاره كتاب «البيان والتبيين»، جمع فيه مختارات من الأدب لم يخرج فيه عن نطاق الأدب، وكتاب «الحيوان» وهو كتاب ذو صبغة علمية إلى صبغة أدبية انعكست فيه ثقافة الجاحظ ومميزات طبعه الأصيل، ولعله أنضج كتبه علماً وتفكيراً، وكتاب «البخلاء» يعكس ألواناً صادقة من الحياة الاجتماعية في عصره. ومصدر هذا الكتاب الحياة نفسها، ولاشك في أنه خير مجال لإظهار قوة الملاحظة، ودقة الوصف عند الجاحظ.

قال ابن العميد: «كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً»^(١٦).
أمّا من الناحية العقلية فقد كان الجاحظ

ومن رؤسائهم، وسُميت فرقة من فرقهم بالجاحظية نسبة إليه واتصل الجاحظ برجالات وأساتذة عديدين من هؤلاء القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم^(١٧) وأبو العباس المبرّد^(١٨).

لقد اطلع الجاحظ اطلاعاً واسعاً على معطيات الثقافة العربية، وحفظ أشعارها، وشواهداها، ونوادرها، واكتسب مهارة فائقة في استخدام اللغة العربية، وتصريف ألفاظها والتحكم بمعانيها ومدلول عباراتها مما دفع أحمد أمين إلى الإشارة لذلك حين قال: «لعل الجاحظ كان أكثر أهل زمانه اطلاعاً على أنواع المعارف المعروفة في زمنه، فهو في الأدب مطلع أتمّ الاطلاع على الشعر الجاهلي والإسلامي وشعر المحدثين، ومطلع على أخبار العرب وخطبهم وفصيح قولهم، وعلى الجملة فقد جمع الجاحظ في عقله كل ثقافة عصره، وقل أن يكون له نظير»^(١٩).

لقد كان الجاحظ يمثل عصره أصدق تمثيل، ويتأثر بمعطيات بيئته إلى أبعد حدود التأثير، فإذا وجد أن الأدب المجرد مذهب من المذاهب المستفيضة في عصره أخذ به ولم يتورع، وهذه الطوعية للعصر والاتصال الوثيق بالمجتمع جعلاه أكثر انفتاحاً وأشد ميولاً للأخذ بمذاهب التجديد والتطور، وكانت هذه من أبرز صفاته الفكرية والأدبية، ومن خصائص فكر الجاحظ أنه فكر تأملي

ظريف، عاش حياته بالطول وبالعرض، وكان في شخصه صورة للظريف العربي المتمدن، كما وصلتنا في كتب التراث.

المرحوم أحمد الجندي في كتابه الأوّل والأخير «لهو الأيام» لا يورخ لنفسه بل يقدم صورة حقبة مديدة بالسوان زاهية وبريشة محببة لا تفتتت ولا تغتاب. بل تمضي على رسل الحقيقة كما عاشها صاحبها، فهو -على قوله-: «قد يكتب ما لا يرضى عنه صاحب الفكرة أو الموضوع، ولكن ما حيلتي وهو الذي صور نفسه كما رأيته».^(١٧)

على أن ظُرف الكتاب وروحه الجاحظي لا يشفعان للحقيقة المرّة فحسب. بل ويمنحانك أيضاً القدرة على فهم سلبية الشخص المحكي عنه. والنظر إلى باعث الضيق ببسر وسماحة.

«لهو الأيام» كتاب حلو في أيام مرّة حاجتها إلى هذه الحلاوة الشامية عظيمة. وُلد الأديب والشاعر الكبير أحمد الجندي في مدينة «سَلْمِيّة» التابعة لمحافظة حماه عام ١٩١٠م، وهذه المدينة الصغيرة التي لا يتجاوز عدد سكانها آنذاك أربعة آلاف نسمة، يقول الجندي عن طفولته فيها: «أريد أن أنقل أخبار طفولتي اليوم إلى القارئ نقلاً صادقاً، فقد ولدت في شهر كانون الأوّل أو كانون الثاني أعني في الشهر الأخير من سنة ١٩١٠م، أو في الشهر الأوّل من سنة ١٩١١م، فأنا على كل حال من

يلجأ إلى المعاينة والتجربة والتحقيق، فقد جرّب في أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيات والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل، وجرّب في النبات وكان في كل تجربة من تجاربه يعتمد على طريقة خاصة.

ومن الناحية الأدبية، فالجاحظ أديب كبير، ومُطلع واسع، وهو أكبر مؤلّف عرفته اللغة العربية، وقد بلغت مؤلفاته ماينوف على مئتي كتاب، وهي تبحث في كل علم وفن، فقد كتب في الأدب والاجتماع والفلسفة والحيوان والتوحيد ولم يفته أن يكتب في الطب والكيمياء.

وهو كثير الاستشهاد بكلام العرب بين شعر ونثر ومثل وحكمة، والإشارة إلى أخبارهم وأيامهم ووقائعهم ونواديرهم، مع ذكر أجوادهم وفرسانهم وفصائحهم مما يدل على كثرة اطلاعه، وسعة حفظه، وغزارة مادته.

والجاحظ في أسلوبه عذب الألفاظ، دقيق المعاني، رشيق الأسلوب، قوي الطبع ولا يتكلف ولا يتصنّع، ولم تُرزق العربية كاتباً يُداني الجاحظ في قوة طبعه على الإنشاء، وانقياد المعاني والجمال إليه فهو في ترادف جملة كالبحر الزاخر مايرسل موجة إلا ليعقبها بأخرى.

أحمد الجندي و«لهو الأيام».

كتاب «لهو الأيام» كتاب ظريف لرجل

ونقد وموسيقى وأخذ من علوم العربية ونهل منها، وقد حفظ من دواوين الشعراء وخاصة القدماء قصائد كثيرة ومقطعات عديدة، وفي كتابه يقول عن تاريخه الأدبي: «لا أدري كيف ومتى انصرفت إلى الأدب العربي وكذلك الموسيقى. فقد كنت أبعد الناس عن العلوم وخاصة الرياضيات، وإنني لم أحل مسألة أو معادلة رياضية بحياتي كلها، وإنني لأعزو هذا الميل إلى ناحية وراثية، فالأدباء أو الميالون إلى الأدب هم أكثر رجال عائلتنا. لقد كان والدي يروي الشعر، وكذلك والدي على الرغم من أنها لم تكن متعلمة، وأخي الأكبر راوية للشعر والتاريخ، وقد وجدت الكتب ملقاة في غرف نومنا بين أيدينا وفي بيتنا من مثل ديوان ابن الفارض وكتاب نوح الأزهار وهو مختارات شعرية رائعة، وكذلك شرح المعلقات للغلابيني، وكتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، وهناك كتب كثيرة قرأتها، وحين دخلت المدرسة الزراعية تعرفت في مكتبتها على كتب زكي مبارك وطه حسين والمازني والعقاد وحسين هيكل، كما تعرفت على مجلة المقتطف والهلال التي كانت تصل إلى المدرسة، ورأيت نفسي في أول الشباب أحفظ الكثير من الشعر بسهولة وإن كانت مفاهيم الشعر عندي قديمة، وكان من أبرز المؤثرات في حياتي الأدبية شخص أحترمه اسمه «عبد الحكيم الملوحي»^(١٨)

مواليد هذه السنة التي دُعيت: سنة الثلج لكثرة ماسقط فيها من ثلج قضى على كثير من المواسم الزراعية والحيوانية، وأهم ما أصيب من هذه المواسم الأغنام التي فقدت الغذاء بسبب تغطية الثلج للعشب، ولأن هذا الثلج قد تجاوز المتر ارتفاعاً فوق الأرض، وجاء شركاؤنا في الأغنام كما روي لي وهم ينادون بالويل والثبور، وقد مات نصف مالدينا ولديهم من الغنم وعلموا بولادة الطفل الذي هو أنا فابتسموا بعد العبوس وقالوا: خيراً إن شاء الله.

واقترحوا أن يكون اسمي «تليج» ولو صحّت هذه التسمية لحملت أبرد اسم في العالم.^(١٨)

في سنواته الأولى بدأ الجندي بتعلم القراءة والكتابة، حيث إن البلدة الصغيرة التي عاش فيها خالية من المدارس إلا من مدرسة واحدة هي المدرسة الرشدية التي بناها الأتراك وتحتوي على ثلاثة صفوف فقط. غير أن البلدة كانت تعج بالكتاتيب في الحارات والأحياء ويقوم على هذه الكتاتيب أناس لهم منزلتهم في المجتمع ويقومون بتدريس القرآن الكريم وبعض مبادئ الحساب مقابل رغيغ من خبز التور الذي اشتهرت به هذه البلدة على مدى قرون عديدة.

في فترة شبابه اطلع الجندي على معظم التراث العربي من شعر ونثر وخطابة

- بالاشتراك مع عدنان مردم.
- ٤- ديوان فتيان الشاغوري.
- ٥- قطب السرور في أوصاف الخمرور.
- ٦- ديوان عرقله الكلبي.
- ٧- تنمة تاريخ المجمع الذي بدأه أحمد الفتيح.

وبحكم إقامته في دمشق التقى الجندي الشعراء الأعلام في سورية وجالسهم واستقى من معين شعرهم وثقافتهم أمثال الشاعر شفيق جبري ومحمد البزم وخليل مردم بك وبدوي الجبل وشاعر فلسطين عبد الكريم الكرمي، وقد أكسبته هذه اللقاءات مزيداً من الثقافة والاطلاع والخبرة.

وفي مجالس دمشق حفلت لقاءات الجندي جمهرة من الأدباء والشعراء والنقاد والصحفيين منهم: فخري البارودي وأمين نخلة وعزّت طبّاع وحسني تلو وسعيد الجزائري وعباس الحامض وزهير المارديني ونجيب الرئيس ومعروف الأرنؤوط وغيرهم كثير.

ولم تخلُ مناسبة من هذه اللقاءات إلا وللجندي نصيب من إضفاء نفحة من شعر أو نثر أو نكتة أدبية عليها فهو صاحب حضور قوي يتمتع بروح مرحة وفكر وقاد ونظرة ثاقبة يقول في قصة قصيدة له:

«جاءني مرةً محي الدين الدرويش إلى حماء فاحتفلت به وهيات له مجلساً طريفاً في البلد وهو الفندق، فتركتني وحيداً ولم

بحكم عمله تتقلّ الجندي في معظم المحافظات السورية، من الحسكة شرقاً إلى السويداء جنوباً مروراً بدير الزور وحلب وحمّاه وحمص ودمشق واللاذقية، كما زار تركيا وبلغاريا وفرنسا وسويسرا، وكوّن خلال هذه المحطات علاقات مع معظم الأدباء والشعراء والنقاد والموسيقيين، وخلق لنفسه بيئة ثقافية عالية المستوى، ودرس الحقوق في دمشق والفلسفة في مكتب عنبر، وتعرّف على عوالم الغناء والموسيقى وخاصة في مدينة حمص حيث التقى عالم الغناء «محمد الشاويش» المختص بالموشحات والإيقاعات، كما تعرّف على «نجيب زين الدين» المطرب المعروف و«عبد الرحمن الزيات» الملقب بأبي طاهر و«محمد عبد الكريم» عازف البزق الشهير، فاكتسب خبرة موسيقية بالغة الدقة والأهمية من حيث الآلات الموسيقية والمقامات.

عمل الجندي كرئيس ديوان في مجمع اللغة العربية بدمشق إلى جانب كبار أعضاء هذا المجمع أمثال عز الدين التتوخي وعارف النكدي وجورج خوري وشكري فيصل وحقق عدداً من الكتب منها:

- ١- ديوان ابن النقيب بالاشتراك مع الأستاذ الجبوري العراقي.
- ٢- كتاب الإعرابيات لخليل مردم بالاشتراك مع عدنان مردم
- ٣- كتاب جمهرة المغنين لخليل مردم

«لهو الأيام» يصلح أن يكون كتباً عديدة، ففي كل فصل من الكتاب كتاب بحد ذاته وفي هذا يقول الجندي في الخاتمة: «الآن وقد أنجزت هذه الذكريات، أراني قد نسيت بعضاً منها أو تركت جزءاً متعلقاً بها عن سهو ونسيان، ولكن أهم ما في الأمر هذه الكثرة من الأحداث لا يمكن حصرها أو كتابتها، فإن حياتي لم تكن بسيطة، وربّ حياة تستطيع رسمها بصفحة أو صفحتين بينما هناك حيوات قد تستلزم كتباً ومجلدات، للإحاطة بها، وحياتي لم تكن مليئة بالأحداث الكبار لأنني لست ممن يعمل في مجال الأحداث الكبار التي كنت أرى فيها تعباً وتعصباً، ماكنت أرضاها لنفسي فإنّ الحياة بالنسبة لي أو إلى رأيي نزهة ينبغي أن يقطعها الإنسان هائلاً مسروراً، لذلك فإنّ ذكرياتي أقرب إلى التسلية والعبرة والتثقيف أحياناً، فالحياة عندي فن والفن هو الحياة، ولهذا فإنني لا أوّمن بالشخص الذي لاصلة له بالفن، كيفما كان هذا الفن، وحياتي كانت قصيدة طويلة من الذكريات كل ذكرى منها بيت من الشعر، لقد شغلني في حياتي السهر، وحب الجمال، والطبيعة والضحك والقراءة والحديث الطلي^(٢٠).

وهكذا انتهت رحلتنا مع الجاحظ وأحمد الجندي، وكل منهما قدّم ما حصل عليه من المعارف والألوان الأدبية فتقاربا بيئاً وأدباً وعلماً زخرت بالوان عدّة من الثقافة والفن والأدب.

يعد حيث كنت أنتظره، وعلمت في اليوم الثاني أنّه ذهب إلى بيت صاحبي نعيان الحريري، وقد كنت مقاطعاً له في تلك الفترة فكتبت قصيدة تعرّضت فيها له والتي أقول فيها معرّضاً به وبالسيد الحريري:

ياصاحباً لست أدري كيف ألقاه

دنياي في البعد أمست غير دنياهُ

ولّى وخلصني ريان من أسفٍ

وليت أني أسلوه فأنساه

دع الجديد فظلّ الشك يغمره

إنّ القديم من الإخلاص أحلاه

ومن قصيدة في تأبين عبد الحميد

الحراكي وهو من أصحاب الجندي قال:

ذكراك ماتنّفك في خلدي

ياحمصّ يادنياي يابلدي

ماهون الدنيا على رجل

لم يستفد منها ولم يفسد

وفي بغداد التي زارها يقول:

بغداد جئتك بعد طول غياب

فتلفتي لتحتيتي وعتابي

أشفقت أن يمضي الزمان ولأرى

بلد الرشيد وصفوة الأحاب

ولايفوتنا أن نذكر أنّ في متن كتاب

الجندي شخصيات هامة وعديدة كان

لها دور كبير في الأحداث السياسية

والاجتماعية والأدبية في مجتمعنا العربي

السوري إضافة إلى أسماء الأحياء الدمشقية

العريقة بعروبيتها وإخلاصها للوطن الأم.

الهوامش

- ١- اختلفت الروايات في تحديد زمن ولادة الجاحظ غير أن بعض الباحثين رجحوا أن تكون حوالي سنة ١٦٠هـ ووفاته سنة ٢٥٥هـ.
- ٢- مسلم بن الوليد: ١٣٠-٢٠٨هـ شاعر مؤلّد نشأ في الكوفة واتصل بالبرامكة وبالرشيد.
- ٣- أبو تمام ٧٨٨-٨٤٦م هو حبيب بن أوس الطائي ولد في قرية جاسم من قرى حوران ومات بالموصل.
- ٤- ابن المعتز ٢٤٧-٢٩٦هـ هو ابن الخليفة المتوكل.
- ٥- أبو نواس ١٤٦-١٩٨هـ هو الحسن بن هانئ ولد في الأهواز واتصل بالخلفاء العباسيين.
- ٦- بشار بن برد ٩٥-١٦٧هـ أشعر المولدين على الإطلاق كان ضريراً ونشأ في البصرة.
- ٧- ابن الرومي ٢٢١-٢٨٣هـ ولد في بغداد ومات فيها له ديوان ضخّم.
- ٨- البحترى ٢٠٥-٢٨٤هـ هو الوليد بن عبد الله من طيء ولد في منبج شمال حلب ونشأ فيها.
- ٩- الجاحظ: حياته وأثاره شارح بلات ترجمة إبراهيم الكيلاني.
- ١٠- الأخفش هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة فارسي الأصل من تلاميذه الكسائي أهم كتبه «تعاليم القرآن» توفي ٢٢١هـ.
- ١١- النظام ١٨٠-٢٣١هـ هو إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري من أئمة المعتزلة.
- ١٢- ياقوت الحموي ٥٧٤-٦٢٦م هو ياقوت بن عبد الله الحموي من علماء اللغة العربية أهم كتبه «معجم البلدان ومعجم الأدباء».
- ١٣- القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم حبيب الأنصاري الكوفي فقيه وعلامة من كتبه «الخراج وكتاب الآثار» توفي ١٨٢هـ.
- ١٤- المبرّد هو أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي الشمالي إمام نحاة البصرة توفي ٢٨٥هـ.
- ١٥- ضحى الإسلام أحمد أمين ج٣ ص ١٢٨.
- ١٦- ابن العميد ٢٠٠-٣٦٠هـ كاتب من العصر العباسي.
- ١٧- لهو الأيام أحمد الجندي.
- ١٨- المصدر السابق.
- ١٩- المصدر السابق.
- ٢٠- المصدر السابق.

المراجع:

- ١- النقد الأدبي عند الجاحظ - محمود الأطرش - مكتبة ربيع حلب ١٩٧٩م.
- ٢- الفن ومذاهبه في النثر العربي - د. شوقي ضيف - دار المعارف مصر.
- ٣- كتاب لهو الأيام - أحمد الجندي - رياض الرّيس للكتب والنشر ١٩٩١م.

فلسفة اللامعقول: إحدى إفرازات الحربين الكونيتين الأولى والثانية



إبراهيم سلوم



لقد بات من المؤكد أن الحروب تترك عادة آثاراً عميقة في المجتمعات التي تعاصرها وتعيشها، فهي تستهلك الطاقة البشرية مثلما تستهلك المقومات الإنسانية من حضارة وفكر وأدب وفن. وغالباً ما تمحو حضارات بأكملها وتغرس الأغلال والتفكك في العقائد والمعتقدات، مما يعطل الأجيال التي تنمو في ظلها عن التواصل مع الحياة بشكل جيد، ولربما يمتد تأثير ذلك على بقية حياة هذه الأجيال نظراً لما تتركه من تداعيات سلبية في نفوس أبنائها وفي سلوكهم. لو أخذنا على سبيل المثال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-

ترجم وباحث سوري.

بإحداث المزيد من المآسي والكوارث، والتي سمحت في نشر الأفكار الهدامة على الصعيد السياسي تحديداً بحيث لم يجد المغلوبون فيها من وسيلة للانتقام سوى تأسيس المذاهب المعروفة بالنازية والفاشية التي قادت العالم مرةً أخرى، وفي زمن وجيز، إلى حرب كونية أخرى أشد ضراوة من سابقتها، وهي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) التي بلغ عدد قتلها زهاء ٤٩ مليون شخص. وفي هذا المناخ الشديد التوتر كان من عقابيل هذه الحرب العالمية الكونية ظهور فلسفة اللامعقول التي يعد الكاتب الفرنسي البير كامو رائداً طليعياً لها لا بل ركناً رئيسياً من أركانها، لأن أفكاره جاءت لتعكس بالفعل قلق الجيل المعاصر وخيبة أمله المتولدة من صدمة هذه الحرب التي رفضت، على غرار سابقتها، بكل ما تبقى من قيم ومعتقدات لم تستطع الحرب الكونية الأولى من العبث بها بمجملها.

ولقد لخص كامو الحائز على جائزة نوبل للأدب في العام ١٩٥٧م جوهر هذه الفلسفة بما يلي: إن العالم الذي نعيش فيه أو هذا الوضع الإنساني الذي نحياه هما غير معقولين البتة ولا يوجد أي مبرر لهما. وهذا الإحساس المؤلم والمر بمحال العالم ولا معقوليته يدفع بالإنسان المعاصر إلى أن ينطوي على نفسه وينحبس فيها، لأنه مهما بذل من جهد لكي يدرك معنى هذا العالم فغالبا ما ينتهي جهده بالفشل الحتمي.

١٩١٨م) لشاهدنا الآثار العميقة التي تركتها هذه الحرب على الحياة والأدب والعقل البشري إذ غيرت نظرة الإنسان إلى وجوده ومستقبله، فحلّ التشاؤم محلّ التفاؤل الذي كان سائداً قبل اندلاعها، وذلك نتيجة الفظائع الرهيبة التي ارتكبت خلالها من قتل ودمار.

وقد قدرت الإحصائيات الدولية أن عدد قتلها فاق الـ ٩ ملايين قتيل بين مدني وعسكري. وكان من جراء هذه الحرب المدمرة ظهور حركات فكرية وفلسفية تمثلت بالوجودية أولاً ثم باللامعقول ثانياً. هذا ويُعد الروائي الفرنسي لويس فرديناند سيلين (١٨٩٤-١٩٦١م) أول من بادر إلى الإعلان عن نشوء هذه الحركات في روايته بعنوان: «رحلة إلى النهاية»، الصادرة في العام ١٩٢٢م، وفيها يتحدث عن لامعقولية الوجود وافتقاره إلى المنطق. ثم تلاه في العام ١٩٣٨م، أي بعد ذلك بـ ٦ سنوات، الكاتب والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨١م) لينشر روايته بعنوان «الغثيان» الصادرة في العام ١٩٣٨م، وفيها نرى أن بطل الرواية يصاب بالغثيان والدوار الخانق حين يفكر بأصل الأشياء، إنه يريد أن ينسف كل الأفكار والقيم والمبادئ التي كانت سائدة من قبله وذلك نتيجة لسطحية الحياة ولمصير الإنسان الذي ألقى به في هذا العالم من دون سبب وجيه وأعد للموت في نهاية المطاف، هذا الموت الذي تجلى واضحاً وسابقاً لأوانه خلال فترة الحرب الكونية التي تسببت شرقاً وغرباً

الثانية وما تلاها من مفاهيم سلبية عن عدم وجود معنى لحياة الإنسان كان لا بد أيضاً من الخروج عن النماذج التقليدية للادب والفكر والفنون التي فقدت قدرتها الإقناعية، فبرزت فلسفة اللامعقول التي تغلبت على المسرح من خلال السمات التالية: مسرح بلا حبكة، أفكار غير متسلسلة أو غير منطقية، والحوار ليس محكماً. وفي وسط هذا الظلام الكثيف يطرح كامو سؤالاً مثل القنبلة وهو: هل تستحق الحياة بأن تعيش في ظل هذا الواقع المرير المليء بالغرابة واليأس والعبثية؟ وبرايه، إن الإنسان إذا أراد التخلص من وضع كهذا فلم يجد أمامه إلا وسيلتين وهما: الانتحار أو التمرد، وقد تجسدت هاتان الوسيلتان في أعماله الأدبية، منها: «أسطورة سيزيف» وهي دراسة نفسية (١٩٤٢م)، وروايات: «الغريب» (١٩٤٢م)، و«الطاعون» (١٩٤٧م)، و«الإنسان المتمرد» (١٩٥١م)، و«السقوط» (١٩٥٦م)، و«موت سعيد» التي نشرت بعد مماته في العام ١٩٦٥م، ومسرحيات: «سوء تفاهم» (١٩٤٤م)، و«كاليغولا» (١٩٤٥م)، و«حالة الحصار» (١٩٤٨م)، و«العادلون» (١٩٤٩م).

ففي مسرحية «أسطورة سيزيف» فإن المشكلة الفلسفية هي مشكلة الانتحار، وكامو يعتقد بأن الأصحاء من الناس كانوا دوماً يفكرون بالانتحار كلما أحسوا بأن الوجود يفتقر إلى العلة الكافية، مما يسبب طلاقاً بين الإنسان وحياته غالباً ما ينتهي بالانتحار أو التمرد.

ثم إن العالم كثيف لا يخترقه بصر ولا بصيرة، وكثافة هذا العالم تكمن في سخافته وعدم جدواه، وبالتالي يبدو غير معقول. تلك بالضبط هي الغربة، أن ندرك كم أصبح العالم كثيفاً كما نقرأ ذلك في روايته «الغريب». وضمن هذا المنظور فالذهن ليس سوى آلة صماء خرساء في عالم آمن، وعندما تتحرك هذه الآلة تتلاشى المعايير ويتهاوى العالم بحيث لا يبقى أمام الوعي سوى عدد لا متناه من الشظايا البراقة.

فكيف يمكن، على سبيل المثال، لزعيم سياسي أن يدمر في لحظات كل ما بناه الإنسان من حضارات كانت قد استهلكت منه زمناً طويلاً وذلك عندما تحكمه شهوة السيطرة والتدمير كما فعل أدولف هتلر في الحرب العالمية الثانية حين كاد أن يحول العالم بأسره إلى يباب ويمسيه على خراب. هذا بالضبط ما جعل إنسان القرن العشرين يحس بعبثية الحياة وبالغربة المطلقة.

وهذه الظاهرة تعبر عن جيل فقد الإيمان بكل ما ورثه من أفكار وعقائد ومبادئ قامت الحربان بنسفها من جذورها. ثم جاءت بأفكار جديدة تدعو إلى الحزن والتشاؤم وتجعل الإنسان يقول لذاته: بس المصير! هكذا جاءت فلسفة اللامعقول كمرآة عاكسة تعكس معاناة إنسان القرن العشرين الذي عاصر الحربين وما نجم عنهما من تداعيات مأساوية. والجدير بالذكر أنه بعد الانتهاء من الحرب العالمية

تنتهي دوماً بالموت. وهذه الرواية لقيت رواجاً كبيراً آنذاك، مع أنها صغيرة الحجم وبسيطة الحكمة والتركيب. فهي تحكي قصة شاب يدعى (ميرسو) تموت أمه من دون أن يذرف عليها أي دمعة. وبعد وفاتها بيوم واحد يذهب إلى الشاطئ ليسبح مع صديقه ماري. وفي المساء يرافق هذه الفتاة إلى إحدى دور السينما ليشارك فيلماً مضحكاً. وبالصدفة يلتقي وهو على الشاطئ برجل عربي فيقدم ميرسو على سحب مسدسه وإطلاق النار عليه إلى أن أراده جثة هامدة.

يحال ميرسو إلى القضاء وخلال المحاكمة التي أجريت له اتضح للقضاة أنه لم يبك لموت والدته، وأنه ذهب إلى السينما وسبح بعد دفنها بيوم واحد، ولهذا السبب حكمت عليه المحكمة بالإعدام. لقد أعدم ميرسو، لا لأنه قتل، بل لأن موت والدته لم يهز عواطفه أبداً. إنه رجل غريب وغير متجانس مع طبيعة المجتمع. بيد أن كامو يثور عندما تطلب المحكمة جلب الكاهن ليمنح ميرسو المسحة الأخيرة التي تعطى عادةً للمرء قبل موته أو قبل تنفيذ حكم الإعدام به وكأن الكاهن يبارك حكم الإعدام. وبرأيه أن الكاهن الذي يبارك حكم الإعدام يكون قد خرج عن عباءته الدينية وحتى عن إنسانيته. لكن جان بول

وفي هذه المسرحية التي تأخذ طابع الدراسة الفلسفية الصادرة في العام ١٩٤٢م نقرأ بأن الآلهة حكمت على سيزيف، هذا الملك الخرافي في الأساطير اليونانية ومؤسس مدينة كورنتس، الذي اشتهر بالمكر والدهاء في الجحيم بعذاب أبدي قائم على دفع صخرة من أسفل جبل إلى أعلاه. حتى إذا بلغ القمة تدرجت الصخرة إلى أسفل، فكان عليه معاودة العمل مجدداً. ومن خلال هذه المسيرة يريد كامو أن يوصل إلينا هذه الفكرة وهي أن هذه هي حال الدنيا: «بذل جهد سخيف متواصل لا طائل يرجى منه، وأن أجيال الإنسانية كلها نراها عبر التاريخ صاعدة هابطة بلا غاية ولا هدف ولا نتيجة، وهو شيء يبعث بالإنسان إلى أن يغرق في مستنقع اليأس ويدرك عبثية وجوده ويميل إلى الانتحار أو التمرد».

خلاصة القول: إن عمل سيزيف كان فيه نوع من الرتابة الثقيلة والعبثية عديمة الجدوى، وأن عقوبته تدفع به إلى تحقيق مهمة عبثية ولا معقولة لا نهاية لها، وتحرك لديه الرغبة في الانتحار كوسيلة للخلاص من هذا الواقع المرير ضمن عالم خالٍ من المنطق والعقلانية.

كذلك تأتي رواية «الغريب» لتكون انعكاساً لأفكار كامو وتصوره عن الحياة اللامعقولة التي يعاني منها المجتمع، والتي

به، بقوله: «في مجتمعنا إن كل إنسان لا يبكي عند دفن أمه يمكنه التعرض لحكم الإعدام». ومن الملاحظ أن بطل الرواية ميرسو يبدي احتقاره للموت عندما لا يبكي عند دفن أمه وعندما يقدم على قتل رجل على شاطئ البحر تحت وطأة الحر والعرق يقول: «لقد نفضت عني العرق والشمس». ولكن ما هي الظروف التي أدت بميرسو إلى إطلاق النار؟ ومن هو ميرسو؟ الحقيقة أن ميرسو لا هوية له، إنه يقترب الجريمة غريباً عن ذاته وكأنه شخص آخر. فهو الغريب الذي تعصف رياح الغربة الروحية بكيانه كله، وتركه طائراً نازف الجناحين، يشكل من قطرات دمه غيمة يخترق بها سماء الآخرين وعبثية العالم من حوله. ألم يقل في دفتر ملاحظاته: «إن روح الثورة تكمن كاملة في احتجاج الإنسان ضد حالته الإنسانية». ومع ذلك فالرواية تعد بحق إدانة للمجتمع البرجوازي الذي ترفض قواعده كل حالة من حالات الاستثناء أو الخروج على المألوف.

كذلك يجب علينا التوقف بعض الوقت عند رواية «الطاعون» التي تعتبر من أهم أعمال كامو في الأوساط الأدبية عامة حيث حققت هذه الرواية نجاحاً كبيراً في الأوساط الأدبية الفرنسية والعالمية معاً. والمهم في الأمر هو أن نتعامل مع هذه

سارتر يقول من جانب آخر: «إننا نعيش في عالم مليء بالشر. ولهذا فإننا لا نستطيع أن نسيطر عليه إلا إذا كنا قساة القلوب ولوثنا أيدينا بالجريمة». وعندما يصل ميرسو خبر وفاة أمه يطلب فرصة صغيرة ويقول: «لقد ماتت أمي اليوم وربما البارحة. تبلمت البرقية اليوم أو ربما البارحة، وهذا لا يعني شيئاً بالنسبة لي. ويتعرف ميرسو على ريمون سانيتس ويذهب معه إلى الشاطئ وهناك يقع شجار بين ميرسو وشخص عربي، فيعطي ريمون مسدسه لميرسو الذي يقتل العربي، وكانت الشمس سيفاً من نور على بحر معدني يغلي من شدة الحرارة وعلى جبهة ميرسو التي كانت تتضح عرقاً وجهداً كبيرين، في حين كان الشاطئ يرتعش مع الشمس.

وعندها انهار كل شيء، وخيل لي أن السماء فتحت على مصراعيها وأمطرت نارا، ثم توترت أعصابي وارتعش بدني كلياً فقبضت على المسدس وانطلقت الرصاصات». وعندما يسأله القاضي لماذا أقدم على القتل لطالما لا يوجد أي مبرر له، يجيب ميرسو بأنه لم يكن ينوي القتل ولكنه فعل ذلك بسبب وطأة حرارة الشمس، وهنا ضحك كل من كان في قاعة المحكمة. إنه إنسان يعيش، بالفعل، حالة من التمزق بين نظرته للأشياء ونظرة الآخرين المحيطين

مسرحاً طبيعياً للطاعون لكن الكارثة ليست على مقياس الإنسان. ويقول المرء لذاته بأنَّ الكارثة غير واقعية وكأنَّها حلم بشع وسوف يعبر ويمر». ويضع كامو قارئه في قلب هذا الحلم البشع لتصبح حياته شبيهة بكابوس يوحى بالتقزز والقرف واللامعقول من هذا العالم. وعلى الرغم من ذلك كله يعمل الدكتور (ريو) على التغلب على هذه الحالة اللامعقولة من خلال معالجته الدوائية لهذا المرض الوبائي الخطير. ويفضل نشاطه تراجع الطاعون ثم غاب عن وهران، ذلك أنَّ السكان تضافروا معه في طرد الموت المتربص بهم. لقد طردته إرادة الإنسان الصلبة فغاب الطاعون، فهل يغيب اللامعقول معه؟ ويأتي المد بعد الجزر فتتخفف الأسعار وتعود زحمة السير ويرجع الرجل إلى بيته ويعاشر زوجته، والراهب إلى ديره، وتستعيد وهران وجهها المألوف. وفي هذا الوجه الجديد توجد معانٍ كثيرة وكلها تشير إلى أنَّ أحوال المرء مهماً طرأ عليها من تحسن لكنها تبقى غارقة في صميم اللامعقول».

كما نجد هذه الحالة من اللامعقول في مسرحية «كاليغولا» التي تتحدث عن إمبراطور يدعى (كاليغولا) عاش في بداية القرن الأوَّل للميلاد، وكان طاغية لم يعرف التاريخ لقسوته مثيلاً لها. ولقد قال يوماً:

الرواية ليس من منطلق عدد النسخ التي بيعت منها بل من منطلق الأسس الموضوعية التي اتخذها كامو كقاعدة عملية لانطلاقته الأدبية في هذه الرواية. فالمؤلف من خلال وصفه لمدينة «وهران» يقدم لنا لوحة كاملة ومتكاملة عن هذا الطاعون الذي عم المدينة كما عم المدن الفرنسية الأخرى خلال الاحتلال الألماني لفرنسا.

ويشبهه كامو جنود الاحتلال الألماني «بالجرازين القارضة» الخطيرة التي تنشر هذا الوباء بين السكان. والبطل في هذه الرواية يختلف عن جميع أبطاله في الروايات الأخرى لكونها مستوحاة من جو الحرب العالمية الثانية. لقد اجتاح الطاعون المدينة وانتزع من الجميع القدرة على الحب حتى على الصداقة لأنَّ الحب يتطلب القليل من المستقبل ولم يكن لدينا سوى بضع ثوان.

لقد انقطعت المدينة عن العالم وأصبحت في حالة حصار وانغلقت على ذاتها وكان هذا قدرها قبل حلول الكارثة. فوهران تدير ظهرها للبحر وتبني ذاتها حول ذاتها وكأنَّها تدور في حلقة مفرغة بحيث تشبه بتحركها هذا تحرك الحلزون، وطرفاتها فريسة الغبار والحصى والطقس الحار، وبنائها على موعد مع كل ذوق بشع من الشرق أو من الغرب. وهران تبدو

«الحياة ليست سوى مقبض ريح ولا مغزى لها». وتستولي عليه نظرة تشاؤمية عن الحياة بكل تلاوينها، فيتساوى عنده الموت والحياة، والعدل والظلم، والقليل والكثير، والحزن والفرح. وتصبح الحياة، على ضوء ذلك كله، غير جديرة بأن يبذل الإنسان فيها أي جهد لأن الأمر سيان فيها.

هذه الأمور أدت إلى سيطرة الجسد والنزوات والشهوات على العقل وإلى فقدانه الأمل والسقوط في مستنقع اليأس. فالتعامل مع كاليغولا صعب للغاية، لقد حطم كل شيء من حوله بحثاً عن حرية مستحيلة وجرياً وراء نزوة رومانسية تسيل فيها الدماء ألا وهي امتلاك القمر، أي بلوغ المستحيل. وهذا أمر لا يتحقق إلا بالموت أو العدم الذي هو آخر المرتكزات الرئيسية في فلسفة اللامعقول. وعلى الرغم من إخفاقه في الإمساك بالقمر بيديه كما كان يحلم، فقد ترعرع على مشاهدة الدمار. ونجده عندما رأى أخته جثة هامدة وكأنه قد وعى شيئاً ما حين قال: «إن الحياة تنتهي عاجلاً أم آجلاً بالموت». ولذلك عود نفسه على القتل لأن الحياة في نظره أصبحت لا أهمية لها، فالإنسان إما أن يكون عبداً لسيده أم عبداً لقناعته الذاتية. ومع ذلك يجعل كاليغولا العبثية تنطق وتقول: «هذا العالم كما هو مصنوع أصبح لا يُطاق. حاجتي

«ليت للرومان رقبة واحدة لقطعتها بضربة سيف واحدة». جامع أخواته ثم نفاهن إلى أماكن قصية وأمر بقتل جميع الغرباء. عاش حياة مليئة بالتناقض، وقد وُجد عنده دفتران سمى أحدهما: «الرمح»، والآخر «السيف». وعندما مات وجدوا لديه تابوتاً محشوياً بالسموم، فجاء الإمبراطور كلوديوس وأمر بإلقائه في البحر فماتت الأسماك من حوله. وكاليغولا جد نيرون الذي ارتكب الفواحش وأتى القبح. إنه طاغية يبحث عن اللامعقول والعبثية، فهو نموذج الإنسان المتمرد، ورجل الإرادة المطلقة التي تريد أن تتحدى الإرادة الإلهية. وبمعنى آخر إنه جلجامش الذي فقد بموت صديقه أنكي دو معنى الحياة. وكاليغولا فقد معنى الحياة بموت أخته دروزيلا التي أعلن عن عزمه الزواج منها وذلك على الرغم من أن هذه العلاقة مخالفة لناموس الآلهة.

ويقابل هذا التمرد على ناموس الآلهة الموت التراجيدي الذي لاقاه هو بنفسه. إنه شرير بامتياز ولديه موهبته لأن يكون أيضاً معذباً للذات. إنه حاكم مطلق يشرع القوانين ثم يخرقها بنفسه، ويبدل فيها كما تهوى نفسه، وغالباً ما يزدريها متباهياً بأنه لم يتوقف يوماً عن أن يعلم قومه دروساً في الحرية، لكنه في نهاية المطاف لم يتوصل إلى أي شيء لدرجة أنه أخذ يقتنع «بأن

جائرة، وهو يؤكد أن جميع الحقائق لا تساوي دموع الأطفال. كذلك فإن أكبر المتمردين هو نيتشه كما يعتقد كامو لأنه ثار على المذهبيين السائدين في عصره: المسيحية والاشتراكية، معتبراً أن الاشتراكية ليست سوى مسيحية منحطة، الاشتراكية هي العدمية أو اللامعقول. ولهذا السبب فقد نعته كامو بأنه آخر ألماني معادٍ للسياسة. فالإنسان يتمرد من أجل سلامة جزء من كينونته. ومن هنا يأتي التمرد وكأنه تعبير عن تصرف إيجابي، وفق منظور كامو، لأنه يكشف القسم الذي يستحق أن ندافع عنه في الإنسان. وحقيقة الأمر، فإن الرواية تظهر أن الإنسان المتمرد غير قادر على التكيف مع المجتمع وأن لديه ظماً إلى الكف عن الوجود.

بعد صدور «الإنسان المتمرد» توقف كامو عن النشر طوال خمس سنوات، لكنه عاد إلى المسرح من جديد بدءاً من العام ١٩٥٣م حين كتب مسرحية «جناز لراهبة» اقتبسها من الروائي الأمريكي وليام فوكر (١٨٩٧-١٩٦٢م) التي تحمل العنوان نفسه. وفيها يعالج فوكر مشكلات الإنسان في جنوبي الولايات المتحدة الأمريكية بأسلوب أدبي تميز بالرؤية والتحليل النفسي.

وفي غضون انشغاله بالمسرح أصدر كامو رواية «السقوط» ١٩٥٦م. ثم أتبعها

إذا إلى القمر أو إلى السعادة الأزلية، إلى شيء جنوني ربما لا يكون من هذا العالم. عندها ينتاب العقل التأثر والانفعال وشيء من الجنون».

وفي مكان آخر، يطلق كامو صرخة مدوية تجاه حياة دمرتها حربان كونيتان معلناً تمرد على هذا الواقع المرير الذي خلفته هاتان الحربان، كما نقرأ ذلك في روايته «الإنسان المتمرد» الصادرة في العام ١٩٥١م. ففي هذه الرواية نستشف من قراءة نصوصها «بأن الإنسان لا يتمرد إلا لأن سيده قد تمادى في ظلمه، ولم يترك هذا السيد لعبده أي فسحة للحرية، و«سبارتاكوس هو مثال العبد المتمرد في نظر كامو». هذا ويستعرض كامو سجل المتمردين منذ أيام الثورة الفرنسية وحتى عصره. فيها هو الماركيز الفرنسي دوساد (١٧٤٠-

١٨١٤م) الذي راح يطالب بحرية الغرائز، والذي زج به في السجن ٢٧ سنة. ويأتي بعده أبرز المتمردين إيفان كارامازوف في رواية «الأخوة كارامازوف» للكاتب الروسي دوستوفسكي. وإيفان يدشن المشروع الأساسي للتمرد عند الإنسان، كما يقول كامو. فهكذا يعلن إيفان عن نفسه بقوله: «إن سخطي باق حتى لو كنت على خطأ». أما الحقيقة إذا ما كان لها وجود فإنها مرفوضة في نظر إيفان، وما ذلك إلا لأنها

ظروف الاحتلال الفرنسي- في النشاط التقدمي ودعم الفكر الوطني التحرري. ولم يقصر نشاطه على الدعم النظري بل ساهم مساهمة جديّة في حركة المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي. في الواقع إنّ رواية «موت سعيد» تعكس مفهوم السعادة القائم على نظرية «الحرية المطلقة»، وبطل الرواية «ميرسو» موظف عادي يعمل في البريد، وهو يطمح كجميع البشر أن يكون سعيداً ولكن عن أية سعادة يجري الكلام لطالما يقيدته البؤس بقيوده، منذ الشباب. ولذلك فإن القضية الأساسية التي يناضل من أجلها «ميرسو» هي مسألة التحرر والانعتاق الاقتصادي، وهي في واقع الأمر القضية التي عانى منها المؤلف شخصياً، وكأن الرواية سيرة ذاتية للمؤلف نفسه. وي طرح بطل الرواية على نفسه هذا السؤال: هل يجوز أن يفعل الإنسان ما يريد ويتصرف كما يشاء للحصول على السعادة؟ وهنا يقع المؤلف نفسه في تناقضات ضمنية لم يستطع الإجابة عليها خلال فترة طويلة من الزمن بل حتى آخر حياته.

ومن الواضح أنّ هذه الرواية قريبة جداً من حيث المحتوى وتسلسل الأحداث من رواية «الغريب». حتى إن بعض النقاد يقولون: «إنّ الكاتب كامو لم ينشر رواية «موت سعيد» في حياته لأنّه وجد لها بديلاً

بعد سنة واحدة المجموعة قصصية جديدة بعنوان «المنفى والملكوت». كما كتب رواية لم تنشر في حياته وعنوانها «موت سعيد». وعندما يطلع القارئ على هذه الرواية الأخيرة يعتقد بأنّها جاءت كخاتمة لنتاجه الأدبي. لكنّ في واقع الأمر إن هذه الرواية قد كتبت بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٨م، ومن هنا يتضح أنّها كانت الرواية الأولى للكاتب، وقد كتبها كامو وبقيت في أدراجه ولم تنشر إلا بعد وفاته. إنها الرواية التي تعكس أكثر من أي عمل آخر مرحلة الشباب للكاتب. يعيش بطل الرواية «باتريس ميرسو» في حي جزائري وفي ظروف اجتماعية فقيرة وقاسية للغاية، وهذه الحياة ليست غريبة على الكاتب، قد عاشها وعانى منها شخصياً منذ الصغر وتحدث عنها بإسهاب مركزاً على تلك الحوادث التي مرّ بها خلال الطريق إلى براغ وفيينا، وبعض اللقاءات مع النساء اللواتي عرفهن في حياته، وخاصة أيام الشباب. ومن خلال هذه المذكرات يتعرف القارئ على الكثير من نواحي حياة الكاتب غير المعروفة.

والجدير بالذكر أنّ هذه الرواية قد كتبت في الثلاثينيات في الجزائر. وفي تلك الأيام ساهم فيها المؤلف -انطلاقاً من موقعه الطبقي الفقير، ومن شعوره بالمسؤولية أمام الشعب الجزائري، المغلوب على أمره تحت

في أن أغير وجه العالم، فأنا لم أعطَ من المواهب والفضائل ما يسمح لي في بلوغ هذه الغاية، ولكنني مع ذلك أحاول أن أدافع عن بعض القيم التي من دونها تصبح الحياة غير جديرة بأن نحياها ويصبح الإنسان غير جدير بالاحترام. ومن هذه القيم عدم إلقاء السلاح أمام مواجهة الحياة التي تتطلب منا أن نؤدي واجبنا الاجتماعي.

وخلافاً لأقرانه من الأدباء ذاق كامو حياة البؤس والوحدة القاسية والفقر إلى درجة القول: «إنني لم أتعلم الاشتراكية من كارل ماركس بل من الحياة التي عشتها والتي علمتني أن أحب الزهد والقناعة والعزوف عن نزعة الامتلاك. فمئذ طفولتي لم تقتر همتي عن خدمة الإنسانية المقدسة». وكل هذا أضفى على حياته نوعاً من القدسية لدى جيل كامل من الكتاب والفلاسفة. لقد صنع بكتابات من البؤس والفقر والحرمان دروساً في الحياة وفلسفة جعلته على الرغم عنه، قدوة أخلاقية لجيله خلال فترة الخمسينيات من القرن الفائت، وبالفعل لقد ساهمت فلسفته في تنمية الإحساس بالتشاؤم وعبثية الحياة لدى كتاب آخرين. ومن أبرزهم الكاتب الإيرلندي صموئيل بيكيت (١٩٠٦-١٩٨٩م) الذي كتب مسرحيات وروايات عن الخيبة واليأس من عبثية الوجود الإنساني مثلما نشاهد في

في رواية «الغريب»، ومما يؤكد ذلك هو أنه يوجد بين الروايتين الكثير من أوجه الشبه. فالبطل يسمى بـ«ميرسو» في كلا النتاجين، وكلا البطلين مصابان «بحب الذات» والأنانية الخالصة. وفي كل من الروايتين يتضح أن الكاتب نفسه كان يعاني من وضع صحي قلق للغاية بما في ذلك مرض «السل». ولقد أدى هذا وغيره إلى أن يعكس كامو من خلال بطله «ميرسو» الكثير من معاناته الذاتية.

وهكذا تبقى معظم مؤلفات كامو لا موضوع لها سوى الكابوس أو حالة الحصار التي تتيخ بكامل ثقلها على إنسان القرن العشرين الشديد الإرهاب. هذا هو الحال في مجمل روايات كامو ومسرحياته حيث إن النماذج التي يأخذها كأمثلة على التمرد هي شخصيات كابوسية ليست بعيدة عن الجنون. فنمط تفكيره وأسلوبه العاري من البهجة اللفظية والإشعارات الباردة، كل هذا جعله عزفاً منفرداً وسط نشوز الآخرين. وحين طلبوا منه أن يحدثهم عن أمه اكتفى بهذه العبارة الموجزة: «كانت امرأة شجاعة جداً، وصامتة مثل جميع الفقراء». وفي مجال آخر كتب يقول:

«أنا لا أبغض العالم الذي أعيش فيه ولكنني أشعر بأنني متضامن مع الذين يشقون ويتعذبون فيه. إن مهمتي ليست

يدفعانها إلى الزهد في الحياة والهرب منها من دون أن تظهر المرأة ذلك علانيةً. ولكن إذا أرادت أن تهرب فإلى أين؟ فالطريق مسدود أمامها.

وجوهر القول إن هذا الشعور الذي ينتاب المرأة الناجم عن الروتين ورتابة الحياة لا يعني مطلقاً بأنها تكره زوجها وأولادها وبيتها ولكن معناه رغبتها الدفينة في أن تخرج من هذا القفص الذهبي الذي تجدد نفسها فيه حبيسة وسط جدرانها، لتقتل الروتين الذي يفرض عليها قيوداً وواجبات لم تستطع منها فكاكاً. ومهما كانت شخصيتها قوية فهي لا تستطيع أن تتحرر من قبضة هذه القيود الاجتماعية. تلك هي إحدى الحالات التي تجعل المرأة ضحية شعورها بعدم جدوى الحياة، بغض النظر عن حالة الشيخوخة التي تهدد كيان المرأة الطريفة دوماً للرجل. فالرجل يعيش كل فصول العمر من دون أن يترك ذلك أي أثر على شخصه خلافاً للمرأة التي لا تعرف في حياتها إلا فصلاً واحداً ألا وهو فصل الربيع.

من هنا يأتي زواجها ليشكل خطراً حقيقياً عليها لأنه يضعها في خدمة زوجها وتربية أطفالها، مما يجعل حياتها لا معقولة وبلا معنى. والأنكى من ذلك كله هو أن الآباء غالباً ما يلقون على عاتق زوجاتهم مسؤولية الأطفال وفشل دراستهم». وضمن

روايته بعنوان: «في انتظار غودو» التي سمحت له في الحصول على جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٦٩م، وأيضاً في كتاب «نظرة إلى الحب والحياة» للآدبية الطيبية الكندية ماريون هيلبارد (١٩٢٧م) في جامعة تورينو حيث كتبت تقول:

«لقد قرأت مؤلفات ألبير كامو واستخلصت منها المزيد من العبر، وأيقنت بأن لا شيء يدفع المرء إلى الهروب من الحياة أقوى من الشعور بعدم جدوى الحياة. لكن هذا الشعور ينتاب المرأة بشدة أكثر مما ينتاب الرجل ويترك أثراً مأساوياً عميقاً في كينونتها يكون أشد عمقاً من ذلك عند الرجل. وحسبنا أن نعطي مثلاً بسيطاً على ذلك: إن صورة الحياة عند الرجل هي في تغيير مستمر، وهذا التغيير يلمسه خلال وجوده في عمله، وفي قراءته، وفي طريقه إلى مكتبه صباحاً والعودة منه مساءً، بينما صورة الحياة عند المرأة تبقى ثابتة ولا تتلون. إنها الصورة نفسها التي تبقى أمام عينيها بدءاً من شروق الشمس وحتى غروبها، وهي صورة زوجها وأولادها وبيتها والأطباق الطيبة التي ترغب في إعدادها لهؤلاء الذين ترعاهم كل يوم وتعتبرهم وكأنهم يملؤون حياتها.

في الواقع، إن صورة الحياة عند المرأة هي الروتين ورتابة الحياة اللذان غالباً ما

مهجورة ويلوكني الجيران بأشع الكلمات، فأبوك لا يتأثر بذلك مثلما أنا أتأثر به. «هنا تريد سيمون دو بوفوار أن تقول» بأنه على الرغم من قوة شخصية دومينيك ونجاحها في الحياة فهي تعرف بأن خللاً في نمطية العيش المشترك سيخلق المرأة حتى تلك الناجحة اجتماعياً. وهكذا ستبقى المرأة لا تساوي شيئاً عند الرجل، وهي من دونه نصف فاشلة أو «فضلة».

ولعل هذه الحالة من الاغتراب للمرأة هي التي دفعت مؤخراً بالكاتبة الفرنسية «كورين ماير» إلى أن تصدر في العام ٢٠٠٩م كتاباً بعنوان: «فوبيا الولادة» حيث تتضمن صفحاته معلومات غريبة ومثيرة: لسننا بحاجة إلى ولد حتى نعيش. أيتها النساء ارفضن أن تكن بطوناً جواله، اطرودوا من عقولكن فكرة الولادة والمخاض. إن الولد هو جرح في الجسد، وأن الولادة حدث همجي مثل الموت فهي تنبئ المرأة بأن وجودها عرضي في هذه الحياة. أن نولد أطفالاً فهذا يعني أننا ننطلق من نزعة قبلية وعشائرية أو أننا نستجيب لأسطورة الخلود والأبدية، فلا مانع من استخدام منع الحمل والإجهاض حتى تكوني، يا سيدتي، في مأمن من غضب الرجل الذي يلقي عليك مسؤولية كل ما يحل في الكون من مصائب وكوارث.

هذا السياق تحذر الكاتبة ماريون المرأة من هذه الحالة من العيش المتمثلة بالزواج والأطفال ورتابة الحياة راجيةً منها أن تمسك مصيرها بيدها وأن تشق طريقاً لها في المجتمع، وألا تستيقظ يوماً وترى أولئك الذين ضحت من أجلهم قد تخلوا عنها يوماً. وإنها الحالة نفسها التي تحدثت عنها الكاتبة الفرنسية «سيمون دو بوفوار» في كتابها الصادر بعنوان: «الجنس الآخر» حين أشارت إلى هذه الحالة الصعبة التي تعيشها المرأة نتيجة عدم قدرتها على التحرر من قبضة المجتمع. والكتاب يحكي قصة «دومينيك» وهي امرأة ناجحة في عملها وفي منزلها وتعمل في مجال يرضي غرورها، وتعيش مع جيلبير وهو غني وطموح. وفي أحد الأيام يعلن جيلبير لابنته لورا بأنه سيتترك أمها على الرغم من أنها أصبحت في عمر الـ ٥٠ عاماً، وهذا ما يعطيها سناً أكبر من أي رجل في عمرها إذا ما فكرت يوماً البدء من جديد في علاقة مع الرجال.

إن دومينيك مدركة تماماً بأن امرأة بعمرها سيكون من الصعب عليها أن تعيد بناء حياتها من جديد، وهنا تحزن كثيراً، فتسألها ابنتها: لماذا تريدين يا أماه الاحتفاظ برجل بالقوة لطالما بدا لا يحبك؟ فتجيبها الأم: كي لا أصبح امرأة

توجد أعاصير وتقلبات مناخية ناجمة عن ظاهرة التسخن. وفي آخر إحصائية نشرها معهد (إيفوب) الفرنسي للرأي العام أفاد في تقرير صادر عنه في ١٢/٢/٢٠١٤م أن ثلاث نساء في فرنسا من أصل خمس بدأن يفضلن عدم الإنجاب».

بعد هذه اللمحة عن نشاط الكاتب البير كامو علينا التوقف بعض الوقت عند سيرة حياته التي تروي لنا بأنه ولد في العام ١٩١٣م في الجزائر ضمن أسرة عمالية فرنسية فقيرة. تطوع والده في الجيش الفرنسي حين بدأت الحرب العالمية الأولى فقتل في معركة المارن في العام ١٩١٤م بعد أن أنجب ولدين أصغرهما: البير. أمّا الزوجة فكانت أمية وقد اشتغلت كخادمة في بعض بيوت الأغنياء بمدينة الجزائر. دخل البير المدرسة ١٩١٨م ثم تلقى علومه العليا في جامعة الجزائر (قسم الفلسفة)، انقطع عن الدراسة الجامعية لإصابته بمرض السل الذي لازمه بعد ذلك طوال حياته، وكان يقعه في بعض الأحيان عن العمل. وبعد سنة من انتسابه إلى الجامعة تزوج من ابنة طبيب تدعى «سيمون هي»، لكنه سرعان ما اكتشف إخفاق حياته الزوجية فأقدم على الطلاق في العام ١٩٣٤م. وفي هذا العام انتسب إلى الحزب الشيوعي الذي استطاع كامو من خلاله أن يؤسس

وها هو الكاتب والطبيب الألماني بول إيرليك يوضح في كتابه «القنبلة» الذي تُرجم في العام ١٩٦٨م إلى الفرنسية «بأنّ زيادة عدد سكان الأرض سوف يقضي على الأرض، ولذا فإنّ أفضل طريقة لتفادي ذلك يكمن في عدم إنجاب الكثير من الأولاد، وهنا تقع المسؤولية على المرأة». بيد أن الكاتبة الفرنسية فرانسواز دوبون ترد عليه ساخرة في صحيفة «لوموند ديبلوماتيك» الفرنسية الشهرية الصادرة بتاريخ ١ أيار ٢٠١١م، بقولها: إنّ نصف نساء العالم غير قادرات على أن تفعل ذلك، ولا يستطعن التحكم في خصوبتهن. لذا، فالمسؤولية تقع بالدرجة الأولى على الرجل الذي مثلما يغتصب الأرض فهو يغتصب المرأة، فالطبيعة هي الأم والغابات هي البنات. ونقول عادةً غابات عذراء. لكن الرجل هو الذي يأتي إليها ليقتلع الأشجار ويبيعها. ومؤخراً شاهدنا نساء هنديات يضممن أشجاراً بين أيديهن بعد أن علمن بأنّ التجار سوف يقومون بقطعها من أجل بيعها وتحويلها إلى ورق. إنّ الرجل هو المسبب الأول للكوارث التي تصيب عالمنا الأرض. وحرّي بنا أن نذكر بأنّ أوّل من قاد المظاهرات ضد المفاعلات النووية هي المرأة في ألمانيا. وفي بريطانيا تتعرض ١٠ آلاف امرأة لعوارض صحية خطيرة عندما

العام ١٩٤٧م بعد أن استوحاها من جوّ الحرب العالمية الثانية، ومسرحية «حالة الحصار» ١٩٤٨م وهي شديدة الشبه برواية «الطاعون». ومسرحية «العدلون» ١٩٤٩م التي استوحاها من نشاط الإرهابيين الروس عام ١٩٠٥م والتي تعالج موضوع العدالة المطلقة في هذا العالم. وأخيراً نشر كامو في الآونة التي تلت الحرب العالمية الثانية كتاب «الإنسان المتمرد» في العام ١٩٥١م، وهو أشهر مؤلفاته على الإطلاق.

وتزوج كامو مرة ثانية في العام ١٩٥٩ والزوجة هي «فرنسيس فور»، وأنجب منها طفلة أطلق عليها اسم كاترين. وخلال وجوده في الجزائر عمل صحفياً في عدد من الصحف التي تهاجم الاحتلال الفرنسي، وكان يكتب فيها مقالات وتحقيقات مفصلة عن الفقر والظروف الصعبة التي كان يعيشها العرب في بعض المناطق بالبلاد، ونُشرت هذه المقالات فيما بعد في يومياته عام ١٩٥٨م. وفي إحدى مقالاته التي نشرتها جريدة «المساء الجمهورية» التي ترأس تحريرها في العام ١٩٣٩م كتب موضعاً المزايا التي يجب أن يتمتع بها الصحفي وهي: الوضوح، الرفض، السخرية، والعدا. والصحفي الحر هو الذي لا يجعل لليأس مكاناً في قلبه وهو الذي يناضل من أجل ما يظنه بأنه حقيقي نظراً لما في ذلك من انعكاسات جيدة على مسار الأحداث. وهكذا

مسرح العمال في مدينة الجزائر. وفي العام ١٩٣٦ تخرج من الجامعة وكان قد أتم عامه الثالث والعشرين حيث نشر أول كتاب له بعنوان: «الوجه والقفا»، وفيه يتحدث عن طفولته وعن الفقر الذي عاشه خلال هذه المرحلة من حياته، معلناً بأنه وجد في البحر والشمس تعويضاً عما يفترق إليه من وسائل العيش. وفي العام ١٩٣٧م نشر كتاباً آخر بعنوان: «أعراس» وهو وصف ساحر لشاطئ الجزائر الجميل حيث يستمتع الناس بالصحة المتوافرة في أجسادهم وهم يسبحون في البحر وينتشون بنور الشمس، ولقد ظل كامو طوال حياته مغرماً بالبحر والشمس معاً.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية ذهب ليتطوع في الجيش الفرنسي لكن الجيش رفضه لأنه مريض ومصاب بمرض السل، فما كان منه إلا أن رحل إلى مدينة وهران حيث أقام فترة لا بأس بها وعمل بعدها في الصحافة. لكن مؤلفاته الهامة أخذت تتوالى منذ العام ١٩٤٢م حين نشر رواية «الغريب»، ثم رواية «أسطورة سيزيف» في العام ١٩٤٢م أيضاً. كما بدأ يهتم بالمسرح فأنجز مسرحيات عدة منها «سوء التفاهم» ١٩٤٤م وتتمحور حول دور المصادفة وعبثية الحياة، ومسرحية «كاليغولا» ١٩٤٥م، ورواية «الطاعون» ذات الطابع الكابوسي التي صدرت في

في العام ١٩٥٧م نال كامو جائزة نوبل لآداب، فاشترى بيتاً جميلاً في قرية «لورمان» الفرنسية الواقعة إلى الجنوب من باريس وقد ظل يسكنه حتى وفاته التي وقعت في ٤ كانون الثاني في العام ١٩٦٠م. فبينما كان مسافراً إلى باريس في سيارة يقودها صديقه الناشر ميشيل غاليمار اصطدمت السيارة بشجرة ضخمة فقتل الكاتب على الفور ولم يكن عمره يومذاك سوى ٤٦ عاماً. وبذلك انتهت حياة هذا الرجل غزير الإنتاج. فكامو الذي حاول أن يفلسف اللامعقول مات هو نفسه ميتة لا معقولة. وقد رثاه صديقه جان بول سارتر بقوله: «إنَّ الحادث الذي مات فيه كامو يعتبر فضيحة لأنه يكشف للجميع سخف هذه الحياة ويكشف سخافة أشد حماقة وهي ما الذي نريده من الحياة، فهل هي جديرة بأن نعيشها ونحياها طالما أن نهاية الإنسان هي الموت؟».

بعد رحيله عن هذا العالم تمَّ إحياء ذكرى ولادته ووفاته، وكان آخرها اليوم السابع من شهر تشرين الثاني للعام الفائت ٢٠١٣م حين احتفلت الأوساط الأدبية الفرنسية بمرور ١٠٠ سنة على ولادته. وسوف تصدر ابنته كاترين صاحبة الحق بإرث الكاتب ألوماً بعنوان: «العالم في تقاسم» حيث تتناول فيه سيرة حياة والدها الذاتية والأدبية معاً.

يقاس الصحفي المستقل بما يكتبه ويقوله عن قناعة وليس كما يُملَى عليه أن يكتب، وإلا فستكون كتاباته نوعاً من حشو الأدمغة بمواد كاذبة تخدم الكذب والرياء. ناضل في الحزب الشيوعي للحصول على المساواة بين العرب والأوروبيين لكنه استبعد عن الحزب في عام ١٩٣٦م فأحس بالاشمئزاز من هذه العقيدة السياسية. وفي هذه الفترة كتب مقالاً بعنوان «تجار الموت» وفيه يتهجم على أثرياء الحروب الذين يستثمرون هذه الحرب لمنافعهم الخاصة وخاصة تجار الأسلحة الذين سرعان ما يصبحون أثرياء. ولهذا السبب طالب بتأميم المصانع التي تنتج السلاح في فرنسا. كما انتقد سياسة المستعمرين تجاه البلاد المستعمرة حيث يمارسون العنف والاضطهاد ضد كل من يقف ضد وجهة نظرهم. وعلى أثر ذلك منعت الجريدة من الصدور وأحيل كامو إلى البطالة. لكن بفضل زميله «باسكال بيا» تمكن من العودة إلى باريس للعمل في صحيفة «مساء باريس» في العام ١٩٤٠م، وقد تحولت هذه الصحيفة إلى طراز جديد من الصحافة التي ترتفع إلى مستوى الفكر الرفيع. كما واشتهر عندئذ بسلسلة من المقالات عنوانها: «لا ضحايا ولا جلاذون»، وكلها تدعو الناس إلى التصرف من خلال الالتزام بالمبادئ الأخلاقية.

المراجع

- ١- جريدة «لوفيفارو» الفرنسية، تاريخ ١٧/١١/٢٠١٣م.
- ٢- جريدة «لوموند ديبلوماتيك» الشهرية الفرنسية الصادرة عن شهر أيار ٢٠١١م.
- ٣- جريدة «لوموند» اليومية الفرنسية، تاريخ ١٧/٣/٢٠١٢م (مقال بعنوان: واجبات الصحفي من وجهة نظر ألبير كامو، بقلم: ماشا سيرى).
- ٤- جريدة «لوموند»، تاريخ ١٢/٢/٢٠١٤م.
- ٥- «موسوعة لاروس الكبرى» الفرنسية، الطبعة الصادرة لعام ٢٠٠٣م.
- ٦- شبكة «النبأ» للمعلوماتية، تاريخ ١١/١/٢٠١١م.
- ٧- جريدة «الرأي» الأردنية، تاريخ ١٦/١١/٢٠١١م.
- ٨- موجز لكتاب «نظرة إلى الحب والحياة» تأليف الدكتورة ماريون هيليارد.
- ٩- جريدة «الأهرام» المصرية، تاريخ ٤/١/١٩٩٨م، مقال بعنوان: ألبير كامو فيلسوف العبث، بقلم: غادة الشرفاوي.
- ١٠- جريدة «البعث»، تاريخ ١٩/١١/١٩٨٢م، مقال بعنوان: جولة في أدب ألبير كامو، بقلم ماجد علاء الدين.
- ١١- مجلة «الحرية»، تاريخ ٣١/١٠/١٩٩٣م، مقال بعنوان: ألبير كامو، من طفولة الفقر إلى أدب التمرد وكابوس الحياة، بقلم: يوسف سامي اليوسف.
- ١٢- جريدة «النهار» اللبنانية، تاريخ ٢٨/٣/١٩٩٠م، مقال بعنوان: ألبير كامو أقوى من قدره، بقلم: عبد الله عازار.
- ١٣- جريدة «النهار»، تاريخ ٢٩/٣/١٩٩٠م، مقال بعنوان: ألبير كامو، الحب وذاك النور، بقلم عبد الله عازار.
- ١٤- جريدة «الثورة»، تاريخ ٨/١٢/١٩٨٤م، مقال بعنوان: ألبير كامو، أدب الحياة وحياة الأدب، بقلم محمد مصطفى درويش.



الجهاز المناعي النفسي



د. ناصر ملّوحي



يُدرس الجسم البشري علمياً كأجهزة متعددة مثل الجهاز العصبي والتنفسي والهضمي والعضلي والقلبي- الوعائي.. وذلك دراسة تشريحية ووظيفية ومرضية.. وسوف نثبت في هذا البحث وجود جهاز آخر ندرس فيه العلاقات المتداخلة بين ما هو نفسي وجسمي واجتماعي، ندعوه الجهاز المناعي النفسي -Immuno Psychological System^(١)، وسنرى برهانه تاريخياً ومخبرياً وواقعياً ومستقبلياً.. فما هو؟ وما هي بنيته وعناصره ووظيفته؟ فالجهاز المناعي النفسي هو بمثابة جهاز امتصاص للصدمات والتحديات والأزمات وتحليلها والرد إيجابياً عليها بشكل يحفظ

✿ أخضائي في أمراض الأنف والأذن والحنجرة.

إيها في ميدان التعلم للإجابة على ذلك السؤال.

فمدرسة الإشراف الكلاسيكي - مؤسسها بافلوف- وجدت أن بعض الكائنات الحية توصلت مع السنين إلى صياغة بعض أنواع السلوك الذي يصعب تشريطه كنبش الخنزير الأرض بخرطومه وخربشة الدجاج بأرجله إلى ما هنالك من سلوك غريزي، وكذلك ظاهرة تجنب الطعم BIT SHYNESS عند الحيوانات^(١)، إن تلك الأنماط من السلوك والمعروفة بعلم النفس باسم الانجراف الغريزي STINCTIAL DPIRIFT بالإضافة إلى ظاهرة النوم أو النوام (نوم جزئي) والتي يلجأ إليها الحيوان للتخلص من ضغط المثيرات التي قد تسبب له العصاب (التوتر، الهيجان..) إذا ما استمر في الخضوع لها - وذلك وفق آليات الكف التي شرحها بافلوف على كلابه^(٢) - تشكل للكائن الحي ما يمكن أن نطلق عليه جهاز مناعي- نفسي^(٣) تجنب الحيوان مكامن الخطر ويضمن له بعض شروط بقائه.

وفي حين يصعب علينا القول بمفهوم الغريزة^(٤) عند الإنسان لافتقاره إلى منظومات سلوك منمطة مسبقاً إلا أننا نستطيع تلمس جهاز مناعي نفسي لديه يقابل ذلك الذي وجدناه عند الحيوان، فقد وجد علماء النفس البياجيين (نسبة لجان بياجيه) أن عمليات التعلم عند الإنسان تنطوي على الفهم، وهي تتم عن طريق خلق منظومات نفي مناسبة،

التوازن العضوي نفسياً وعقلياً وجسماً واجتماعياً، بحيث يستطيع الإنسان الهادئ والمفكر والناقد أن يمتلك الإرادة والقدرة على تحويل القوى السلبية الضارة إلى قوة إيجابية نافعة.

فمن المعروف أن مجموعة معقدة من المثيرات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإقليمية والدولية تسهم مجتمعة في إيصال الشخص إلى حالات من الانزعاج والتوتر النفسي، هذا التوتر^(٥) الذي إذا ما أصبح مزمناً وفشل المرء من خفضه وفق الآليات المعروفة بعلم النفس بآليات خفض التوتر، فإن هذا التوتر المزمن سوف يؤثر على العضوية وفق الآليات الهرمونية والمناعية والعصبية مما يؤدي إلى إصابة الفرد بالمرض الجسمي ذي المنشأ النفسي^(٦)، ولكن السؤال الذي لا بد من الإجابة عليه هو:

هل لا بد من حدوث النتيجة (المرض) في حال التعرض للمثيرات السالفة الذكر؟ الملاحظة تبين أن درجة الإصابة تختلف من إنسان لآخر، وقد لا يتعرض للإصابة أبداً، فما من حتمية في حدوث المرض في حال التعرض للمثيرات النفسية ولكن كيف يمكن البرهنة على ذلك؟

- السلوك البشري:

تعتبر جل مدارس علم النفس أن السلوك متعلم^(٧) بما في ذلك المرض النفسي والاجتماعي والمرض الفكري- الثقافي^(٨)، لذا لا بد من الاستفادة من النتائج المتوصل

وأيّما أن يحدث التوتر النفسي والانزعاج الدائم لعدم الوصول إلى التكيف، ويبدو تعقد المشكلة وخطورتها إذا تمّ هذا التناقض بين نموذجين متعلمين على درجة واحدة من الرسوخ كأن يجد شاب تزوج حديثاً أن زوجته ذات طبع ومواقف مغايرة تماماً لتلك التي تعلمها هو، فإذا أضيف إلى ذلك شعور أحد الطرفين أو كلاهما بضرورة توحيد المواقف والاتجاهات حسبما هو سائد في مجتمعنا - بمعنى عدم قبول الرأي الآخر- فإنّ هذا الوضع سيخلق توتراً وانزعاجاً لا يمكن خفضهما إلاّ إذا تمتع أحد الطرفين أو كلاهما بمرونة تسمح بإجراء التعديل المناسب للوصول إلى التكيف، فإذا ما كان هذا العامل مفقوداً هو الآخر فإنّ التوتر المزمن سوف يظهر على شكل اضطراب نفسي جسدي (سيكوسوماتي) كالقرحة الهضمية أو ارتفاع الضغط الدموي.. أو اضطراب اجتماعي كالخلافات العائلية المستمرة.. أو اضطراب نفسي كعصاب القلق.

- التنشئة الاجتماعية:

من هنا نجد أنّ الجهاز المناعي النفسي عند الإنسان -والذي تمثل القدرات العقلية قوامه الرئيسي- هو جهاز متطور عن ذاك الذي أشرنا إليه عند الكائنات الأدنى، فهو لا يعمل بالية واحدة كسلفه لأنّ القدرات المكونة له يتم تشكيلها حسب مراحل النضج وحسب معطيات البيئة المتمثلة بالتدريب

إذ حين يتعلم الإنسان معطيات جديدة عليه أن يشعر أولاً بوجود ثغرة بين ما تعلمه سابقاً والمعطيات الجديدة ومتى شعر بها فإنه يقوم بعملية بناء لنفيها.

- البناء المعرفي للفرد:

والشعور بهذه الثغرة بين المعطيات المتعلمة سابقاً والجديدة يتم بوساطة قدرات عقلية يبنها الفرد خلال مراحل نموه^(١) المتعاقبة هذه القدرات مثل المقلوبية، المحافظة على الكمية، الاستدلال^(١١) وهي قدرات يبنها الفرد اعتماداً على قدرة عقلية أبسط سابقة على التعليم هي الموازنة The Process Equilibration التي تهدف إلى القضاء على مختلف أشكال التناقضات التي تبدأ بشعور الفرد أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام، فيصاب بالانزعاج وهو مانسميه بالاضطراب أو الصراع بين ما هو متوقع وما هو موجود، فالاضطراب يطلق بعض التنظيمات Pequtation تهدف إلى التكيف، وهو الهدف النهائي لعملية الموازنة حيث يتم دمج المعطيات المتعلمة حديثاً مع تلك القديمة، والتوتر النفسي وحتى المرض النفسي إنّما يحدث عندما لا يستطيع الفرد تمثل المعطيات الجديدة حيث يكون غير قادر على نفي العلاقات المتعلمة سابقاً أو تعديلها بما يسمح بإدخال المعطيات الجديدة في البناء المعرفي للفرد، وفي هذه الحالة إنّما أن يعدل من المعطيات الجديدة ويبدأ بفهمها على ضوء الخبرات السابقة،

يتم تعلمها على طريقة الكائنات الدنيا بشكل آلي كالإشراط والارتباط إلى غير ذلك من أنواع التعليم الآلي الذي لا يسمح بتدخل إرادة الفرد بل تكون الاستجابة آلية بحسب المثير إشراطاً أو اقتراناً، فإذا أضفنا إلى ذلك أن حجم المتعلم بهذه الأشكال الآلية من التعلم تشكل نسبة غير قليلة مما نتعلمه فإن هذا يشكل زعزعة للقول بنفي حتمية الاستجابة الواحدة لمجموعة من المثيرات والذي بدأ قريب المنال فيما لو كان التعلم قائماً دوماً على الفهم حيث تتدخل ما نسميه الإرادة، والتي هي مجموعة المواقف والمبادئ المتبناة في المعطى الجديد ليصار إلى دمجه في المنظومة المتعلمة سابقاً والوصول إلى التكيف الذي يزيل التوتر.

ولحل هذا التناقض سوف نأخذ مثلاً عن التعلم الآلي، وهو التعلم عن طريق الإشراط، ولنسأل كيف يتم الإشراط؟ وبالتالي لمعرفة ما إذا كان يحدث بشكل مستقل عن ميول الإنسان ورغباته وتصورات أم لا.

يملك كل فرد مجموعة من الأفعال المنعكسة، والفعل المنعكس هو اتصال عصبي مستمر فطري وغير مشروط، يوجد في كل أفراد النوع، مكانه ومصدره كل من النخاع الشوكي والنخاع المستطيل وبعض النوى الدماغية.

هذه المراكز الثلاث هي مراكز الفعل اللاإرادي تكمن تحت القشرة الدماغية أي

والمران، كما أن هذا الجهاز الذي يهدف لإيصال الفرد إلى التكيف والمتعلق بعمليات الفهم يتأثر من طرف آخر بكل أنواع المواقف والمبادئ التي يتبناها الفرد- أي بكل نظامه المعرفي والثقافي ومواقفه ودوافعه المكتسبة - وارتباطه هذا بالمعطيات المختلفة الكثيرة يجعله يعمل بصورة مختلفة كلياً أو جزئياً بين فرد وآخر.

ولتوضيح هذه النقطة علينا أن نؤكد مفهوم الفروق الفردية وليس المقصود بذلك الفروق بالقدرات العقلية -والتي لا نهمل تأثيرها- والفروق الفردية المقصودة هنا أساساً تعني اختلاف ظروف تنشئة الأفراد الاجتماعية والتي يكون الفرد على أساسها قيمه ومعاييرته حتى الأشقاء في الأسرة نفسها لا يخضعون لظروف ومؤثرات واحدة وبالتالي لن يتبنوا قيماً ومعايير متطابقة، مما يجعلهم يسلكون تجاه عملية التكيف من مشكلة ما سلوكاً مختلفاً، ولكن يجب عليهم عند اختلاف وجهات النظر تجاه قضية معينة، أن يتبعوا آليات الحوار الهادئ والنقد الهادف لتقارب تلك الآراء المتعددة والمختلفة، وأن يتجنبوا مظاهر التشنج وعلامات التوتر كالصراخ والعراك لأنهم بالأصل أخوة، عليهم أن يكونوا متحابين متعاطفين فيما بينهم.

- التعلم الآلي:

إن الإنسان لا يتعلم عن طريق الفهم فقط إذ هناك كثير من المخاوف والمواقف

على أن الانعكاسات المشروطة يتصل عملها بالحاء، فإذا أزيلت القشرة المخية بأكملها من الحيوان تختفي كل الانعكاسات المشروطة التي تكونت فيما سبق، بينما تبقى الانعكاسات غير المشروطة التي تقع تحت اللحاء (النخاع المستطيل، النخاع الشوكي والنوى)^(١٤).

- القشرة الدماغية:

وهكذا يتضح لنا أن القشر الدماغية هو المسؤول عن تكوين الفعل المنعكس الشرطي لذلك سنرى بأن الفعل المنعكس الشرطي عند الحيوانات الدنيا يختلف عنه عند الحيوانات الأرقى، وذلك عائد إلى اختلاف تكوين وتعقد القشرة الدماغية باعتبارها منظمة للسلوك ومركز الذاكرة ومقر الأفعال الإرادية، فعلى حين لا نستطيع تشريط فراشة ضد اللهب فهي ما تنفك تسقط عليه حتى تحترق، فإن تطور وتعقد القشرة المخية للكلب أو القط تسمح لنا من خلال ممارسة العديد من التشريطات إقامة صحبة معه.

ولما كان الإنسان يتميز عن الحيوانات بقشرة دماغية متطورة ومعقدة جداً حيث تقوم بعمليات التفكير وما تتضمنه من قدرات عقلية نوعية كالمحاكمة والإدراك والتخيل والانتباه والاستدلال إضافة لذاكرة

هي مراكز غير عاقلة، والأفعال المنعكسة لا إرادية تشطّ سلوكاً معيناً أو تكف هذا السلوك، وهي تضمن وظائف الكائن الرئيسية كالبحث عن الطعام والنشاط الوقائي، وتدعى هذه النشاطات بالدوافع أو الرغبات^(١٥)، أمّا الفعل المنعكس الشرطي فيتكون بالاتحاد بين مؤثر محايد (ثانوي) ومؤثر لا شرطي (المنعكس العصبي)، فإذا كان المؤثر الثانوي هو صوت الجرس، والمنعكس العصبي هو المنعكس اللعابي بتأثير الطعام فإنّ الفعل المنعكس الشرطي يتم بالشكل التالي:

يذهب المؤثر الثانوي (صوت الجرس) من الأذن خلال العصب السمعي إلى المركز السمعي في النصفين الكرويين المخيين، وتتكون بؤرة من الإثارة السمعية في خلايا المركز السمعي، ولما كان هذا مصحوباً بالغذاء فإن بؤرة أخرى من الإثارة أشد وأقوى تنشأ في الجهاز العصبي، وتتحوّل العملية العصبية من المركز الضعيف (السمع) إلى المركز الأقوى (اللعاب).

ويتعبد مسار بين المركزين بالتدريج خلال بضعة أيام، وتتكون وصلة مؤقتة أو انعكاس لعابي مشروط^(١٦)، وهكذا يتكون الفعل المنعكس الشرطي من مسار بين مركز في القشرة المخية (الحاء) وبين مركز فعل منعكس، وقد قدم بافلوف البرهان القاطع

بناءً على مجموعة الآراء والمبادئ والمواقف التي تبناها الفرد خلال تنشئته الاجتماعية لذلك فإنَّ تشريط المنعكسات المرتبطة بها مرهون بأهميتها عند كل فرد بل وحتى بقائها وارتباطها بالدوافع المكتسبة، كما أنَّ القشرة الدماغية بما تملك من قدرة على التمييز تقرر ما إذا كان المنبه الثانوي له علاقة بهذه الدوافع والرغبات أم لا وبالتالي تسمح بخلق وصلة بين مركز المثير الثانوي والمنعكس الموافق أو لا تسمح.

والأمثلة التي تمدنا بها الحياة مؤكدة هذين الاختلافين بين التشريط عند الإنسان والتشريط عند الحيوان كثيرة بحيث نجدها دوماً في أي موقف نتعرض له وكل يوم، فنحن نستطيع تشريط فأر جائع عن طريق إثارة دافع الجوع لديه كي يسلك سلوكاً نختاره فقشرته الدماغية لا تمتلك القدرات الكافية ليتمكن من تعديل دوافعه ولا حتى مقارنة المثير الطبيعي والمثير الثانوي لاكتشاف منطقة الربط بينهما، ولكننا لا نستطيع تشريط إنسان بإثارة إحدى دوافعه بالضرورة فذلك عائد إلى ترتيب أهمية هذا الدافع في منظومته الفكرية إذ نستطيع تشريط فرد ليسلك سلوكاً ما بإشباع دافع الجوع لديه إذا كان لهذا السلوك نتائج سلبية أقل من استمراره جائعاً حسبما تحدد منظومته الفكرية والثقافية ذلك، فإذا كان

قوية وواسعة ومتنوعة حيث تشير الأبحاث العلمية الحديثة إلى أن دماغ الإنسان يستطيع تسجيل أكثر من ٨٦ مليار وحدة من المعلومات يومياً، وذاكرته تتسع إلى ١٠٠ تريليون من المعلومات خلال العمر^(١٥).

كل هذه التطورات النوعية تجعل الإنسان يستجيب لعمليات التشريط بشكل مختلف عن ذلك الذي أشرنا إليه عند الحيوان والذي يكون أقرب إلى التتميط المسبق نتيجة تدني قدراته العقلية، إذ نستطيع تشريط الحيوان ليسلك السلوك الذي نريد فيما لو أثرنا منعكساً يتصل بوظيفة من وظائفه أو نشاطاً من النشاطات التي تضمن سلامته، فالمنعكس عند الحيوان مرتبط بالدوافع والرغبات كما وجدنا، وكذلك عند الإنسان ولكن دوافع ورغبات الحيوان غريزية غير قابلة للتعديل، وتشريط هذه المنعكسات بناءً على ذلك سيكون ممكناً إلا في حالات استثنائية سبق وأشرنا إليها في معرض حديثنا عن الجهاز المناعي النفسي عند الحيوان والمسماة بمحدودات التعلم، ولكن القدرات العقلية النوعية التي تتصف بها القشرة الدماغية عند الإنسان تبسط سلطانها على هذه الدوافع والرغبات فتعدلها وتغير من ترتيبها وأهميتها بل قد تلغي بعضها وتدخل دوافع جديدة هي ما يطلق عليه اسم الدوافع المكتسبة، ويتم ذلك

الأقصى المباركة يقاومون ويصمدون أمام
عنصرية ووحشية الثقافة الصهيونية
الخرافية والثقافة الأوروبية الأمريكية
العدوانية الإرهابية خاصة بعد أحداث
الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م حيث تنشر
عولمة الحضارة الغربية الأوروبية والأمريكية
ثقافة الرعب والحرب والدمار والفوضى
والفقر..على مستوى الكوكب الأرضي،
فهؤلاء المجاهدون وكل المثقفين الأحرار
في العالم يؤكدون بأن الحضارة العربية-
الإسلامية هي نسيج عمراني ضارب في عمق
التاريخ وقدمت للبشرية أزهى وأرقى العلوم
والمعارف والفنون.. وتعطي بشكل أكرم ما
أعطاه شعب على وجه الأرض من المحبة
والتسامح والإخاء الإنساني، فالمجاهدون في
فلسطين المحتلة ينشدون بصوت واحد:

وأبعد نحن من عيسى

ومن مضر نعم أبعد

حمورابي وهاني بعل

بعض عطائنا الأخلد

ومن زيتونا عيسى

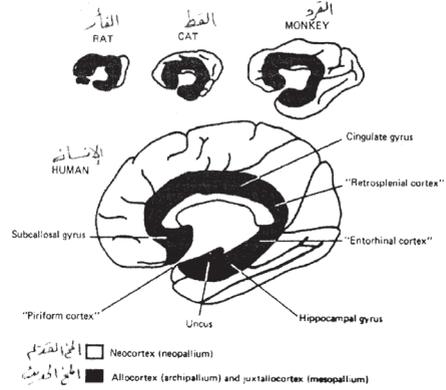
ومن صحرائنا أحمد

ومنا الناس يعرفها

الجميع تعلموا أبجد^(١٦)

وكذلك الشرفاء الذين يُضرب بعضهم
عن الطعام حتى الموت، وهم يعلنون بذلك
بعضاً من دوافعهم المكتسبة كالكرامة والعزة

إشباع الجوع أهم ما لديه من دوافع فإننا
بتشريط هذا الدافع نستطيع أن نجعله
يسلك أي سلوك نريد .



التشريح المقارن للجذلة العصبية المركزية عند
الإنسان وبقية الحيوانات ونلاحظ القشرة
الدماعية المتطورة والكبيرة عند الإنسان.

- المنظومة الثقافية:

إن قدرة الإنسان على تعديل دوافعه
وتحويلها بما يناسب منظومته الفكرية
- الثقافية هو أهم ما يتميز به الإنسان..
فهاهو ذا طفل الحجارة في فلسطين المحتلة
يرفع يده البريئة والنعيفة لتحمل حجارة
تتحدى مفاهيم وأهداف وآليات الصهيونية
العالمية مُعلماً بذلك بعضاً من صفاته
المكتسبة كالجهاد والعزة بالنفس والثقة بها
والمتضمنة في منظومته الثقافية على دافع
البقاء والجوع.

فالأطفال وكل المجاهدين في انتفاضة

الذي لقيه أعظم أربعة فلاسفة في العصر الحديث: فريدريك نيتشه، لوسي التوسير،

ميشال فوكو، وجيل دولوز؟

لقد مات الأول مجنوناً، والثاني قضى آخر أيامه في مصحة عقلية بعد أن قتل زوجته، والثالث فتك به مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز)، والرابع مات منتحراً.

ما الفرق بين مصير هؤلاء الفلاسفة ومصير رجال الأعمال الأمريكيين الثمانية الذين كانت ثروتهم تزيد على خزينة الولايات المتحدة الأمريكية؟

يخبرنا (بيلي غراهام): إن الواحد منهم كان في أواخر أيامه يستدين ليشترى مايسد به رمقه ومات معدماً، وقضى الآخر نحبه في الخارج مديوناً، وقضى غيره فترة من عمره في مصحة عقلية وغيره في السجن والباقي ماتوا انتحاراً..

لقد ملك كل الأشخاص الذين تحدثنا عنهم العقل والمعرفة والذكاء والمال والقوة ولكنهم كانوا جميعاً بلا استثناء يفتقرون إلى المزية الوحيدة التي تستطيع أن تعطي لحياتهم معنى وهدفاً نبيلاً وإنسانياً عاماً وهو الإيمان الديني الصحيح الذي يشكل المصدر الأساسي لمعنى الحياة فالدين يعتبر مكوناً أساسياً في المنظومة الثقافية للأفراد والمجتمعات.

في منظومتهم الفكرية الثقافية على دافع البقاء والجوع.

وخسء العصر الجاهلي كانت مشرطة تجاه فكرة الموت بطريقة جعلتها تستجيب لموت أخيها صخر بندب وعويل سمعته جميع أحياء العرب حتى كادت أن تقتل نفسها حزناً على أخيها:

يذكرني طلوع الشمس صخراً

وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي

على أخوانهم لقتلت نفسي

ولكنها عندما عدلت موقفها تجاه الموت وأصبحت خسء العصر الإسلامي فإن دوافعها تغيرت وأصبح من غير الممكن تشريطها بشكل مماثل فزراها بعد استشهاد أبنائها الأربعة في معركة القادسية في عهد الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تتلقى الخبر بقولها: (الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم وأرجو الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته).

ونلاحظ من تجارب الأفراد والشعوب أن تراكم المعرفة لا يختلف في شيء عن تراكم المال، كلاهما مؤهل لتدمير النفس البشرية ما لم يحصن الإنسان نفسه بالإيمان الديني الإيجابي، فماذا أفادت الدكتور فاوست معرفته الموسوعية وعلمه في مسرحية (بن جنسون) الشهيرة؟ وما هو سر المصير الفاجع

فكثيراً ما وجدنا جنديين خاضا معركة تعرضا خلالها لمواقف صعبة وأهوال تبنى الأول مجموعة من المبادئ الحاضرة على التضحية والفاء بينما تبنى الآخر مواقف تحض على الأثرة والجبن، فإننا نجد الثاني بعد أن نجا من أهوال المعركة يضطرب خوفاً كلما تذكر وقائع المعركة بينما يثير ذكر المعركة لدى الأول شعوراً بالعزة والفخر والكرامة، فكلا الجنديين تشرطا ولكن بشكل مختلف وذلك عائد للمنظومة الفكرية- الثقافية لكل منهما، فعلى أساس ما تتضمنه من أفكار متعلّمة عن طريق التنشئة الاجتماعية تقوم القشرة الدماغية بإنشاء وصلة عصبية بين مركز المنعكس العصبي اللاإرادي وهذا المركز أو ذاك من القشرة الدماغية حسبما تقتضيه منظومة الفرد الفكرية.

فالإنسان قادر بفضل هذه المنظومة المتعلمة على تعديل وتحويل دوافعه ووضعها من حيث الأهمية بترتيب يتوافق ومجمل ما تعلمه وتبناه من أفكار ومفاهيم.

وهكذا نرى لماذا تسلك مجموعة من الأفراد سلوكاً متبايناً تجاه مشيرات واحدة، إن الجهاز المناعي النفسي عند الإنسان والذي يجنبه نتائج التعرض للمشيرات الضارة هو جهاز مرن يمكن أن يصوغه الإنسان بنفسه وفق مراحل نضجه وظروف تنشئته.

هو قوة وصمود وتحضر وتحرر الشعوب في اتجاه الأفضل والأسمى عالمياً (١٧)، فتشريط الإنسان يخضع دائماً لمراكز الفعل الإرادي في القشرة الدماغية، وهي تتدخل في عملية التشريط مرتين:

مرة لتتأكد- مراكز الفعل الإرادي- أن المثير الثانوي له صلة بالمنعكس موضوع التشريط.

ومرة لتقدير أهمية الدافع المرتبط بهذا المنعكس وفقاً للمنظومة الثقافية للفرد والمجتمع.

فالإنسان القديم عندما كان تراثه العلمي لا يسمح له بتفسير ظواهر الطبيعة تبنى فكرة مؤداها أن هذه الظواهر قادرة على التأثير عليه فقدس جبروتها وأقام لها الأصنام يعبدها من خلالها، فسمح بذلك أن يتشرب ضدها فنراه يسارع إلى إلقاء فتاة جميلة للنيل إذا فاض خوفاً من غضبه، وسجد للرعذ إذا قصف وهو مضطرب مهتاج، أما بعد أن اكتشف قانون الظواهر نراه ينام مطمئناً في بيته الذي تنهال عليه العواصف دون جزع أو خوف لأنه اكتشف القانون فوضع لبيته واقية صواعق فما عاد أحد بقادر على تشريطه تجاهها.

فتشريط أي فرد مرهون بقناعته بوجود صلة بين المثير الثانوي (الصواعق، الفيضان) والمنعكس العصبي (الحافظة على الذات)،

ولعل أول وأهم وظيفة للجهاز المناعي النفسي هي بناء الثقة بالنفس، وإعطائها هدفاً عالياً مقروناً بسلوك فعال بدافع قوي، وهذه الثقة التي تحاول باستمرار مختلف وسائل الإعلام الغربي تحطيمها لدى الفرد في مجتمعنا لإيجاد مركب النقص لديه لشل حركته ليعيش باستمرار داخل دوامة تخلفه ويستمر الغرب بشقيه الأمريكي والأوروبي في استنزاف ونهب وتدمير موارد وأساسيات البنية التحتية لمجتمعنا لعرقلة محاولة النهوض من كبوته.

وقوة الجهاز المناعي النفسي الذي يبني المجتمع دعائمه لأفراده هو انعكاس لقوة وتماسك النظام التربوي والتعليمي والإعلامي فخلف كل أمة قوية نظام تعليمي متين، فالقوة العسكرية تستطيع أن تنتصر ولكن انتصارها لن يدوم.. لأن قوة الفكر والمعرفة أعظم من قوة المال والجيوش.. ولأن من أسمى خصائص الإنسان قدرته على تصيير القوى السلبية قوى إيجابية.. وهذه الحقيقة مودعة في الآية القرآنية الكريمة: « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » سورة الرعد، الآية^(١).

وخلاصة القول: إن الإنسان قادر وفق آليات التوازن في التعلم القائم على الفهم على تجنب الكثير من التوتر الضار حتى ذلك الجزء من التعلم الآلي خاضع هو الآخر للجهاز المناعي النفسي القائم على الفهم، ومن هنا نجد أن الباب غير موصد أمام الإنسان، ومن الخطأ أن نضعه في حتمية باسم العلم، ونحن إذ نطمئن إلى هذه النتيجة فلأنها تتناسب وتصورنا للإنسان ككائن واع ومسؤول وفعال.

- وظيفة الجهاز المناعي النفسي:

إننا نطالب أصحاب الرأي والمسؤولية في العالمين العربي والإسلامي أن يتبهاوا إلى أهمية بناء الفرد خاصة الجهاز المناعي النفسي وفق خصوصيتنا الثقافية والعقائدية لنستطيع أن نواجه التحدي العالمي بالعلم والإيمان والإبداع والعمران.

فالصعوبات الداخلية والخارجية التي نتعرض لها هي تحدٍ خلاق يستحث الرد إيجابياً عليها، فالأزمات تطلق الحقائق من الأعماق فعندما تسد الصخور طريقنا الحضاري فلأننا ضعفاء وعندما نكون أقوى فإننا نرتكز عليها لنصل إلى القمة والمجد.

الهوامش

- ١- هناك مصطلحات متداولة كالهندسة النفسية أو البرمجة اللغوية العصبية قريبة من حيث المضمون والمفاهيم والآليات والأهداف من مصطلح الجهاز المناعي النفسي، ولكن مصطلحنا أعم وأوسع نفسياً وطبيعياً وفكرياً وحضارياً.
 - ٢- إنَّ الكائن الحي مخلوق بشكل يستطيع معه كل تأثير مزعج أن يدعو آلياً فاعلية مكافئة تصلح الإزعاج، علم نفس، د.فاخر عاقل، دار العلم للملايين، ص١٥١. وقد صاغ العالم العربي ابن حزم الأندلسي نظرية مشابهة أسماها نظرية طرد الهم. ومن أراد التوسع في هذه النظرية فليراجع، ظهر الإسلام، أحمد أمين، جزء٣، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، ١٩٦٦م، ص٢٦٥.
 - ٣- الطب النفسي الجسمي، د.ناصر محي الدين ملوحي، دار الغسق للنشر، سلمية- سورية، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
 - ٤- السلوك متعلم باستثناء بعض الأفعال المنعكسة غير الشرطية كالمنعكس الرضفي.
 - ٥- مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق- سورية، العدد ٥٩٤، السنة ٥٢، ربيع الثاني ١٤٣٤هـ/ آذار ٢٠١٣م، تصنيف جديد لأمراض البشرية، د.ناصر محي الدين ملوحي، ص٢٢٦-٢٢٨.
 - ٦- يمكن تعريف تجنب الطعام بأنه النفور المشروط من مذاق مادة ما نتيجة تجربة سابقة واحدة تتمثل في مرض الحيوان مرضاً مؤقتاً نتيجة لتناول تلك المادة التي أدت إلى مرضه، ومن الواضح أن هذا السلوك هو نمط من الاستجابات الهادفة للمحافظة على النوع، وإحدى المشكلات التي تواجه محاولة وضع هذا البحث ضمن نطاق مجموعة قوانين الإشراف الكلاسيكي (البافلوفي) تتمثل أن فترة التأخير الطويلة ما بين تناول الطعام والسام وبداية المرض تتجاوز الحد الأقصى للعلاقات الزمنية في قوانين الإشراف.
 - للتوسع في هذه النقطة يُراجع: نظريات التعلم، دراسة مقارنة، جورج إم غازدا ورفاقه، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٧٠، ص١١٤-١١٦.
 - ٧- حسب آراء بافلوف، التعلم هو عملية تأثير متبادلة بين الكف والإثارة، فالكف يلغي الاستجابة والإثارة تُحدث الإشراف، فإذا فشل الحيوان في ترجيح أحدهما يصاب بالمرض النفسي أو النفسي الجسمي، ويعتبر النوم عملية كف نوعية تجنب الحيوان المرض أو العصاب. للتوسع يُراجع كتاب: بافلوف، عبد المجيد كركوتلي، مطبعة الهلال، ط٢، ص٧٧-٨٧.
 - ٨- أطلق بافلوف على بعض آليات هذا الجهاز المناعي والتي تشكل عملية الكف قوامها الرئيسي باسم: منعكس الوقاية الذاتي.
- يراجع: PAVLOV I.P. Selected Works.P ٧٠
- ٩- تتجنب معظم مدارس علم النفس الحديثة القول بالفريضة عند الإنسان بل الاستعدادات، وحتى تلك ذات المنشأ الفيزيولوجي لا تظهر على شكل نمط واحد وإنما تتحور حسب معطيات البيئة كالأوممة، الدافع الجنسي ودافع الجوع. للتوسع: علم النفس العام، د.ليلي داود، جامعة دمشق، مطابع مؤسسة الوحدة، (١٩٨٢م) ص٦١-٦٧.
 - ١٠- وفقاً لنظرية بياجيه في علم النفس هناك أربع مراحل رئيسية من مراحل التطور المعرفي عند الأطفال وهي:

- الفترة الحسية الحركية Sensorimotor Period: وتشمل السنتين الأولى والثانية من عمر الطفل، يتعلم فيها فكرة استمرار الأشياء، وكذلك فكرة انتظام الأشياء في العالم المادي.
- الفترة ما قبل الإجرائية Preoperational Period: توافق سن الثانية حتى السابعة، يتعرف الطفل في هذه المرحلة على الأشياء في صورتها الرمزية وليس المعرفة القائمة على الأفعال فقط مثلاً يدرك أن اللعبة التي تدار حول نفسها ليست لعبة جديدة.
- الفترة الإجرائية المحسوسة (العينية) Concrete Operational Period: توافق سن السابعة حتى الثانية عشرة من العمر، الأطفال يطورون في هذه الفترة قدراتهم الاستدلالية وهو استدلال محصور ضمن نطاق ما يشاهده الطفل.
- الفترة الإجرائية الصورية Formal Operational Period: تبدأ في سن الثالثة عشر، ويستطيع الأطفال في هذه المرحلة أن يتوصلوا إلى الاستدلالات عن طريق استدلالات أخرى ومشكلة النسبة مثال جيد على ذلك.
- يراجع: نظريات التعلم، دراسة مقارنة، نفس المصدر السابق (م.س)، ص ٢٢٩-٣٣٢.
- ١١- المقلوبية Reversibility: تعني قدرة الطفل على فهم الآثار التي تكمن خلف الحقيقة القائلة بأن أي تحول يمكن أن يُغى، وعن طريق المقلوبية يستطيع الطفل مثلاً أن يدرك أن العصا الموضوعة إلى جانب أخرى لها الطول نفسه لا يتغير طولها إذا زحزحها لتبرز عن رفيقتها، وذلك بالنظر إلى أنها قد أصبحت أقصر من الخلف، هذا الربط الذي يُبطل به المعرفة الأولية هو المقلوبية. المحافظة على الكمية: لا يمكن تعلمه إلا إذا اكتسب الطفل مفهوم المقلوبية كأن يدرك الطفل أن كرة من الطين لا تزيد كمية الطين فيها إذا جعلناها على شكل تفانق.
- للتوسع: نظريات التعلم، م.س، ص ٣٤٨.
- ١٢- بافلوف، عبد المجيد كركوتلي، مطبعة الهلال، ط٤، ص ٤٧.
- ١٣- بافلوف، المصدر نفسه (م.ن)، ص ٤٩.
- ١٤- بافلوف، م.ن، ص ٥٠.
- ١٥- للتوسع: - مجلة المعلومات، مركز المعلومات القومي في الجمهورية العربية السورية، العدد ٧، نيسان ١٩٩٣م، الذاكرة بنك للمعلومات، ص ١٣.
- مجلة الصياد، العدد ٢٥١٩، السنة ٤٩، ١٢-١٨ شباط ١٩٩٣م، ص ٤٢-٤٤.
- ١٦- مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق- سورية، السنة ٤١، العدد ٤٧٠، شعبان ١٤٢٣هـ/ تشرين الثاني ٢٠٠٢م، ثقافة تعايش أم ثقافة حرب، حسين الحموي، ص ٩- ١٤.
- ١٧- سلام مع الله، د.بيلي غراهام، تعريب: نجيب جرجور، مراجعة: مظهر الملوحي، تقديم: نور الدين العربي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط٤، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م، ص ٧.



حضارات الساحل السوري خلال الألف الثاني قبل الميلاد



د. جمال حيدر



يعود أقدم تاريخ لسكن الإنسان على الساحل السوري إلى حوالي مليون سنة خلت وقد جاءتنا الدلائل الأثرية على ذلك من حوض نهر الكبير الشمالي من قرية ستمرخو الواقعة بجوار النهر على بعد (١٥ كم) شمال شرق مدينة اللاذقية هذه الدلائل هي فؤوس حجرية مصنوعة من الصوان لها قبضة مستديرة وحدان عاملان ورأس حاد كان يستخدمها إنسان العصر الحجري القديم للحصول على قوته والدفاع عن نفسه.

✻ أناري وبامع.

تتقرب أثري وبحث علمي لا يزال مستمراً، وقد نشر عنها آلاف الدراسات والأبحاث بمختلف لغات العالم حتى أصبح الساحل بفضل إنجازاته الحضارية نقطة تحول هامة في تاريخ الإنسانية.

وقد حاولت جاهداً أن أقدم دراسة مختصرة وإضاءات حول تلك الحضارات التي ازدهرت على الساحل السوري خلال الألف الثاني قبل الميلاد.

مملكة أوغاريت: على بعد حوالي اثني عشر كيلو متراً إلى الشمال من مدينة اللاذقية بجوار البحر المتوسط تقع أوغاريت الأثرية في باطن تل (رأس شمرة) كما يسميه سكان ساحل اللاذقية لأن نبات الشمرة ينمو عليه.

اكتشفت أوغاريت مصادفة عام ١٩٢٨م من قبل فلاح كان يحرق حقله بالقرب من (الجون) المسمى اليوم (مينة البيضاء).

وفي حينها أعلمت مديرية الآثار الفرنسية في بيروت، فعينت كلود شيفر من أجل إدارة الحفريات في هذه المنطقة. وضربت أوّل معول في مينة البيضاء، في ٢ نيسان عام ١٩٢٩م ثم تحولت جهود البعثة إلى تل (رأس شمرة) أوغاريت.

أما عن أصل التسمية فقد حمل موقع رأس شمرة مسميات عدة أصولها وردت في رقم اكتشفت في مملكة ماري ومراسلات تل

استمر سكن الإنسان بجوار هذا النهر في مواقع كثيرة ومع حلول العصر الحجري الحديث بدأت مرحلة جديدة من حياة الإنسان في اللاذقية وقد ترك لنا آثار هذه المرحلة في موقع أوغاريت «السوية الأثرية الخامسة» التي أعطت معالم قرية صغيرة يعود تاريخها إلى الألف السابع قبل الميلاد.

عرف سكان الساحل السوري الزراعة والتدجين وصناعة الفخار، هذه الإنجازات الحضارية التي حصلت خلال العصر الحجري الحديث الذي امتد من (٨٠٠٠ - ٥٠٠٠) قبل الميلاد انتقلت بالإنسان من صياد لاقط إلى إنسان مستقر في بيوت صغيرة مبنية من الحجارة والطين وأغصان الأشجار وكل ذلك جعل الساحل موطناً لأقدم القرى الزراعية في العالم ومحطة أساسية على طريق نشوء المدن.

تواصل سكن الإنسان على الساحل حتى نهاية عصر البرونز الحديث ١١٨٠ قبل الميلاد وخلال هذا العصر انتشرت حضاراته في كل من مواقع سيانو وسوكاس والتونيني وابن هاني والبسيط وتل كزل وعمريت وراميتا وتل إيريس. هذا الغنى الحضاري والإنجازات الرائعة التي حصلت على الساحل السوري إضافة إلى حضاراته جعلت منه نقطة جذب هامة لقيام أعمال

رأسها النصوص الكتابية البالغ عددها حوالى خمسة آلاف رقيم ومعظمها حرر باللغة الأكادية لغة التجارة والمراسلات الدولية في ذلك العصر يضاف إليها نصوص حررت بلغة أوغاريت نفسها وهي لغة سكان المدينة وأخرى حررت بلغات منها اليونانية والحثية والهورية وغيرها.

ويأتي على رأس أهم المكتشفات أبجدية أوغاريت التي عثر عليها خلال حملة التنقيب الأولى من قبل العالمين (كلود شيفر- وجورج شيني) وهي عبارة عن رقيم مصنوع من الآجر غني بالإشارات المسمارية من نوع غير معروف حتى ذلك التاريخ وهذا الرقيم كان مكتوباً بالأحرف الأبجدية وهو بحجم أصبع اليد نُقش عليه ثلاثون حرفاً مسمارياً وهو محفوظ حالياً في المتحف الوطني في دمشق.

وكان لتلك الأبجدية الفضل في نشر المعرفة على نطاق واسع وقد اعتبرت الأبجدية أئمن الهدايا التي قدمتها سورية للبشرية.

وفي هذا المقام يأتي الرقيم الموسيقي الذي اكتشفت في أوغاريت عام ١٩٥٠م وقد أكد بدوره على الأهمية الكبيرة للموسيقى لدى المجتمع الأوغاريتي، هذه الاكتشافات تظهر لنا المستوى الثقافي في أوغاريت مما يتركنا نستنتج أنها كانت مركزاً ثقافياً عالي المستوى.

العمارة إلى مصر وفي نصوص بوغازكوي عاصمة المملكة الحثية وترجع الدراسات أن الاسم مشتق من كلمة (أوغارو) التي تعني الحقل في اللغة الأكادية البابلية.

وقد أسفرت الأسفار الأثرية في الموقع بتعقب خمس طبقات أثرية توزعت على النحو التالي من الأعلى إلى الأسفل وهي: طبقة البرونز الحديث ١٦٠٠ - ٢١٠٠ ق.م ثم البرونز الوسيط ٢١٠٠ - ١٦٠٠ ق.م والبرونز القديم من ٢٢٠٠ - ٢١٠٠ ق.م.

ثم طبقة الألفين الرابع والخامس قبل الميلاد وأخيراً أقدم الطبقات والتي تعود إلى ما قبل الألف الخامس ق.م ويقع أولها في ظلمات ما قبل التاريخ.

ومن أهم المعالم الأثرية التي أظهرتها أعمال التنقيب الأثري خلال ثمانية عقود اكتشاف معالم مدنية هامة تعود إلى عصر البرونز الحديث ما بين ١٦٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م وهو العصر الذي شهد ازدهار مملكة أوغاريت. وكان من أهم معالم المدينة المكتشفة القصر الملكي ودور السكن والمدافن والمعابد البرجية الضخمة والحي المترف والسوق ومنازل لوجهاء المدينة والأسوار يضاف إلى ذلك البوابة الشهيرة التي تؤدي إلى القصر الملكي.

ومن خلال المعطيات الأثرية وعلى

(الذهب- الفضة، النحاس، القصدير)
والرخام والأبنوس والعمود والبخور
والألباستر.

نهاية أوغاريت: انتهت أوغاريت حسبما
تشير الفرضيات التي تشرح أو تفسر أزمات
القرن الثاني عشر قبل الميلاد والتي تؤكد
حدوث الكوارث الطبيعية كالزلازل وتغيرات
المناخ ووقوع الكوارث البشرية كالحروب
والصراعات.

هذا التغيير الذي حصل في أوغاريت
ما هي أسبابه؟ هل انتهت أوغاريت نتيجة
كارثة طبيعية أم بشرية.

في عام ١١٨٠ ق.م زالت أوغاريت عن
الوجود نهائياً. وهذه الكارثة واضحة
المعالم في الموقع لكن لا يزال يسودها
الغموض حتى الآن واليوم هناك فرضيتان
تفسران كيفية دمار أوغاريت:

الأولى تقول: ذهبت أوغاريت ضحية
زلزال رهيب.

والثانية تقول: إن أوغاريت أصابها
ما أصاب جوارها من دمار لحق بها جراء
ضربات شعوب البحر وهناك من يرى أن
الحضارات ذات الثقافات المميزة التي
جاءت نتيجة تراكمية لقرون طويلة من
الجهد والبناء والإنجازات لا تزول بضربة
زلزال أو بهجمات بربرية طالما أن بنيتها
السياسية والاقتصادية والاجتماعية سليمة
وقادرة على التجديد وإعادة البناء.

أمّا كتبة أوغاريت لم يكونوا نقاشين
على الطين فقط بل كانوا مهتمين باللغات
الأجنبية والترجمات وتبين المكتبات
المكتشفة في المنازل الأوغاريتية أنه كان
في أوغاريت علماء ومثقفون وموسوعيون
يهتمون بالأعمال الكلاسيكية من الأدب
البابلي وهذا يثبت أن الكنعانيين لم يكونوا
فقط رجال أعمال وتجاراً وبحارة بل كانوا
أيضاً رجال أدب وثقافة وفكر.

كما أطلعنا النصوص الكتابية بشكل
مفصل على جوانب مختلفة من حياة
المملكة الدنيوية والدينية كالاقتصاد
والآداب والمثولوجيا والأساطير والفلك.

وكذلك وضحت لنا العلاقات الدولية
مع بلاد الرافدين - ومصر والحثيين حيث
أقامت أوغاريت وتلك الدول علاقات تجارية
واستطاعت بوساطة أسطولها الضخم أن
تصدر اقتصادها وثقافتها.

المبادلات التجارية:

الصادرات: منتجات زراعية على رأسها
السوائل كزيت الزيتون والخمور والتي
كانت تصدر في جرار كبيرة مصنعة في
المدينة تسمى (الأمفورات) يضاف إليها
خشب البناء والأصبغة والصوف المصبوغ
بالأرجوان والعاج المصنع والمستخرج من
ناب الفيل وفرس النهر.

الواردات: يأتي على رأسها المعادن

العمل مستقبلاً في أوغاريت كالعامل في حقل الشارع الكبير وحقل السور الجنوبي الغربي، واستكشاف مستوى البرونز الوسيط على مساحة واسعة وإنهاء أعمال التنقيب والتوثيق للجسر السد على نهر الدلبة والقيام بأعمال مسح جيومغناطيسية وإبراز المعالم وتقديم خدمات عامة للموقع.

وأخيراً فإن مساحة أوغاريت كانت تغطي مساحة محافظة اللاذقية اليوم من حيث الرقعة والامتداد وحدود المملكة هي شمالاً مرتفعات جبل صافون (الأقرع) وشرقاً سلسلة جبال الساحل وجنوباً نهر السن وغرباً البحر المتوسط.

وقد أفادت الوثائق المكتشفة داخل أوغاريت بمعلومات هامة عن المدينة وكشفت لنا أسماء ضواحيها وقراها ومزارعها وجبالها وأنهارها.

وفي هذا المقام سوف نلقي الضوء على أهم ممالك المدن الأثرية التي تم اكتشافها والتي ازدهرت ضمن الإطار الجغرافي لهذه المملكة وكانت في وقت من الأوقات من تابعاتها. ونبدأ من:

تل رأس البسيط: يقع رأس البسيط على مسافة ٥٠ كم تقريباً شمالي اللاذقية عند تجويف الجون الكبير الذي يشرف عليه من جهة الشمال الجبل الأقرع (المعروف

لكن لدينا سؤال هام لماذا لم يعد مجتمع أوغاريت قادراً على بناء عاصمته ومتابعة حياته.

ربما عانى المجتمع الأوغاريتي من انهيار اقتصادي نتيجة الجفاف الذي سيطر خلال تلك الفترة والذي تؤكد الأبحاث الأركيولوجية إضافة إلى الحروب المحلية والتفكك السياسي مما أدى إلى تحولات دارمية وأزمات عميقة الأثر قادت جميعها إلى نهاية ثقافة عصر البرونز واستهلال ثقافة عصر الحديد.

أمّا أوغاريت اليوم لمن يزور أطلالها التي تبدو فوق تل رأس شمرا يستحضر الإطار الذي كانت تعيش فيه أوغاريت في عصر البرونز الحديث إضافة إلى بقايا آثارها التي تؤكد أن المدينة انخرطت في بيئتها الجغرافية القريبة من البحر الذي فتح أمامها عالم التجارة والتواصل مع الثقافات المحيطة. هذا الامتداد الجغرافي جعل أوغاريت تحظى بمزايا طبيعية أحسن حكماها الاستفادة منها.

مستقبل أوغاريت: لبحث مستقبل الأعمال التنقيبية في أوغاريت أقيمت ندوة دولية عام ٢٠٠٤م في المديرية العامة للآثار والمتاحف بمناسبة مرور ٧٥ عاماً على بدء أعمال التنقيب شارك فيها علماء الآثار السوريون والفرنسيون اتفقت على خطط

يرتبط أيضاً بمرحلة عصر البرونز الحديث غزارة في إنتاج الخزف المختلف الأشكال القبرصي والمحلي، وهنا نشير إلى بعض الحلي والوزنات الحجرية ذات الحلقات البرونزية والمشابهة لما تم العثور عليه في رأس شمرة، أما جدران عصر البرونز فقد ظهرت في كل مكان وكانت مصحوبة بخزف غاية في الدقة والجمال، ومنها زياد حمراء اللون وخزف أسود وأبيض. كما شهد الموقع ازدهاراً خلال العصر الهلنستي والروماني.

وأخيراً العصر البيزنطي حيث دخل «البيسيت» على ما يبدو في عصر كبير من النشاط في القرنين الثالث والرابع الميلاديين، وتم إنشاء سور جديد أحاط بالسور القديم مع بعض الحصون والأبراج المربعة الشكل، كما تمّ بناء عدد من البيوت الفخمة على الأكروبول، أما في الجهة الشمالية فقد بنيت كنيسة ما تزال آثارها بادية للعيان.

تل رأس ابن هاني: يقع تل ابن هاني على بعد ٩ كم شمال غرب اللاذقية، شكله مربع، عليه منارة، يتقدم داخل البحر بـ ٢٥٠ متر شاطئه الجنوبي رملي، أما شاطئه الشمالي فصخري، يفصل بين خليجين. كان هذا التل مدينة هامة في العصر الهلنستي

في النصوص الكلاسيكية باسم جبل كاسيوس وفي النصوص الأوغاريتية باسم صافون) بالقرب من الرأس المعروف برأس البسيط.

يرتبط اسم الموقع على الأغلب باسم (بوسيدون) وهو إله البحار عند اليونانيين، وذلك حسب المؤرخ اليوناني (هيرودت) وقد بينت أعمال التنقيب الأثري أن أقدم سكن للموقع يعود إلى القرن السادس عشر ق.م. مروراً بالعصور اللاحقة وحتى غزو شعوب البحر التي عملت دماراً وخراباً بحضارات الساحل السوري نهاية القرن الثاني عشر ق.م.

ويمكن تقسيم تاريخ الموقع إلى حقتين طويلتين.

الحقبة الأولى: تمتد منذ بدء استيطان الموقع وحتى سنة ٤٨٠ ق.م.

الحقبة الثانية: تمتد من نهاية القرن الخامس وحتى مستهل القرن السابع الميلادي.

وفي عصر البرونز الحديث ما بين (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م): أقامت مملكة أوغاريت في هذا المكان مرصداً يتيح لها مراقبة المسالك الجبلية والبحرية، ويبدو من الكسر الفخارية المسينية المكتشفة في الموقع أنها قد وردت من أوغاريت.

والمساكن الكبرى في أوغاريت، أو الحلول مؤقتاً محلها. إن الموقع الذي تم اختياره كان يُمكن من وضع رقابة أوثق على الملاحظات ومشغل الأرجوان التي كانت هناك، ويؤمن وضعاً مثالياً لمراقبة المواصلات البحرية على طول شاطئ المملكة باتجاه قبرص التي ترى أحياناً في الأفق الغربي وأما عن أهم المعالم الأثرية:

القصر الجنوبي: مساحته ٢٥٠٠٠م^٢ مخطط بشكل جيد مبني على طريقة السطوح وهو مدعم بسور دفاعي جدرانه من الحجر الرملي بسماكة ١٥٠سم، وهذا القصر فقير باللقى الأثرية مما يدل على أنه هُجر أو أفرغ من محتوياته تحسباً لغزو شعوب البحر. أنشئ هذا القصر عام ١٤٠٠ ق.م ومن أهم ما وجد فيه بعض الجرار الفخارية إضافة لقطع نقدية وأوانٍ زجاجية.

القصر الشمالي: وهو محور اهتمام البعثة من حيث مخططه المماثل للقصر الجنوبي والفرق بين الاثنين أنه كان مسكوناً عندما هوجم وأحرق وتظهر عليه آثار الحريق حتى الآن.

عثر فيه على شواهد ثمينة تدل على النشاط الذي تم فيه، وأول هذه الشواهد كان الرقم الطينية المحررة بالأوغاريتية والأكادية وهي تدل على وجود مكاتبين

وفي العصر البرونزي الأخير. تنقب فيه بعثة أثرية سورية - فرنسية مشتركة منذ عام ١٩٧٥م ولا تزال.

ابن هاني هو تسمية حديثة منسوبة إلى الضريح الواقع شمال شرق الموقع والذي يعرف بمقام المسعود ابن هاني.

أما التسمية القديمة فتبدو من خلال النصوص المكتشفة في القصر الشمالي من الموقع، أن المدينة كانت تسمى (بيروت) أي الأبار مثل بيروت اللبنانية أو أفو (أي الأنف).

وما نلاحظه أن موقع ابن هاني هو مدينة أوغاريتية جديدة بتخطيط عمراي منظم وفسيح. كان طول هذه المدينة قرابة كيلومتر، وعرضها حوالي نصف كيلو متر، وكانت قائمة على ارتفاع ٦م عن سوية سطح البحر ولا تزال أسباب تشييد هذه المدينة موضع خلاف، هل أقيمت لأسباب سياسية (نزاع عائلي)، أم اقتصادية أي لتكون منشأة صناعية أو تجارية أو لهذه الأسباب مجتمعة وغيرها.

ومن المرجح أن إنشاء مدينة ملكية أرستقراطية قد تم من قبل ملك من ملوك أوغاريت وهو عمشتمرو الثاني الذي حكم حوالي (١٢٦٠ - ١٢٣٠) ق.م وكان الهدف من إنشاء هذه المدينة هو إكمال القصور

شهد هذا الموقع نهاية مماثلة لمملكة أوغاريت حيث واجه القصران الشمالي والجنوبي دماراً عنيفاً على ما يبدو، ولكن ليس قبل إخلائهما وإفراغهما من المحتويات والمواد القابلة للنقل من قبل السكان، وهذا يتطابق مع ما حدث في أوغاريت.

لكن بخلاف أوغاريت فإن تل ابن هاني قد سُكِنَ من جديد، وعلى بقايا عصر البرونز الحديث.

تل راميتا (اللاذقية): يقع تل راميتا جنوب الميناء القديم لمدينة اللاذقية وقد ظهرت بقايا الأثرية عام ١٩٦٣م، ليس على إثر تنقيبات أثرية بل بفضل التوسعات المرفئية الحديثة.

كانت راميتا قرية صغيرة مبنية على تل صخري مساحته هكتار ونصف، كان ينتصب جنوب الحوض القديم للمرفأ، وقد عثر في هذا التل على كسر فخارية يعود تاريخها إلى عصر البرونز الحديث (١٦٠٠ - ١٢٠٠) ق.م وكان يسكن تلك القرية صيادون ينتمون إلى الشعب الكنعاني.

إن أقدم اسم حملته اللاذقية هو (راميتا) وهذا ما يفيدنا به جغرافي بيزنطي من القرن الخامس نقلاً عن كتاب وضع قبله بحوالى أربعة قرون يصرح صاحبه إنه ليس سوى الترجمة اليونانية لتاريخ كان قد كتبه كاهن كنعاني عاش في بيروت حوالى القرن

على الأقل الأول قريب من باحة القصر، وكان بمثابة الديوان الخاص بسيدة القصر، وجدت فيه نصوص سحرية وطبية وطقسية وإدارية دبلوماسية، والثاني رقم تذكر (الملكة) وتدل على أنها صاحبة القصر الشمالي.

وكما يبدو فإن القصر كان مركزاً إدارياً وإنتاجياً مهماً، لكن أروع ما حققته أعمال التنقيب في القصر الشمالي حيث «كانت مفاجاتنا في عام ١٩٨٢م شيئاً خارقاً للعادة بالنسبة للتاريخ الاقتصادي في سورية، بل في شرق البحر الأبيض المتوسط والعالم القديم، حيث عثرنا على آثار منشآت صناعية، منها قالب لصب سبائك البرونز والنحاس المعدة لأغراض التجارة والتصدير وهي عبارة عن قاعدة صخرية ضخمة منحوتة في وسطها على شكل جلد ثور لصب السبائك التي كانت تستخدم كأساس للتبادل التجاري».

النصوص الكتابية: تكمن أهمية النصوص التي اكتشفت في القصر الشمالي في أنها المجموعة الوحيدة من الرقم الأوغاريتية المكتشفة خارج العاصمة أوغاريت، وتتوزع حسب مضامينها على فئات عدة: مراسلات داخلية - مراسلات مع ممالك - نصوص دينية - نصوص تتميز بأنها تختص بالعلاقات الاقتصادية - نصوص معجمية سومرية - بابلية.

هذا الحادث من دون متابعتهم للنسر لذلك أدرك سلوقس أن مشيئة زيوس أن تبنى اللاذقية على هذا الرأس، وكي يكسب رضى الآلهة قرر أن يضحي بفتاة كان اسمها (أغافي) وهو اسم إحدى آلهات البحر في الميثولوجيا الإغريقية، وأمر سلوقس أن ينصب تمثال ذهبي لأغافي ليجلب الحظ والسعادة للمدينة.

وهذا يدفعنا للقول بأن تأسيس اللاذقية الكلاسيكية جاء نتيجة لإرادة الإله (زيوس).

تل سيانو: يعتبر تل سيانو واحداً من أكبر خمسة تلال أثرية على الساحل السوري، يقع إلى الشرق من مدينة جبلة وعلى بعد حوالي ثمانية كيلو مترات منها، ويمر إلى الجنوب منه نهر الحداد. تبلغ مساحة التل قرابة عشرة هكتارات ويرتفع (١٤٨) متراً عن سطح البحر أما ارتفاعه عن مستوى السهل المحيط به فيبلغ نحو (٤٠) متراً وفي ذروة التل نقطة مساحية مثلثاتية من الدرجة الثانية ترى من كل الجهات.

أصل الموقع تلة طبيعية من الغضار البني الضارب إلى الصفرة تراكمت فوقها الطبقات الأثرية بارتفاعات مختلفة، وأعلى التل أجمة تظلل بضعة قبور أهمها قبر الشيخ علي الغانم الذي يحمل شهادة قبر

الحادي عشر قبل الميلاد. لذلك ليس من المستبعد أن يكون هذا الاسم تحريفاً وقع به المترجم اليوناني لكلمة (ياريموتا) التي ترد في نصوص من القرن الرابع عشر قبل الميلاد اكتشفت في تل العمارنة في وادي النيل والتي تشير إلى مكان مأهول يقع على الساحل شمالي أرواد.

كانت اللاذقية خلال العصر البرونزي الحديث قرية صغيرة تتبع لمملكة أوغاريت وقد حملت أسماء عدة بعد اسمها الكنعاني (راميتا) ومنها (مزيدا) بمعنى زبد البحر، كما حملت في الوقت نفسه اسم (لوكياكته) بمعنى الشاطئ الأبيض باللغة اليونانية.

أما اللاذقية الكلاسيكية فيروي لنا المؤرخ البيزنطي (مالالاس) الذي عاش في القرن السادس الميلادي أسطورة طريفة حول تأسيس المدينة.

تقول الأسطورة إن سلوقس عندما أراد بناء اللاذقية قام بتقديم القرابين إلى الإله (زيوس) كي يختار له المكان الملائم، في تلك الأونة اقترب نسر والتقط الذبيحة. قدر الملك هذا العمل على أنه من مشيئة الإله فأخذ مع جنوده يلاحق النسر حتى رأس صخري يمتد في البحر.

وفي هذا الموقع هجم خنزير بري على الملك الذي قتله بحريته. وقد حال

من التل قد تلقت ضربات معاول المنقبين الأولى.

ورد اسم تل سيانو في رسائل تل العمارنة منذ القرن الرابع عشرق.م، وفي النصوص الأوغاريتية والحثية خلال القرنين الرابع والثالث عشرق.م، وفي حويليات المملكة الآشورية الحديثة في القرن العاشر حتى السابع قبل الميلاد، وكذلك في التوراة التي كانت تردد متأخرة صدى أحوال المنطقة في تلك الفترة.

وقد أسفرت المواسم التنقيبية التي نفذت في التل عن سويات أثرية أهمها:

السوية الأولى: تحتل سطح التل وهي مكونة من مواد تعود للقرن التاسع عشر الميلادي.

السوية الثانية: تعود للقرن السابع عشر الميلادي.

السويتان الثالثة والرابعة: ضممتا بقايا تعود للقرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

السوية الخامسة: تعود للقرن الثامن قبل الميلاد.

السوية السادسة: تعود للقرن التاسع قبل الميلاد.

السوية السابعة: تعود لعصر البرونز القديم الثالث نهاية الألف الثالث قبل الميلاد.

مؤرخة في القرن الثاني عشر الهجري، والأشجار في الأجمة وعلى بعض سطوح التل هي البلوط والسنديان والصنوبر والزعرور وغيرها.

وفي الوضع الراهن نجد أقساماً كبيرة من تل سيانو على شكل جروف متدرجة، تزرع بالزيتون والحبوب، وبقرب التل وحوله بيوت قرية سيانو وثمة بئر أثرية شهيرة فيها تعرف ببئر سيانو تقع إلى الجهة الغربية من القرية.

أجرت البعثة الأثرية الدنماركية بإدارة (بول ريسن) مسحاً للتلال الأثرية وفي المنطقة الجنوبية من محافظة اللاذقية، وركزت بشكل خاص على السهل، ولم تبلغ المناطق المرتفعة ويعتبر تل سيانو من أهم التلال التي قامت تلك البعثة بمسحها.

وقد أشير مراراً إلى أهمية تل سيانو من الوجهة الأثرية مما دفع أميل فورير لزيارته عام ١٩٣٤م وقدر أنه كان عاصمة مملكة سيانو التي تواترت قديماً أخبارها.

في عام ١٩٩٠م اخترقت آليات شركة الري في اللاذقية الأجزاء الدنيا من التل بعمق شديد، واكتشفت في الجهة الغربية من التل معالم أثرية فأوقف العمل، وتمّ تشكيل بعثة أثرية سورية للتنقيب في التل المذكور وبدأت الأعمال في الموقع منذ عام ١٩٩٠م وكانت الجهة الشمالية الغربية

وبانياس، ويشرف على هذا السهل تل سوكاس الواقع بجوار البحر تماماً، على بعد ٦ كم جنوب جبلة على مرفأً طبيعياً من أحسن المرافئ على الساحل وللمرفأً خليجان شمالي وجنوبي، والتل ثلاثي الشكل تقريباً ارتفاعه ٢٤ م، قسمه العلوي مؤلف من أنقاض أثرية، أما قسمه السفلي فهو مؤلف من الصخور الكلسية وهضبة التل تتحدر نحو الجنوب الغربي وقمته في الزاوية الشمالية الشرقية كانت قبل الحفريات عبارة عن أكمة صغيرة بارزة على الهضبة، وعلى سطحها وجنبتها حجارة منحوتة وحجارة «غشيمة» دلت على وجود برج.

تشير المصادر الأوغاريتية أن (تل سوكاس) هو مدينة شوكسي القديمة والذي يبدو أنه كان مأهولاً منذ العصر الحجري وحتى العصر العربي الإسلامي. استمرت أعمال البعثة الأثرية في تل سوكاس ما بين أعوام ١٩٥٨ - ١٩٦٣م نفذت خلالها البعثة الدنماركية خمسة مواسم تنقيبية في الموقع تمكنت خلالها من رصد الحضارات المتعاقبة عليه.

الطبقات الأثرية والعصور التاريخية

وهي:

عصر البرونز الوسيط يؤرخ ما بين (١٩٠٠ - ١٧٥٠ ق.م) -عصر البرونز الحديث يؤرخ ما بين عام (١٦٠٠ - ١٢٠٠

أمّا عن أخبار سيانو في عصر أوغاريت: فقد وجدت رسالة محررة بالأوغاريتية من ملك سيانو على الأرجح جاء فيها: يقول ملك سيانو لملك أوغاريت (سلام عليك، لتحفظك الأرباب، إني مرسل إليك رسولي أوخورا ليعالج بعض القضايا التي تخصني فارعه يا أخي حتى يوم عودته، وأرسل لك أيضاً ابني نعمو فيمثلان أمامك فاقض بينهما و لتكن تسوية عادلة مع رجال بالو) حيث إن رجالاً من بيروت من الذين ادّعوا بأنهم يسعون للحصول على بعض المشروبات من أوغاريت ارتكبوا أعمالاً معادية في سيانو.

ويحظى هذا الموقع بأهمية كبيرة حيث تشير الدراسات أن تل سيانو كان في بدايته التاريخية من تابعات مملكة أوغاريت ثم استقل عنها وموقع هذا التل أكسبه أهمية اقتصادية كبيرة كونه يشرف على سهل واسع وغني بمزروعاته وخاصة الحبوب وكذلك يقع على طريق مرور البضائع الواردة من الداخل باتجاه مرفأً الساحل من أجل تصديرها إلى دول المتوسط.

تل سوكاس: يعتبر سهل جبلة من أكبر سهول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وأغناها، تحيط به جبال الساحل التي تمر بمحاذاة الشاطئ عند اللاذقية

وقد قامت البعثة في حينها برئاسة بول جان ريس بحصر شامل لتلك المواقع وإدراجها تحت عنوان نشاط البعثة الأثرية الدنماركية على الساحل الفينيقي عام ١٩٥٨م.

ونظراً لأهمية موقع تل إيريس المجاور لتل سيانو فقد تم تشكيل بعثة أثرية وطنية من المديرية العامة للآثار والمتاحف نفذت الموسم التنقيبي الأول عام ٢٠٠٣م، وبعد انقضاء عامين على بدء الأعمال في الموقع أسفرت التنقيبات عن اكتشاف سويات أثرية وهي:

السوية العثمانية - السوية المملوكية - السوية البيزنطية- السوية الهلنستية - السوية الفينيقية وقد تم التعرف عليها من خلال وجود عمارة ومواد أثرية فخارية، يعود تاريخها إلى فترة الحديد الثالثة أي القرن السادس ق.م (وهذه السوية منتشرة على طول الساحل السوري اللبناني) وأخيراً سوية عصر البرونز الحديث الألف الثاني قبل الميلاد.

وأخيراً نستطيع القول إن تل إيريس الواقع في وسط سهل جبلة الخصيب له خصائص إنتاجية، مع وجود صلات وارتباطات تجارية بالمواقع الأثرية القريبة والبعيدة مثل (تل سيانو - تل تويني- تل سوкас - وأوغاريت) وغيرها.

تل التويني: يعتبر تل التويني واحداً

ق.م) - العصر اليوناني- العصر الحديدي- العصر الهلنستي-العصر الروماني- السوية الصليبية- وأخيراً السوية العربية الإسلامية.

وعن أهمية هذا الموقع نرى أن تل سوкас يقدم مزيجاً حضارياً رفيع المستوى لثقافات عدّة أهمها: الكنعانية الفينيقية والعربية الإسلامية. وكان مرفأه يوزع البضائع المحلية والمستوردة إلى عالم المتوسط، وقد شكل عبر تاريخه الطويل نقطة تواصل واتصال ثقافي وتجاري عبر المتوسط ما بين مدن شرق المتوسط وغربه.

وجدير بالذكر أن تل سوкас كان ذا حضارة مزدهرة خلال الألف الثاني قبل الميلاد معاصراً لأوغاريت ولاقى مثلها ازدهاراً، كما لاقي مثلها دماره على يد شعوب البحر الغازية التي ألحقت الخراب والدمار بحضارات الساحل السوري عام (١١٨٠ ق.م).

تل إيريس: يقع تل إيريس في سهل جبلة على بعد ٣٠ كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة اللاذقية يرتفع عن محيطه حوالي ٢٠ متراً، وهو أحد المواقع الأثرية التي كشفتها البعثة الأثرية الدنماركية عام ١٩٥٨م خلال قيامها بالمسح الأثري في سهل جبلة الذي يعتبر من أكبر سهول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط،

هذا التل الواقع على الساحل في أقصى الجنوب ممراً بحرياً هاماً للتبادل التجاري، وفي القديم كانت الطرق التجارية تصل تل التويني بسهل العاصي من خلال جبال الساحل. وهذا الموقع الجغرافي حدد موقع المدينة التجاري من هنا كانت البضائع المنتجة في منطقة المتوسط تصدر إلى داخل البلاد وبتجاه الأناضول وبلاد ما بين النهرين وكانت أهمية المدينة في عصر البرونز الحديث والعصر الحديدي محدودة بدورها الاقتصادي فقط، وبما أن الموقع محاط بالعديد من الينابيع والمسيلات المائية فقد ساعد هذا في انتعاش المدينة، وينعكس وجود هذه الينابيع في الطقوس الدينية، وفي أيامنا هذه نلاحظ قرب النبع الرئيسي شرق التل بقايا بناء مؤلف من إنشاءات مصنوعة من حجارة طبيعية، نعتقد أنها تعود في الماضي إلى معبد مكرس لماء النبع.

وتشير الخارطة الطبوغرافية التي وضعها الفرنسي دورافيوود عام ١٩٢٦م إلى أن السور الخارجي يحيط بكامل الموقع. أهم الاكتشافات: اكتشاف مدفن أثري يعود لفترة البرونز الوسيط ١٨٠٠ ق.م، وجد بداخله هياكل عظمية ومجموعة من اللقى الأثرية أهمها:

من أهم التلال الأثرية التي كشفتها أعمال البعثة الأثرية الدنماركية، ويقع هذا التل على بعد ١,٥ كم شمال مركز مدينة جبلة، وكان محط أنظار الباحثين منذ بداية القرن العشرين الذين اعتبروه موقع جبلة القديمة.

أبعاده: ٤٥٠ × ٣٠٠ م وهو ذو شكل مثلثي رأسه في الجهة الغربية وقاعدته في الجهة الشرقية. تعمل في الموقع بعثة أثرية (سورية - بلجيكية) مشتركة منذ عام ١٩٩٩م وقد تركزت أعمالها في حقلين:

الحقل الأول (A) يقع في مركز التل، أما **الحقل الثاني (B)** فهو يقع في الجهة الجنوبية الغربية من التل.

وأما عن التنقيبات التي تجريها البعثة الأثرية في تل التويني فقد كان لها ثلاثة أهداف:

- إلقاء الضوء على عصر الحديد في منطقة شمال فينيقيا.

- معرفة إمكانية وجود عصر البرونز الحديث في الموقع المشار إليه في النصوص الأوغاريتية.

- مشاهدة ومراقبة التحولات بين هذه الفترات.

يتوسط تل تويني منطقة زراعية خصبة، إضافة إلى أنه يمر تجاري هام يقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وكان

كما ورد اسم (سميرا) في كتب المؤرخين القدماء لـ (بلين) و(سترابون) و(ببليوموس) مما يشير إلى أن المدينة كانت قائمة في الأراضي الواقعة حول عمريت. كما ذكرتها حوليات تحوتمس الثالث خلال التحدث عن حملته السادسة التي بلغ فيها قادش، ثم وصل بلاد (س. ي. وت.) ولا ندري ماذا يقصد بهذا التعبير، ثم إلى مدينة سميرا فأرواد.

منذ عام ١٩٥٤م، أجرت المديرية العامة للآثار والمتاحف أسبانياً عدّة في التلال الأثرية بحثاً عن المدينة الضائعة (سميرا)، واستمرت الأعمال بإدارة الباحثين السوريين (عدنان البني ونسيب صليبي) والفرنسي (موريس دونان) وبعد انقطاع دام ربع قرن قامت الدكتورة ليلي بدر وفريقها تحت اسم بعثة (متحف الجامعة الأمريكية) في بيروت بالتفتيش في الموقع منذ عام ١٩٨٥م ومن دون انقطاع وأهم ما تحقق في موقع تل كزل جراء أعمال التنقيب الأثري هو العثور على سويات الاستيطان التي تؤكد استمرار سكن الموقع عبر أحقاب عدة تظهرها الطبقات الأثرية وهي:

الطبقة الهلنستية- الطبقة الفارسية
-عصر الحديد الثاني- عصر الحديد الأول- الطبقة الخامسة وهي طبقة غنية جداً، وفخارها وافر وسليم بشكل عام،

الأختام الأسطوانية والفخاريات المتنوعة، إضافة إلى دمية من الفريت تمثل الربة (عشتار) آلهة الحب والخصب السورية القديمة، وتعود لعصر الحديد إلى جانب مجموعة هامة من اللقى الأثرية التي تسلط الضوء ساطعاً على تاريخ هذا الموقع.

وأظهرت الحفريات في القسم الغربي من التل معبداً فينيقياً يورخ بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، وقد وُجِدَ مشابه لهذا المعبد الذي خصص لعبادة إله الصاعقة في مدينة انكومي في قبرص.

وما نلاحظه أن تل التويني يؤكد تواصل الإقامة فيه بصورة دائمة تقريباً طوال الفترة الممتدة من عصر البرونز الوسيط وحتى نهاية عصر الحديد (٢١٠٠ - ٥٠٠) ق. م، وهذا يزيد في الغنى التاريخي والثقافي للمواقع الأثرية على الساحل السوري.

تل كزل: يقع تل كزل على الضفة اليمنى لنهر الأبرش على بعد ٢.٥ كم عن مصبه في البحر، جرت فيه تحريات أولية عام ١٩٥٦م ثم في عامي (١٩٦٠-١٩٦١م) بإدارة (عدنان البني والفرنسي موريس دونان) (M. Dunand) ارتفاع التل حوالي ٢٥م يبلغ طوله حوالي ٣١٠م وعرضه ٢٨٠م تحدثت عن هذا الموقع النصوص القديمة المصرية والآشورية وكذلك التوراة باسم (سميرا) التي ترقد أنقاضها في تل الكزل

إنَّ أهم ما يميز تل كزل هو انفراده بموقع جغرافي هام جداً، يتصدر ما يعرف عند الجغرافيين بفجوة حمص والتي تعتبر الممر الوحيد ما بين الساحل والداخل في سلسلة الجبال الممتدة من جنوب لبنان وحتى أقاصي شمال سورية. وبهذا يكون تل كزل عامل ربط بين شرق المتوسط وغربه، إضافة إلى كونه موقعاً محصناً دفاعياً. أمّا الميزة الثانية فهي استمرار الحياة في هذا الموقع على الرغم من الدمار الذي لحق به على يد شعوب البحر.

ظهرت فيها مبان ضخمة وباحات فسيحة ومبلطة وأيضاً الفخار المستورد من قبرص بكثرة كالتصعاعات والأباريق، كما اكتشفت فيها صحيفة من البرونز بصورة عشتار وختم يحمل كتابة حثية، ويستدل من أسلوب هذا الختم أنه معاصر لآختم أوغاريت وتارس وبوغازكوي، وكما تم اكتشاف سكين من البرونز وجعران مصري يحمل صورة الرب المصري (مين) تم تأريخ هذه الطبقة إلى القرن الرابع عشر ونهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد وتقع على عمق ٣،٥ من سطح التل.

المصادر والمراجع

- أ.ش. شيفمان، ثقافة أوغاريت ١٩٨٨م.
- أ.ش. شيفمان، مجتمع أوغاريت. دمشق ١٩٨٨م.
- البعثة الفرنسية المنقبة رأس الشمرا (١٩٢٩-١٩٧٩م) (تر) فهمي الدالاتي دمشق ١٩٨٠م.
- أنطوان سليمان (تل ايريس) وثائق المديرية العامة للآثار والمتاحف ٢٠٠٤م.
- بشر زهدي (الحوليات الأثرية السورية) العدد ٢٩-٣٠ دمشق ١٩٧٩-١٩٨٠م.
- ب.كوربان (الحوليات الأثرية السورية) العدد ٢٥، دمشق ١٩٧٥م.
- ب.ج.ريس (الحوليات الأثرية السورية) تعريب عدنان البني العدد ٨-٩ دمشق ١٩٥٨-١٩٥٩م.
- جبرائيل سعادة (رأس شمرة - آثار أوغاريت) دمشق ١٩٥٤م.
- جورج حداد (الحوليات الأثرية السورية) العدد ٢، دمشق، ١٩٥٤م.
- جان هيرو (سورية اليوم) باريس ١٩٨٤م.
- جمال حسن حيدر،،، لئبيرغ، كارل فان. موسم التنقيب الأوّل في تل التويني. ١٩٩٩م.
- جوزيف لابي (الحوليات الأثرية السورية) تعريب عدنان البني العدد ٣٦-٣٧، ١٩٨٦-١٩٨٧م.
- فيليب حتي،، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، بيروت، ١٩٥٨م.
- صافية سعادة (أوغاريت)، بيروت، ١٩٨٢م.
- فرنان بروديل، البحر المتوسط المجال و التاريخ دمشق ١٩٩٠م.
- كلود شيفر (الحوليات الأثرية السورية) العدد ٢، دمشق، ١٩٥٢م.

- قاسم الشواف (أخبار أوغاريتية)، دمشق، ١٩٩٩م.
- عماد الدين الموصللي، في ربوع محافظة اللاذقية دمشق ١٩٩٩م.
- عمر الغول، أوغاريتيات، إربد ١٩٩٧م.
- علي أبو عساف (آثار الممالك السورية القديمة) دمشق ١٩٨٨م.
- عدنان البني، جاك لاغارس وآخرون معرض الآثار السوري الأوروبي، دمشق ١٩٨٧م.
- عدنان البني (مجلة دراسات تاريخية) العدد ٤٥ - ٤٦ دمشق ١٩٩٣م.
- محمد حرب فرزات، موجز في تاريخ سورية القديم دمشق ١٩٨٨-١٩٨٩م.
- مجموعة من الباحثين (المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية) دمشق ١٩٨٠م.
- مجموعة من الباحثين (معرض الآثار السوري الأوروبي) دمشق ١٩٩٦م.
- مجموعة من الباحثين الفرنسيين دراسات أوغاريتية (تر) نور الدين خضور اللاذقية ١٩٩٨م.
- ميشيل المقدسي، لينبرغ، كارل فان.. موسم التنقيب الخامس في تل التويني. ٢٠٠٤م.
- موريس دونان،، نسيب صليبي،، الحوليات الأثرية السورية العدد ٧، ١٩٧٧م.
- غسان طريه،، أوغاريت، رأس شمرا اللاذقية ١٩٩٧م.
- نسيب وهيبه الخازن، أوغاريت (أجيال- أديان- ملاحم) بيروت ١٩٦١م.
- Akkannans, M.G(Schwartz, G.M.) (The archaeology of Syria) 2003
- Courtois,(Ras shamara minet – beida, ras ibn hani) paris 1999
- D. Arr aud(Le Monde de la Bible)1987
- G. Saadé (Ougarit métropole cananéenne) 1979
- Yon M., Callot O. (L'habita à Ougarit)Paris 1987
- G. Saadé (Ougarit métropole cananéenne) 1979
- Yon M., Callot O. (L'habita à Ougarit) Paris 1987



أفريقيا ساحة صراع لعقود قادمة



د. خيرالدين عبد الرحمن



عندما حلت الذكرى المئوية الثانية لإلغاء العبودية وإنهاء الرق عالمياً على المستوى الرسمي، في العام ٢٠٠٧م، كان المأمول أن تبادر الدول المتسببة بتلك المأساة المرؤعة إلى مسح آثارها المتسلسلة التي لا تزال أفريقيا تعاني منها أكثر من سواها. فلم يكن جائزاً جعل هذه الذكرى مجرد مناسبة للتأمل، أو الاستذكار العابر لفضائع هولوكوست

✽ أديب وباحك ودبلوماسي سابق.

على اتهام العرب زوراً -من دون سواهم- باسترقاق الأفارقة. شكّل هذا الاتهام المادة الرئيسة لكتب مدرسية وأغنيات وقصائد ومسرحيات وقصص وبرامج إذاعية وتلفزيونية وآلاف الكتب والأشرطة السينمائية الأوروبية والأمريكية التي فعلت فعلها، فمارست احتلالاً للعقول والنفوس الأفريقية، مما شوه أفكارها ومفاهيمها ومعتقداتها.

كانت الحقيقة سهلة المنال في مواجهة أكاذيب تلك الحملة الهائلة، فمجرد عرض بعض الحقائق، والإجابة على أسئلة منطقية بسيطة كانت كفيلاً بتهاافت تلك الأكاذيب.

أول تلك الحقائق هي أن الشعوب القديمة كلها، وخاصة الأوروبية، قد عرفت الرق. كانت أثينا مثلاً تضم عشرين ألفاً من الإغريق وأربعمئة ألفاً من العبيد. وكان في روما عدد هائل من العبيد تجاوز المليون، فمع كل انتصار عسكري لروما كانت سيول جديدة من العبيد تتدفق على روما. (1) ولنا عودة منفصلة ومنفصلة إلى موضوع الرقيق هذا.

أمّا أول الأسئلة فهو: من الذي كان يهيمن على أفريقيا عندما مورست عملية الاقتلاع الكبرى في التاريخ البشري لعشرات ملايين الأفارقة السود؟ الجواب ببساطة: لقد سيطرت بريطانيا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا وهولندا وإيطاليا وألمانيا على

أوروبي أزرق أرواح ما يزيد على ٣٨ مليون إنسان أفريقي، وإنما هي مناسبة للنظر في تجدد احتدام صراع القوى الكبرى على القارة الأفريقية المنكوبة بالذات، ومناطق أخرى في العالم، بما يشكل نماذج عصرية لاسترقاق مستتر. لقد استنزفت معظم الدول الغربية ثروات أفريقيا على مدى قرون عدة، واستباح أهلها ونهبت مواردها الطبيعية من القطن والتوابل وزيت النخيل والنفط والغاز والذهب والنحاس. لكن الجريمة الكبرى كانت في استرقاق عشرات الملايين من الأفارقة وشحنهم قسراً عبيداً إلى ما بات يعرف بالقارة الأمريكية، من دون أن يعود هذا عليهم أو على أفريقيا بأي فئات منافع.

ضاعف من بشاعة المحنة أن القارة التي يشكل العرب في شمالها وشرقها ثلث سكانها، والتي يشكل عربها هؤلاء ثلثي الأمة العربية، قد خضعت لحملة غسل أدمغة متعددة الوسائل والأساليب، وموغلة في الإجرام والبذاءة، استهدفت استعداد سكانها السود فيما سمي جنوب الصحراء على العرب وعلى الإسلام الذي شكل الديانة الكبرى الرئيسة - إلى جانب ديانات وثنية محلية بدائية، وكنيسة قبطية في البلاد التي كان اسمها الحبشة، قبل مواكبة الحملات التبشيرية للحملات الاستعمارية.

لقد ركزت حملات الاستعداد تلك

بل إن البروفيسور طوني مارتين، الأستاذ في كلية ديلسلي الجامعية قد تعرض إلى حملة اضطهاد مضمّنية سنة ١٩٩٤م عندما اقترح على طلبته الرجوع إلى إحدى النسخ النادرة من ذلك الكتاب المحفوظة في بعض المكتبات العامة، ضمن عشرات المراجع العلمية الأخرى التي اقترحها لإعداد بحث عن كيفية مجيء الأفارقة إلى القارة الأمريكية. لم تتوقف الحملة إلا بعد أن تم طرد طوني مارتين من عمله لأنه تجرأ على توجيه طلبته للاطلاع على كتاب فضح أن السماسرة والتجار اليهود هم أبرز وأكثر الذين نفذوا أكبر عملية متاجرة بالرقيق في التاريخ عندما شكلوا عصابات مسلحة تخطف الأفارقة وتشحنهم بحراً لبيعهم عبيداً في الولايات المتحدة وبلدان أمريكية أخرى.^(٢)

لخص ديفيد إدواردز الدور البريطاني مثلاً في تجارة الرقيق - نقلاً عن مصادر عدة بريطانية وأمريكية موثقة - فكتب قائلاً: «دور بريطانيا في تجارة الرقيق هائل فظيع... فما إن حلّ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حتى كانت السفن البريطانية قد أنجزت مهمتها في تلك المرحلة فأقلت على متنها ٤٢٪ من مجموع ما سرق من أفريقيا من عبيد. شحنت البواخر التي ظلت تمخر عباب المحيط وهي تعبر الأطلسي في رحلات متتابعة

كل مناطق أفريقيا السوداء، وأنهت نفوذ الحكام والتجار العرب، بل واحتلت بعض تلك الدول الأوروبية معظم أرجاء الوطن العربي لاحقاً..

والسؤال الثاني هو: من أي الدول كانت الهجرات الاستيطانية الكبرى إلى ما بات يعرف بالقارة الأمريكية، بحيث تم اقتلاع عشرات ملايين الأفارقة من بلادهم وإرغامهم على العمل عبيداً في مزارع ومناجم هؤلاء المستوطنين؟

الجواب ببساطة هو أن موجات الهجرة الاستيطانية إلى ما سمي العالم الجديد قد كانت من تلك الدول الأوروبية حصراً لنحو قرنين.

وثالث الأسئلة: هل كان للعرب أي دور في موجات الهجرة الأولى تلك؟ الجواب هو النفي. ركزت الدعاية الأورو-أمريكية الهائلة على نشاط تاريخي تقليدي لتجار عرب جابوا البحار للإيحاء بأنهم سبب محن الأفارقة والمتاجرة بهم، وعندما بينت دراسات وأبحاث موضوعية موثقة لباحثين أوروبيين وأمريكيين الحقيقة التي تنفي هذا الافتراء، انطلقت حملات يهودية تتشط في شراء وإحراق ما طبع من تلك الدراسات والأبحاث، سواء كانت كتباً أو مقالات في مجلات!

هذا ما حدث مثلاً في الولايات المتحدة لكتاب (العلاقة السرية بين اليهود والسود).

وحقوق الإنسان ومقارعة الإرهاب. تتجدد روح الاسترقاق القديم الذي نقل عشرات الملايين من الأفارقة قسراً للعمل عبيداً لدى الغزاة البيض مستوطني القارة الأمريكية من ناحية، والذي حرّك الاستعمار القديم للقارة الأفريقية من ناحية ثانية.

لم يتغير جوهر عقلية الهيمنة الاستعمارية الغربية كثيراً، وإن تغلبت نزعة الغطرسة الأمريكية على الاجتياح الحالي الساعي إلى تعزيز الهيمنة على القارة الأفريقية بوجود عسكري أمريكي مباشر، لا استخدام أنظمة وشبكات ومجموعات عميلة فحسب.

لقد كان الثمن الذي دفعته شعوب القارة الأفريقية نتيجة الاستباحة الاستعمارية الأوروبية الظالمة والمتوحشة لها خرافياً يفوق الخيال سواء اجتماعياً أو بيئياً أو نفسياً أو اقتصادياً أو سياسياً. نشير مثلاً إلى أنه مثلما تم التقسيم الإجرامي الاستعماري للوطن العربي جاعلاً الثروة إطاراً سياسياً والحضارة والمدنية إطاراً آخر، قام سدنة الاستعمار بتقسيم اعتباري آخر في أفريقيا تمثل بافتعال كيانات مزقت القبيلة الواحدة ودمجت القبائل المتنافرة في كيان واحد، وجعلت الانتقال من بلد أفريقي إلى بلد أفريقي ملاصق لا يتم إلا عبر مطار أوروبي في معظم الأحيان!

تتجدد فصول متفجرة لهذه المسألة حالياً في أنحاء عدة من أفريقيا المستهدفة

بأكثر من ١١ مليون مستعبد انتزعوا قسراً من أهلهم وبيئتهم في قارتهم أفريقيا وسيقوا كالأنعام ليكابدوا أشد العذابات تحت نير الرّق.

قضى ما بين ١٠ إلى ٢٠٪ من هؤلاء نحبه خلال الرحلة إلى الكاريبي، أي أنه هلك في الحقيقة نحو ١,٥ مليون إنسان. ومن بعدها مات ثلث عدد من صمد من الأفارقة هؤلاء وبقي على قيد الحياة وذلك في غضون ثلاث سنوات من وصولهم»^(٢).

على العموم، لا تزال جزيرة (جورو)، قرب العاصمة السنغالية داكار، واحدة من الشواهد الباقية على إجرام أولئك الذين كانوا يحشرون من يخطفونهم من الأفارقة في سجون تلك الجزيرة بوحشية، ثم نقلوهم إلى أمريكا حيث باعوهم عبيداً للعمل في مزارع القطن.

منذ عقد مؤتمر برلين في العام ١٨٨٣م، الذي أطلق عليه ملك بلجيكا ليوبولد الثاني (مؤتمر تقسيم كعكة أفريقيا)، ظل الغرب عموماً يتصرف وكأنما له حقوق شاملة على منطقة جنوب الصحراء الكبرى الأفريقية.

لم يغير النضال الوطني الأفريقي الاستعمار والتمييز العنصري كثيراً من جوهر عقلية الغرب العنصرية والتسلطية في تعامله مع أفريقيا. ويتجدد اليوم استرقاق من نوع آخر في قالب مجلل بغلالة واهية من مزاعم نشر الديمقراطية

الاقتصاد..الاقتصاد..

يتعايش في أفريقيا بشكل عام اقتصاد معيشي Subsistence وهو غذائي أساساً لسد حاجات السكان المحليين، واقتصاد آخر تبادلي Exchange لأغراض التصدير. يشكل النشاط الاستخراجي - أو الإنتاج الأولي- القطاع السائد الطاغى في الحياة الاقتصادية الأفريقية، متمثلاً في المعادن التي يذهب تسعون بالمئة من كمياتها المستخرجة إلى أوروبا، وخاصة الذهب الذي تضم الأرض الأفريقية ٨١٪ من صادراته العالمية حالياً.

وقد سبق أن سُمى البرتغاليون ساحل أفريقيا الغربي ساحل الذهب لكثرة ما وجدوا من كميات ذهب هائلة هناك ونهبوها. كذلك هو شأن النحاس والحديد والألمنيوم والكوبالت واليورانيوم والكروم الذي يوجد تسعون بالمئة من احتياطه العالمي في الأرض الأفريقية، ناهيك عن استخراج الماس الذي تضم مناجم أفريقيا منه ٧٧٪ من مجموع ما يوجد في العالم بأسره. أمّا البترول فيشكل ثلث صادرات أفريقيا حالياً.

تتمثل أبرز جوانب النشاط الاقتصادي الأفريقي الأخرى كذلك في الرعي والسياحة والصيد وزراعة الشاي والقهوة والتوابل والتبغ والحبوب الزيتية والكاكاو الذي تنتج ٧٠٪ من إنتاجه العالمي والمطاط والسيسل

بحملة أمريكية تجاهر بأن القارة الأفريقية هدفها الراهن، مما تسبب بتضخم الوجود الأمريكي فيها. لكن هذا التمدد العسكري الأمريكي في أفريقيا قد واجه رأياً عاماً معادياً في غالبية. لهذا تقرر أن تكون مدينة شتوتغارت الألمانية مقراً مؤقتاً للقيادة العسكرية الأمريكية الإقليمية الخاصة بأفريقيا ب(أفريكوم) عندما رفضت عواصم عدة مغربية وأفريقية أخرى قبول استضافة هذه القيادة.

كما تمّ إدماج شمال أفريقيا في مظلة حلف شمال الأطلسي الذي تهيمن الولايات المتحدة على قيادته وتتحكم بنشاطه العسكري، في مؤشر آخر على سحب البساط جزئياً من تحت أقدام السيطرة الفرنسية التقليدية في البلدان الأفريقية الفرانكوفونية..

وأصرت الإدارة الأمريكية السابقة على تسريع ترتيبات وجود عسكري ومخابراتي قوي لها في أفريقيا، بعدما قلص الفرنسيون وجودهم العسكري نتيجة ارتفاع الكلفة الباهظة لوجودها في أفريقيا جنوب الصحراء، وبخاصة بعد الخسائر البشرية والسياسية التي تكبدتها القوات الفرنسية في ساحل العاج، فاكنت مرغمة بنقاط ارتكاز رمزية.

الأزمات الاقتصادية وموجات الجفاف والتصحر واحتمام النهب الذي تمارسه شركات أجنبية بالتواطؤ مع حلقات الفساد المحلي.

كانت الإحصائيات المتداولة قد تحدثت عن مفارقة استخدام الفرد الأمريكي ألف لتر من الماء العذب يومياً، بينما لا يصل استهلاك الفرد في بلدان الجنوب إلى عشرين لتراً، وأن خمس سكان العالم، أي أهل الشمال المصنع الغني، يستهلكون ثمانين بالمئة من الطاقة وسيطرون على ثمانين بالمئة من الإنتاج العالمي أيضاً، تاركين لأربعة أخماس البشر الذين هم سكان الجنوب عشرين بالمئة من الطاقة وعشرين بالمئة من الإنتاج فقط.

إن موت ملايين الأفارقة سنوياً من العطش والجفاف والمجاعة، وحرمان ملايين النيجيريين من الطاقة، وهم الذين تعتبر بلادهم من أهم الدول المصدرة للنفط واليورانيوم في العالم، مفارقة صارخة.

ففيما عدا جنوب أفريقيا حيث أقام النظام العنصري السابق قاعدة صناعية وعلمية واقتصادية قوية ومتقدمة - لم يشهد أي بلد أفريقي نهوضاً اقتصادياً ذاتياً حقيقياً. تحدثت صحيفة لوموند الفرنسية مثلاً عن دور الأزمات الاقتصادية الطاحنة في الإطاحة بعدد من الأنظمة الدكتاتورية في أفريقيا، وتوقفت عند مظاهرات جنود

الذي تنتج ثلثي إنتاجه العالمي والقطن والأخشاب. وهكذا، فالالاقتصاد الأفريقي نام ومتخلف عموماً، زاد في مأزقه التحكم الخارجي بإنتاجه وتصديره وأسعاره!

من المفارقات المأساوية أن القارة التي تبلغ مساحتها ثلاثين مليوناً وثلاثمئة ألف كيلومتر مربع، أي خمس مساحة اليابسة على كوكبنا، وتتوزع فيها المناخات. وبالتالي المزروعات. تعاني من الجفاف والعطش والمجاعة في العديد من بلدانها بينما تحترقها أنهار عديدة بعضها من أطول أنهار العالم، مثل النيل، وأعرضها مثل الكونغو، وأشدّها غزارة مثل الزامبيزي، ناهيك عن عشرات الأنهار الأخرى من وادي شيبلي شرقاً إلى السنغال غرباً وعشرات البحيرات الواسعة، بل والتلوج الدائمة على مدار السنة فوق قمم جبل كليمنجارو وجبل كينيا عند خط الاستواء. تعيش غالبية سكان أفريقيا البالغ عددهم قرابة سبعمئة وعشرين مليوناً على تخوم خط الفقر أو دونه! إن أربعين مليون أفريقي مهددون بالموت جوعاً حالياً، ويعاني ضعف هذا العدد من أمراض خطيرة مستوطنة أو محدثة، يقال أن بعضها مفتعل نتيجة استخدام مختبرات شركات ومؤسسات أمريكية وغير أمريكية التجمعات السكانية الأفريقية لاختبار جراثيم وفيروسات مهجنة في تلك المختبرات! ويتزايد هذا العدد مع تفاقم

المتحدة أوضاع القرن الأفريقي نحو التفجر، ووزعت دوله ما بين ساحة صراع رئيسية، كما في الصومال والسودان والكونغو، أو قاعدة لوجود عسكري وأمني أمريكي قوي، كما في جيبوتي، أو منطلقاً لأدوات محلية موالية، مثل إثيوبيا وكينيا، حيث يحتدم التدخل المخبراتي والعسكري في الصومال. وأخذ تصعيد التدخل الأورو-أمريكي-الصهيوني في المنطقة بعداً استثنائياً منذ تم اكتشاف احتياطي نفطي كبير في السودان (دارفور والجنوب)، بعضه معلن، وبعضه مستور لأسباب إستراتيجية، وعقاباً على تجرؤ الحكومة السودانية على تلزيم استخراج البترول لشركة صينية. بل تركزت صفقة التهذئة في دارفور أساساً على تمرير إنشاء أنابيب لنقل الغاز من شرق تشاد إلى الكاميرون، بعد إنهاك السودان بحروب أهلية وحركات تمرد وقصف أمريكي بصواريخ توما هوك لعاصمته وفرض عقوبات دولية عليه ودفعه أكثر باتجاه تفكيك كيانه.

كانت سلطة الدولة الصومالية وأكثر مقوماتها قد تلاشت، وعانى الشعب دماراً واقتتالاً وفقراً وفوضى منذ خسر الجيش الصومالي الحرب التي أعلنها الرئيس الأسبق محمد سياد باري لاستعادة إقليم أوغادين من إثيوبيا سنة ١٩٧٨م. تفاقم الوضع بعد الإطاحة بالرئيس باري ونشوب

الجيش المطالبين برواتب لم تدفع لهم منذ شهور تحولت إلى انقلابات عسكرية ضد حكام تبتلع شراهم الفئات الذي تتركه الشركات الأجنبية..

عولت الولايات المتحدة كثيراً في السنوات الأخيرة على نيجيريا، كبرى الدول المنتجة للنفط في أفريقيا وكبرى الدول الأفريقية من حيث عدد السكان. وهكذا تم تعزيز الوجود العسكري والاستخباراتي والاستثمارات النفطية الأمريكية في نيجيريا، ومع اهتمام خاص بتقوية قادة عسكريين وقبليين وكنسيين مرتبطين بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وتأجيج نيران الفتنة الطائفية التي تهدد بتجدد الحرب الأهلية في نيجيريا لكن تصاعد الاحتجاج الشعبي على تفاقم الفساد واستشرائه، وتزايد عمليات خطف شبه يومية للعاملين الأجانب في شركات استخراج النفط أضاف إلى عدم استقرار المصالح الأمريكية في كثير من بلدان ومناطق إنتاج النفط بعداً إضافياً، وخاصة بعد تزايد النشاط الانفصالي لحركة تحرير شعب إجاو IJAW في دلتا نهر النيجر، حيث منابع النفط وحقله، مما ساهم في رفع أسعار النفط عالمياً، وضاعف من القلق الأمريكي على مستقبل تلبية احتياجات الاستهلاك النفطي في الولايات المتحدة. من ناحية أخرى، دفعت الولايات

أوكلي هذا يدير عمله في الصومال، إضافة إلى طاقم سفارة بلاده، من مقر شركة كونكو للبتترول في مقديشو! لكن الانقلاب الذي قاده الجنرال محمد فارح عبيد أحد جنرالات الجيش إلى الانقلاب على سياد بري الذي تحول من ماركسي إلى الحليف القوي لواشنطن، لتزلق البلاد في حرب أهلية، وينتهي الحال بالصومال مقسماً إلى ثلاثة كيانات هي: أرض الصومال في الشمال، وهي مكونة من ثلاث محافظات، ولها حكومة وبرلمان وشرطة وجيش، ولاية أرض بونت المكونة من خمس محافظات، ولها هي الأخرى حكومة وبرلمان منتخب وشرطة وجيش، ويترأسها الجنرال محمود موسى الذي يحمل - للمفارقة - الجنسية الكندية، وبقايا جمهورية الصومال، حيث أمراء الحرب الذين يخوضون معارك متجددة للسيطرة على عاصمتها مقديشو بشكل خاص.

كانت تنظيمات المحاكم الإسلامية قد توارت بعدما تلقت ضربات إثيوبية مؤلمة في بداية التسعينات اضطرتها إلى الكمون. لكنها نشطت مجدداً في العام ١٩٩٤م، إلى أن استعرت الخلافات القبلية في العام ١٩٩٦م فأرغمت المحاكم الإسلامية على تقليص نشاطها السياسي والعسكري والاكتفاء بممارسة القضاء والتحكيم القبلي.

حرب أهلية بين ميليشيات قبلية وعصابات سطو وابتزاز مسلحة ومغتصبي سلطة، ناهيك عن قتال صومالي ضد القوات الأمريكية التي اضطرت إلى الهرب سريعاً على نحو مذل.

وجاء الانتقام الأمريكي بدفع الجيش الإثيوبي لاحتلال الصومال بأكمله، تحت غطاء دعم حكومة صومالية انتقالية شكلتها أصلاً حكومات دول مجاورة بإشراف أمريكي، فتلاحقت تفجيرات الأوضاع الصومالية. ومرة أخرى، فنتش عن إسرائيل والنفط. فقد تأكدت الولايات المتحدة من وجود احتياط نفطي هائل في الصومال، فرصدت شركات النفط الأمريكية (كونكو - أميكو - شيفرون) مبلغ بليون دولار في مقابل امتيازات التنقيب والاستغلال.

وتمَّ تعيين روبرت أوكلي، أحد أهم ضباط الاستخبارات المركزية وأحد مهندسي ما عرف باسم فضيحة إيران - كونترا، مبعوثاً أمريكياً رسمياً خاصاً لدى الصومال في أواخر عهد الجنرال سياد باري الذي انقلب من التباهي بأنه ماركسي لينيني وأوّل من يطبق الاشتراكية العلمية في أفريقيا إلى طرد القوات السوفييتية من قاعدتها في ميناء بربره الصومالي الإستراتيجي واستجداء الولايات المتحدة علناً وعبر تصريحات متكررة لإرسال قوات أمريكية تستخدم تلك القاعدة! وقد راح

الولايات المتحدة وبريطانيا إلى المرتبتين الثالثة والرابعة، ونافست فرنسا على المرتبة الأولى اقتصاديا وتجاريا. كما تعاضم النشاط الاستثماري والتجاري- وبالتالي النفوذ السياسي - لدول أخرى عدّة غير استعمارية في القارة، مثل اليابان وماليزيا والهند والبرازيل. فقد اعتمد الاستعمار البريطاني كثيرا على استخدام عشرات الآلاف من الهنود لخدمة إدارته وشركاته في المستعمرات الأفريقية، وخاصة في شرق أفريقيا، لاستخدامهم جنودا ومخبرين وموظفين وكلاء وأدوات سيطرة وخدمة في الإدارة والتجارة. واستقر معظم هؤلاء بعد رحيل الاستعمار المباشر، وبتاوا يشكلون جاليات هامة تسيطر على تجارة المرفق ومهن عدّة كالطب والصيدلة والصيرفة والمقاولات.

وتشكل هذه الجاليات الهندية في شرق أفريقيا حاليا قاعدة فاعلة لنشاط وطنها الأم الهند، إضافة إلى استمرار الاعتماد البريطاني على كثير من أفراد تلك الجاليات الهندية. وقد جاء الاختراق الماليزي للهيمنة الأوروبية التقليدية على الاقتصاد الأفريقي ثابت الخطى، بعدما حقق الاقتصاد الماليزي قفزات مذهلة. وتلاقى الاستثمارات الماليزية في أفريقيا نجاحا واضحا، وخاصة في حقل التنقيب عن النفط واستخراجه وتكريره.

لكن الولايات المتحدة أرغمت الحكومة الصومالية الانتقالية على حظر المحاكم الإسلامية بعد أن أدرجتها ضمن قائمة المنظمات الإرهابية. ولم تفلح الاستعانة بقوات أفريقية من أوغندا وبوروندي أساساً في قمع الحركات الشعبية الصومالية وامتداداتها وانعكاساتها في دول مجاورة للصومال، حيث يعيش في منطقة القرن الأفريقي زهاء ٩٠ مليون نسمة ظروف فقر شديد ومجاعات متجددة، بينما تتحوّل المنطقة إلى نقطة جذب كبيرة لاستثمارات اقتصادية وعسكرية وأموا لسياسية واستخباراتية، في ظل جائحة إعلامية وثقافية أمريكية تطيح بالثقافات والقيم والسلوكيات وقواعد التعامل والتكافل المجتمعي المحلية المتوارثة.

الانسياب الناعم للمد الصيني:

ما إن بدا لفترة قصيرة أن الولايات المتحدة قد حسمت صراع النفوذ في أفريقيا بمواجهة أوروبية لصالحها، سرعان ما أطل نذ آخر مهدداً هيمنة الإمبراطورية التي لم تستقر بعد ذلك هو العملاق الاقتصادي الصيني، ولم تلبث روسيا أن عادت بدورها منافسا قويا على الساحة الدولية في المجالين الاقتصادي والسياسي، وخاصة في أفريقيا وآسيا. لقد نجحت الصين في غضون عقد واحد في تبديل موازين القوى في أفريقيا، وأزاحت

والأدوية والاتصالات وشبكات الفضائيات. صارت الشركات الصينية تعمل على نطاق واسع مثلاً في استخراج واستثمار الكوبالت والنحاس من جمهورية الكونغو (زائير سابقاً) وزامبيا، والحديد والبلاتينيوم من جنوب أفريقيا، والخشب من الغابون والكاميرون والكونغو برازافيل، والقطن من دول أفريقيا الوسطى والغربية.

ويعيش نحو ٨٠ ألف صيني في أفريقيا حالياً، يعملون في تجارة الأجهزة الكهربائية والإلكترونية والأحذية وسواها، إضافة إلى خبراء وفنيين صينيين عاملين في حقول مختلفة بناء على اتفاقيات معونة فنية أو اقتصادية مع معظم الدول الأفريقية.

تستورد الصين حوالى ٣٠ بالمئة من حاجياتها النفطية من أفريقيا التي باتت نبطها محركاً رئيساً للنشاط الاستخباراتي والعسكري والاقتصادي للولايات المتحدة في القارة السوداء، وخاصة نبط السودان والصومال ونيجيريا وأنغولا وغينيا الاستوائية والجزائر وليبيا.

دفعت مؤسسة (C.N.O.O.C) الحكومية الصينية المحدودة ٢,٧ بليون دولار في نيسان ٢٠٠٦م في مقابل ٤٥٪ من حقل نفطي رئيسي في نيجيريا. واشترت الصين أيضاً ٤٥٪ من أسهم حقل نفط بحري هناك بمبلغ ٣,٢ مليار دولار، كما وعدت باستثمار ٢٥,٢ بليون دولار إضافية

من ناحية أخرى، لعب عامل التماثل اللغوي دوراً رئيساً في تسهيل اختراق برازيلي متزايد في المستعمرات البرتغالية السابقة في أفريقيا، أنغولا وموزمبيق وغينيا بيساو وساو تومني وبرنسيب والجبل الأخضر.

يشير هذا الاختراق التجاري والاستثماري البرازيلي إلى احتمالات واعدة، وان كانت متواضعة بالقياس إلى النجاحات الصينية الهائلة. لقد نجحت الصين في غضون عقد واحد في تبديل موازين القوى في أفريقيا. فقد استثمرت آلاف ملايين الدولارات هناك، وخاصة في مجالات استكشاف واستخراج النفط والتعدين والنقل وإنتاج الطاقة الكهربائية والاتصالات والإنشاءات ومجالات البنية الأساسية الأخرى.

وتجاوز النشاط الصيني الاقتصادي تقديم هبات على شكل شق طرق أو بناء مبان عامة ذات بريق للجمهور إلى الدخول من أوسع الأبواب في مجالات استثمارات ضخمة طويلة الأمد مثل بناء سدود في إثيوبيا ومصانع نحاس في زامبيا وشق طرق في نيجيريا ومشاريع بنية تحتية في زمبابوي وتعاون صناعي وعلمي مع جنوب أفريقيا وسواها.

واقترحت الشركات الصينية حلبة المنافسة مع الشركات الغربية في التعدين والمناجم وإنتاج وتجارة المواد الطبية

بوتسوانا فيستوس سوجابي، الذي ينظر إليه كصديق للغرب، قال: «الصين تعاملنا الند للند ولا تتعالى علينا ولا تعاملنا بغطرسة كما يصنع الغرب». ولا تتي مؤسسات الدراسات ومعامل البحوث في واشنطن في الشكوى هي الأخرى من مسلك الصين ونهجها في القارة السمراء فقد أصدر مجلس العلاقات الخارجية، البالغ النفوذ والتأثير تقريراً في وقت مبكر من هذا العام أعدته قوة العمل والمهام التابعة له والمكلفة ببحث شؤون أفريقيا.

وقال أنتوني ليك، وهو أحد أهم أركان هذه القوة وكان يشغل منصب مساعد مستشار الأمن القومي في إدارة كلينتون: «على الرغم من أن الصين ليست عدوة أمريكا في أفريقيا فإنها «تجهض» الجهود الساعية للوصول إلى مزيد من الشفافية، وإلى ممارسات اقتصادية أفضل في ميادين الأعمال وإلى مكافحة الفساد في هذه القارة».^(٤)

وقد انطلقت حملة إعلامية أمريكية شرسة، تعززها أدوات إعلامية أوروبية وأخرى أفريقية مرتبطة بها، تهاجم ما أسمته غزواً صينياً لأفريقيا وتحذر منه، مستغلة كل فرصة لتأليب الأفارقة على الصين.

من هذا التأليب مثلاً نشر مقولات ذات قشرة علمية تشكك بالصين، كقول بيتس

في مجال تنمية الاحتياطات النفطية.. وحصلت الصين على حق التنقيب في دول أفريقية عدة أخرى من بينها كينيا. وإذ باتت أنغولا حالياً المصدر النفطي الأول إلى الصين، إذ تستورد ٢٥٪ من إنتاج النفط الأنغولي، فإن الصين باتت في الوقت نفسه شريكاً رئيساً في قطاعات نفطية متعددة هناك. تم مؤخراً مثلاً توقيع عقد منحت أنغولا بموجبه قرضاً صينياً بقيمة مليار دولار، وعقد لتزويد الصين بعشرة آلاف برميل من نפט أنغولا يومياً.

أما السودان الذي يمد الصين حتى الآن بنحو ٦٠-٧٠٪ من إنتاجه النفطي الراهن لتغطية نحو ٧٪ من إجمالي واردات الصين من النفط، فقد تطورت علاقاته القديمة مع الصين، فارتفعت الاستثمارات الصينية في العديد من مجالات الاقتصاد السوداني ومشروعاته. تمتلك شركة النفط الوطنية الصينية مثلاً ٤٠٪ من أسهم شركة النيل الكبرى للنفط، وقد استثمرت ٣ مليارات دولار في إنشاء مصافي لتكرير النفط ومد أنابيب نقله، بحيث بلغ إجمالي الاستثمارات النفطية الصينية في السودان ثمانية مليارات دولار.

ترى أفريقيا في الصين شريك تجارة وعمل يعاملها بسياسة الند للند من دون أن تنغص هذه العلاقة ذكريات تاريخ استعماري حافل بالاستغلال والفظائع. حتى رئيس

محاولات فرنسية للتشبث ببعض

مكتسبات الماضي في أفريقيا:

أدركت الدول الكبرى مدى تعاظم طموحات الصين في أفريقيا بعد عقد القمة الأفريقية - الصينية الناجحة في العاصمة الصينية بحضور معظم قادة أفريقيا في مطلع تشرين الثاني ٢٠٠٦م، إذ تم خلالها توقيع اتفاقيات تعاون وتقديم معونات صينية ضخمة. سارعت فرنسا إلى دعوة قمة أفريقية- فرنسية يومي ٤ و ٥/٢/٢٠٠٧م في مدينة (كان) بمشاركة ٤٨ من أصل ٥٣ دولة أفريقية. لكن فرنسا لم تستطع قبل القمة، ولا بعدها، التحرر من عقلية استعمارية متجذرة تحكم علاقاتها بأفريقيا. أوضح الأمثلة دفاع الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي عما زعمه «فضائل الاستعمار ومنجزاته ودوره التطويري في المستعمرات السابقة»!

لقد أرسلت باريس طائراتها من نوع (ميراج) إلى أفريقيا الوسطى وتشاد مثلاً للقضاء على المتمردين الذين يهددون نظامي إدريس ديبي وبوزيزيه، وأرسلت قواتها الخاصة إلى ساحل العاج، لتأكيد استمرار دورها والتزاماتها الأفريقية، ومن ثم حقها في متابعة الاضطلاع بمسؤولية دولية في القارة الإفريقية.

وهكذا تظل علاقة فرنسا بأفريقيا علاقة قوة قديمة استعمارية تتورط دائما

جيل، المتخصص بالشؤون الصينية في مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية في واشنطن: «من المهم الانتباه إلى العراقيل التي يواجهها الصينيون في أفريقيا، وهي مرتبطة بعدم درايتهم بطريقة التعامل مع البلدان ذات القطاع الخاص الفاعل والمجتمع المدني الحيوي.

إنّ الدبلوماسيين الصينيين في أفريقيا لا يدركون هذه الأمور، ولذلك لا صحة للصورة التي تظهر الصين فاعلا رئيسا في أفريقيا، فاستثماراتها ووارداتها النفطية لا تزال أقل من واردات واستثمارات الولايات المتحدة وأوروبا، فالصين لم تتخط المرتبة الثالثة في الشراكة الاقتصادية مع أفريقيا»^(٥). كذلك هو الحال في استغلال حادث انفجار أدى إلى مقتل عمال في منجم للنحاس في زمبابوي تشارك الصين في استثماره، أو في اجتزاء نفس الصحيفة الأمريكية السيئ لفقرة من خطاب لرئيس جنوب أفريقيا آنذاك تابو مبيكي ألقاه في شهر كانون الأول ٢٠٠٦م ونصح فيه الصين «أن لا تقصر علاقتها بأفريقيا على استيراد النفط والمواد الأولية وتصدير البضائع الاستهلاكية، لأنّ هذا سوف يكون استساخا لعلاقات أوروبية البغيضة بمستعمراتها الأفريقية قبل قرن مضى»^(٦).

فقد ولّى زمن كانت فيه المجموعات الفرنسية، الموجودة بقوة في أفريقيا الفرنكوفونية خلال الحرب الباردة، تسيطر على ما يزيد على نصف أسواق الغابون أو ساحل العاج أو الكاميرون أو السنغال، وتحقق أرباحاً هائلة بدعم من شركة التأمين الفرنسية على التجارة الخارجية (كوفاس). وحتى أواسط ثمانينيات القرن الماضي، كانت الغابون لا تزال تشكّل نصف الاحتياطي النفطي الذي حقّته شركة «إلف اكيان». وحتى إنّ شركة توتال نفسها، وريثة شركة إلف، تعلن أنّها «طبّعت» وجودها في القارة الأفريقية. فهذه الشركة الفرنسية العملاقة تحقّق أكثر من نصف إنتاجها اليوميّ في القارة - أي ما يعادل ٨١٢ ألف برميل مكافئ من النفط (متضمناً الغاز)، أي ما نسبته ٣٠٪ من مجمل إنتاجها العالمي - في نيجيريا وأنغولا، خارج (المرج) الفرنسي السابق. فأفريقيا، التي تنتج حوالي ١١٠ مليارات برميل، تمسك بـ ٩.٤٪ من احتياطي النفط العالمي (مقابل ٦.٧٪ في العام ١٩٨٤م).

إلا أنّ تنويع مصادر التمويل في هذا القطاع الإستراتيجي هو أمر حيويّ. ومن هنا كان هجوم بكين، عبر العقود الكبيرة من دولة إلى دولة، غير الخاضعة لأيّ شروط سياسية (كما في أنغولا والكونغو برازافيل). والجهود التي تبذلها واشنطن

في النزاعات الأفريقية- الأفريقية، وتتدخل في الشؤون الداخلية لمستعمراتها السابقة.

لكن إعادة الانتشار الاقتصادي الفرنسي في أفريقيا يعاني من اضطرابات كثير من دول القارة، وتفجر صراعات وحروب أهلية كما في ساحل العاج وأفريقيا الوسطى والكونغو (زائير سابقاً)، ناهيك عن الخلل القضائي والصراعات السياسية والقبلية واستشراء الفساد من ناحية، وتصاعد معارضة نخبية وشعبية أفريقية للاستعمار الفرنسي المتجدد..

«في زمن انتشار العولمة الرأسمالية في أصقاع المعمورة كافة، التي أجبرت أفريقيا على أن تكون من جديد مسرحاً للصراع ليس بين القوى الغربية العظمى فقط، مع عودة قوية للهيمنة الأمريكية، ولكن أيضاً بسبب التنافس الذي تبديه البلدان الناشئة، لا سيما الصين. فنظام العولمة الذي أسقط الموانع التي كانت تحمي الشركات الوطنية من المنافسة الدولية، كما في الأسواق الممسوكة (الأدوية) والاحتكارات أو التجمعات الاحتكارية (النقل الجوي وشبكات الهاتف الثابت)، والمساعدات العامة (البنى التحتية) وبعض الأعمال الروتينية غير المجازفة (مصارف الإيداع)، قد جعل فرنسا تواجه المنافسة، ولاسيما من جانب الصينيين.

وأهداف تلك الاتفاقية وذلك التصريح، هو إخراج مصر من العروبة تماماً.

من هنا نستطيع أن نفهم بشكل أفضل خطورة اتفاق كامب ديفيد بين الرئيس المصري السابق أنور السادات والكيان الصهيوني. فلم تفقد مصر مبرر دورها القيادي في الساحة العربية والإسلامية فقط على طريق عزلها عن عالمها العربي، وإنما فقدت مصر الكثير من مقومات دورها القيادي التقليدي على الساحة الأفريقية أيضاً.

هذا ما بات موضع اتفاق كل الأبحاث والدراسات الموضوعية التي قيمت الخرق الهائل المتمثل في كارثة معاهدة التسوية المنفردة مع العدو الصهيوني. نكتطف هنا بعض ما كتب الدبلوماسي وأستاذ القانون الدولي عبد الله الأشعل:

«المعاهدة تؤرخ لمرحلة جديدة تماماً في تاريخ مصر وعلاقاتها الخارجية، وهي مرحلة انعدام القدرة على رسم أية سياسة خارجية والاستسلام للتيارات المتلاطمة. وبديهي أن إنشاء سياسة خارجية جادة ترسم سياسة مصر ومصالحها وأدواتها واستثمارها سوف يرتبط مباشرة من قريب أو بعيد بهذه المعاهدة مادامت واشنطن هي البوصلة الأصلية التي يضبط عليها مؤشر

من أجل تأمين حصّة متنامية لها من النفط الأفريقي.

وهكذا فإن شركة توتال، التي تبقى الشركة المشغلة الدولية الخاصة الأولى في القارة، تواجه منافسة من الولايات المتحدة في أفريقيا الفرنكوفونية، كما في تشاد، وفي الدول المنتجة حديثاً، كما في غينيا الاستوائية.»^(٧)

انتكاسات الدور العربي وضموره:

سعى الاختراق الصهيوني المضاد الذي قاده هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكي الأسبق، إلى تحقيق هدف قديم ومعلن للغزوة الصهيونية هو إخراج مصر من الصراع العربي ضد تلك الغزوة وتطبيع علاقاتها مع الكيان الصهيوني. وقد نقل محمد حسنين هيكل في حزيران ٢٠١٠م عبر قناة الجزيرة حديثاً جرى بينه وبين كوف دو مورفيل، رئيس الحكومة الفرنسية الأسبق الذي كان مندوب فرنسا في الأمم المتحدة لدى تمرير مؤامرة تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧م، قال فيه دو مورفيل ما معناه أن العرب يتحدثون عن اتفاقية سايكس بيكو سنة ١٩١٦م لتقسيم العالم العربي وتصريح بلفور المتكامل معها سنة ١٩١٧م لتقديم فلسطين لليهود لإدامة ضعف العرب وتشتتهم وهيمنة الغرب عليهم، لكنهم يجهلون قراراً استراتيجياً غربياً متكاملاً مع مضمون

من ناحية أخرى، وبعد استقطاب حاد مارسه قطران عربيان هامان لأكثر من ثلاثين سنة على امتداد القارة الأفريقية، هما الجزائر والمغرب، في سياق صراعهما على الصحراء الغربية، اضمحلت فرص كلا البلدين للعب دورهما الفاعل القديم على الساحة الأفريقية بعدما تبذرت الكثير من قدرات القطرين وأهدرت في ذلك الصراع.

سوف تظل أفريقيا ساحة صراع للاعبين الدوليين زمناً طويلاً، فالفراغ الذي لا يملؤه أبناؤها يغوي الطامعين من خارج القارة.

السياسة المصرية. صحيح أن واشنطن أصبحت من مكونات جميع قرارات السياسة الخارجية في العالم كله ولكنها بالنسبة لمصر هي المكون الوحيد، ومادامت إسرائيل تستحوذ على أولوية واشنطن حتى على مستوى المصالح الأميركية ذاتها، فلا يمكن أن نفلت من حقيقة مريرة وهي أن إسرائيل هي البوصلة الإقليمية وهي انعكاس دقيق للبوصلة العالمية لدرجة أن اللغة الأميركية الإسرائيلية واحدة وأوهام السلام التي تبشر بها واشنطن بدأت تبشر بها إسرائيل بالمنطق نفسه»^(أ)

الهوامش

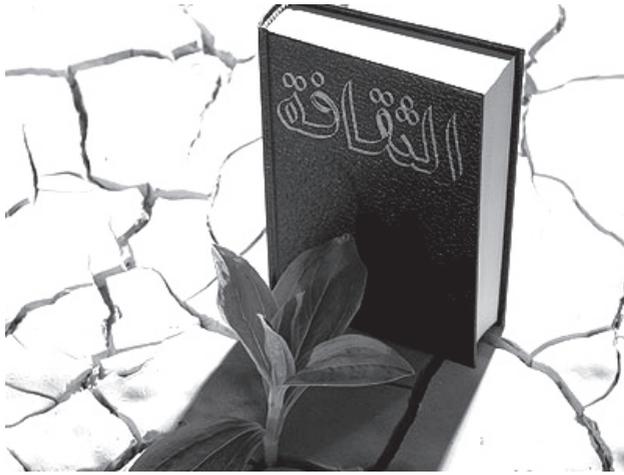
- ١- د. منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٦١.
- ٢- د. خير الدين عبد الرحمن، استغلال حرية الرأي في استعباد العالم، المنتدى، دبي، أيلول ١٩٩٥م.
- ٣- ديفيد إدواردز، تجارة الرقيق البريطانية والأمريكية، الخليج، ٥/٤/٢٠٠٧م.
- ٤- إندي روبل، الخليج، الشارقة، ٢١/١١/٢٠٠٦م.
- ٥- صحيفة نيويورك تايمز، ١٢/٢/٢٠٠٧م.
- ٦- المصدر السابق.
- ٧- توفيق المدني، الخليج، ١٩/٢/٢٠٠٧م.
- ٨- د. عبد الله الأشعل، معاهدة السلام ودور مصر الإقليمي، الحياة، ٢٨/١٢/٢٠٠٦م.



الثقافة والأنثروبولوجيا



لميس أحمد



مفهوم الأنثروبولوجيا

الأنثروبولوجيا هي دراسة مجموع الظواهر البشرية وأهم أنواعها تلك التي تعنى بدراسة ظاهرتي: الأشكال المتنوعة للثقافة في جميع أنحاء العالم، والطرق المتنوعة التي تشكلت بواسطة الأفراد، والتي تمّ ممارستها بشكل خلاق من خلال ثقافتهم.

الأنثروبولوجيا الثقافية

تدرس الأنثروبولوجيا الثقافية الثقافة

أي إنّها تتناول طريقة معيشة مجتمع ما،

سواء أكان ذلك المجتمع بدائياً أو متخلفاً أو

✽ كاتبة وباحثة سورية.

الأنثروبولوجي أن يلاحظ الثقافة مباشرة»
يتضح لنا أن هذه التعريفات تصب في
اتجاهين: اتجاه واقعي يرى أن الثقافة هي
كل يتكون من أشكال السلوك المكتسب
الخاص بمجتمع أو جماعة معينة من البشر.
واتجاه تجريدي يرى الثقافة مجموعة أفكار
يجردها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس
الذي يشتمل على أشكال السلوك المكتسب
الخاص بمجتمع أو جماعة معينة.

يأخذ هذا المصطلح بعين الاعتبار
ثقافة المجتمعات الإنسانية، وهي طريقة
حياة تميز كل مجموعة بشرية عن مجموعة
أخرى. فهي سلوك يتم تجميعه من خلال
مجموعة عوامل دقيقة من التأثيرات
الاجتماعية. ويشير المفهوم المنتشر
بين الناس إلى حالة الفرد العلمية رفيعة
المستوى، وإن استخدام هذا المصطلح
يجعله يقابل حالة اجتماعية شعبية أكثر
منها حالة فردية. وتكون الثقافة عادة هي
مجموعة العادات والقيم والتقاليد التي
تعيش وفقها جماعة أو مجتمع بشري ما،
بغض النظر عن مدى تطور العلوم لديه أو
مستوى حضارته وعمرانه. وعندما ظهر هذا
المفهوم كان يشير إلى عملية الاستصلاح أو
تحسين المستوى، ثم أصبح يشير بصورة
واضحة إلى تحسين أو تعديل المهارات
الفردية للإنسان، ولا سيما من خلال التعليم

نامياً أو متقدماً. وتبحث في التغير الثقافي
وعمليات الاقتراض والامتزاج والصراع بين
الثقافات. إن ماهية الأنثروبولوجيا الثقافية
تكمن في دراسة كيف ولماذا تتطور الثقافة،
أي دراسة عوامل التطور الثقافي. هذا
وقد توسعت دائرة دراساتها الاجتماعية
والثقافية بحيث أصبحت تشمل الثقافات
القروية والمجتمعات الحضرية المعاصرة.

مفهوم الثقافة

مصطلح الثقافة من أكثر المصطلحات
استخداماً في الحياة المعاصرة، لكنه من
أكثر المصطلحات صعوبة في التعريف،
حيث يتفق علماء الأنثروبولوجيا الثقافية
على أن الثقافة هي موضوع عملهم، ولكنهم
يختلفون في تعريفها، إلا أن هناك شبه
اتفاق على الأخذ بالتعريف القائل: «الثقافة
هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على
المعرفة والعقائد والفرن والأخلاق والقانون
والعادات وغيرها من القدرات والعادات
التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في
المجتمع». وحيث إن تعريفات الثقافة لا
تميز بوضوح بين المفهوم والأشياء التي
يشير إليها. ومن ذلك التعريف: «... نقصد
بالثقافة جميع مخططات الحياة التي تكونت
على مدى التاريخ، وهي موجودة كموجّهات
لسلوك الناس عند الحاجة».

وعلى اعتبار أنه: «لا يستطيع

والاعتقاد، والسلوك الذي يعتمد على القدرة على التفكير الرمزي والتعلم الاجتماعي.

• مجموعة من الاتجاهات المشتركة، والقيم، والأهداف، والممارسات التي تميز مؤسسة أو منظمة أو جماعة ما.

وبصورة عملية، فإن مفهوم الثقافة يشير إلى كل ما هو مثالي أو يجمع عليه القوم أو الصفوة إضافة إلى كل ما هو وثيق الصلة بمثل هذه الأمور مثل فن الرسم أو النحت، أو الموسيقى الكلاسيكية... إلخ. وتدرج التعريفات المعاصرة للثقافة تحت ثلاثة تصنيفات أو تتألف من مزيج منها وهي:

١- إن الثقافة هي عملية تنمية للنواحي الفكرية والروحية والجمالية.

٢- الثقافة هي طريقة معيشية معينة في حياة شعب من الشعوب، أو مميزة لفترة من الفترات أو مجموعة من المجموعات.

٣- والثقافة هي جميع الأعمال والممارسات الخاصة بالنشاط الفكري والفني بصفة خاصة.

بعد هذا يمكننا النظر إلى الثقافة على اعتبارها منظومة ذات خمس خطوات:

١- لا بد من اكتساب سلوك من نوع جديد، أو على الأقل تعديل سلوك كان موجوداً مسبقاً.

والتربية. وحديثاً برز مصطلح «الثقافة» للعيان ليصبح مفهوماً أساسياً يشمل كل الظواهر البشرية على وجه التحديد.

أمّا في اللغة العربية فالثقافة كلمة عربية وهي تعني صقل النفس والمنطق والفتانة، ولطالما استعملت الثقافة في عصرنا الحديث هذا للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات. فالثقافة نظرية في السلوك مما يساعد على رسم طريق الحياة إجمالاً، كما أنها انعكاس لما يتمثل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب، وهي الوجوه المميزة لمقومات الأمة التي تتميز بها عن غيرها من الجماعات بما هي عليه من العقائد والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب. وإجمالاً فإن الثقافة هي كل مركب يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات.

هذا ويمكن استخدام كلمة «ثقافة» في التعبير عن أحد المعاني الثلاثة الأساسية التالية:

• التذوق المتميز للفنون الجميلة والعلوم الإنسانية، وهو ما يعرف أيضاً بالثقافة عالية المستوى.

• نمط متكامل من المعرفة البشرية،

من خلال معالجة الدماغ للبيانات المتحصل عليها من البيئة المحيطة.

٢ - العادات: هي الطرق المعتادة التي يؤدي بها أبناء مجتمع معين الأشياء المختلفة.

٣ - اللغة: هي عبارة عن مجموعة من الرموز الكلامية المتفق عليها، والتي يستخدمها الأفراد لغرض التفاعل مع بعضهم.

٤ - القانون: يمثل القانون قيمة التنظيم الاجتماعي للسلوك الإنساني، حيث يحدد ما يجب على الفرد عمله، وما يجب عليه الامتناع عنه.

٥ - الأعراف: الأعراف عبارة عن أشياء تعارف عليها الإنسان، حتى أصبحت ملزمة للأفراد داخل المجتمع الواحد.

ومن المناسب سرد بعض الوظائف الأساسية التي تمارسها الثقافة في مجال تحديد وضبط سلوك الفرد تتمثل في النقاط الآتية: -١ تحدد الثقافة معنى المواقف الاجتماعية. -٢ تحدد الثقافة الاتجاهات، والقيم، والأهداف. -٣ تحدد الثقافة الخرافات، والأساطير، والقوى الخفية التي يؤمن بها الأفراد. -٤ تحدد الثقافة أنماطاً معينة للسلوك.

٢- لا بد لهذا الكائن الذي اكتسب سلوكاً جديداً أن ينقله إلى غيره من بني جنسه.

٣- يتسم السلوك الجديد بالترابط في ذاته وبين المكتسبين له بعضهم البعض.

٤- يجب أن يتسم السلوك المكتسب بالاستمرارية كي يقوم بممارسة أثره أطول فترة ممكنة. أي يجب أن يستمر هذا السلوك عبر أجيال عدة.

٥- يجب أن ينتشر هذا السلوك في شكل وحدات اجتماعية. قد تكون هذه الوحدات الاجتماعية على شكل عائلات، عشائر، قبائل، أو أقارب.

أنواع الثقافة

يمتلك الأفراد ثقافات عدّة في المجتمع الواحد، وقد صنفت الثقافة إلى صنفين رئيسيين هما:

١- الثقافة المادية: وهي تشمل نتائج العمل الإنساني في ذلك المجتمع من مبانٍ وإنشاءات وأشياء أخرى ملموسة.

٢- الثقافة اللامادية: ويشمل مفهوم الثقافة اللامادية القيم والأفكار والاتجاهات والمعتقدات التي يؤمن بها الناس.

مكونات الثقافة: تتمثل مكونات

الثقافة في النقاط التالية:

١- الأفكار: هي النتائج المتحصل عليها

خصائص الثقافة.

مهما كانت هناك من جوانب اختلاف بين الثقافات الإنسانية، إلا أن ثمة مظاهر عامة ومشاركة تتمثل في الخصائص العامة التي تميز الثقافة كموضوع علمي قابل للدراسة والتحليل، وتتمثل هذه الخصائص في:

١- إنَّها مكتسبة: يكتسبها الفرد من مجتمعه عن طريق الخبرة الشخصية، وبالتالي فإنَّ الإنسان يكتسب ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه منذ الصغر ولا تؤثر العوامل السلالية والفسولوجية في عملية التنشئة الثقافية.

٢- إنَّها اجتماعية: أي إنها موضع مشاركة من جانب أفراد المجتمع الواحد وهذا يعني ارتباط مصيرها بمصير المجتمع الذي يتبناها.

٣- الثقافة إنسانية: إن الإنسان وحده من دون سائر المخلوقات هو الذي يختص بالثقافة، وذلك لأن الثقافة هي أفكار يخترعها العقل البشري وينفذها الإنسان.

٤- الثقافة أفكار وأعمال: فكل عمل إنساني لا يمكن أن يتم ما لم تسبقه فكرة واردة التنفيذ، ولذلك لا تخرج العناصر المادية للثقافة عن كونها أفكاراً مجسدة في أعمال، كما أن هناك نظماً ثقافية تحدد العلاقة بين الإنسان وعالم الأفكار المجردة، ومن أمثلة هذه النظم اللغة والدين والفن

والقيم، وكون هذه النظم ذات طابع فكري تجريدي إلا أنها لا تخلو من الأعمال.

٥- الثقافة كل ونسيج متداخل: تتكون الثقافة من عناصر وقطاعات متداخلة، فمثلاً في القرى العربية نجد أن الدين يتداخل ونظم العلاقات العائلية، وكذا في نظم الأكل والملبس والميراث وحتى النظام الاقتصادي.

٦- الثقافة توافقية: تتميز الثقافة بتغيرها كي تتوافق مع البيئة الجغرافية والاجتماعية والسيكولوجية، فكلما ظهرت حاجات جديدة استحدثت توافقات ثقافية جديدة لإشباعها.

٧- التكامل الثقافي: حيث عناصر كل ثقافة تميل إلى تشكيل كل متكامل ومتناسق، فالتكامل يحتاج إلى وقت. وحتى إذا اكتملت أية ثقافة بمختلف جوانبها فالارتباط بينها وبين ثقافة أخرى مختلفة عنها يجعلها غير متكاملة.

مستويات الثقافة.

تتمايز ثقافات المجتمع بين مستويين من الثقافة: المستوى البدائي البسيط، والمستوى المتمدن المعقد. كما أنه توجد اختلافات فرعية في كل مستوى، فمثلاً توجد مجتمعات متقدمة وأخرى نامية وثالثة متخلفة في المستوى المتمدن. وقد

ومع ذلك، فإن اللغات، التي تفهم على أنها مجموعة معينة من قواعد الكلام في مجتمع معين، هي أيضاً جزء من ثقافة المجتمع الذي يتحدث تلك اللغة. فالبشر يستخدمون اللغة كوسيلة للتعبير عن الهوية الثقافية داخل مجموعة واحدة.

وتعتبر اللغة في مجتمع ما جزءاً لا يتجزأ من ثقافة المجتمع ككل، حيث إن استخدام اللغة هي طريقة لبلورة وتوضيح هوية المجتمع حيث تتضمن الثقافة مغزى للكلام من شأنه توضيح سلوك الأفراد، وإن كلاً من الجغرافيا والتاريخ يعد مغزى للكلام من شأنه توضيح الفروق بين الثقافات.

ومن غير الممكن دراسة ثقافة الشعوب الأجنبية من دون التعرف على لغتها الخاصة. ويعتقد أن الثقافة الفكرية لشعب ما أنشأها وتقاسمها وحافظ عليها استخدام اللغة، مما يعني أن فهم لغة مجموعة ثقافية ما هو المفتاح لفهم ثقافتها.

الدراسات الثقافية

تعتبر دراسة الثقافات داخل المجتمع أمراً بالغ التعقيد كما أن البحث يجب أن يأخذ في عين الاعتبار عدداً لا يحصى من المتغيرات. ويجب أن تحتوي نصوص الدراسات الثقافية على جميع ما أنتجته يد البشر من أشياء ذات قيمة للثقافة.

تشكلت هذه المستويات بشكل تدريجي عبر المراحل التاريخية التي مرَّ بها وجود الإنسان الذي بدأ يصنع ثقافته البسيطة فتطور المستوى الثقافي على مرّ السنين.

اللغة والثقافة

إن أصل اللغة ومنشأ الثقافة هو العملية التطورية للإنسان البدائي. وقد لوحظت العلاقة بين الثقافة واللغة، ليس لأن اللغة واحدة من بين العديد من السمات الثقافية بل لأنها أيضاً وسيلة للتعبير المباشر عن الطابع الوطني للشعوب. فلدى كل شعب ثقافته الوطنية والتي يعبر عنها من خلال لغته الخاصة.

وحيث إن الثقافة واللغة لا تعتمد كل منهما على الأخرى بشكل مباشر. وذلك واضح في أن الجماعات ذات الثقافات المختلفة قد يتحدثون بلغة مشتركة، والمتحدثون بلغات مختلفة تماماً يمكن أن يشتركوا في السمات الأساسية الثقافية ذاتها. إلا إن شكل اللغة يسهم في تحديد بعض السمات الثقافية الخاصة.

في الواقع، إن أصل اللغة، والذي يفهم على أنه قدرة الإنسان على التواصل. يُمكننا من وصف كل من اللغة والثقافة على حد سواء كوسيلة لاستخدام الرموز في بناء الهوية الاجتماعية والحفاظ على التماسك الاجتماعي.

بعض الأفكار مثل «صناعة الثقافة» (أي ثقافة الجماهير).

كما تمّ تسليط الضوء على الهدف من وراء الإنتاج ويفترض هذا النموذج الإنتاج الشامل للثقافة، حيث تتحدد معايير النجاح بما تنتجه يد الإنسان من تراث ثقافي. ومن وجهة النظر الماركسية، يتحكم من يسيطرون على وسائل الإنتاج (على اعتبارها القاعدة الاقتصادية) بمعايير الثقافة. وفي الواقع أصبح العاملون بمثابة المحور الرئيسي للدراسات الثقافية. حيث يأتي مفهوم «ثقافة الفقر» لوصف الآليات الثقافية التي من خلالها تكييف الناس مع حياة الفقر الاقتصادي.

الثقافة الشعبية

الثقافة الشعبية هي كل الأشكال التعبيرية المنطوقة والتي تخزنها الذاكرة الشعبية. وتشمل هذه الثقافة الشعبية: الموروث السردى وغيرها من فنون التعبير الأخرى. وهي مجموع العناصر التي تشكل ثقافة المجتمع المسيطرة في أي بلد أو منطقة جغرافية محددة، تنتج هذه الثقافة من التفاعلات اليومية بين عناصر المجتمع إضافة لحاجاته ورغباته. هذه الثقافة تتضمن كلاً من الممارسات الاجتماعية وعادات الطبخ والمأكولات والثياب

حيث إن كلمة «ثقافة» اتسمت بكل ما تعنيه كلمة «حضارة» ويعد الاهتمام بالفلكلور الشعبي هو من أهم ما يميز الحركة الثقافية. وهو ما أدى بدوره إلى تعريف كلمة «ثقافة» بين العامة من غير النخب. ويأتي استخدام مصطلح «الثقافة العالية» و«الثقافة المنخفضة» لوصف الأشخاص الذين كانوا، سياسياً واقتصادياً، أقل شأنًا، ولكنهم ليسوا كذلك من الناحية الثقافية وهذا التمييز يشبه ذلك التمييز الموجود بين علية القوم من الطبقة الاجتماعية الحاكمة وعامة الناس. فإن فكرة «الثقافة» التي نشأت في أوروبا عكست حالة من عدم المساواة داخل المجتمعات.

ولا يقتصر مفهوم «الثقافة» على الثقافة التقليدية العالية أي (ثقافة الطبقة الاجتماعية الحاكمة) والمجموعات الاجتماعية والثقافة الشعبية فقط، بل ويشمل أيضاً المعاني والممارسات اليومية. وبما أن «الدراسات الثقافية تمت على أسس واقعية، من ليبرالية وتعددية التقاليد». فقد ركزت الدراسات الثقافية على فهم الجانب الموضوعي والملائم لردود فعل الجماهير، ولاستخدامهم، الثقافة الجماهيرية، وقد تم تطوير الدراسات الثقافية بأن اشتملت على طابع سياسي، حيث تمّ اعتبار «الرأسمالية» ثقافة الجماهير الغفيرة، بل وقد استوعبت

تميز برفضه للنسق الحياتي الذي يفرضه مجتمع الاستهلاك ورفضه للمركزية الغربية في تعريف القيم الجمالية والأخلاقية والسياسية.

استحدث مصطلح الثقافة المضادة في سبعينيات القرن العشرين من خلال العلاقة مع الحركات الثقافية الأمريكية الخارجة عن الثقافة السائدة وقد تميزت تلك الحركات بالخصائص التالية:

- رفضها للنظم السائدة وللمفاضلة بين الفن والسياسة والثقافة ونسق الحياة.
- رفضها للنسق الحياتي الذي يفرضه مجتمع الاستهلاك.

- رفضها للمركزية الغربية في تعريف القيم الجمالية والأخلاقية والسياسية.

امتد استعمال مصطلح الثقافة المضادة في علم الاجتماع لتوصيف ظواهر ثقافية تاريخية بصفة عامة وتستعمل الثقافة المضادة عادة في الحالات التالية: (حركات منظمة وظاهرة وذات مدى زمني مهم تجسد قيم مجموعة اجتماعية مهمشة، حركات ثقافية فرعية مهاجمة لثقافة سائدة، حركات ثقافية على هامش قنوات الاتصال والنشر الثقافي).

الثقافة الفرعية

تم استخدام هذا المصطلح لوصف المجتمعات المميزة ثقافياً والتي هي جزء من مجتمعات أكبر. ولعل من أهم أنواع

والإعلام ونواحي التسلية المستخدمة. إضافة للرياضة والأدب. غالباً ما يستخدم مصطلح (ثقافة شعبية) كمصطلح مضاد ومخالف للثقافة العليا أو النخبوية. وتتميز الثقافة الشعبية بانتشارها السريع بين مختلف الفئات الاجتماعية، لسهولة تمثيلها واستيعابها ولبنائها التركيبي وقدرتها التعبيرية التي تجعلها تعكس مختلف أنماط السلوك البشري، ثم لاستمرارية حضورها وانتقالها من جيل لآخر.

ثقافة الطبقة العاملة

ثقافة الطبقة العاملة هي مجموعة من الثقافات التي نشأت بين أشخاص ينتمون إلى الطبقة العاملة. ويمكن أن تتباين الثقافات فتتقسم إلى ثقافة عالية وثقافة شعبية، ويتم في بعض الأحيان مساواتها مع الثقافة الشعبية والثقافة المنخفضة.

تتميز ثقافة الطبقة العاملة بالتنوع الجغرافي البالغ، وقد تطورت هذه الثقافة خلال الثورة الصناعية. ولأن معظم الطبقة العاملة التي نشأت حديثاً كانت من الفلاحين السابقين، فقد أخذت الثقافات قدراً كبيراً من الثقافة الشعبية المحلية.

الثقافة المضادة

هو توصيف يطلق على كل حركة ثقافية معارضة للقيم الثقافية والجمالية والأخلاقية السائدة في مجتمع ما. وقد

وهناك نهج آخر أسمى وأحدث، يتضمن الدراسات الثقافية المقارنة، استناداً إلى تهذيب النفس طبقاً لما جاء في الأدب المقارن والدراسات الثقافية.

السلوك الثقافي

تحتفظ أهمية السلوك الثقافي بمكانتها عندما نعترف بكون الثقافة محلية وأنها من صنع الإنسان وأنها متغيرة بشكل كبير. حيث تميل إلى أن تكون متكاملة. ويعد السلوك الثقافي من القواعد والقيم التي تنظم العمل الاجتماعي بشكل رمزي. حيث يهتم بالثقافة بوصفها خاصية مميزة للمجتمعات. وتعتبر الثقافة نمطاً ثابتاً يقل أو يزيد من خلال الفكر والعمل. حيث يدعم كل شخص هذا النمط تبعاً لدوره وخبرته.

الثقافة التنظيمية

تعد الثقافة التنظيمية من الموضوعات التي لقيت اهتماماً واضحاً في السلوك الثقافي الاجتماعي حيث تلعب الثقافة التنظيمية دوراً جوهرياً في تنمية وتطوير المنظمات. حيث ينظر إليها على أنها المحرك الأساسي للطاقت والقدرات، فهي تؤثر على الأداء، وتحقق الإنتاجية المرتفعة، كما تساعد على التطور والتقدم الوظيفي لدى العاملين.

تعرف الثقافة التنظيمية بأنها «مجموعة

الثقافة الفرعية هي تلك التي شكلتها الجاليات المهاجرة. وهناك أساليب مختلفة في التعامل مع جماعات من المهاجرين وثقافتهم منها:

جوهر ثقافة الجاليات: والفكرة هي أن الأقليات يمكن أن يكون لها هوية خاصة بها، ولكن ينبغي على الأقل دعم المفاهيم الأساسية للثقافة التي هي أساس المجتمع. بوتقة الانصهار: وهي وجهة النظر التقليدية التي ترى أن هناك بوتقة تتصهر فيها جميع الثقافات المهاجرة فتختلط وتندمج من دون تدخل الدولة.

الثقافة الأحادية: ترتبط الثقافة ارتباطاً وثيقاً بالقوموية، وبالتالي فإن سياسة الحكومة هي استيعاب المهاجرين.

التعددية الثقافية: سياسة تنتهج بحيث يحافظ كل من المهاجرين وغيرهم على ثقافتهم ويتعايشون مع مختلف الثقافات فيعيش كل هؤلاء بسلام داخل دولة واحدة. ونادراً ما تتألف ثقافات المهاجرين بطريقة دقيقة مع الثقافات الأخرى، فهناك العديد من المعايير التي تتحكم بمثل هذه الأمور مثل درجة الاختلاف بين ثقافة البلد المضيف وعدد المهاجرين، ومواقف السكان المقيمين، ونوع السياسات الحكومية. وبالمثل مع الثقافات الفرعية الأخرى داخل المجتمع.

الاجتماعي والمعرفة الرمزية. ويمثل مفتاح السر لفهم تطور الإنسان ومعرفة كيفية تطور البشرية، وهو في الوقت ذاته مفتاح السر نفسه لمفهوم كلمة «ثقافة»، في آلية تنظيم الإنسان لخبراته. والثقافة يتم تعليمها ونقلها من جيل إلى آخر؛ ويقصد بذلك مجموعة الأشياء المرتبطة بذلك المجتمع أو المتأصلة بين أفراد ذلك المجتمع، ومن ذلك الموسيقى والفنون والتقاليد المحببة، بحيث تصبح قيماً متوارثة مما يجعل الثقافة تعتبر «فرض شكل تعسفي على البيئة».

فالثقافة هي إدراك الفرد والمجتمع للعلوم والمعرفة في شتى مجالات الحياة، فكلما زاد نشاط الفرد ومطالعة واكتسابه الخبرة في الحياة، زاد معدل الوعي الثقافي لديه وأصبح عنصراً بناءً في المجتمع. وعادة ما يستعار بتعبير ثقافة لوصف شخص ما فيكون الشخص مثقفاً أي مهذباً ومتعلماً ومتمكناً من العلوم والفنون والآداب.

التواصل بين الثقافات

تختلف المجتمعات من حيث الثقافة التي تسودها، أي بمعنى ما دامت الثقافة من صنع الإنسان، فمن الطبيعي أنها تختلف من مجتمع إلى آخر، ومن الواضح أن ما يفعله الناس، وما يعتقدونه يختلف من مجتمع إلى آخر، وإن ما يعتقد الفرد

من الافتراضات والاعتقادات والقيم والقواعد والمعايير والعادات التنظيمية التي يشترك بها أفراد المنظمة» كما أنها «إطار معرفي مكون من الاتجاهات والقيم ومعايير السلوك والتوقعات التي يتقاسمها العاملون في المنظمة». أي هي «منظومة المعاني والرموز والمعتقدات، والطقوس، والممارسات التي تطورت مع مرور الزمن، وأصبحت سمة خاصة للتنظيم». والتعريف الأكثر وضوحاً للثقافة التنظيمية هو أنها «مجموعة القيم والعادات والمعايير والمعتقدات والافتراضات المشتركة التي تحكم الطريقة التي يفكر بها أعضاء المنظمة وطريقة اتخاذ القرارات وأسلوب التعامل مع المعلومات والاستفادة منها لتحقيق ميزة تنافسية للمنظمة». ويتضح من خلال ما سبق عرضه أن الثقافة التنظيمية تحدد وتؤثر على السلوك التنظيمي للعاملين في كل المستويات الإدارية في المنظمة.

التعليم الثقافي

والثقافة من منظور علم الآثار هي نتاج للنشاط المعرفي والتعليمي للإنسان حيث يعتبر التعلم الثقافي ضرورة ملحة من أجل اكتساب اللغة وإدراك طبيعة مفهوم الثقافة ما يتمثل في ترابط كل من السلوك

كفاءة التفاعل عبر الثقافات

كفاءة التفاعل بين الثقافات (أو القدرة على التواصل الناجح بين أبناء ثقافات مختلفة) هي القدرة على تحقيق تواصل ناجح مع الأفراد المنتمين لثقافات أخرى. ويطلق على كفاءة التفاعل بين الثقافات أيضاً اسم «كفاءة التفاعل عبر الثقافات». فهي «مجموعة المكونات المعرفية والسلوكية والمؤثرة التي تمكن الأفراد من التأقلم بصورة فعّالة في البيئات التي تنشأ بين الثقافات»، إن كفاءة التفاعل عبر الثقافات والكفاءة اللغوية والمعرفة الإقليمية تعتبر مهارات متميزة مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً. قد يسهل التعرف على بعض السمات الثقافية، على سبيل المثال المكانة الاجتماعية أو الثراء المادي. أو عند وجود التمييز العنصري أو الجنسي أو التعصب الديني في إحدى الثقافات. حيث تلعب الهوية دوراً رئيسياً عند مناقشة الدور أو «المكانة» في كيفية التمثيل للعالم الخارجي. إلا أن تنمية كفاءة التفاعل بين الثقافات تعتمد بدرجة كبيرة على خبرات الفرد أثناء تواصله مع الثقافات المختلفة. هذا ويمكن قياس خصائص الثقافات من خلال العديد من الأبعاد. وتعتبر القدرة على التعامل معها أمراً أساسياً بالنسبة لكفاءة التفاعل بين الثقافات. ومن هذه

وما يفعله يتوقف على الثقافة التي شب في ظلها. إذ تلعب الثقافة دوراً هاماً في حياة الفرد والجماعة.

يمكن أن تختلف الثقافات ليس بين القارات أو الأمم فحسب بل في المجتمع الواحد أيضاً. كما يمكن أن تكون الاختلافات بين الثقافات عائدة إما لأسباب أخلاقية أو إثنية أو جغرافية أو تاريخية أو أدبية أو سياسية أو دينية. والتواصل بين الثقافات عملية تبادل معلومات واضحة وذات مغزى عبر الحواجز الثقافية بطريقة تحافظ على الاحترام المتبادل، إذ تعد الثقافة نظاماً مشتركاً من الرموز والعقائد والاتجاهات والقيم والتوقعات والمعايير الاجتماعية للسلوك. وهي تشير إلى مجموعات أكانوا مترابطة من البشر سواء أكانوا يقيمون كلياً أو جزئياً داخل أراضي الدولة أو كانوا موجودين من دون إقامة في أية منطقة محددة.

أتاحت التحسينات في تكنولوجيا الاتصالات والنقل للثقافات الثابتة سابقاً الالتقاء وتعتقد بعض المجموعات أن العولمة قد قللت من التنوع الثقافي. وتتمثل المتطلبات الأساسية لتحقيق كفاءة التفاعل بين الثقافات في التعاطف وتفهم سلوكيات الآخرين وطرق التفكير والقدرة على التعبير عن طريقة تفكير المرء.

التحول والتغيير الثقافي

لقد وصف التحول الثقافي بأنه عبارة عن «مجموعة كبيرة من البواعث النظرية الآتية من مجالات كانت خارج نطاق العلوم الاجتماعية سابقاً»، مما أكد «الدور المعتاد والاجتماعي البنوي للعمليات والأنظمة الثقافية» وحيث إنه يمكن تعريف الثقافة بأنها «العملية الاجتماعية التي بوساطتها يوصل الأفراد المعنى، ويدركون حقيقة عالمهم، ويبنون هوياتهم، ويحددون معتقداتهم وقيمهم» فقد اتسع ميدان الثقافة حتى أصبح متاحاً لمجتمع السوق ولم تصبح الثقافة بعدها مقتصرة على أشكالها التقليدية، ولكن أصبحت تستعمل من خلال الحياة اليومية في التسوق وفي الأنشطة المهنية وفي أشكال الترفيه، وفي تقديم المنتجات للسوق، وفي استهلاك تلك المنتجات، حيث إن النمط الاستهلاكي أصبح ثقافة الحياة اليومية. فالأفراد يجدون هوياتهم في أنشطتهم وأعمالهم وأوقات ترفيههم. ومنذ بدء التحول الثقافي بدأت دراسة السلطة والسياسة وكيفية ارتباط الثقافة بهما. فالتحول الثقافي أدى لمزيد من التأكيد على المعنى والثقافة على حساب السياسة.

ينبغي أن نرى أن الثقافة أصبحت في أصل السياسة لأن الأفراد أصبح تركيزهم

الخصائص (الجماعية والفردية - ثقافات الذكورة والأنوثة - الوعي بالزمن..). والمصطلحات التالية تترادف مع مصطلح كفاءة التفاعل عبر الثقافات، وهي: الإدراك الثقافي، والبصيرة الثقافية، والتقدير الثقافي، والتحصيل أو الطلاقة الثقافية، والتأقلم الثقافي، والحقل الثقافي، والخبرة الثقافية، والكفاءة الثقافية، والوعي الثقافي، والذكاء الثقافي، والتفاهم الثقافي.

ولتحسين التواصل بين الثقافات من الضروري أن يقوم الأشخاص ببحث الثقافات وتقاليدها باستخدام الطرق الخمس التالية:

١. تجنب استخدام التعبيرات الاصطلاحية واللغة العامية، واختيار الكلمات التي ستقل أكثر المعاني الدلالية تحديداً فقط.

٢. الاستماع بحرص، والقيام بالاستفسار لتأكيد الفهم (وخاصة في اللهجات المحلية وطريقة النطق).

٣. إدراك أن اللهجات ووحدة الصوت قد يتسببان في اختلاف المعنى بدرجة ملحوظة.

٤. مراعاة شكليات وأساليب التواصل المحلية، والانتباه لأي تغيير قد يحدث في لغة الجسد.

٥. التحقق من كيفية رؤية ثقافتهم لثقافتك من وجهة نظرهم قبل بدء التواصل معهم.

ما بنظيرتها من ثقافة أخرى. هكذا تكون الحركة الثقافية هي كل تغير في طريقة التفكير والاعتقادات السائدة لمجموعة من القضايا الثقافية ذات العلاقة بمناخ وفروع معينة، بحيث تشكل هذه النواحي والفنون وطرق التفكير مدرسة جديدة في الفكر أو الفن أو الأدب نطلق عليها اسم حركة ثقافية. وهي تشمل أنواع الفن، والعلوم، والفلسفات.

كانت هذه الحركات تتم بشكل متعاقب مستقل يختلف من منطقة لأخرى ومن شعب لآخر. إلا أن ثورة الاتصالات الحديثة سرعت من اختفاء هذا التمايز الثقافي كما سرعت من تواصل الشعوب وانتقال الثقافات، وكان من الطبيعي أن تفرض الثقافات الأقوى والأكثر سيطرة نفوذها على مناطق الثقافات الأضعف.

خاتمة

إنَّ للثقافة دوراً حيوياً تلعبه في المجتمع فالثقافة أساس التنمية، في كل جوانبها. وقد أثبتت التجارب أنَّه لا تنمية صناعية أو اقتصادية من غير ثقافة تدعمها وتدفع بها إلى الأمام، إنَّ الثقافة هي أساس التقدم والقوة المحرَّكة له في كل مجال، ابتداء من السياسة وليس انتهاء ببناء بنية تحتية قوية وكافية، ينهض على أسسها ازدهار

منصباً على الثقافة الحديثة. فلقد تطور الاختراع الثقافي ليشمل أي ابتكار جديد مفيد في فترة يتصف فيها العالم بـ«التغير المتسارع للثقافة»، بدافع من التوسع في التجارة الدولية، وتفعيل دور وسائل الإعلام، وتزايد الكثافة السكانية.

وتتأثر الثقافات داخلياً بكل من القوى المؤيدة للتغيير والقوى المناهضة للتغيير. وهي بدورها تتأثر بالبناء الاجتماعي والأحداث الطبيعية، كما تشارك بدور كبير في استمرار الأفكار والممارسات الثقافية، والتي هي عرضة للتغيير.

وقد تنتج أشكال الصراع الاجتماعي والتنمية التكنولوجية تغييرات داخل المجتمع من خلال تعزيز النماذج الثقافية الجديدة، وتصاحب تلك التحولات الاجتماعية تحولات أيديولوجية وغيرها من أنواع التغيير الثقافي. فغالباً ما تكون التغييرات التي تصاحب حركة ثقافية ما هي نتيجة رد فعل وثورة على التقاليد الثقافية في مرحلة سابقة، وقد تتأثر الثقافات من الخارج عن طريق الاحتكاك بين المجتمعات، ويتم نقل الأفكار الثقافية من مجتمع إلى آخر، عن طريق التعايش أو التبادل الثقافي. إذ إنه عن طريق التعايش قد يتم نقل أي شيء من ثقافة إلى أخرى. وللتبادل الثقافي معانٍ عدة، فهو يشير إلى استبدال سمات ثقافة

أي جديد وهذا النوع من الثقافات هو ثقافة التخلف لأننا نعيش شروط الضرورة التي تفرضها علينا، وعلى النقيض من ذلك ثمة ثقافة المستقبل وهي ثقافة مفتوحة واثقة من قدرتها الخلاقة على الإضافة، متطلعة دائماً إلى مستقبلها بما لا يقلل من اعتزازها باللحظات والإنجازات المضيئة في ماضيها أو تراثها.

العلم. وعلى اعتبار أن الثقافة تشير إلى أشكال الوعي الاجتماعي والقيم والأعراف والموروثات. كان لابد من التمييز بين الثقافات، فهناك ثقافة مهووسة بالماضي وثقافة مستقبلية، كما أن هناك ثقافة منغلقة وثقافة مفتوحة.

أما ثقافة الماضي، فهي ثقافة منغلقة على نفسها، تجعل من الماضي إطارها الأوحده في القيمة، لا تقبل في حاضرها

مصادر ومراجع

- ١- النظرية العلمية للثقافة برونيسلاف مالينوفسكي ١٩٤٤م.
- ٢- الثقافة: مراجعة نقدية للمفاهيم والتعاريف. Kroeber, A. L. and C Kluckhohn, ١٩٥٢م كامبريدج.
- ٣- علم الثقافة: دراسة للإنسان والحضارة. وايت، إل، ١٩٤٩م. نيويورك: فارار وستراوس وجيرو.
- ٤- «الثقافة: العلوم والعلوم النفسية الأصلية: تحليل متكامل». كيم، أوتشل صحافة جامعة أوكسفورد.
- ٥- تفسير الثقافات - الكتب الأساسية - كليفورد غيرتز ١٩٧٣م نيويورك.
- ٦- اليونسكو ٢٠٠٢م. الإعلان العالمي بشأن التنوع الثقافي، الذي صدر في اليوم الدولي للغة الأم، فبراير ٢٠٠٢م.
- ٧- تقرير «اليونسكو» في كتاب: «التنوع البشري الخلاق».
- ٨- «الثقافة البدائية» تايلور.
- ٩- الثقافة والفوضى أرنولد، ماثيو. ١٨٦٩م. Macmillan الطبعة الثالثة.
- ١٠- صناعة الثقافة المضادة تيودور روستشاك ١٩٧٠م.
- ١١- ملف حول الثقافة المضادة من إنجاز المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية بباريس.
- ١٢- الثقافة المغايرة د. جابر عصفور.



الإدارة الرشيدة وتطبيقاتها في القطاع العام



غسان وديع العيد



تحتل الإدارة الرشيدة (الحوكمة) أهمية كبيرة على مستوى العالم وقد زاد الحديث مؤخراً عن الحوكمة ودورها في التنمية من حيث تحسين الأداء الاقتصادي والاستثماري والمالي وبرزت ضرورة تطبيقها ومتابعة أنظمتها في الإدارات لضمان حقوق المستثمرين والمجتمع

بإمك في القضايا التنموية. ❁

(الحوكمة) بأنها النظام الذي يتم من خلاله إدارة الشركات والتحكم في أعمالها .

وتعرفها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية بأنها مجموعة من العلاقات فيما بين القائمين على إدارة الشركة ومجلس الإدارة وحملة الأسهم وغيرهم من المساهمين كما أنها تبين الآلية التي توضح من خلالها أهداف المؤسسة والوسائل الممكنة لتحقيق تلك الأهداف ومراقبة تحقيقها، وبالتالي فإنَّ الحوكمة الجيدة هي التي توفر لكل من المجلس والإدارة التنفيذية الحوافز المناسبة للوصول إلى الأهداف التي تصب في مصلحة المؤسسة وتسهل إيجاد عملية مراقبة فاعلة وبالتالي تساعد المؤسسة على استغلال مواردها بكفاءة.

وتتشابه حوكمة القطاع العام مع حوكمة الشركات من حيث الإدارة والإشراف والعلاقة مع أصحاب المصالح والتدقيق، وتتمحور حول إدارة ومراقبة الشركات بشكل يخدم أصحاب المصالح كافة، والجدير بالذكر هو أن هذه الحقيقة لا تغلب وجود مسائل أخرى يتفرد بها القطاع العام كتأثره بالسياسة الحكومية واتسامه بالطبيعة غير الربحية وهدفه الجوهري والأساسي هو المصلحة العامة وهذا لا يمنع أن تتجه حوكمة القطاع العام من إعداد السياسات وإدارة الأزمات إلى المزيد من تحسين نظام

كما أنها تلعب دور العامل على التقدم الاقتصادي من خلال زيادة تدفق رؤوس الأموال.

والحوكمة تعني النظام العام أي وجود نظم تحكم العلاقات بين الأطراف الأساسية التي تؤثر في الأداء كما تشمل مقومات تقوية المؤسسة على المدى البعيد وتحديد المسؤول عن التصرفات الإدارية والمالية غير الصحيحة مع تحميل المسؤولية لكل من الحق ضرراً بالمصلحة العامة، وبمعنى آخر فإنَّ الحوكمة هي مجموعة القوانين والنظم والقرارات التي تهدف إلى تحقيق الجودة والتميز في الأداء الإداري عن طريق اختيار الأساليب المناسبة والفعالة لتحقيق خطط وأهداف التنمية في أي عمل منظم سواء أكان في وحدات القطاع العام أو في وحدات القطاع الخاص من خلال ممارسة سلطات الإدارة الرشيدة (الحوكمة)، حيث إن مصطلح الحوكمة هو الترجمة المختصرة التي راجت لمصطلح Corporate Government أمَّا الترجمة العلمية لهذا المصطلح والمتفق عليها فهي (أسلوب ممارسة سلطات الإدارة الرشيدة).

لقد تعددت التعريفات المقدمة لهذا المصطلح بحيث يدل كل مصطلح على وجهة النظر التي يتبناها مقدم هذا التعريف وتُعرف مؤسسة التمويل الدولية

وجاءت أهمية الإدارة الرشيدة (الحوكمة) من الموضوعات الهامة في الإدارات والمؤسسات والمنظمات المحلية والإقليمية والدولية العامة والخاصة كافة خصوصاً بعد سلسلة الأزمات المالية المختلفة التي وقعت في الكثير من المؤسسات العالمية مثل الانهيارات المالية التي حدثت في دول شرق آسيا وأمريكا اللاتينية عام ١٩٩٧م وقيام شركة Enron الأمريكية للطاقة بالتلاعب بأرباحها وإظهار أرباح وهمية عام ٢٠٠١م للحفاظ على سمعتها ولرفع أسعار أسهمها وقد أدى كشف الحقيقة إلى إفلاس الشركة وفرض العقوبات والغرامات على أكبر شركة محاسبة في العالم Arthur Anderson لسكوتها عن هذا التضليل، إضافة إلى ذلك فإن أسباب انهيار الوحدات الاقتصادية هو أداؤها بشكل فردي وافتقار إدارتها إلى الممارسة السليمة في الشفافية والرقابة والإشراف ونقص الخبرة والمهارة وكذلك اختلال التمويل يضاف إلى ذلك نقص الشفافية وعدم الاهتمام بتطبيق المبادئ المحاسبية التي تحقق الإفصاح المناسب، إلى جانب عدم إظهار المعلومات المحاسبية الحقيقية للأوضاع المالية للشركة، وقد انعكس ذلك في مجموعة من الآثار السلبية أهمها فقدان الثقة في التقارير والبيانات المالية لهذه الوحدات.

الإدارة الرشيدة والمزيد من الشفافية، وفي القطاع الخاص يعتبر مجلس إدارة أي شركة المحرك الأساسي لنظام حوكمة الشركات على اعتبار أن مجلس الإدارة يهتم أساساً برسم السياسات العليا لأنشطة الشركة وبالتالي حماية حقوق المساهمين، حيث إن مجلس الإدارة له السلطة العليا في شكل ومحتوى وتفاصيل التقرير السنوي للشركة وكلما كان مفصلاً أكثر زادت شفافية المعلومات عن الشركة وبالتالي زاد مستوى حوكمتها.

أمّا في القطاع العام فإن مفهوم الحوكمة ونطاق عملها والمسؤوليات هو اتجاه السلطة التنفيذية للحكومة واتجاه تعيين أعضاء مجالس الإدارة في المؤسسات العامة والمديرين العامين في الوزارات وتحمل مسؤوليات الإدارة من الموظفين كافة في الجهاز الإداري العام للدولة.

وتحتاج مطالب ممثلي الشعب والرأي العام إلى منهجية واضحة للعمل المالي والإداري من ناحية الإفصاح والشفافية وتقييم الأداء وصولاً إلى كيفية إعداد التقارير السنوية التي تتناول أعمال الجهات الحكومية كافة وذلك بهدف تحديد المسؤوليات ورسم السياسة المستقبلية، ما يتطلب شرح الأسس والقواعد والإجراءات الواجب تطبيقها وتحديد المعايير والمبادئ والمحددات التي تحكمها.

الإدارة الرشيدة (الحوكمة) في

القطاع العام:

انطلاقاً من هذا الواقع جاء الاهتمام بتطبيق الحوكمة كحل متكامل وفعال لهذه السبلات وبذلك حاز على اهتمام مختلف الكتاب الباحثين في المجالات المحاسبية والاقتصادية والإدارية والقانونية المختلفة، وأصبحت حقلاً خصباً للبحث والدراسة للاستفادة من المزايا والإيجابيات المتعددة للإدارة الرشيدة (الحوكمة) وضرورة التوسع في تطبيق مفهومها في البيئة الاقتصادية الحالية سواء في القطاع العام أو القطاع الخاص.

ونشير هنا إلى أن ظهور مفهوم حوكمة القطاع العام أو ما يعرف بحوكمة الحكومات بشكل تطبيقي إنما تم في نقاشات وزارة المالية الهولندية عام ٢٠٠٠م حيث عقدت عدداً من الاجتماعات وورش العمل بهدف تفعيل دور حوكمة القطاع العام في هولندا أو محاولة الإجابة عن ماهية هذه الحوكمة وكيفية تطبيقها حيث إن أهم ما عنيت به حوكمة القطاع العام هو تكريس تضافر الجهود مع القطاعات الحكومية كافة لدرء حدوث الأزمات الإدارية التي تؤدي بشكل عام إلى هدر الأموال الحكومية العامة وإلى فقدان التحكم في النظام الإداري وفقدان المسؤوليات عند حدوث خلل في تطبيق الأنظمة والمشاريع المختلفة أو تشغيل

العمليات العامة بشكل يعرف بالأفقي بين دوائر القطاع العام، وإن تطبيق وتطوير مبادئ ونهج حوكمة القطاع الحكومي هي مسؤولية الجميع بلا استثناء ويتطلب تفعيل برامج التوعية سواء للإدارات الحكومية نفسها أو للمواطنين مع تفعيل دور الرأي العام المساند والسماح له بالمشاركة في صناعة القرارات وإعداد التشريعات، حيث تعد حوكمة القطاع الحكومي مشروعاً وطنياً يبدأ بالإرادة السياسية والعزيمة لتكريس الشفافية في القطاعات المشتركة بنظرة أفتية لا عمودية وأن يعمل المشروع على محاور أساسية أهمها معالجة حالات تعارض المصالح وانعدام المسؤوليات وتقليل المخاطر والخسائر المتوقعة في أوجهها كافة وأن يعتمد اعتماداً جذرياً على قياس وتقييم الأداء المشترك بين الدوائر الحكومية فلا يجوز مثلاً النظر لدائرة من دون أخرى، وهنا فإن تقييم الأداء لا يقصد به الأداء المالي من حيث دراسة وتحليل ميزانيات القطاعات المختلفة فقط بل يعتم على قياس كفاءة الخدمة العامة وعلى مقدار المعرفة والنضج الناشئين من جراء تطبيق حوكمة القطاع الحكومي.

وتعد حوكمة القطاع العام في أغلب دول العالم مطلباً ملحاً في الوقت الحاضر أكثر من أي وقت مضى، فقد أولت الدولة في سورية في عهد السيد الرئيس بشار الأسد

مراجعين ومحاسبين قانونيين ومحامين.. الخ. إضافة إلى وجود جهاز قضائي شفاف وعادل وقادر على تحديد المسؤولية وفرض المخالفات الإدارية والمالية على الجهات العامة والخاصة في الوقت المناسب إضافة إلى ضرورة وجود محددات داخلية تتعلق بالشفافية في اتخاذ القرارات وإعلان أساليب العمل المطبقة لدى الجهات العامة على الجمهور مع كيفية التأكد من تطبيقها وتوضيح توزيع السلطات بين الإدارات منعاً لازدواجية العمل وتضارب المصالح وإعلان المعايير التنظيمية لقياس الأداء والتأكد من تقديم الخدمات المناسبة للمواطنين بكفاءة وجودة مناسبتين وبمشاركة وسائل الإعلام والمجتمع المدني لإلقاء الضوء على أي سلوك مخالف مما يخلق الثقة في الأجهزة الرسمية ويشجع الاستثمارات الداخلية والخارجية مما يدعم الاقتصاد القومي. منوهين إلى أن نجاح الحوكمة في القطاع الحكومي يزيد من نمو القطاع الخاص ويدعم قدراته التنافسية وتساعد المشروعات في الحصول على التمويل وتوليد الأرباح وخلق فرص عمل كما تساهم الحوكمة في محاربة الفساد مما يخلق قطاعاً عاماً قادراً وشفافاً وفعالاً يؤمن خدمة المجتمع ويوفر معدلات نمو جيدة.

معايير الإدارة الرشيدة (الحوكمة):

كل اهتمامها للتطوير والتحديث بشكل عام من خلال المبادرات والمشاريع المختلفة والتشريعات المتطورة التي ينصب جلها في إصلاح الأنظمة الإدارية والتشغيلية في القطاعات العامة المختلفة وصولاً إلى التنمية والإدارة الرشيدة (الحوكمة)، وتعود أهمية الحوكمة إلى أهمية تفعيل دور وحدات الرقابة الداخلية في القطاعات العامة والحكومية والتأكد من استقلالها وعدم ارتباطها تنظيمياً بالإدارات التنفيذية المباشرة ولا تخضع لسلطة الرئيس التنفيذي وهذا يعد مطلباً أساسياً لدحض تضارب المصالح عند تطبيق الخطة العامة المرتبطة بما يصدر من تقارير للرقابة الداخلية أو الخارجية منوهين إلى أن تطبيق حوكمة القطاع الحكومي يرتبط بتوافر محددات خارجية تشير إلى المناخ العام للاستثمار ووجود قوانين ناظمة للنشاط الاقتصادي مثل قوانين سوق المال وقانون الشركات وقانون تنظيم المنافسة ومنع الممارسات الضارة بالاقتصاد من الاحتكار والإفلاس إضافة إلى قانون مكافحة الفساد. ووجود غطاء مالي جيد يساهم في توفير التمويل اللازم للمشروعات الجديدة مع تنافسية أسواق السلع وعناصر الإنتاج وكفاءة الأجهزة والهيئات الرقابية في تطبيق الحوكمة على جميع منظمات المجتمع بما فيها الجهات المهنية من

مما تقدم يمكن اعتماد معايير الإدارة الرشيدة (الحوكمة) للمؤسسات والإدارات العامة وفق ما يلي:

١- التأكيد على وجود إطار تنظيمي وقانوني فعال للمؤسسات والإدارات العامة.

٢- اعتماد وحدات للمراجعة الداخلية والخارجية.

٣- المعاملة المتماثلة للمتعاملين مع المؤسسة من ملاك وأفراد ودوائر رسمية.

٤- تحديد العلاقات مع الأطراف ذات المصالح من المتعاملين والجمهور من خلال تفعيل وحدات المراجعة والتدقيق في إدارات الدولة كافة.

٥- الشفافية والإفصاح عن المعلومات الهامة للمتعاملين والجمهور.

٦- تشكيل وتفعيل مجالس الإدارة للمؤسسات أو الإدارات العامة الاقتصادية أو الخدمية.

في ضوء هذه المعايير يمكن تحديد متطلبات الإدارة الرشيدة (الحوكمة) في المؤسسات والإدارات العامة في سورية:

١- حيث إن من مهام مؤسسات الدولة الاستجابة لحاجات ومتطلبات وتطلعات المواطنين إذ يجب عليها أن تكون شفافة وتعمل على تفعيل القوانين النافذة ونرى في هذا المجال أنه لا ينقصنا قوانين نافذة لكل مناحي الحياة فقد كانت سورية سباقة

درست المنظمات الدولية هذا المفهوم وعملت على تحليله ووضع معايير لتطبيقه ومنها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية التي اعتمدت معايير عدة في عام ١٩٩٩م تم تعديلها في عام ٢٠٠٤م وتتمثل هذه المعايير بما يلي:

١- ضمان وجود أساس إطار فعال لحوكمة الشركات يتضمن شفافية الأسواق وكفاءتها وفق القوانين النافذة.

٢- حفظ حقوق جميع المساهمين من حيث نقل ملكية الأسهم والحصول على الأرباح والمشاركة الفعالة في الاجتماعات.

٣- المعاملة المتماثلة بين جميع المساهمين في كل فئة وحق الدفاع عن حقوقهم القانونية.

٤- دور أصحاب المصالح من البنوك والعمالين وحملة السندات والموردين والذبيائن في أساليب ممارسة سلطات الإدارة في الشركة.

٥- الإفصاح والشفافية في المعلومات الهامة وفي الوقت المناسب مثل ملكية النسبة العظمى من الأسهم وكذلك ما يتعلق بأعضاء مجلس الإدارة والمديرين التنفيذيين.

٦- اعتماد هيكل لمجلس الإدارة وتحديد واجباته القانونية وكيفية اختيار أعضائه ومهامه الأساسية ودوره في الإشراف على الإدارة التنفيذية.

وضمنان جدية تطبيقها ونفاذ آثارها على الاقتصاد الوطني الذي ينعكس إيجاباً على الاستثمار والعدالة الاجتماعية.

دور الإصلاح الإداري في الحوكمة

المقصود بالإصلاح الإداري هو إدخال تغييرات أساسية في أنظمة الإدارة العامة بهدف تحسين مستويات الأداء ورفع كفاءة النظم الإدارية القائمة وجعلها أكثر ملائمة مع التطور التكنولوجي وتحديات السوق وتحقيق ثقة ورضا المواطنين من خلال إحداث نقلة نوعية في تقديم الخدمات بأقل التكاليف وبأسلوب مرن منوهمين إلى أن الإصلاح الإداري عملية مستمرة ومتطورة تسير بالتزامن مع العلوم الإدارية والتحويلات الجارية على متطلبات المجتمع.

على ضوء ذلك يمكن تحديد أهداف الإصلاح الإداري من خلال الإدارة الإستراتيجية لتنمية قدرات الجهاز الإداري بالاعتماد على الأنماط والمداخل الحديثة في البناء التنظيمي الملائم لمتطلبات التغيير والتطور ضمن مفهوم اللامركزية في الإدارة ليس من خلال التفويض فقط بل من خلال التشريعات الناظمة لذلك واعتبار النجاح في تقديم الخدمات للمواطنين مقياساً في تقويم أداء المؤسسات ضمن مفهوم العمل الجماعي للعاملين الذين يجب الاستمرار بتأهيلهم لمواكبة التطور الحاصل

دائماً في إصدار التشريعات مما يتطلب تطبيقها وتطويرها عند الحاجة.

٢- إن التطوير الإداري لمؤسسات الدولة وجعلها أكثر كفاءة وشفافية في عملها كأحد أركان الحكم الرشيد.

٣- مشاركة المجتمع ممثلاً بالمؤسسات والجمعيات والقطاعات المختصة من نقابات مهنية وعمالية ومنظمات شعبية في صياغة السياسات والخطط الاقتصادية والاجتماعية ضمن الرؤى الوطنية والمساهمة في الرقابة على تنفيذها.

٤- وجود قواعد وأسس مرجعية تشريعية وقانونية لتنظيم عمل السلطات والإدارات والمؤسسات الحكومية وإعلانها وتحديد علاقتها مع أفراد المجتمع وقطاع الأعمال.

٥- توفير الشفافية والإفصاح في عمل السلطات والمؤسسات والإدارات الحكومية لتسهيل عملية الحصول على المعلومات المتعلقة بها مما يسهل المراقبة لأدائها.

٦- جاهزية الجهاز الحكومي للاستجابة لمتطلبات المواطنين في إطار الخطط والموارد المتاحة وكفاءة استثمارها.

٧- تحديد التوجهات الإستراتيجية للدولة ضمن إطار عملية تخطيط منهجية شاملة للأبعاد الاقتصادية والاجتماعية.

٨- تبني ثقافة الإدارة الرشيدة (الحوكمة) بإرادة وتصميم لإصدارها

لحين إجراء التقييم ربع السنوي لأدائها مما يسهم بمشاركة المواطنين في تقييم أداء الجهات الإدارية.

منهجية تطبيق مبادئ الحوكمة:

١- استكمال إصدار التشريعات اللازمة لتطبيق مفهوم الإدارة الرشيدة (الحوكمة) في مختلف أجهزة الدولة لما لهذا النظام من أهمية في خدمة المواطن والمحافظة على المال العام والتنمية.

٢- الإعلان في الوحدات التنظيمية كافة عن مراحل العمل وأسلوب تطبيقه ومسؤولية كل موظف حسب مراحل العمل.

٣- إجراء تقييم دوري لمبادئ الحوكمة تبعاً للتغيرات الحاصلة في الوحدة التنظيمية.

٤- دعم الأجهزة الرقابية وضمان استقلاليتها وتعزيز الصلاحيات الممنوحة لها وتطوير أنظمتها وفق متطلبات كل مرحلة وتحديد الروائز المعتمدة لتقييم عمل الجهات العامة وإعلانها للعاملين والجمهور واعتماد مخرجات تقييم الأداء كأحد أدوات تقييم الإدارات.

٥- إعلان إدارات ومؤسسات الدولة عن متطلبات الحوكمة والسعي لتطبيقها والعمل بموجبها.

٦- مساهمة الجمعيات والمنظمات والنقابات ووسائل الإعلام بالتعريف بمبادئ

في تقديم الخدمات من خلال التأهيل والتدريب والتطوير المستمر ودعم الجهود الرامية إلى الارتفاع بمستوى الإنتاجية وتحقيق الكفاءة الاقتصادية في العمل بالاعتماد على التقنيات الحديثة ووضع الخطط اللازمة للتطورات المستقبلية من خلال برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

مما تقدم نستنتج أن التشريعات التي تهدف إلى تنظيم العمل في البيئة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية في سورية قطعت شوطاً كبيراً في مجال إصدار التشريعات التي تكفل التنمية والحفاظ على حقوق الدولة والمواطنين وتنظيم الحقوق والالتزامات، وبهدف تحقيق الإصلاح الإداري المنسجم مع الإدارة الرشيدة لابد من وجود جهة إدارية مختصة (وزارة أو هيئة) تتابع الواقع التنظيمي للإدارات والمؤسسات العامة وتطويرها وفق المعايير المعتمدة للإدارة الرشيدة وتقييم أداء هذه الإدارات باستمرار بهدف تحقيق الشفافية وتقديم الخدمات بكفاءة وسهولة للمواطنين واعتماد أسلوب المواطن الرقيب لقياس جودة تقديم الخدمات من خلال استمارة تعتمد من الجهة الرقابية وتُملأ من قبل المواطن بسرية بإشراف موظف من خارج الجهة الإدارية وتحفظ في ملف هذه الجهة

أساسيات الإدارة الرشيدة (الحوكمة):

هناك موضوعات مازالت موضع البحث ولا بد من البت بها لتطبيق مبادئ الحوكمة:

١- مسؤولية الدولة وهل أعلنت ضمن سياستها عن إرادتها بتطبيق مبادئ الحوكمة وهل يتم تطبيق التشريعات بهذا الشأن وهل هي كافية؟

٢- الملكية العامة والالتزام وهل هي الأفضل لتطبيق مبادئ الحوكمة وهل توجد جهة مختصة (مثل الملكية العامة) لمراقبة الالتزام لدى الإدارات العامة بحيث تكون مهمتها الفحص والمراقبة والإقرار بعدم وجود خرق من الإدارة التنفيذية في ممارستها لأعمالها من حيث:

- القوانين أو القواعد الرقابية.

- السياسات التي أقرها مجلس الإدارة والنتائج المحققة.

- التقيد بالقواعد الأخلاقية المتعارف عليها بهذا العمل.

- الإقرار والإفصاح عن نتائج تقصي العمل والمخالفات المتعلقة بالقوانين والسياسات إن وجدت.

٣- مسؤوليات الجهة الرقابية (الداخلية والخارجية) والتأكد من أن قواعدها وما تقوم به كافيان لدعم تطبيق نصوص التشريع.

٤- هل تقوم إدارة الجهة العامة بتطبيق

الحوكمة وأهميتها في دعم العمل الحكومي مما يحافظ على حقوق المواطن والمال العام.

٧- التوسع في تجربة مجلس الإدارة لتشمل إدارات ومؤسسات الدولة الاقتصادية والإدارية كافة وبمشاركة خبراء ومختصين من خارج هذه الإدارات في عضويتها.

٨- قيام الجهة الإدارية المختصة (وزارة أو هيئة) بإجراء دراسة شاملة لواقع الإدارات والمؤسسات ومدى انسجام هيكلها الإدارية والتنظيمية مع الإدارة الرشيدة (الحوكمة) وتحديد مواطن الضعف ووضع الخطط لتطویر الأداء بمساهمة العاملين فيها بعد تأهيلهم للإيفاء بمتطلبات الأداء الصحيح وتشجيع روح المبادرة والإبداع لديهم.

٩- إلزام أجهزة الدولة كافة بمعايير الإفصاح والشفافية وعرض مخرجات عملها على الجمهور على اعتباره المستهدف بخدماتها إضافة إلى الإعلان عن عدد الشكاوى المقدمة إليها وأسلوب معالجتها.

١٠- اعتماد استخدام المعلوماتية والبرمجيات في الإدارات العامة تمهيداً لتطبيق الحكومة الإلكترونية مما يسهل الحصول على الخدمة ويخفض التكاليف ويحد من تدخل الموظف ويساعد في الشفافية.

بنية تشريعية متكاملة ومواكبة للتطورات الحاصلة داخل الدولة، وعندما يكون هدف التشريع هو تنظيم حالة بعينها فإنه يتوجب الرجوع إلى التشريعات الصادرة سابقاً حول الموضوع بهدف حصرها ومعرفة ما يتوجب إصداره من تشريعات جديدة، وحيث إن موضوع التشريعات هو في هذه الحالة لاستكمال البنية التشريعية اللازمة لتطبيق مبادئ الحوكمة، لا بد من الاطلاع على تشريعات صادرة في دول أخرى كان لها سبق التجربة والاستدلال بها لتحديد التشريعات المطلوبة، وفي دول العالم الثالث غالباً ما تكون التشريعات اللازمة هي لعلاج الاختلالات الوظيفية المتوارثة في المؤسسات العامة والخاصة في سبيل تحويلها إلى مصادر موجهة لتحسين الأداء في المجتمع واستغلال موارده الوطنية بكفاءة وشفافية بهدف المساهمة في تحقيق سياسات الدولة العليا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والإدارة الرشيدة، ويوصف المشرعون بأنهم مترجمون للسياسات، وكون هذه السياسات إنما صممت أصلاً بهدف إحداث التحولات الاقتصادية والاجتماعية الرامية إلى التنمية وتعزيز الشفافية والإدارة الرشيدة، ومن أجل إصدار هذه التشريعات يجب إعداد تقرير بحثي يتضمن واقع التشريعات من خلال استخدام النظرية التشريعية والمنهج التشريعي كأساس

القواعد والممارسات العالمية المعمول بها فيما يخص مجال عملها لتطوير العمل والإعداد للمستقبل؟.

5- ماهية أصحاب المصلحة من مواطنين ومؤسسات في عمل الجهة العامة، ومن الذي يحمي مصالحهم، وهل يتم نشر البيانات التي تهم العامة في موقع محدد دورياً أو كلما اقتضت الحاجة لذلك وهل يتم الأخذ برأي أصحاب المصلحة حول عملها؟.

6- هل الصلاحيات الممنوحة لمجلس الإدارة تعادل المسؤوليات المنوطة به وتخوله وضع السياسات والإيعاز لتنفيذها من دون الحاجة للعودة لأي جهة أخرى وهل يتم الإفصاح عن عمل مجلس الإدارة لأصحاب المصلحة.

التشريع والتنمية والإدارة الرشيدة

(الحوكمة):

استكمالاً للبنية التشريعية اللازمة لتطبيق مبادئ الإدارة الرشيدة (الحوكمة) التي تؤدي إلى الشفافية واستخدام الموارد البشرية من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية على اعتبار أن النظام القانوني سبب في نجاح الإدارة الرشيدة (الحوكمة) والتنمية المتوازنة، حيث إن التشريع في الأصل هو لتنظيم مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية من خلال

في إطار التنمية والإدارة الرشيدة ولاسيما تلك السلوكيات السلبية الموروثة التي تعيق بلوغ أهداف التنمية والإدارة الرشيدة، وفي هذا المجال يتوجب على أعضاء الهيئة التشريعية (النواب المنتخبون) تقييم التشريعات التي يتم إعدادها غالباً في الوزارات والبحث بها في ضوء تحقيق هدف الإدارة الرشيدة والتنمية المستدامة إضافة إلى كون القانون يقوم بتبليغ سياسات الحكومة إلى المخاطبين بالقانون على اعتباره يترجم السياسة العامة من خلال شكله ومضمونه وتفصيله التي تتضمن جوهر السياسة، كل ذلك يحتمل الجهات المختصة في الوزارات مسؤولية أن يكون المشاركون في إعداد التشريع ذوي خبرة في الجانب الموضوعي لمشروع القانون وأن يكونوا من الفنيين المدربين تدريباً منهجياً على أساليب الصياغة التشريعية مما يخلق الهدف في الوصول إلى قانون فعال يساهم في التنمية والإدارة الرشيدة، وهذا ما يحتمل المسؤولين الوزاريين مسؤولية صياغة برامج تفصيلية للسياسات الصادرة عن السلطات السياسية مما يساعد الجهة في تحديد الإطار التشريعي لهذه السياسات وبيان ما هو صادر منها ووضع خطة للتشريعات الواجب إصدارها في إطار تحقيق هدف التنمية والإدارة الرشيدة، وتقاس جودة التشريعات من خلال فعاليتها التي تتضمن

لوضع خطة التشريع لقوانين يفترض أنها تقدم حلاً تشريعياً للوصول إلى هدف التنمية والإدارة الرشيدة وتحديد الخيارات المبدئية مع قائمة حلول بديلة وإجراء التحليل المقارن بينها وتحديد الخطة بشكل نهائي للتشريعات الواجب إصدارها وهنا يجب اعتماد منهجية في العمل كي تضمن التشريعات حلاً تشريعياً لموضوع التنمية والشفافية والإدارة الرشيدة مع تضمينها التدابير التي تشجع على الالتزام بالقانون من خلال نصوص تثبت أن مشروع القانون يبرهن على فاعليته في تحقيق الهدف مما يخلق الارتياح لدى المجتمع والجهات المنفذة على السواء ولاسيما إذا كان المطلوب من هذه الجهات وضع قواعد التنفيذ، وبكل الأحوال يجب أن تكون النصوص واضحة في التشريع والتعليمات التنفيذية بما يحد من حرية تصرف المسؤولين في مخالفتها من خلال القيود المفروضة على تحويل المدخلات إلى قرارات، وهنا يكمن دور الصانع للتشريعات في السياق الأكبر للتنمية والإدارة الرشيدة من خلال صياغة قانونية تترجم السياسات العليا للدولة وتمكن من تطبيقها بفعالية وتشجع على إحداث التحولات الاجتماعية والاقتصادية المنشودة مما يجعل القانون أداة رئيسية في أيدي الحكومات بحيث تمكنها من إحداث تحولات في الأنماط السلوكية للمؤسسات

الذي أصبح جزءاً من الإدارة الحكومية، بحيث لا يفاجئ بعد ذلك بقرارات حكومية تتعلق بالمجتمع ولم يساهم بها وذلك كله يجب أن يكون منصوصاً عليه في القوانين النافذة ذاتها، بفرض أن التشريعات الصادرة كافة أو التي ستصدر يجب أن يكون هدفها التنمية والإدارة الرشيدة على اعتبار أن جدار التخلف لا يمكن أن يتحطم إلا بالتشريع الفعال والإدارة الرشيدة مما يضمن تخصيص الموارد المتاحة من أجل التنمية التي تهدف إلى حياة كريمة بتوفير السكن والغذاء والدواء والتعليم وغيرها للمجتمع، وإن مساهمة المجتمع في إدارة الموارد من خلال التشاركية في التشريع والتقيّد بخلق بيئة مناسبة لأطراف المجتمع لتقديم أفكار وحلول تساعد في الوصول إلى الاستثمار الأمثل للموارد المتاحة مما يحسن جودة الإنتاج الزراعي والصناعي والتعليمي والصحي والقضائي والمالي.. إلخ. ومما يحسن من شروط الحوكمة والإدارة الرشيدة وهذا ما يعتبر من أسس التنمية، وعليه يجب أن ينظر إلى القانون بوصفه الأساس في عملية التغيير الاجتماعي وإن التشريعات التي تصدر لتنظيم حالات موجودة في المجتمع إنما هي قوانين وصفية تكون مساهمتها محدودة إن لم نقل معدومة في عملية التحول الاجتماعي وتحقيق التنمية إذا لم يتم إصدارها ضمن

استيعاب السياسة المستهدفة والبرنامج التنفيذي المقصود وسهولة فهمه من أفراد المجتمع وابتكاره لأساليب تنفيذية سهلة ورشيقة تحلل الدور الأساسي لهذا القانون وانعكاسه الإيجابي على المواطنين من خلال التحول الاجتماعي الهادف إلى تحقيق التنمية والإدارة الرشيدة مما يتطلب تنظيم دور المواطنين في المساهمة بتنفيذ القانون، حيث كان التحدي الرئيسي في البلدان النامية يتعلق بعدم ملائمة تنفيذ القانون القائم على المجتمع مما أدى إلى عدم فعاليته وذلك يعود إلى فقدان الشفافية والإدارة الرشيدة عند إعدادها مما أدى إلى تفشي الفساد وانعكس على مناحي الحياة كافة وبالتالي تلاشي التنمية والتحول الاجتماعي الهادف وهذا ما يؤكد على ضرورة وجود أنماط سلوكية تضمن تطبيق القواعد القانونية من خلال مؤسسات سيادة القانون واتخاذ القرارات ضمن قواعد محددة يتم الإعلان عنها للرأي العام مسبقاً إضافة إلى الشفافية في اطلاع المواطنين على هذه القرارات، وأن يكون تطبيقها معلناً للجمهور بوسائل الإعلام المختلفة التي تقوم بطرحها للرأي العام لمناقشتها مما يساهم في تحقيق قيمة مضافة لها من المعنيين والمختصين في تلك القرارات والإجراءات مما يساعد في تطوير الإدارة والقوانين وبالتالي المجتمع

البلد فقيراً لعدم تفعيل العمل المؤسسي والإدارة الرشيدة والشفافية ليحل محلها الفساد الذي يؤدي إلى الفقر للدولة والمجتمع، فالبلد المتقدم والذي يقوم على تشريعات تموية ومؤسسات شفافة وإدارة رشيدة كفوءة ومتابعة للتطور وهذا ما يعتبر بحد ذاته البيئة التمكينية المناسبة لتحسين مستويات المعيشة وازدهار البلد.

إذن، المطلوب هو بناء قانوني ومؤسسي يساهم في خلق أنماط سلوكية رائدة منوهين إلى أن العمل المؤسسي لا ينحصر في حيز جغرافي أو إداري أو زمني وإنما هو سلوك اجتماعي يبدأ باحترام المواطن العادي للقانون وتطبيقه وصولاً للموظف الحكومي الذي يعمل على الشفافية في تطبيق القانون كما ينسحب ذلك على صاحب المشروع الخاص الذي يلتزم بالقانون من خلال منتج جيد وسعر مناسب والتزامه بتسديد ما يترتب عليه من ضرائب للدولة وحفظ حقوق عماله والمساهمة في تأهيل وإعمار البيئة المجاورة لمشروعه وهذا ما يحقق التنمية والإدارة الرشيدة.

سياسة الحكومة الهادفة إلى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والإدارة الرشيدة وبحولها من تشريعات وصفية إلى تشريعات تموية، كون التشريعات التموية تساهم في خلق بيئة تمكينية لبناء مؤسساتي متين ضمن بيئة تشريعية متكاملة وفاعلة وإدارة رشيدة شفافة بهدف إحداث تحول إيجابي في المجتمع وتنظيم المناحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة كونها الأكثر تأثيراً في تنظيم واستثمار الموارد المتاحة وتوجيهها الوجهة الصحيحة وهذا هو دور المؤسسات التي يديرها أشخاص أكفاء يمتازون بالنزاهة والشفافية على اعتبارهم يمثلون النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأما القول إن بلداً يختلف عن بلد آخر مع وجود موارد متماثلة إنما يكون بسبب كفاءة المؤسسات وإدارتها الرشيدة في هذا البلد وضعفها في البلد الآخر فالإدارة الرشيدة تخلق استثمارات وصادرات مستفيدة من المزايا النسبية الموجودة والتي لا تستثمر في البلد الآخر على الرغم من وجودها، ويترك هذا

مراجع البحث

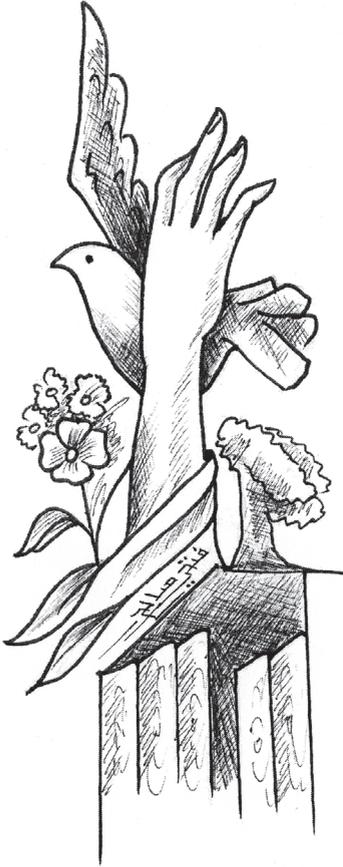
- ١- محددات الحوكمة ومعاييرها، الدكتور محمد ياسين غادر، جامعة الجنان، لبنان ٢٠١٢م.
- ٢- دور الحوكمة في الإصلاح الإداري، شفيق عبد الحافظ - وسام عبد الرزاق، جامعة بغداد، العراق ٢٠٠٩م.
- ٣- الحوكمة في القطاع المصرفي، د. محمود أبو العيون، مصر.
- ٤- الصياغة التشريعية من أجل التغيير الديموغرافي، ترجمة مكتبة صبرة، مصر ٢٠٠٥م.
- ٥- حلقة عمل حول الحكم الصالح، صندوق النقد العربي، صندوق النقد الدولي، (أبو ظبي)، ٢٠٠٤م.



شأم العز

✽

مفيد نبزو



أحبُّ ولستُ أدري هلُ الأُمُّ
وهلُ يُجدي التَّغزُّلُ والكلامُ؟
أكادُ أذوبُ من حَبِّي هيأماً
فيأسُرني التَّلوعُ والهيأُ
سلامُ الشُّوقِ من قلبِ مُعنى
لمنُ غنَى بأرضهمُ الحمامُ
سلامُ العطرِ من قلبِ شغوفِ
وعطرُ الرُّوحِ يحمله السَّلامُ
أحبُّ ومَنُ يحبُّ يطيبُ قلباً
وقلبي مزَّقَت فيه السَّهامُ
بحقِّ الرِّبِّ يا شأمُ ارحميني
أنا في الحبِّ صبُّ مُستهامُ

✽ شاعر سوري.

العمل الفني: الفنانة نغمي صالح.

أحبُّ وليس لي ذنبٌ وقلبي

به النيرانُ تُضرمُ والغرامُ

شعوري مرهفٌ، قلبي رقيقٌ

وعاطفتي القرنفلُ والخزامُ

شامُ العزِّيا بنتُ المعالي

أيجهلُك اليراعُ أو الحسامُ؟!

مع التَّاريخِ يا فرحَ القوافي

ربيعُ أهلك الصَّيدُ الكرامُ

ليحيا المجدُ في وطني ويزهو

أدامَ اللهُ عزَّكَ يا شامَ.

باكورة المجد

عراقة الماضي تتجلَّى في آثارنا التي

نتغنَّى بأمجادها ما حيينا،

وهذه أوغاريت الأبدية الأولى في

التاريخ:

ياأمةَ الشَّمسِ يا بنتَ الهوى حسبا

إلا لعينيكِ هذا الشعرُ ما كتبنا

إلا لعينيكِ ما اخضلت بقافيتي

هذي الأناشيدُ واثال الندى أدبا

حوريةً من سفوح الشَّمسِ مطلعها

ما غاب فجرُ الندى عنها ولا غربا

مواسمُ الخير من وجهٍ يفيض رؤى

أما الجبينُ شموخُ عائقِ السُّحبا

يا أمةَ الشمسِ هذي الأرضُ نعرفها

ينبوعها الأبدِيُّ الثَّرُّ ما نضبا

إنِّي لأعشقُ تاريخاً به ألقُ

يعانق النِّجمَ إنْ لم يقطفِ الشُّهبا

أرضُ الحضارات سلَّ عنها معالمها

هل تغربُ الشَّمسُ هل فيها الضياءُ خبا

ما غاب نورُ بها للشمسِ أو ذهبنا

إلا وهلَّتْ به في أرضنا ذهبنا

من هاهنا الفجرُ في راعٍ يرافقه

صوتُ القطيعِ، سهولُ جنةٍ وربنا

والذكريات حديثُ الأرواحِ في شفتي

يجابُبُ النَّايِ في ألحانه القصبيا

كم ذاب قلبي حنينُ الشُّوقِ أجنحتي

والعشقُ أغنيتي أشدو بها طربيا

يا جنةَ الشرقِ يا أحلامَ قافيتي

لا تعذلي القلبَ إن غنَّي وإن وثبنا

الأبجديةُ أوغاريتُ مولدُها

والشَّامُ باكورةُ التَّاريخِ ما انتسبا.

العدراء تبكي في معلولا

هنالك في ضاحية من ضواحي جلق

السورية عروس عدراء اسمها معلولا..

أهلها يتكلمون اللغة السريانية.. وبقيمون

طقوسهم بالشموع والبخور وأغصان

الزيتون.. يصلون بلسان سيدهم.. أبوابهم

1- I gave you my peace but you refused

it

أعطيتكم سلامي فرفضتموه

2- I gave you my blessing but you

treadle on it by your feet

أعطيتكم بركتي فوطئتموها بأقدامكم

3- I opened my heart to you but you

teared it

فتحت لكم قلبي فمزقتموه

4- I gave you my son but you forget

him

ضحيت بابني لأجلكم فنسيتموه

5- I am the sadness mother who dwell

in you for the hope of resurrection

أنا الأم الحزينة...

أنا الراقدة فيكم على رجاء القيامة.

مفتوحة للسماء.. لأنها مرتفعة

إلى فوق، وهوؤها المنعش الغليل.. أهدى

لها معناها لتغدو قبلة العالم

في أرض سورية.. بل معجزة الكون في

هذا الشرق الحزين.

هنالك معلولا مزهوة بتكوينها الخاص..

بأديرتها وكنائسها وممراتها

وأروقتها، ومغاورها المحفورة في قلوب

الجيال كآية من آيات الفن والإبداع

والإعجاز.

هنالك في مرتفع عال كان الليل يشد

حلقة، والمعارك تدور بقوة وعنف ودخان

وغبار.. وقفت كالغيمة البيضاء صامته

تراقب ما يحدث حولها بكآبة، وتبكي

تبكي حين طلقات الرصاص تنزّ من

حولها، والنيران تمتد بالسنتها إليها من

كل الجهات.. فتمد كنها بصمت لتوقف

نزيف الدماء، وتستأصل روح الشر من

تئينها الدامي، وتبعد شبح الموت عن

مدينة السلام.. وهي تبكي وتقول:



ناريات الماء



عصام ترشحاني



- ١ -

هل كان،
قُرب حديقتي
يفتابني في الليل
أم يهذي
بمَتْنِ مفاقتي؟
خمرٌ خرافيٌّ
على جسدي
مَنْ صَبَّهُ؟

لم أنتبهَ لغيومه الخضراء،
وهي تَشْفُ
ثم تدوب في وطني..

الماءُ يلسعني

والجمرُ في شجني يُراوده..

لا .. شيء..

من ثمر الخطيئة قد تساقط،

✿ شاعر من فلسطين.

إِنَّهُ رَمَلِي تَبْلَلُ،
إِنَّهُ عَطْرِي.. تَلَاشِي فِيهِ،
يَا.. لَجْجِيمِهِ الرَّعْوِيَّ،
وهو بمفرد الأفلak يحرقني..

-٢-

ويكونُ أَنْ
تَرْتِ الحَيَاةُ وَسَامَتِي
هل أَنْتِ أْبَدَعُ
ما اشتغلتُ عليه
من مائِي.. ومن لغتي

ومن شرر الرحيق؟

ويكونُ أَنْ

تتمو الخزامي

فوق زوبعتي

هل أَنْتِ

مَنْ ذرَفَ القصيدَةَ في الحريق؟

عيني.. على الظل الذي

بَسُلَافِهِ ونفيره

سمك الهوى ما بيننا

وأرق في مجهولهِ

ماء البريق..

-٣-

لنسيمك البريِّ،

أو.. لبياضك الشجريِّ

خُذْنِي..

بين عاطفتين،

تجترحان لبَّ النارِ،
أو.. خُذْنِي
إلى كَوْنِي
ينتهيان في المسحورِ
مما لا نراهُ
أنا.. أحبُّ صدأكَ
هل أبصرتِ كم يمتدُّ من قلبي،
إلى قلقي،
إلى شغبِ الكتابِ
بالعناقِ وبالسفرِ..؟
هو عائدٌ في شأن مفردةٍ
لها شكل الحقولِ
ولازورد الغيمِ
هل غطى بنيزكه،
الضفافَ
من الكسوفِ
إلى البروق.. إلى زمردة المطر..

-٤-

يتكئُ الظلُّ على الموسيقى

يتكئُ الغيمُ على وقتي

للماء خيالٌ يولد من لهب السَّهْوِ

ومن لهجات الريح

وَوَعْيِ الأحلام..

يا أَنْتِ..

رأتني الغزلان العائدة إليك

أَمْسُدْ غَيْرِكُ
 بالنارِ .. وَأَقْذِفْ
 ماء الماسة فيها
 من جوف رصاصي ..
 يا امرأة أَعْطَتْ
 للشُّوكِ الملعونِ بكارتها
 واقترفتْ كلَّ سماواتِ النشوةِ
 دوني ..
 عذراً .. إِنْ أَيْقَظْتُ دهائي
 عذراً ..
 - وَأَنَا أَلْمَحُ طيفكِ خلفِ جميعي -
 إِنْ أَخْلَيْتُ ..
 من الزهر المهدورِ غنائِي ..
 - ٥ -
 هيَ الياسمينَةُ،
 تطلُعُ من قمرٍ
 مثل قلبك ..
 لا تبتعدُ ..
 سوف تخلو النساء الجميلاتُ،
 بالغامض المتحوّل فيك،
 وسوف يُرْتَلَنُ،
 بعضِ قصارِ الأغاني عليك،
 ويجمعنَ شَجَوَكَ ..
 في كأسِهِنَّ ..
 ويشيرينَ نخبَكَ ..
 من أوّل الضَّوْعِ،
 حتى تماهي القصيدة،
 في متعة العاصفة ..
 فالتَمَسَ يا حبيبي ومولايَ
 حين المجرَّة
 تهفو إليك
 التمسْ كوكباً،
 من ندى الأَرْفَةِ ..





رسالتان.. قبل الرحيل



محسن يوسف

١ - رسالة إلى .. الأسياد

((أسياد الزمن:

//إبرام. شاروكين. موشيه.
عيسو، وأنت يا يتيم الوالدين//
عليكم سلامي، يا أسياد الدنيا
والآخرة. أسألكم بحق خالقكم،
هل أستحق ما جرى لي؟..

إبرام.. يا من رميت فلذة
كبدك، في غياهب الصحراء،
وعيسو ضحية القليل من
الفضة، وأنت يا شاروكين،
وليد يرمى كما حدث لزميلك



✽ أديب وقاص سوري.

العمل الفني الفنانة وفاء كريدي.

- ١ -

وهكذا أتيت إلى الدنيا، من دون أن أعرف لماذا. قتل أبي وأنا صغير، وهو يقاتل جيش غورو، دفاعاً عن بلاد الشام المقدسة ورحلت أُمي وشقيقتي، وقتل حفيدي، دفاعاً عن المتبني وسيف الدولة الحمداني في حلب الشهباء، فتقصفت جذوري وأغصاني، وعشت متقللاً، من بيت إلى آخر، ومن حي إلى ثان وعاشر، من بلد ودولة، إلى مختلف الأصقاع، شرقاً وغرباً. شمالاً وجنوباً، براً وبحراً وجواً، رفضت أن أكون مطية لأحد، وأرفض أن أكون مبغضاً أو عدواً ظالماً. هناك أحباب وأصدقاء، لم ألتق بهم بعد. تدخل الوجوه إلى صدري، ترافقني، دافئة حبيبة..

أعود إليكم.. يا أسيادي، لأسأل سؤالاً يحيرني: - ماذا استفدتم من رحلة عذابكم، وأحبابكم ومن أحبكم، يلاقون ما لا تتحمله الجبال من آلام ومأس في جميع بقاع الأرض؟ ..

وأعترف في النهاية، بأنني لا أنتظر جواباً، مع اعتقادي، بأنني لا أستحق ما ألمَّ بي، منذ ولادتي وحتى الرحيل)).

موشيه، ليكون عرضة للأهوال والضياع، فلا يضمكما صدر الأم، ولا حس الانتماء إلى أب يرعاكم، وأخيراً يا يتيم الأبوين، فأنت لم تر الأب، وحرمت حنان الأم، وتعرض أصحابك وأحفادك للقتل، واحداً بعد الآخر، فهل كنتم تستحقون ما جرى لكم ولهم؟ ..

آه.. يا أبناء غريبات المعابد. من آزر أو تارح. بائع التماثيل أو الجندي المرتزق عند ملك يبوس. لا فرق، فكلنا أبناء المحاريب، حتى الإسكندر المكدوني، ابن الآلهة المتوج بالقرنين، وكلنا تم رمينا في الحقول والأنهار والصحارى. الأمهات اغتصبن. خدرن. حملن، وكهنة المعابد ومردتها، يتابعون إهانة آدم وأولاده أحفاده، وما زالوا يفعلون، حتى هذه الأيام، فهل أستحق أنا. ابن القرنين: القرن العشرون والقرن التالي له، ما جرى لي وما سيجري؟

سأقص عليكم، يا رفاق الآلام، حكايتي، وسأعترف منذ البداية، بأنني أحببتكم جميعاً، مع أبي الهول وصحراء سيدي، وبيوس وجبل الطور، ومضيق جبل طارق، وبكة وما حولها، وأبي نواس وجحا، وحمورابي وأور وبابل، وتقماد وساحله وجباله، من دون أن أعرف لماذا أحببتكم.

-٢-

قدّسوا الأرض لأنها تحملكم وتطعمكم
وتؤويكم، في البدء والختام، وانظروا إلى
السماء حاضنة النور والبهاء، وهي ترسل لكم
الدفء والماء، فما بين السماء والأرض، هو
ملككم وحدكم، اغتصبت الكهوف والقصور
والمغاور، ووضعكم حراساً عليها، فحولتم
أنفسكم، وبرضاكم، إلى خدم وحشم. إلى
بغايا وسبايا، فهل أرادت السماء لكم هذا
المصير؟..

هذا هو السؤال، ولن أنتظر الجواب،
فأنا منكم. مثلكم، يا أخوتي وأخوتي، يا
أصدقائي وصديقاتي، وسترددون معي:
هل نستحق ما ألمّ بنا، منذ الولادة حتى
الرحيل؟..))

٢- رسالة إلى.. العبيد..

((أخوتي وأخواتي. صديقاتي
وأصدقائي. أخطبكم، وقد بلغت من الكبر
عتياً، ولم أعد أهتم بالعطور والقُدود، ولا
بالدراهم والنقود، ولا أطمح بما يخطط
له قادة الجنود، أو ما سعى إليه الجدود،
وسوف لن أدعوكم، إلى بناء أهرامات ومعابد
جديدة، أو قصور أو سدود، أو الخروج في
تظاهرات أو مسيرات حاشدة، ولن أتاجر
بأعضائكم من كلى وعيون وأفئدة، أو أبيعكم
الهواء والماء، والشعارات وأوراق الحظ
والتعاويد، ولن أعدكم بالخلاص والجنان،
وما يتاجر به من سبقونا.

كل ما أقوله لكم باختصار: نظفوا
قلوبكم وعيونكم وأقدامكم. أي أجسادكم
وأعماقكم، ولتكن معابدكم في مكان، تبصره
العيون، وترتاح فيه القلوب.





ضيف عزيز

* أحمد ناصر



- ١ -

سأكتبها بلا رتوش. سأترك لصديقي
«رامي»، المضيف، حرية السرد.
- ألو! أستاذ رامي، تفضل معك رئيس
مكتب وزير الزراعة!
- ألو! أهلاً - أهلاً أستاذ، كيف
الصحة؟.. مشتاقون.. طرطوس جميلة
أواخر الصيف، تعالوا..
- .. بدلاً مني سأرسل إليكم ضيفاً
عزيزاً من دولة شقيقة..
- أية شقيقة؟ فهن كثيرات!
- من السعودية. أرجو أن تعتنى به
وتهتم، فكما تعلم يحتاج الغريب إلى
رعاية..

* أديب سوري.

العمل الفني: الفنانة فتيحة صالح.

كما قلت سأكتفي بسرد موجز ليومين مميزين:

أ - يوم عمل رسمي-

نزلنا إلى المرفأ لمعاينة باخرة القمح. أنا وصديقي برهان في سيارة مديرية الزراعة، وعبد القادر مع زوجته - العروس بسيارته الخاصة.

كان رئيس مكتب الحجر الصحي قد هياً لنا الشاي وأحضر «صدرا» من التلاج الإروادي، تكريماً للضيف العزيز .. استقبلنا ببشاشة:

- قلنا سنعرّف ضيفنا الصديق بطبق شعبي تمتاز به طرطوس! -قال ذلك وهو يوزع الأطباق- لماذا لم تدع السيدة الكريمة؟
- لا بأس، يا صديقي، مكانها في السيارة أفضل!

- إذن، خذ هذه الصينية إلى السيدة! . توجه رئيس المكتب بقوله إلى الآذن، الذي همّ لتنفيذ الأمر..

- مالك يا أخي؟ هل جننت؟ - نهض عبد القادر هادراً وتناول الصينية من الآذن - ماذا تفعل؟

- عفواً يا صديقي.. عندنا الآذن يقوم بمهمة الخدمة.. عذراً، أرجوك!

تناول عبد القادر الصينية من بين يدي الآذن ونقلها إلى زوجته في السيارة، ثم قال بعد عودته، بهدوء وأدب:

- أي غريب يا رجل! سأرعاه برمش العين، فهم أشقاء خفيفو الظل ولا يؤذون الجيب!

- ها..ها.. ها! حبيبك المُخسّر عدو لعين، قد بنتم على حقيقتكم، أيها الطراطوسة!! برفقته زوجته الشابة، فإياك من إثارة غيرته..

-٢-

أمضى ضيفنا العزيز أسبوعاً كاملاً في ربوع المدينة، جاب الجبل والبحر .. أستطيع أن أسرد عليك ساعة كاملة ممتعة عن كل يوم من أيامه السبعة، لكنني سأكتفي بيومين لن أنساهما ما حييت، وأظن أنك لن تتساهما أنت، أيضاً، يا صديقي العزيز!

بدايةً لا بد من أن أعرفك عليه، فالشكل مرتبط بالمضمون.. كان الأستاذ عبد القادر طويلاً ممشوق القامة، أدعج العينين، مقرون الحاجبين، كث الشعر، ضيق الجبين.. حاولت التقرب منه، وهذا أبسط واجب عليّ، فمرفأ طرطوس مرفأ العرب، وهذا اسمه! وهو مكان عملنا مع ضيفنا العزيز..

منذ الساعات الأولى طرح قلابيته البيضاء وكوفيته وعقاله وارتدى لباساً عصرياً، كأنما أراد أن يماشينا بل حاول تقليد اللهجة الطرطوسية.. أمّا عروسه.. وأظنه كان في السنة الأولى من زواجه، فكانت تبدو لنا من بعيد، بهيكلها الأسود، طويلة هيفاء..

لكن، ويا للدهشة، ترك زوجته وانضم إلينا!

- ماذا سنطلب لك أيها الضيف العزيز؟
أتريد الكولا أم العصير؟ وعصير أي فاكهة تتريد؟

- وأنتم ماذا ستشربون؟
نحن.. نحن سنشرب عصير التفاح.
- ألا تشربون العرق؟ أم أن المنتزه لا يحوي العرق..

- المنتزه يقدم مختلف أنواع المشروبات..

- عصير العنب، أليس أفضل من عصير التفاح؟! ألن أجد بينكم نديما!

- نحن، الثلاثة، نشرب العرق. لكننا فكرنا.. -قلتُ متلعثما جراء شعوري بالذنب- لا تؤاخذنا، أرجوك، إن كنت تمزح وتريد الإيقاع بنا.. كاد عبد القادر ينقلب على قفاه من الضحك:

- عرق، فليكن العرق!
تطلع كلُّ منأ في وجه صاحبه مندهشاً، فتلقى زهولنا بمزيد من الضحك. وقد عب ضيفنا من العرق مقدار ما احتسيناه نحن الثلاثة مجتمعين.

- ٣ -

قدمت لكم القصة، فهل من الضروري أن أدبج خاتمة لها؟! سأكبح نفسي عن التعليق؛ حرصاً على جماليتها!

- فلنمض، يا أصدقائي، لنجري الكشف..

- تستطيع حرمكم المصون الانتقال إلى غرفتنا هذه، فهي أوسع وأوفر راحة، ريثما نعود!

قلت له ذلك بعد أن اتجهنا نحو الباخرة.

لم ينبس بأية كلمة. قفل السيارة من بعيد على زوجته...

ب. يوم الكفرون.

لم أبدأ دهشتي من سلوك الضيف العزيز، إرضاء لنفسي من جهة ولوزارة الزراعة من جهة أخرى..

- هل ترغب في قضاء أمسية لا تنسى في ربوع الكفرون - أجمل مصايف سورية؟

- يسرني ذلك أيها الصديق الكريم!..

- حين وصلنا المنتزه، تلفت الضيف يمناً ويسرى.

- عمَّ تبحث، أيها الصديق؟

- عن مكان خاص بالنسوة.

- عندنا منتزه مختلط - ثم أردفت بعد

أن فكرت قليلاً - نستطيع أن نطلب من إدارة

المنتزه طاولة منفردة منعزلة قليلاً..

- حسناً..

جلست العروس المسربلة بالسواد وحيدة،

ظهرها إلى الناس ووجهها باتجاه الحائط،

أمام طاولة تكفي لعشرة أنفار جائعين!..

ذكريات.. دمشق البرزخ...



نصر الدين البحرة



كنت حينذاك، وأنا في
السابعة عشرة أو الثامنة عشرة،
أنتمي إلى جيل عجيب، أستطيع
القول إنه مخضرم، ذاك أنه
كان متصلاً بأكثر من جيل:
الجيل الذي وضع قدماً في
أواخر القرن التاسع عشر وقدماً
أخرى في القرن العشرين،
وإليه ينتسب أبؤنا في الأغلب،
كان ذاك الجيل الذي عايش
أواخر الحقبة العثمانية وأيام

✽ أديب وباحك سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدري.

أمام متحف دمشق، وكنت قد كتبت قصة قصيرة حول سجنه ومحاكمته نشرتها في مجموعتي الأولى الصادرة عام ١٩٥٧م في دمشق بعنوان «هل تدمع العيون».

وشقيق زوجتي الأكبر هشام حمادة، وهو من الجيل نفسه، اعتقل أيضاً في المناسبة ذاتها -يا للمصادفة- لكنه أمضى زمناً أطول في السجن، لأنّ التهمة التي وجهها المدعي العام الفرنسي له .. كانت أكبر..

وجيلنا أدرك بعض الشيء أواخر عهد الاحتلال. وشارك على قدر استطاعته في التظاهرات التي قامت في النصف الأول من أربعينيات القرن الماضي، منادية بالجملة والاستقلال وإنشاء الجيش السوري.

في مدرسة أبي العلاء المعري:

أذكر أنني كنت في الصف الثالث الابتدائي سنة ١٩٤٣، في مدرسة «أبي العلاء المعري» في حي القيمرية القديم جداً في دمشق. يدعى أحياناً الهند الصغيرة لوفرة التجار بيّن سكانه. يوم شاركت مع تلاميذ المدرسة في التظاهرات ضد الفرنسيين، وكان معلمونا يشجعوننا على ذلك، وفي السنة التالية علمنا أستاذ الموسيقى شوكت الطرزي -وهو نفسه صار مدرس رياضيات في ما بعد- أناشيد وطنية، مازلت أحفظها مع ألحانها حتى الآن، من مثل «موطني»

الاتحاديين الطورانيين الذين أرادوا تترك الأمة العربية، على الرغم من أن تركيا عامة غارقة -وما تزال- في الثقافة العربية -الإسلامية، ويكاد أكثر من ربع مفردات لغتها أن يكون عربياً صرفاً.

لقد عاش جيلنا في صلب معمعة الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي أيضاً ودفع بعضه شيئاً من الثمن هو وأبناء الجيل السابق، وعلى سبيل المثال، فإن رجلاً من أسرتنا في حيننا وسط دمشق القديمة تماماً: «مئذنة الشحم» هو حمدي البحرة، كان من أبرز رجال جماعة «حسن الخراط» التي قادت النضال ضد الوجود الفرنسي في دمشق وغوطتها الشرقية أواخر سنة ١٩٢٥م، وأصيب خلال القتال إصابات عدة إحداها كانت في ساقه. وكاد يعلّق على حبل المشنقة، بعد اتهامه بـ«بلغم ونسف» «جسر المطير» قرب قرية المليحة، ليمنع القوات الفرنسية من عبوره وملاحقة الثوار المتوارين خلف الأشجار الكثيفة الملتفة هناك في الأزوار -واحدها يدعى: الزور- المترامية بين ذلك الجسر، وبين «جسرين» و«كفربطنا» و«عين ترما» وسواها .. مروراً بالقابون وبرزة وقرى الغوطة الأخرى .. حتى دوما ..

وأخي الأكبر الراحل مصطفى -المولود عام ١٩٢٣م- كان بين المعتقلين عام ١٩٤١م بتهمة الهجوم على أحد الضباط الفرنسيين،

طوال سنوات دراستي حتى تخرجي في دار المعلمين سنة ١٩٥٣م، إلا أنني اطلعت على أفكار الأحزاب الهامة في سورية كافة بدءاً بالسوريين القومييين الاجتماعيين، وقد تعاطفت معهم كثيراً إثر اغتيال - أو إعدام زعيمهم أنطون سعادة عام ١٩٤٩م، وهو الذي ما أزال أكن له الاحترام، ومررت بتجربة البعث من خلال صداقتي مع عدد من الزملاء البعثيين في دار المعلمين، وكان بينهم من أمسوا رجال دولة بعد استلام الحزب السلطة في سورية.

اختلفت مع هؤلاء الأصدقاء حول موضوع الاشتراكية، إذ إنه لم يكن واضحاً محدداً في ذلك الزمن، مثلما غدا الحال بعد المؤتمر القومي السادس عام ١٩٦٤م الذي تبنى الاشتراكية العلمية صراحة.

مراقبة الكتب.. حتى الروايات:

كانت الرقابة على الكتب المطبوعة والمستوردة يومذاك مشددة، وكان في إطار السلطة الزعيم - العميد فوزي سلو، وفي مضمونها العقيد أديب الشيشكلي الذي أضحى رئيس الدولة في السنة التالية ١٩٥٣م - والقلة القليلة من الكتب الماركسية المطبوعة في بيروت في دار القلم أو دار العلم للملايين أو دار الفارابي مثل كتاب ستالين «أسس اللينينية» وكتاب الدكتور جورج حنا «ضجة في صف الفلسفة»..

و«نحن الشباب» و«في سبيل المجد»... الخ.

مظاهرة الأولاد في المرجة:

ووصلت تظاهرتنا في أيار ١٩٤٥ حتى تخوم ساحة الشهداء «المرجة» وقابلتنا القوات الفرنسية - نحن الصغار - بالرصاص فتفرقنا، وبعد أيام في ٢٩ أيار، وقع العدوان الكبير على المجلس النيابي.. وشبّت الثورة التي شملت أنحاء سورية كافة، وانتهت بالجلاء.

في تلك السنة: ١٩٥٢ التي يتوقف الذهن أمام أوراقها، يريد أن يلم شمل الذكريات، وأن ينفذ غبار العمر المتراكم عليها، كانت اهتمامات معظم جيلنا موزعة بين أمور ثلاثة:

السياسة والمرأة والثقافة، ذاك أنّ الأحداث السياسية والعسكرية التي عايشناها قطرياً وقومياً، بما في ذلك الوجود الفرنسي ونكبة فلسطين وكوارث الانقلابات العسكرية التي تتالت على سورية منذ عام ١٩٤٩، جعلت من السياسة خبزنا اليومي، واندغم هذا الاهتمام بالهم الثقافي، حتى كاد الاثنان أن يكونا واحداً، لدى المحازبيين خاصة الشيوعيين والبعثيين.

مراقب التجارب السياسية:

ومع أنني لم أنتم رسمياً إلى أي حزب

الأسود، لاعتقال بعض الطلاب المشاركين في إحدى التظاهرات، ولكن بعض زملائنا نُقلوا إلى معهد حلب، وأتى إلينا زملاء جدد من حلب.. وربما كان هذا نوعاً من

المصالحة بين المدير وبين الشرطة:

في هذه الفترة أنشأ العقيد الشيشكلي حزباً سياسياً جديداً دعاه «حركة التحرير العربي» وقد أعلن عن قيامه، في مبنى كان قد أنشئ حديثاً، وبطل على ساحة في نهاية شارع بغداد، وقد أمسى المبنى مقر كلية الفنون الجميلة. قبل انتقالها إلى البرامكة. ودعت الساحة ولا تزال «ساحة التحرير».

في الطريق إلى القيمرية:

كان بيتنا حينذاك في حي «القيمرية» وكنت أستطيع أن أصل إليه، من مركز المدينة أي ساحة الشهداء، عبر أحد طريقين، الأول يمر من سوق الحميدية، فسوق القباقيبية المجاور للجامع الأموي. والثاني أسلكه عن طريق شارع بغداد فباب توما، وقد خطر لي هكذا، في ذلك اليوم، والساعة تقترب من الخامسة مساءً، أن أمر بهذا الطريق، صادفت هناك بعض الأصدقاء فأخبرني أن العقيد الشيشكلي غادر الشرفة قبل قليل، والتقيت أيضاً بواحد من أقرائي الأكبر عمراً وتجربة، وهو ليس منتمياً إلى أي حزب؛ لكن لديه نزوعات ديمقراطية ويسارية، وكنت أحب الإصغاء إلى أحاديثه التي تتراكم فيها تجارب السنين، قال لي:

كانت ممنوعة، حتى الأعمال الأدبية الروائية ذات الطابع اليساري كانت ممنوعة أيضاً مثل كتاب «الفولاذ سقيناه» لنيكولاي أوستروفسكي.

مع ذلك فإنني استطعت الاطلاع على الأفكار الرئيسية العامة في كتاب كارل ماركس «رأس المال» وخاصة نظريته في فضل القيمة، عبر قراءتي بعض كتب التاريخ المدرسية التي كانت تتقدمها، ولاسيما كتاب «تاريخ الحضارات» للأستاذين شاعر مصطفى وأنور الرفاعي، وكان الأول يدرسنا الجغرافية والتاريخ في دار المعلمين.

مظاهرات سنة ١٩٥٢م:

وبلغ تعاطفي مع الشيوعيين في المعهد أنني ساهمت في مؤامرة صغيرة -رغم أنني لست حزبياً- مؤداها أن نبكر في المجيء صباح اليوم التالي، للصق منشور.. في لوحة الإعلانات. كانت مهمتي عندئذ المراقبة.. خوف قدوم أحد من الإداريين أو الطلاب الآخرين.

يومذاك قامت تظاهرات شملت معظم المدن السورية ضد «الديكتاتور» الشيشكلي سار فيها الشيوعيون والبعثيون جنباً إلى جنب. وقد تناقلنا بيننا نحن الطلاب موقف مدير المعهد المعروف بمواقفه الوطنية منذ أيام الاحتلال الفرنسي الأستاذ بكري قدورة، إذ رفض دخول رجال الشرطة إلى المدرسة، وكان على رأسهم العقيد فؤاد

الاقتراع أم لم يفعلوا. وجاءه خبر يفيد أن السيد أحمد قنبر من حزب الشعب. المتهم بأنه يمثل الإقطاعيين سياسياً. في حلب.. لم ينتخبه.. ولم يفادر منزله. فأمر حسني الزعيم بأن يُؤتى به من منزله في حلب ليلاً، دون إعطائه فرصة ارتداء ثيابه الرسمية.

حلب «قنبر» بالبيجاما من حلب:

وجاءت بأحمد قنبر سيارة «جيب» عسكرية مسرعة، وصلت بعد منتصف الليل إلى مقر إقامة الزعيم حسني، وأدخل الرجل عليه، فتأمله في غيظ وكراهية واحتقار ملياً، ونقل نظراته إليه من أعلى إلى أسفل وبالعكس، ثم قال: «يعني إن انتخبتي.. وإن ما انتخبتي.. إي (ط...).. انقلع..».

وسأله أحمد قنبر: أمن أجل هذه الشتيمة جئت بي من حلب؟! أما كان في الإمكان إرسالها في التلفون؟؟

ودون أن ينظر إليه حسني الزعيم عاد يردد: انقلع... أو بحطك في المزة..

المرة الثانية التي عذب فيها السجناء السياسيون، في تاريخ سورية بعد الاستقلال والجلاء، كانت في هذه السنة أيضاً ١٩٥٢، فيما الشيشكلي يأخذ عدته للتخلص من خصومه السياسيين، وقد تمثلوا بحزب البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي، كأنه كان يتصور أن

تصور أنهم يريدون إجبار الموظفين جميعاً على الانتساب إلى حركة التحرير. وأضاف ضاحكاً متهكماً مشيراً إلى معلم من عائلتنا انتهازي: صاحبنا جاهز للانتساب.. وربما بادر إلى تقديم الطلب..

بين سجنى المزة.. وتدمر:

في تلك الأيام كانت دمشق تتناقل أخبار الاعتقالات بين البعثيين والشيوعيين، وهي التي أمر بها العقيد بالطبع، وقد أبقى بعض المعتقلين في سجن المزة العسكري، وسيق آخرون إلى سجن تدمر. وبعد سنوات غير كثيرة تعرفت إلى عدد من هؤلاء المعتقلين من كلا الحزبين، وقد وصل بعضهم من البعثيين إلى مناصب عليا.

تحدثت دمشق أيضاً للمرة الثانية عن تعذيب السجناء السياسيين، المرة الأولى كانت أيام الزعيم «العميد» حسني الزعيم الذي لم يعمّر انقلابه ورئاسته الدولة سوى ستة أشهر وبضعة أيام، وكان الناس يروون عن «حركاته» قصصاً في منتهى الطرافة. منها مثلاً أنه حين رشح نفسه لرئاسة الدولة، كلف رجال عسسه من جماعة «المكتب الثاني» كما كانت تدعى المخبرات العسكرية، بأن يراقبوا خصومه الكبار في المدن السورية وخاصة دمشق وحلب، ويخبروه إن كانوا قد أقبلوا على صناديق

وبالنظرة العجلى، وبالحوّل تنقضي
أواخره، لا نلتقي وأوائله
 بلى.. كانت لقاءات نادرة . كيف؟!

في زقاق الحمراء:

كان ثمة زقاق يبعد أمتاراً معدودة عن مدرستها «مكتب عنبر» يدعى «زقاق الحمراء» لا يتجاوز طوله أمتاراً معدودة أيضاً، وأحد جداريه هو أحد جدران قصر العظم أيضاً، وجاء من يسميه تلك الأيام: زقاق العشاق. وقد كنا نغتم فرصة قصر النهار التي يوفرها فصل الشتاء، فتعتم الدنيا بعيد الساعة الرابعة بعد الظهر، ويهبط الليل سريعاً، فلا تعود العين في تلك الغبشة تميز جيداً أحداً من أحد.. وفي هذه الأثناء يسعدني أنني أسير معها لدقيقة أو ثلاث.. وربما أمسكت يدها.. وربما قلت كلمتين ملهوجتين.

الطواف.. حول بيت الحبيبة:

في ما عدا ذلك، كانت الرسائل المتبادلة، هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على حرارة هذه العلاقة العذرية حقاً، بكل ما في الكلمة من معنى، وكانت إحدى قريباتي زميلتها في المدرسة تقوم بدور الرسول بيننا .
 في عطلة الصيف كنت أحرم من رؤيتها تماماً، فماذا كنت أصنع؟ أذهب إلى الحي الذي يقع فيه بيتها «باب الجابية»، فأطوف حول الزقاق الذي يضم باب الدار، ومن

حزباً من الانتهازيين والمرترقة، مثل حزبه «حركة التحرير العربي» يقدر أن يملأ حياة سورية السياسية.

ذكريات الحب الأول:

تعود إلى الروح والقلب الآن حرارة ذلك الزمن البعيد، وكأن كل شيء كان بالأمس القريب، وليست سنوات كثيرة تتوف على الخمسين تفصل ما بيننا .

يا الله، كأنها هي نفسها بمنديلها الفستقي اللطيف، قادمة تتهادى من بيتها في باب الجابية، سالكة الطريق الطويل في شارع مدحت باشا -الشارع المستقيم نفسه- نحو مدرستها في مكتب عنبر، وأنا في انتظارها أتمشى في هدوء بالاتجاه المعاكس، كل ما أبعيه نظرة خاطفة عجلى، تختزل حلماً أحلم به في الليل والنهار، وتكفي لأن تجعل قلبي يخفق في قوة... خفقاناً أخشى أن يسمعه الآخرون.

كأنني أراها قادمة في الطريق نفسه، في حراسة خالها، بعد أن بلغ أسرتها نبأ علاقتها بي، فإذا هو يوصلها حتى باب مدرستها، ليعود معها إلى البيت وقت الانصراف.

وما الذي كان بيننا؟ إنه شيء يشبه ما كان بين جميل وبثينة «لو أبصره الواشي لقرت بلابله»:

بلا، وبالأستطيع، وبالمنى

وبالأمل المرجو، قد خاب أمله

مدرساً خرجته الجامعة قبل زمان يكفي أن يعد للزواج عدة حسنة.

من كانت هي العانس؟!

وكان الناس يعدّون الفتاة التي جاوزت ربيعها الثامن عشر من دون زواج عانساً، وهناك من ينزل سنتين آخرين.. أو أكثر.. وكثيرات أولئك اللواتي تزوجن بعد البلوغ مباشرة، وكانت جدتي رحمها الله قد ذكرت أنها زفت إلى جدي لأمي وهي في سنتها الحادية عشرة!!.. كانت مخطوبة حبيبتي إذاً، يوم التقيت بها، في حضور زميلتها قريبتني، وكان اللقاء للوداع، على أن المفاجأة كانت بعد أيام، فقد وصلتني إلى المنزل رسالة منها ما أزال محتفظاً بها مع رسائلها جميعاً، تطلب فيها أن أودع هذه الرسائل كلها مع صورتها، في منزل صديقتها - رسول الحب بيننا. وكان في الرسالة إلحاح عجيب على هذا الأمر.

«وثائق» تقدم إلى الخطيب:

ما القصة؟

كان بعض الشبان العابثين في ذلك العهد، يعولون على الانتقام من حبيباتهم اللاتي تركنهم وأمسين مخطوبات لآخرين، وهكذا فإنهم كانوا يقدمون لهم رسائلهن إليهم.. ومعها كل ما يمكن من الوثائق التي تؤكد علاقة الحب التي كانت قائمة، فإذا كان الخطيب أحقق لا ثقة له بنفسه وبخطيبته.. فسح الخطوبة.

فوقه شباكان، أقول في نفسي: لعلها تطل.. فأراها، لكنها ما أطلت.. مرة، على أنني صادفتها مرة أو اثنتين عائدة إلى المنزل، في صحبة بعض أهلها.. عند مشارف الحي. فعدت إلى المنزل أطير فرحاً. بلى لقد رميتي بنظرة فيها كل حنان الأرض.. وابتسمت. عيناها كانتا تبتسمان أيضاً.

.. بلى، لقد لقيتها في منزل قريبتني هذه تلك السنة ١٩٥٢م مرتين، وكانت هذه تقيم مع أختها الموظفة، بعيداً عن منزل أبيها... وزوجته التي هي غير أمها، وكان وراء اللقاءين سر، فقد أمست حبيبتي مخطوبة، وإذاً، فإن الرقابة خفضت عنها، وصار في إمكانها التحرك في شيء من الحرية..

منافسة العشاق.. المستحيلة:

لم أتمكن من منافسة الخاطب أو الخطيب العتيد، لأنني كنت ما أزال طالب مدرسة، وليس عندي منزل مؤثث أو غير مؤثث، وما لي مرتّب أنفق منه على البيت والزوجة، وليس موفوراً بين يدي ذلك اليوم.. ولا.. في غده. صداق الحبيبة.

وما كنت وحدي في هذه الحال، ذاك أن معظم أبناء جيلي كانوا كذلك، ولهذا فإن أحداً منهم لم يتزوج ممن يجب. سرعان ما كان يأتي من يخطف الحبيبة، لا سيما تلك التي هي على شيء من الجمال والحسن، وقد يكون هذا الرجل تاجراً ميسوراً، وقد يكون موظفاً أمضى سنوات في عمله، أو

أسرة مجلة «الشعلة»:

وأعود إلى بضعة الأعداد من مجلة «الشعلة» التي أصدرناها في تلك السنة ١٩٥٢، نحن الأصحاب المتحمسين للأدب والنشر، لاستعيد تلك الصورة العجيبة الجميلة، كان معنا الراحل عادل أبو شنب الكاتب والصحفي المعروف، والراحل منذر النفوري مخرج التلفزيون في المملكة العربية السعودية، وصلاح الدين القدومي الذي غادرنا قبل أن يتمكن من أن يصنع شيئاً، والراحل الآخر بشير بوارشي الصحفي الذي كان مقيماً في الكويت، والذي كان أكثرنا يسراً فأنفق على المجلة التي صدرت من دون امتياز.. لكن كملحق لصحيفة «العمال» التي كانت تصدر عن اتحاد العمال ومركزه حيّ القنوات في دمشق وكان رئيس تحريرها صبحي الخطيب.

إن معظم الذين تحدثت عن بداياتهم راسلونا وبعثوا قصصهم ومقالاتهم إلى هذه المجلة، وأمامي أكثر من صفحتين للبريد الذي دُكرت فيه أسماءهم، وصفحات أخرى نشر فيها نتاجهم فكم كنا.. وكانوا متحمسين للكتابة والأدب، وكم كان المستقبل واعداً، وكم كانت الآمال المعقودة عليه كبيرة!

مع عصام حماد.. و«ركن الطلبة»:

عدت لا أذكر الآن كيف ذهبت للمرة الأولى إلى الإذاعة حينذاك، ولكني أتذكر جيداً صاحب ذلك الوجه الوسيم والصوت

هذا ما كانت تخشاه الحبيبة إذلاً وعلى الرغم من أن هذا الخاطر الشرير لم يطف في بالي، فإنني لم أعد رسائلها، وبقيت معي، أرجع إليها بين وقت وآخر، فأتذكر زماناً عجيباً مضى، وأتذكر نفسي وأتذكرها، وأتذكر طريقها من باب الجابية، عبر مدحة باشا، إلى مكتب عنبر، والخال بطربوشه القصير وعينه الضيفتين شبه المغضتين، وهو يرافقها تحت المطر ذهاباً وإياباً، أتذكر منديلها الفستقي، ونظرتها الجميلة الدافئة، ومشيتها المتهادية في دل وخفر، أرى نفسي معها في زقاق الحمراءي، أراني وحدي أطوف في الصيف حول بيتها كأنه كعبة..

بدء الصلة بالأدب والإعلام:

في تلك السنة بدأت صلتني بالإذاعة والصحافة، وتعززت علاقتي بالأدب والقصة والشعر، وبدأت أشعر أن الأمر ليس هواية أو شيئاً عابراً، أتذكر الآن أسماء كثيرة من الفتيان والشبان الذين عرفتهم من خلال محاولاتهم الأدبية، فأرى أن أكثرهم ابتعدوا عن الساحة، ووجدوا لأنفسهم أعمالاً في مهن أخرى أكثر جدوى من الأدب الذي لا يطعم خبزاً، كما كان. وربما لا يزال. شائعاً بين الناس العمليين أو البراغماتيين، هؤلاء الذين يقدرّون قيم الأشياء، من خلال جدواها المادية ومردودها المالي.

١٩٣٠ الفنان المصور الضوئي وصفي المالح، على أن تضم نشاطاته الفنية كافة: الرسم الزيتي ويمثله بين أعضائه المصور الزيتي السوري الراحل توفيق طارق.. والموسيقا وكان من ممثليها الموسيقيان المعروفان توفيق الصباغ ومصطفى الصواف، والتمثيل وكان رئيس فرعه في النادي توفيق العطري، خال الممثل المعروف نهاد قلعي، وبين الأعمال التمثيلية التي شاركت في تسجيلها تلك السنة مسرحية الشاعر عزيز أباطة «العباسة» وهي التي تروي حكاية نكبة البرامكة، وقد تبني الشاعر النظرية القائلة إن وراء النكبة قصة غرام بين العباسية شقيقة الرشيد، وبين وزيره جعفر البرمكي غضب الخليفة هارون الرشيد أيما غضب حين علم بها.

في نادي الفنون الجميلة:

كنا نجري التمرينات في إحدى غرف النادي -وهو منزل وصفي المالح الذي أمضى حياته راهباً في محراب الفن- من دون زواج- فأشعر برهبة وتهيب كبيرين، وأنا أرى نفسي صغيراً جداً بين أولئك الكبار الأساتذة توفيق العطري وأكرم خلقي ووصفي المالح، كان ثمة شاب وشابة، لكنهما كانا من رؤاد النادي غير الطارئین مثلي: ياسر المالح الكاتب المعروف وكروان المطربة المشهورة الراحلة.

.في الآن ذاته كنت أمارس هذه الهواية

الرخيم الشاعر الفلسطيني عصام حماد، وكان يقدم برنامجاً إذاعياً أسبوعياً اسمه «ركن الطلبة»، فتواعد في دار الإذاعة القديمة في شارع النصر، وترتقي الدرج إلى الطابق الثاني فتلقتني بمعد البرنامج ومقدمه ونعرض عليه ما في جعبتنا، فيغربل وينخل ويجري لنا بعض الاختبارات والتمارين، ثم يقودنا إلى استوديو الإذاعة الكبير، حيث يتدلى المايكروفون من السقف، ويشعل ضوء أحمر فنصمت، ثم ينطفئ ويضيء الأخضر فتأخذ راحتنا.. وكان الضوء الأحمر يعني أن يتقدم صاحب الدور ليقدم مادته. وكنت أنا وقتها متخصصاً في تقديم التمثيليات التاريخية، أذكر منها «يوم ذي قار» و«وقعة القادسية» فكانت الممثل والمخرج والمعد، ومعني نفر من أصحابي الطلاب الثانويين أدربهم على أدوارهم في منزلنا بالقيصرية.

أعلام الإذاعة عام ١٩٥٢:

في هذه الأثناء أسعدني الحظ بالتعرف على كبير مذييعي سورية، صاحب الصوت الجميل الذي يمس شغاف القلب -تقلب بعد ذلك في مناصب عليا متعددة- الأستاذ يحيى الشهابي والراحلين الآخرين: الشاعر الفلسطيني حسن البحيري والكاتب نسيب الاختيار..

وشاركت أيضاً في بعض أعمال «نادي الفنون الجميلة» الذي أنشأه في منزله عام

ويتبع الثاني السنة التالية، وبين هاتين السنتين: ١٩٥٢ - ١٩٥٣، كنت قد وصلت إلى الصف الثالث المنتهي في معهد دار المعلمين، ويجيء في الترتيب الدراسي حينذاك، فوق شهادة الدراسة الثانوية «البكالوريا» بسنة واحدة، ذاك أن هذه الشهادة كانت تستغرق سنتين فحسب في ذلك العهد...

كان بين أعز الأصدقاء في ذلك الزمن، زميلي في مقعد الدراسة ممدوح حمدي «أباطة»، وكنت أتجول وإياه بين البساتين التي يطل عليها معهدنا. حالياً: شارع المهدي بن بركة أمام القيادة القطرية بدمشق. وهي نفسها التي عاش فيها المعلم الثاني الفيلسوف العربي- الإسلامي الكبير أبو نصر الفارابي ٢٦٠ - ٣٣٩هـ - ٨٧٤ - ٩٥٠م يوم كان في دمشق فنتحدث في مختلف شؤون الحياة والسياسة وآمال المستقبل، وكان يتقن اللغة التركية مثل كثيرين من الشراكسة، ويتقن أداء الأغاني التركية بصوته الرخيم ذي النبرة الرجولية. وما تزال في الذاكرة أغنية «تشنا قلعة» بكلماتها.. كما كان يغنيها رحمه الله.

في الطريق إلى الكلية الجوية:

اتفقنا يومذاك أن ندخل معاً الكلية الجوية، وقد فعل هو ووصل إلى رتبة لواء طيار، وهذه كانت رتبته عندما استشهد أمام

مسرحياً في معهدنا «دار المعلمين»، فإن أحد الطلاب القدامي. وهو أيضاً من تلاميذ الرائد المسرحي السوري عبد الوهاب أبو السعود. شكّل من طلاب المعهد فرقة مسرحية تحمل اسم أبي السعود، وكان هذا هو عدنان السوري مخرج الفرقة أيضاً، وكان من المقرر في السنة التالية ١٩٥٣م أن يحضر العقيد أديب الشيشكلي الذي غدا رئيس الجمهورية، أحد عروض فرقنا.. لكن أمراً ما منعه من ذلك.

في فرقة عبد الوهاب أبو السعود:

أما التمثيليات التي شاركت في أدوارها، فهي جميعاً مسرحيات من تأليف عبد الوهاب أبو السعود، ومعظمها من فصل واحد مثل «فندق أبو شالوح» و«عنترة وفتى العصر» و«أرقم في جهنم». المسرحية الوحيدة ذات الثلاثة فصول، ودرّة أعمال الفرقة، هي «وامعتصماه» وكان عمادها نخوة المعتصم، عندما بلغته استغاثة تلك السيدة الهاشمية من الغزاة الروم صائحة: وامعتصماه، فجيّش الجيوش وانطلق ليؤدب الروم في المعارك المشهورة التي خلدتها أبو تمام، وهي من تأليف عبد الوهاب أبو السعود، وقد نشرت كتاباً.

مع ممدوح أباطة في دار المعلمين:

كانت السنة الدراسية -وما زالت- تتوزع بين نصفين، يقع الأول في السنة السالفة،

بعد رحيل الشيشكلي...
كان ارتباطي بالصحافة والأدب قد أضحى إذاً قضية في منتهى الجدية، فبدأت صلاتي بصحف دمشق اليومية، وفي الآن ذاته، كانت التجمعات الثقافية والأدبية الطلابية كثيرة في دمشق -على الرغم من النظام الديكتاتوري- إلى درجة أن أحد هذه التجمعات دعا القاص المصري الكبير محمود تيمور إلى زيارة دمشق -على نفقته بالطبع (!)- وقد لبى «تيمور» هذه الدعوة.

«العمال» و«النضال» و«الرقيب»:

نشرت مقالاتي الأولى في صحيفة «العمال» التي كان يرأس تحريرها النقابي صبحي الخطيب، و«الصرخة» التي يصدرها ويرأس تحريرها أحمد علوش و«النضال» التي يرأس تحريرها الدكتور سامي كبارة، وهو بين قلة من صحفيي سورية، كانت جريدته تباع حياً في قراءة الافتتاحية التي كان يكتبها في الأربيعينات خاصة.. إلخ.

أمّا قصصي والأشعار العمودية التي كنت أكتبها فقد كنت أنشرها في مجلة «الرقيب» الأسبوعية. في الواقع فإن صاحب هذه المجلة ورئيس تحريرها الأستاذ عثمان شحورر تعاطف معي وعاملني معاملة خاصة حين عرف أنني ابن «سعيد البحرة» ذاك أنه عمل معي في صحيفة «الجزيرة» يوم كان أبي قد اشترى امتيازها ورأس تحريرها في بعض ثلاثينيات القرن الماضي، وعرفت في

مبنى أمرية القوى الجوية، نتيجة انفجار سيارة مفخخة دبره «الإخوان المسلمون» عام ١٩٨٢م، ومن المفارقات العجيبة أن مبنى الأمرية هذا يقع لصق معهدنا ذلك الذي بات مقراً للقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي.

وقفت أسأل نفسي: ماذا أريد من زمني؟ هل يمكن أن ينتهي طموحي ضابطاً عسكرياً تلمع النجوم على كتفيه، أو معلم مدرسة يمضي عمره بين السبورة والطباشير وبين مقاعد التلاميذ، أو صحفياً يشتغل في هذه الصحيفة أو تلك، أو كاتباً قاصاً شاعراً يدع الدنيا كلها، بما فيها من إغراءات ومنافع عاجلة سريعة الجنى وراء ظهره، لينصرف إلى الإبداع والأدب؟

وكان قرارني حاسماً: أن يكون التعليم مهنة أستعين بها على العيش، وتساعدني في الانصراف إلى قلبي وأوراقتي.

لماذا.. أثرت البقاء معلماً:

وربما كان بين ما منعتني من الانخراط في السلك العسكري، أنه لم يكن مسموحاً للعسكريين منذ أيام الشيشكلي حتى عام ١٩٦٣م الاشتغال في السياسة أو الأدب.

بل إن هذا الراحل جعل حتى الانتساب إلى الجامعة السورية محظوراً على قطاع واسع من الشعب، هو فئات الموظفين، ولذلك فإنني تأخرت بعد تخرجي من المعهد في الانتساب إلى الجامعة إلى ما

تماماً، أمّا الثالث فإن آخر عهدي به قبل سنوات بعيدة، أنه ترك التعليم وعمل في الأمن العام.

أمّا الطلاب الآخرون الذين نشرنا مواد ذكرت مع أسمائهم في فهرست المجلة، فقد كان بينهم من غدا كاتباً معروفاً مثل عبد اللطيف الأرنؤوط، ومنهم من بدل مهنته تبديلاً فأمسى مهندساً مدنياً مثل الراحل الدكتور أحمد الغفري، لكنه عاد مؤخراً إلى الكتابة من باب آخر، فقد كان في فترة رئيس تحرير جريدة للحزب الشيوعي تدعى «نضال الشعب». جناح يوسف فيصل، وبينهم من كان شاعراً موهوباً مثل شوقي جلول، لكنه لم يصمد أمام ضغوط الحياة فابتعد عن الساحة.

وهناك بين الزملاء القدامى من أصبح ضابطاً في الجيش السوري، ثم أنهى خدمته متقاعداً، وعاد إلى الكتابة من جديد، مثل: عبد الوهاب المدور وهاني الصوفي، وثمة بين هؤلاء الكتاب، من ارتقى حتى وصل إلى مناصب عليا في الدولة رئيساً لمجلس الوزراء ورئيساً لمجلس الشعب كالصديق العزيز محمد علي الحلبي.

أساتذتنا في دار المعلمين:

أمّا أساتذتنا الذين وردت أسماءهم في فهرست هذه المجلة، فإن فيهم مدرسين جاؤوا معارين من مصر الشقيقة مثل صفي الدين العزاوي -أستاذ الزراعة، وتوفيق

هذه الأثناء أن بعض مشاهير الصحفيين والكتاب في دمشق عملوا في تلك الجريدة مثل نشأت النغليبي وسعيد الجزائري، والدكتور كاظم الداغستاني وصلاح الدين المحاييري.. الخ.

لماذا توقفت جريدة «الجزيرة»:

كانت «الجزيرة» لسان حال «حزب الشعب» المعارض الذي يرأسه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وكان والدي صديق الشهبندر ومن حزبه حتى حين صار محازبوه يدعون «الشهبندريين». غير أن جماعة «الكتلة الوطنية» الذين صار اسمهم بعد ذلك «الحزب الوطني»، حاربوا «الجزيرة» حتى أوصلوها إلى درجة الإفلاس والتوقف.

نشطت تلك السنة أيضاً في النشر في مجلة المعهد التي كانت تصدر مرتين في السنة باسم «صوت دار المعلمين» وبين يدي الآن عددان صدرا ذلك العام: ١٩٥٢-١٩٥٣م، أحب أن أقف عندهما قليلاً.

أسماء في مجلة دار المعلمين:

لقد نشرت في الصفحة الثانية من المجلة أسماء أعضاء هيئة التحرير وهم ثلاثة من طلاب المعهد، استقالوا في ما بعد نهائياً من الكتابة والصحافة والنشر، أحدهم أمضى حياته معلماً وهو الآن متقاعد، والثاني نسيت حتى شكل وجهه

فماذا يمنع أن أتكتب، لأعيش حياة صحيحة سليمة تماماً؟ لكن.. تراني أستطيع ذلك. هل أقدر أن أعيش بلا أغلاط وأخطاء؟ ألا يخطئ العقل؟ ولو افترضنا أن العقل لا يخطئ إن أخطأ القلب، أفلا يعني ذلك أن يعيش الإنسان أشبه بكائن آلي مبرمج؟ وإذا كانت الحرية هي في جوهرها قدرة على الاختيار كما يرى جان بول سارتر.. فهل يقدر الإنسان أن يختار دائماً؟! أو لا يبدو محكوماً في بعض الأحيان بنوع من القسر أو الجبرية Determination لا قبل له في مواجهته.. أو زحزحته؟!؟

«هل عرفت نفسي بنفسي؟»

لقد نقش الإغريق على باب معبد دلفي حكمة تقول «اعرف نفسك بنفسك» فهل تراني عرفت بعد هذه الأعوام نفسي، وأنا الآن في السابعة والسبعين من سنوات العمر؟

كانت جدتي أم رشيد رحمها الله تقول: «يا ولد! ابن آدم مفلطح على الخطأ» وفي الحقيقة، فإنني أدرك الآن مغزى كلماتها، ذلك أن السنوات الماضية كانت كفيلاً أن تضع يدي على جدلية الصواب والخطأ، ومن أجل هذا فإنني أقول في صدق: لو خيرت لما اخترت لنفسني حياة ثانية غير التي تلت وعشتها بما فيها من صواب وخطأ، من حب ومن دون حب- ولا أقول: كراهية-، فكم أحب أن أكون حقيقياً.

الحديدي أستاذ التربية.. ويوسف خليفة أستاذ اللغة الإنكليزية.

وبين السوريين حقي المحتسب أستاذ اللغة العربية الكبير الذي انتقل إلى التدريس في الجامعة السورية، ثم قضى نحبه منتحراً في ظروف غامضة، وراتب الحسامي، رئيس تحرير أول جريدة سورية صدرت في عهد الوحدة بين سورية وبين مصر هي «الوحدة» وكان عضواً في حزب الشعب وممثلاً عنه في البرلمان السوري.

وبكري قدورة الذي سبق الحسامي في إدارة المعهد، وكان يهوى تدريس التاريخ، والدكتور عابدين حمادة مدرس التاريخ، وشاكر مصطفى. ولم يكن دكتوراً بعد. مدرس الجغرافيا والتاريخ، والفنان الكبير محمود جلال مدرس الرسم، والأديب الأردني محمد سليم رشدان، مدرس اللغة العربية.

ثم ماذا بعد؟

لقد كانت تلك الفترة هامة جداً وحاسمة إلى أقصى حد في حياتي، تحددت فيها ملامح المستقبل الذي كنت أنتظره أو ينتظرني، فلو قدر لي أن اختارها -حياتي- من جديد، فهل كنت أعيدها مثلما كانت؟

هل يمكن العيش من دون خطأ؟

خطر لي يوماً أن أقول: لا، لن أعيد حياتي سيرتها الأولى مرة ثانية، فما دامت أمامي فرصة للإفادة من دروس الخطأ والصواب، مما تعرضت إليه في ما بعد،

الإعلام.. مصنع الكلام إشارة من التاريخ!



د. بغداد عبد المنعم

على الإطلاق.. فماذا لوضاق هذا الموضوع
وأصبح بحثاً عن أدب إعلامي؟؟

الإعلام مصنع هائل لتصدير أنماط

الكلام

لغة العربية محيطها الشاسع.. هي
تجل تام من الوجود العربي الكبير في
مركز العالم الجيوبوليتيكي.. تحوط اللغات
هذا الوجود من كل جانب، لكنها هي اللغة
المحفوظة مثلما القرآن.. هي اللغة الباقية
بعنفواناتها وتطوراتها.. هي اللغة التي غاص
فيها امرؤ القيس حتى انسأب في صدقات

لم تكن اللغة العربية مجرد حامل معنوي أو
كائن وظيفي، بل بقيت نواة الكتلة الحضارية
العربية دوماً.. وبحضورها الجمالي الأدبي
وخصوصاً الشعري كانت إعلاماً أيضاً..
وكانت إعلاماً سياسياً، وبظهور الإسلام حمل
القرآن العظيم سراً عربياً عزيزاً وفائقاً هو
(اللغة المعجزة).. وما زالت محمولة..

وباعتبار أن اللغة في الإعلام مكتوبة أو
مسموعة ومُشاهدة هي أم الوسائل الإعلامية
أو هي دم الإعلام.. فإن موضوع (اللغة في
الإعلام) عربياً يغدو موضوعاً غير عادي

❁ أدبية وبامئة في التراث العربي.

وظائف تحرر العلاقة بينها وبين الإعلام مثل الوظيفة التنظيمية (Regulatory Function) فمن خلال اللغة يمكن التحكم بسلوك الآخرين.. فاللغة لها وظيفة (الفعل) أو التوجيه العملي المباشر.. ومنها الوظيفة التفاعلية Interpersonal Function فاللغة تخلق وترتقي بالتفاعل.. ومنها الوظيفة الإخبارية Informative Function وهي وظيفة شاسعة وعميقة الأهمية في اللغة إذ تستغرق زمنياً بعداً تاريخياً وتأثيراً يمتد من التاريخ إلى المستقبل.. وبذلك نستدل ونستشف أن الإعلام أمسى مَصْنَعاً هائلاً ومباشراً لتصدير أو تعديل الأشكال الكلامية مثل النطق والتراكيب اللغوية و استحداث أنساق ومصطلحات جديدة.

النصوص السياسية والإعلامية.. لا

أدبية

تكاثرت الكتابات السياسية العربية بدءاً من فاتحة القرن العشرين، فظهرت بشكلها الورقي (كتباً وأبحاثاً والأكثر منها مقالات صحفية) وبشكلها الإذاعي ثم التلفزيوني، فكانت نسبة الظهور الإعلامي من هذه الكتابات نسبة كبيرة، ومع ذلك فلا نكاد نلمس في كتابه واحدة أديباً وسياسة معاً. فالكتاب السياسيون هم عادة لا أدبيون، فهم غالباً ما يكتبون بلغة (عملية) أو لغة وسيلية تقفز إلى هدفها عشوائياً، القصد منها إيصال معنى فوق دروب معلبة وجاهزة من دون أن يكون

اللآلئ وسجلها نبيلةً وباقية.. وهي اللغة التي حَلَقَتْ بمستويات الحس الإنساني المتداخلة والمتجادلة في أعلى رمزياتها الحداثية في ذروات وثقة من الشعر العربي الحديث، وهي لغة البناءات الجديدة لقصاصين وروائيين عرب يعبرون إلى القرن الحادي والعشرين..

العالم كله يبحث عن محاور يلتقي عليها ولو كانت صناعية أو مالية أو ثرواتية.. ولعل هذا المحور هو محورنا الأوحده الباقي بجلاء ووضوح.. وهو ليس محوراً عربياً صلباً فقط بل محور إسلامي أهميته ليس لها حدود.. خاصةً وحداثياً حين يخرج من قمم المعجز لينتشر في القنوات الإعلامية المتنوعة.

فهل نخطط لصنع وتقديم أنماط جديدة وحداثية للغة عربية إعلامية ناضجة ومؤثرة.. وراقية تتعد عن القوالب الأسلوبية المتكررة والتي أضحت مبتذلة من كثرة التكرار والدوام..؟

لم لا نستخرج المواهب اللغوية (الأدبية) الإعلامية في الأشكال كافة: الكتابية التحليلية والإخبارية والريبورتاجية.. فالخطاب الإعلامي لا يحتمل التطوير فقط، بل التنويع واستحداث أنماط إعلامية جديدة في استناد قوي إلى العربية الفصحى.

ففي الدراسات الغربية اللغوية الحديثة تم تحديد وظائف رئيسية ل اللغة، منها بضعة

العربية القديمة تقريباً.. وأعتقد في كل نص حضاري مستمر ومؤثر في كل العالم.
فحسب المصطلحات الأدبية الغربية المعاصرة.. يُعدُّ الأدب لغة ما، أي نظام علامات، ولا تتمثل كينونته في نظر (بارث) في هذه اللغة بل في نظامه الخاص.. وكأنما حمل الزمنُ الجديد بتعريفات حديثة واقتصادية للأدب فهو سواء كان موضوعات أو قواعد أو تقنيات أو أعمال فإنَّ وظيفته في الاقتصاد العام للمجتمع الحديث (الرأسمالي) هي تطبيع الذاتية.. بينما يرى ريكاردو أنَّ (الأدب) هو ما يجعلنا نرى العالمَ أحسن.. والأدب يظهر بانثاق مفهوم الكتابة كقوة نظرية لحالة تحويلية رمزية تجذب نحو الخارج..

محاولاتٌ حديثة لتجسيد مصطلح الأدب بأثواب جديدة.. وقبل ذلك بأزمان وفي زمن التأريخ العربي للحالة العربية التي كانت قد صعدت صعودها الحضاري الكبير.. يُسجل ابن منظور المصري معاني الأدب في معجمه الأشهر (لسان العرب) «الأدب: الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدباً لأنه يادبُ الناسَ إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدعاء.. ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس: مدعاة ومأدبة.. الأدب أدب النفس والدرس.. والأدب: الظرف وحسن التناول. وأدبَ فهو أديب. من قوم أدباء.. وأدبَهُ فتأدب: علمَهُ».

هذا المعنى (الخبر - التحليل - التغطية - المقال - الفكر - الأيدولوجيا..) قد مرَّ بتفاعلاته الغنية مع اللغة والمحيط والظرف الواقع، وكذلك مع العمق الحضاري المرتبط به حتماً.

من هذه التدايمات الإعلامية العربية نلتفتُ بزوايا كبيرة نحو الإعلام العربي المعاصر الذي بات يوماً فقط ونمطياً ومأخوذاً من أنماط إعلامية مستوردة.. ولا شك أنَّ استحاثة محاولات باتجاه خلق الأدب في الكتابة السياسية - وأعتقد أنَّ الكتابة السياسية في الوقت الحاضر تتماهى شيئاً فشيئاً في العملية الإعلامية - تحتاج إلى التعمق أكثر في هذه الكتابة وإلى استخراج الأسلوبيات والطرائق فقد بات الإعلام يهتم بـ (اليوميّات السياسية) مبتعداً إلى حد كبير عن أي أعماق فكرية أو تاريخية أو جغرافية..

هل يحقُّ لنا المطالبة بأدب في

الإعلام..؟

ولكنَّ ما الأدب؟ هذا الذي تعاني الكتابة (العربية) السياسية أو الإعلامية أو العلمية من غيابها عنها وعن مجمل الحضور الثقافي الآخر !!

لئن بقي الأدب مصطلحاً قديماً جداً غير أنه امتلاً كذلك بالتجديد والحداثة.. وبذا فإننا نرمي إلى محاصرته لاستخراج الروح منه تلك التي كانت موجودة في كل النصوص

العرب ملكةً شعريةً أو أدبيةً في تخصصه من دون أن يعتبر ذلك أمراً استثنائياً، بل نستطيع القول أنه كان أمراً عادياً وتقليدياً! بل هو من تقاليد العربية القديمة.

كما كان النص العلمي نصاً فيه أسلوبية وصنعة (نصوص ابن سينا والرازي في الطب ونص الكرجي في الهندسة المائية) فابن سينا كان ينظم الشعرَ بخط فلسفي وبلغة عربية خالصة تحمل شخصيته وثقافته الطيبة العميقة.. وبشكل عام فأنا واللغة العربية لم نصل إلى ما وصلنا إليه حالياً من تردّي النصوص غير الأدبية عموماً وخلوها من الشخصية والنكهة أو أية فنية لتأثرها المبرح بالترجمات السريعة القالبية التي غطت القرن العشرين وخصوصاً الترجمات غير الأدبية.. فالكتاب العلمي العربي ليس له شخصية لغوية أو أسلوبية.. وكذلك الكتابة العلمية القابلة للتحويل الإعلامي لتكون سيناريو برنامج مثلاً أو خبراً.

وقد لا تكون تقنية الكتابة السياسية في سوء النص العلمي، لكنها تعاني تقريباً من المساوئ نفسها ومن فقدان الشخصية والتعميم الذميم الذي يلاحق كل جملة عربية إعلامية.

إن فنية اللغة الإعلامية وأدبيتها ليست إلا أحد الأبعاد الإشكالية المبعّدة في المجال الإعلامي العربي إن صح التعبير..

ولن نبذل جهداً كبيراً حتى نشهد الجسر الواضح الذي يربط بين هذه التصورات أو التعريفات المتنوعة عن (الأدب): ففيه الخصوصية والذاتية وتحويل رمزيّ جاذب، وفيه الظرف والمحامد وحسن التناول الكتابي..

لقد أضحت اللغة السياسية لغةً يوميةً شديدة التداول في كل العالم.. وهي ولئن لم تكن واحدة، لكنها تنقل الأخبار نفسها وتقدم تحليلات ورؤى متقاطعة ومصدّرة إلى حد بعيد.. لكنها كأنها تقدّم (مثلما باقي أشياء هذا الزمن) على نحو خدماتي وسريع وضامط.. وضمن هذه الشروط السباقية الإعلامية لا تتضح الأساليب ولا يتكون أدبها.. وأيضاً، لا يكون ذلك التأثير العميق الباني الذي ينتظم في الذهنية والذاكرة ويسلك في سبيله إلى التكوين العقلي الفردي والجمعي.. وهكذا تغدو (اللغة الإعلامية) لغةً تقترب من الإشارات الموجهة إلى قطيع متشابه ومنضوي وموجّه بشدة..

تاريخياً، لم يكن النص العربي إلا نصاً يشغفه الأدب ويحضن الشعرَ كأمر حيوي من طبيعة اللغة العربية وخصوصياتها ومن خصوصيات العرب ومن أصبحت العربية لغتهم فيما بعد.. كان نصاً لغوياً راقياً يخترقه خطٌ فني وأسلوب (النصوص التاريخية والبلدانية والعلمية والقضائية والفقهية..) وقد حاز كثير من هؤلاء الكتاب

الدولةُ هناك ما بين الخليفة العباسي
والسultan البويهي!!

تَشَكَّلَ الجهازُ الإعلاميُّ للدولة الحمدانية
من كبار شعراء العصر (المتبّي وأبو فراس
الحمداني..) وقد حملت القصائد الشهيرة
أخبار ذلك العصر وجعلت من تلك الأخبار
حوادث مهمة للغاية.. فَحَمَلُوا الحِثْيَاتِ
السياسية في شعريتهم وليس في شعرهم
فقط ليتشكّل منه بذلك حامل إعلامي
حقيقي بل أَسْرَعُ حامل إعلامي في وقته:
الشعر.. لقد حمل الشعرُ الأخبارَ والمواقف
ودخل في الوجود المجتمعي والسياسي..
فَحَمَلُ المتبّي شعره بخطاب إعلامي صريح
ولننظر إلى افتتاحية قصيدة (الحدث
الحمراء): «على قدر أهل العزم تأتي
العزائم».. ثم «هل الحدث الحمراء تعرف
لونها؟» ومن قصيدة أخرى «وإنما الناسُ
بالمولك»..

حين اقترب المتبّي من مراكز القرار
الكبرى ومحركات الجيوش كانت محاولاتُه
السياسية (الإعلامية) في مدنٍ عربيةٍ شديدةِ
الاضطراب السياسي في القرن الرابع
الهجري، لكنه لم يكن اضطراباً انحطاطياً
أو تخلفياً بل حَرَاكاً حتمياً في دولةٍ عظميةٍ
ناهضة، إذن خرج هذا الشاعر الاستثنائي
من جنوبي العراق في الكوفة إلى شمالي
الشام في حلب، وإلى مصر مروراً بالبوادي
والسواحل والضياف، في أزمانٍ تمتدُّ على

ولعل البعض يعتبره بعداً حالماً وخالياً من
استثمار مباشر..!!

إشارة من التاريخ.. (التجربة

الحمّانية) في أدب الإعلام السياسي

كانت الدولة الحمدانية دولة عربية
امتلكت أدوات التصدي والصنع.. كان فيما
تصدت له الهجوم الروماني على الحدود
الشمالية للدولة الإسلامية.. وهي نموذج
للدولة غير المركزية الفاعلة فقد كانت
عاصمتها حلب، لعلها آخر مدينة عربية
في شمال الدولة الإسلامية في ذلك الوقت
وحتى الآن.. اعتمدت هذه الدولة على جيش
حيوي تردفه دولةٌ مثقفة بل وصانعة للثقافة..
وأمرها (سيف الدولة الحمداني) رجل
مثقف على نحو عميق في الجانب السياسي
والجانب المعرفي فقد أدرك أهمية رجل
مثل الفارابي وكتاب موسوعي مثل كتاب
الأغاني.. وسرب من الشعراء الذين كانت
دولته بمساحتها الصغيرة كافية لتفاعلهم
ونموهم.. وكافية لصعود أهم شاعر عربي
هو المتبّي..

كان أحد صناعات الدولة الحمدانية
صناعة (إعلام رصين) كان ضرورياً للانتصار
وللتاريخ.. وللتفاعل والتأثير اليومي أيضاً..
كان هذا الإعلام جزءاً حقيقياً من المعركة
المستمرة التي كانت تدور رحاها على
الحدود أو قربها وتصل أخبارها شعراً إلى
بغداد مركز الخلافة المُتَعَبِ حيث ازدوجت

الروم في الشمال والإخشيديين في الجنوب، وتناوئ البويهيين في بغداد.. شكّل هذا الرجل للمتتبي السلطة السياسية العربية الحاملة لفروسية وتقاليد ولغة العرب الذين مضى على خروجهم برسالتهم من الجزيرة العربية أكثر من ثلاثمئة عام انداحوا بفكرهم الجديد ولغتهم بين الأقسام وبقايا الحضارات.. كان سيف الدولة رمزاً نموذجياً للمتتبي.. استناداً إليه قال أجمل كلماته وكأنها أجمل كلمات في العربية «وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم»

«ويا أعدل الناس إلا في معاملتي..» وكلها راسخة في نواة الوجدان العربي.. لكن، حين تحمّل السياسة على كاهل الكلمات الجميلات تغدو قوة نوعية تمنح الحامل والمحمول تلك الجاذبية المؤثرة التي تصنع الوجدان والتغيير.. من أرض معركة الحدت (وقعت هذه المعركة سنة ٣٣٦هـ بين جيش سيف الدولة والروم، وقتل فيها من الروم ثلاثة آلاف، وانتصر المسلمون عسكرياً وسياسياً..) حيث شكّل المتتبي الحضور - السياسي - الثقافي - الإعلامي لسيف الدولة الحمداني، فقدّم لنا تلك الكلمات التي تفوق الوصف التقليدي وتفوق المديح.. بل يُقدم إشارات عسكرية سياسية

«ضممت جناحيهم على القلب ضمة

تموت الخوافي تحتها والقوادم»..

تلك المساءات الشعرية الحزينة وغير الحزينة، وعلى تلك المداولات السياسية في هذه البقعة المركزية من الدولة الإسلامية في أعلى نهوضاتها الحضارية.. في زمن سيف الدولة الحمداني وزمن المتتبي وزمن ناجح بامتياز سياسياً وعسكرياً).

لم تكن هذه الجغرافية النوعية محطات لشاعر رحّالة يمسح المكان بسرعة بعينه وقلمه، بل شكّل هذا المكان الساخن (وما زال كذلك حتى الآن) المجال الجيوبوليتيكي لتفاعلات المتتبي والتي ظهرت في شعره أنواعاً فريدة من المعاني وتحملاً سياسياً غير مسبوق إلى حد بعيد.

كان لابد للمتتبي من أن يكون في مدينة أكثر مركزية.. فكانت (بغداد) ومن ثم (دمشق) لكنه لا يلبث أن يمضي إلى مدينة جديدة ضيقة الدروب مفتوحة الفضاءات ليدخل من أبوابها ويلقي بياناته الشعرية ومشروعه (السياسي).. مدينة تحتمل هذا العبء بدروبها ودورها ودواوينها وقلاعها وقصورها.. تلك التكوينات التي تحمّل السياسة وتصنيع القرار..

كان لا بد للمتتبي من اختام المدينة ومصانعها ليُضج مطالبه فكانت حلب المدينة الأكثر قرباً من مشروعه السياسي، ويبدو أن سيف الدولة شكّل التماهي الحي لفكره فكان: العربي فوق سلطة ودولة تجارب

الحمداني حين كانت قصائده تسافر وتُرسل من سجنه البيزنطي إلى حلب وإلى كل من كان يتلقف خبراً في أنحاء الدولة.. كان شعر هذا الأمير حاملاً لحوادث انتهت إليه وتركزت في شخصه لكنها كانت حوادث سياسية وعسكرية. ولم يبق إلا أن نذكر قصيدته بالغة الكبرياء والعدوية فقط كيما نشهد هنا في هذه الصفحات القليلة كيف يصعدُ الإعلامُ إلى ذروة الأدب الرفيع، بل إلى ذروة أعلى هي سِدْرَةُ الشَّعْرِ:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ونحن أناس لا توسط بيننا

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تلك لمحة من التاريخ المضيء من تاريخنا ارتقت فيه الوسائل وتوحدت بالأهداف واصطنعت الحوادث العظيمة والكبريائية رجالاً عظماء ورفع هؤلاء منسوب التاريخ إلى ذروة الأدب الرفيع حين حملوا الأخبار والحوادث والمواقف في وسائل إعلامية إنسانية وإبداعية.. بل وجمالية للغاية !!

بسبب هذا التأثير غير العادي للحضور الجدلي للمتنبى.. حضوره الشعري - السياسي يزدادُ حصاراً فيخرج حاملاً أحلامه في كلماته إلى نقطة جديدة ومدينة جديدة تستشف من شعره إعلامها وحضورها. وبدخول سنة ٣٤٦هـ يكفهر الجو بين سيف الدولة والمتنبى، وحين يغادر المتنبى الإمارة الحمدانية فكاننا يغيبُ ويُدَمَّرُ جهازها الإعلامي فلا يعود ثمة انتصارات، علماً أن معارك عدة تدور بين سيف الدولة والروم في السنوات التالية غير أن وظيفة مهمة غابت من البنية الأساسية التي قامت عليها هذه الدولة ولم تلبث أن بدأت بالتراجع!!

لم يكن المتنبى هو الشاعر الإعلامي الوحيد وإن كان هو وحده قد تميز بالصدى الواسع ووصول كلماته إلى كل مدينة في ديار الإسلام وربما في العالم ذلك أنه كان قريباً من حدود الدولة البيزنطية. كان ثمة شاعر آخر له أهميته النوعية، فهو قد شكَّل نوعاً إعلامياً شعرياً آخر في الدولة الحمدانية.. فلا يمكن أن نخرج من هذا الموضوع قبل أن نرى بجلاء الأمير الأسير أبا فراس



جدل محمد عبده وفرع أنطون التاريخي

✽
أسعد طرابيه

العشائر أو الطوائف. وفي الجانب الآخر كان العالم الغربي يتجه نحو الرأسمالية، فقد أنتج تطوراً نوعياً في العلم الطبيعي وتطبيقاته الإنتاجية والاجتماعية والحربية. وفي القرن الثامن عشر بدأت البرجوازية تحسم الموقف في أوروبا ممهدة الطريق لقيام الثورة الصناعية.

**واجهت الإمبراطورية العثمانية
الشائخة ثلاثة تحديات:**
١- تسارع تصدع نمط إنتاجها الإقطاعي.

حمل القرن السابع عشر علامات إنذار تصدع مبكرة للإمبراطورية العثمانية الشائخة في بنيتها الإقطاعية العسكرية، وظهرت الأزمة في الحقل السياسي السلطاني المستبد في الحقلين الاقتصادي والعسكري. لقد أصبح الجيش حقلاً للتنازع بين أصحاب النفوذ، والدخول فيه أصبح خاضعاً لشروط مالية، وهكذا ظهر تمايز داخل الجيش الإنكشاري وفقد الفقراء أي امتيازات فظهر وقتها جسر بينهم وبين الفلاحين والبدو وصفار الفلاحين، ولكن غالباً ما كانت تحركاتهم تتمتع بالقوة، أو تجير لصالح رجال ✽
بامك وعضو الجمعية الكونية السورية.

قال ماركس عن محمد علي: إنَّه الشخص الوحيد الذي كان في وسعه أن يتوصل إلى استبدال العمامة المفتخرة برأس حقيقي. ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعض المتتوريين البرجوازيين أهمهم في سورية: بطرس البستاني وإبراهيم اليازجي وأبوه ناصيف اليازجي وجرجي زيدان.

أصدر بطرس البستاني مجلتي (نفير سورية) و(الجنة) ثم أتبعهما بمجلة (الجنان) التي توقفت عن الصدور عام ١٨٨٦م بسبب الاضطهاد الحميدي العثماني، ثم إن معظم المتتورين السوريين قد نزحوا إلى مصر بسبب قرب سورية من مركز الاستبداد الحميدي إضافة للحروب الطائفية التي قامت في لبنان ودمشق، وقد كان معظم المتتورين من المسيحيين بفعل احتكاكهم بأوروبا التي كانت تتدخل بحجة حماية المسيحيين. فقد نزح شبلي شميل (١٨٥٠-١٩١٧م) إلى مصر ولحق به رشيد رضا وفرح أنطون وقد أصدر رشيد رضا مجلة (المنار) وأصبح فرح أنطون رئيس تحرير مجلة الجامعة.

يقول الباحث محمد حداد: إنَّ تيزيني يرى أن أنطون عبر عن تصاعد طبقة برجوازية حضارية ولكن المسألة ليست بهذه الصورة المبسطة لأن مدار التنافس بين الخطابين العلماني والديني كان

٢- محاولات الانفصال عنها (اليونان، مصر، الجزيرة العربية).

٣- التأثيرات العلمية الآتية من الدول الأوروبية.

يقول طيب تيزيني كانت مصر سبابة للسير على طريق الانتقال البطيء من العلاقات الإقطاعية إلى بعض ملامح تشير على نحو إرهابي إلى النمط الرأسمالي في الإنتاج وقد ظهرت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر قوى اجتماعية جديدة: (حرفيون مفقرون، شغيلة في ورشات، ومزارع الحكام الكبار، الفلاحون الذين لا يملكون الأرض). لقد استفاد محمد علي مما ورثه من المماليك ومن تجربة غزو نابليون لمصر، يتابع تيزيني فيقول: إنَّ تجربة محمد علي وابنه إبراهيم لم تتح لهما التحول إلى البرجوازية ولكنها شكلت حالة تاريخية خصبة.

عمل إبراهيم باشا على إيجاد مركزية سياسية واقتصادية في سورية عبر محاولة إنهاء الانفصالية الإقطاعية والوقوف بوجه التعسف الإقطاعي، وقد وقف الأمير بشير الثاني حليف محمد علي في لبنان مع إبراهيم باشا الذي خفف الضرائب على الفلاحين وأسهم في توسيع الحركة التجارية، وتأمين حياة آمنة من قطاع الطرق، وفتح المدارس، وإنشاء دار طباعة، ومهد لتطبيق القوانين الناظمة للحياة الاجتماعية والاقتصادية.

في عام ١٩٠٩م، عاد إلى القاهرة، حيث عاش بقية حياته. وعلى الرغم من أن «الجامعة» كانت قد توقفت عن الصدور، استمر أنطون بالعمل صحافياً وكاتباً مسرحياً.

أعجب أنطون بالثورة الفرنسية، بفكرة الاشتراكية، وكتابات الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه. لكنه كان أيضاً يعي تماماً الهيمنة الثقافية والسيطرة السياسية الأوروبية. ورأى في الإصلاحات العميقة، وسيلة لا بد منها لدرء هذا الخطر. وكان اعتقاده أن العلمانية، بمعنى الفصل الواضح بين الأمور الدينية وتلك الدنيوية، يجب أن تكون حجر الزاوية لهذه الإصلاحات.

يرى فلوريس أن كتابات فرح أنطون هي تعبير واضح عن الموقف المتباين من الغرب، الذي اعتمده كثيرون في الشرق العربي، والمبني على «علاقة جدلية من الانجذاب والرفض». اعترف أنطون بالأذى الذي تسببه السيطرة السياسية والاقتصادية الأوروبية على الشرق العربي. لكنه أراد التعلّم من أوروبة، درء تأثيراتها السلبية، والإفادة من إنجازاتها - المبادئ الحديثة مثل العلمانية، الديمقراطية، وحقوق الإنسان - التي رأى أنها ذات صفة عالمية على الرغم من أصولها الغربية.

وما يميّز أنطون عن معاصريه من المثقفين العرب «المتغربين»، بحسب

لاستقطاب الشريحة الاجتماعية ذاتها، ومن منظور التحليل السوسولوجي يمثل خطاب عبده محاولة للإبقاء على الامتيازات التي يتمتع بها المثقف التقليدي مع إرباك في المؤسسات الثقافية التقليدية بتصويرها في هيئة العاجزة عن الدفاع عن الدين، وخطاب أنطون يمثل دفاعاً عن مستقبل الشرائح الجديدة وحققها بالاضطلاع بأدوار كبيرة في الإدارة. ولكن المفارقة تكمن في أن هذه الشريحة الجديدة تشعر بالارتياح إلى عبده أكثر من شعورها بالارتياح إلى أنطون، لأن الشيخ يوفر لها الغطاء الديني لمشاريعها في التحديث الإداري وربما أيضاً لنمط عيشها الذي يوفق بين القديم والجديد.

وُلد فرح أنطون لعائلة مسيحية أرثوذكسية، في مدينة طرابلس، التي كانت جزءاً من سورية العثمانية، في ذلك الوقت. بعد إنهائه التعليم المدرسي، عمل لفترة مدرساً في طرابلس، ثم غادرها في ١٨٩٧م إلى مصر، بهدف أن يصبح صحافياً. بعد فترة من العمل الصحافي في الإسكندرية، أسس أنطون مجلته الخاصة، «الجامعة العثمانية»، في ١٨٩٩م، على الرغم من أنه ما لبث أن أسقط كلمة «العثمانية» من العنوان. في ١٩٠٥م، غادر أنطون إلى نيويورك، حيث مكث لأربع سنوات واستمر في إصدار «الجامعة».

فرح أنطون كان رائداً كمثال للمثقف العربي النقدي الحديث.

أمّا محمد عبده فقد نشأ في قرية (محلة نصر) إحدى قرى مديرية البحيرة في الريف المصري، وكان أبوه صاحب مكانة ملحوظة في القرية، وبعد إتمام تعلمه للقرآن الكريم أرسله والده إلى طنطا لاستكمال تعليمه، فعجز عن استيعاب العلوم والمعارف نظراً لأسلوب التدريس القديم، ولكن أباه أصر على تعليمه مما أدى به إلى هروبه إلى خاله الذي أثر كثيراً في حياته، فزرع الزهد والتقوى في قلب محمد عبده وحبب إليه دراسة الدين، وتحول الشيخ محمد عبده إلى الأزهر فدرس النحو والفقه والتفسير، ولما كانت طريقة التدريس في الأزهر تقليدية فلم يلم آنذاك بالعلوم والمعارف الحديثة، ولكن خاله لفت نظره إلى أهمية هذه العلوم والمعارف.

وقد التقى بجمال الدين الأفغاني ووضعاً معاً أسس الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله.

وكل ما كان يشغلها من خلال دعوتها للإصلاح هو يقظة العالم الإسلامي في مواجهة الغرب الذي يرغب في الاستيلاء على مصادر الثروات الطبيعية والبشرية في ديار الإسلام الممزقة التي يحكمها الجهل. لذلك قاما بتوجيه دعوتها إلى العقل المسلم ينفيان عنه الخرافة والتواكل

فلوريس، هو أنه لم ير «الوجه المزدوج» لأوروبية فحسب، بل فهم أيضاً الجوانب المتعددة للحدث: أولاً، التحديث المادي؛ ثانياً، الحدث الفكري أو الاستعمال الشامل لطرق التفكير العقلانية؛ وثالثاً، القبول بدليل «غربي عالمي» إنساني للقيم.

وقد شدد أنطون على الأهمية الخاصة للجانب الأخير، أي اللمسة الإنسانية للحدث، و«التي غالباً ما يجري تجنبها في التلقّي الانتقائي للحدث في المجتمعات غير الغربية»، بحسب تعبير فلوريس. فقد كان أنطون في العمق رومنطيقياً، من دعاة النزعة التويرية الإنسانية في التراث الفكري الأوروبي، والرمز الأبرز بالنسبة إليه كان الثورة الفرنسية. لكنه لم يدع إلى حدث كليّة، وبقي حذراً على الأخص من جوانبها المادية القاسية. لذلك، نجد أنطون مراوحيماً بين مواقف مختلفة، وحتى أحياناً متناقضة.

فهو من جهة، رأى حاجة الشرق العربي إلى التفاعل مع الحدث، حتى في جوانبها الأكثر فظاظاً، أو «جوب محاربة أوروبا بأسلحتها»، وفق فلوريس. ومن جهة أخرى، كان واعياً بأن الشرق قد يخسر براءته وروحانيته، خلال هذه العملية. هذه المعضلة تفسّر التوتر الذي يمكن ملاحظته في العديد من المواضيع التي تناولها أنطون. لكن مع هذا، لا نبالغ في القول إن

عام ١٩٠٣م تحت ضغط الأحداث كان يمكن أن يتطور لو واصل خطاب الإصلاح سيره في المجتمعات العربية.

بدأت قصه المناظرة عندما كتب فرح أنطون عن فلسفه ابن رشد وما تعرض له من اضطهاد وعن الموازنة بين إرهاب المسيحية وإرهاب الإسلام للمفكرين والمبدعين وبدأ ينشره في مجله (الجامعة) وبدأت واستمرت المناظرة بينهما على صفحات المنار والجامعة من دون أن يطالب الإمام (وكان مفتي الجمهورية في ذلك الوقت) بمصادرة رأي فرح بل قارعه بالحجة والمقال بالدراسة المطولة في حوار ينطق باحترام الشيخ للمثقف العلماني الذي يبشر بالعلم ويدعو لإنسانية جديدة واحترام المفكر لرجل الدين الذي يفتي بعلم ويجادل بالتي هي أحسن ولا يفرق في آداب الحوار بين مسلم وغير مسلم وقد قام فرح بنشر الحوار كاملاً في كتابه (ابن رشد وفلسفته) ليحتل الحوار ثلثي الكتاب.. وأهدى فرح كتابه إلى عقلاء الشرقيين في الإسلام والمسيحية.. وهو إهداء رائع يبين أنه لا تعارض بين الدين والعلم وأن ما حدث لابن رشد محنة سياسية وليست دينية، وأكد في الإهداء أنه يعرف أن الكثير من إخوته من المسلمين والمسيحيين لا يوافقون على ما جاء فيه، لكنه هنا لا يقول بحتمية الصراع بين العلم والدين لكنه يحترم الاختلاف بينهما إذ

والدروشة، ويحررانه من عبودية الشكليات. انضم الشيخ محمد عبده إلى صفوف المعارضة للمطالبة بالحريات الدستورية وكان ذلك في عهد الخديوي إسماعيل، وما لبث أن خلع إسماعيل وتولى ابنه الخديوي توفيق الذي شعر بخطر الرجلين، فقام بنفي جمال الدين الأفغاني إلى باريس، واشتدت معارضة محمد عبده للخديوي الجديد، ثم وقف ضد الاحتلال الإنجليزي، فنفي إلى بيروت، واستدعاه جمال الدين الأفغاني إلى باريس، وأسساً معاً جمعية العروة الوثقى، وكانت ذات صبغة سياسية، ثم أصدرها معاً جريدة (العروة الوثقى) عام ١٨٨٤م وقد كان لهذه الجريدة أثر كبير في العالم الإسلامي ولكن لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عدداً وافترق الرجلان ثانية وعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت. ثم عفا عنه الخديوي فرجع إلى مصر.

حصلت مناظرة كبرى منذ عام ١٩٠٣م بين فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢م) ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م). كان أنطون متحمس لتجربة العلمانية فيما محمد عبده رد على العلمانية بفكرة التسامح حيث يقول: إذا صدر قول من قائل يحمل على الكفر من مئة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان، وإن مدنية السلطة في الإسلام تظهر في شخص الحاكم فهو مدني من جميع الوجوه. هذا الموقف الذي ظهر

لكن العلم نفسه لا ينكر عجزه في بعض الأحيان وهو حر مطلق الحرية في معتقد أصحابه والكلمات القادمة تؤكد إنسانية فرح في التوفيق أو على الأقل عدم الصدام بين الدين والعلم إذ يقول: «لكن لا يجوز أن يتخذ العلم حريته هذه ذريعة في العدوان على مبادئ غيره وإيجاب تطبيقها على مبادئه فإن برهان العلم مخالف لبرهان القلب ولا ينطبق هذا على ذلك ولا سبيل إلى إثبات أحدهما عن طريق الآخر لاختلاف الوظيفة.. لذلك يجب أن يعيش الدين والعلم على الأرض جنباً إلى جنب في سلام وأمان من دون أن يهرب ممثلو أحدهما ممثلي الآخر فكلاهما ضروري ونافع للإنسانية».

وبدأ الإمام محمد عبده حوار مع فرح أنطون بأن نشر مقاله الأول في المجلتين (الجامعة) و(المنار) وقال في بداية مقاله: (لو كانت منزلة الجامعة من نفسي منزلة غيرها لوجدت من شواغل عملي ما يصرفني عن ذكر ما عرض فيها لكنها من المجالات التي لو أهملت باحثها من إنعام النظر فيها وجعلتها في جانب عما تستحقه من النقد لبخستها حقها ونبوت بها عن موضعها) تلك كلمات تنطق بأدب الإمام وتؤكد ما يحرص عليه من تأكيد مبدأ المجادلة بالتي هي أحسن وعدم التسرع باتهام المحاور لمن يحاوره.. ولأن الإمام يؤمن بأن العقل حجة الله على عباده ويرى ضرورة إعمال العقل

يقول إن الاختلاف في الرأي إنما هو من طبيعة البشر وإن احترام هذا الاختلاف هو بداية التقدم الذي لا يتحقق إلا عن طريق احترام حرية الفكر، إحقاقاً للحق. لم يكن فرح يريد بكتابه الوصول لمعارضة العلم والعلماء للدين، لكن كان للكتاب فكرتان وهما الكشف عن أخطار الاضطهاد الذي يعوق حرية الفكر من خلال دراسة فلسفة ابن رشد وتبيان جوانبها التثويرية وثانيهما الكشف عن أضرار مزج الدين بالسياسة إقراراً لمبدأ فصل الدين عن سياسة الدولة المدنية الحديثة..

وفي إطار هذين الهدفين كتب فرح عن الاضطهاد وبعدها رد عليه الإمام تفصيلاً ولكن فرح عاد فأوضح الكثير من أفكاره ومن ذلك العلاقة بين العلم والدين.. فهو هنا يستبدل محاولة ابن رشد القديمة في الوصل بين الحكمة والشريعة محاولته الحديثة في الفصل بين العلم والدين وذلك على أساس أن العلم يجب أن يوضع في دائرة العقل لأن قواعده مبنية على التجربة أما الدين فإنه في القلب وقواعده مبنية على التسليم (وهنا يحاول فرح أن يفصل وليس أن يثبت تعارضاً أو محاولة أحد المجالين القضاء على الآخر).

ويكرر فرح مقصده بأن القسمة إلى عقل وقلب بدعة في العلم أو هدم لسلطانه بحجة أن العلم يريد البحث في كل شيء

الاستشراق فهو أيضاً استمد أهم عناصر استدلاله من مصدر أجنبي هو التنازع بين العلم والدين للأمريكي داربر.

إن نية الدفاع عن التراث اقتضت من عبده إسكات التراث فقد كان حضور النصوص العربية متواضعاً في كلام محمد عبده مقارنة بالاستشهاد بالكتّاب الغربيين، فقد كان يعاند التراث باسم التراث لذلك سكت عن المعروف المشهور مثلاً:

سكت عن منشور المنصور الذي يدين ابن رشد بحجة تعاطي الفلسفة، كما سكت عن موقف الفقهاء في الأندلس الذين كفروا بالفلاسفة ومنعوا الاشتغال بالفلسفة، وسكت عن حرق الكتب وخاصة في الأندلس، كما سكت عن رواية ابن رشد نفسه لتقديم ابن طفيل إياه لدى الأمير يوسف، إذ فزع من سؤال الأمير عن قضية فلسفية وسارع برفع الاتهام عن نفسه وينفي أن يكون من المشتغلين بالفلسفة..

لقد كان عبده يواصل آليات التأويل القديم التي تمكن من صياغة تمثيلات الحاضر والمستقبل وشرعنة هذه الصياغات بالتصرف الحر في التراث ولو بالحذف.

حاول أنطون إسكات صوت عبده بقوله إن كتب ابن رشد غير متوافرة بالعربية ولم تنشر إلا باللاتينية، فلا يكون مختصاً بابن رشد إلا من أتقن هذه اللغة أو اخذ عن

في فهم أمور الدين والدنيا، وكان يربط بين تقدم المسلمين وازدهار العقل ويصل الجمود والتقاليد بتخلف المجتمع وشيوع طبائع الاستبداد فيه وخضوعه إلى حكام ظالمين وفي ذلك ما يجمع العقل ويحجر على حرية الفكر.

وقد نشر الإمام تعقيباته وردوده في ست مقالات متتالية من المنار ومقاله الأول كان بعنوان الفيلسوف الوليد بن رشد وتوالت مقالاته التي كانت عناوينها (الإسلام والنصرانية.. مع العلم والمدنية.. خلاصة: علم في أوروبا) وتوقف الإمام تفصيلاً عند علاقة الإسلام تحديداً بالعلم وأوضح الإمام أن الإسلام لا يقف موقفاً عدائياً من العلم لأنه يحث عليه ولا يضطهد رجاله أو يحول بينهم وبين التقدم أو يحجر عليهم فقال «كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم ويسبح به في الأرض ويصعد به إلى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سراً في خليقته أو يستتبط حكماً من أحكامه فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التمتع بها ما تريد».

خلاصة:

يرى أنطون أن العلمانية تكون الحل الوحيد الممكن لحماية العلم والمعرفة من الاستبداد باسم الدين. لم يعب عبده على أنطون أنه يستند إلى

العديد من العروق الثقافية ومنها العرق العربي والثقافة الإسلامية.

حسب الأفغاني وعبده فإن قبول الإسلام للحرية أتى من موقع المساهمة التاريخية للإسلام والتهيئة لها، أمّا أنطون فإنه يعتبر أن تفوق الغرب سببه العلمانية. إن الموقف الإصلاحي في ذلك الوقت على الرغم من محدوديته يمثل ثورة في الوعي الديني لأنه لا يدافع عمّا هو كائن وإنما عمّا يجب أن يكون.

إنّ جوهر القضية قائم على أن الطرفين يحاولان انتزاع القيادة الرمزية للمجتمع لأنهما مفصولان عن القيادة الفعلية السياسية والدينية والسلطة الرمزية قد تكون مقدمة للسلطة الفعلية، لقد هرمت المؤسسات الثقافية التقليدية فبدا المجال مفتوحاً للمشاريع الجديدة.

يترتب على أطروحة أنطون أنه لا حاجة لفكر ديني فعلى الدين أن يكون إيماناً شخصياً ويترتب على أطروحة عبده أنه لا حاجة للخروج من أليات التأويل الإدماجي. كان يطالب أنطون العلماني أن يكتفي بدور حنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق، أي أن يكون ناقلاً مترجماً لا أكثر.

إن الرابطة الشرقية المبنية على الوحدة العددية لا تستقيم في رأيه إلا بزعامات

يتقنها ويحدد أنطون رينان المتمن لليونانية لغة أرسطو.

لم يقرأ عبده كتاب رينان عن ابن رشد ولكنه اقتبس منه قوله إنه تعرف على رجال مسلمين ميالين إلى التسامح يحاربون التعصب فيأمل أن يحول هؤلاء الفقهاء الإسلام إلى دين تسامح. كما اقتبس منه كذلك اعترافه أن غاية التمدن ليس القضاء على الأديان ولكن على الأديان أن تسالم وتلين وإلا كان موتها؛ وهو الانطباع الذي كونه رينان عن لقائه الأفغاني في باريس بعد مجادلة ١٨٨٣م.

لقد قام الخطاب الإصلاحي على ثلاثة مصادر:

أولاً- الاعتراف بتخلف المجتمعات الإسلامية وتفسير ذلك التخلف بأنه انحطاط عن عصر ذهبي، فجاء رينان ليقول عام ١٨٨٣م إنه لا يوجد عصر ذهبي أصلاً لأن ما يدعى بالحضارة العربية هي مجرد نقل عن حضارات أخرى.

ثانياً- الاعتراف بضرورة الاقتباس عن الحضارة الأوروبية.

ثالثاً- الاعتراف بتفوق النظام السياسي الغربي مع تقديم ذلك النظام الليبرالي على أنه ذروة مسار البشر في مسالك المدنية ومرحلة عليا جاءت تراكمات مساهمات

نظام الذمة في حق الأقلية طائفية كانت أم ثقافية.

لقد فتح أنطون مجالاً رحباً للعقل العربي الإسلامي عندما انتزع ابن رشد من مجال القول الديني وأعاد للقول الفلسفي، فالأديان سلّم مدنية الشعوب هذا ما قاله الأفغاني رداً على رينان.

إنّ مصادر المعرفة عند عبده هي العقل والقلب والنقل، أمّا عند أنطون فالقلب للدين والعقل للعلم. إنه ترتيب موازٍ للفصل بين دور العبادة والمجتمع.

حدد أنطون المكاسب التي تجنيها الأمة من الفصل بين الدين والدولة، وهي الحرية الفكرية المساواة بين المواطنين، تطوير المجتمع، تحصيل أسباب القوة والتي تجاوز وهم الوحدة الدينية. لكن تجربة القرن العشرين ترينا كم كان أنطون مثالياً في استشراف المستقبل العربي.

إنّ الدين هو أداة الاستبداد عند أنطون إذا قامت الدولة باسمه، أمّا الدولة فهي التي تصنع الاستبداد إذا تخلت عن الدين حسب عبده. يرى أنطون أنّ العلمانية مجسدة بالآية القائلة (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) أما عبده فيقول بما جاء في القرآن (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) سورة البقرة، الآية (٢٥٦)، (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ

الإسلام والطائفة الغالبة. كما أن صورة رجل الدين القابع في دور العبادة فهي الصورة الحديثة للدين عند انطون. أمّا عند عبده هي صورة الفقيه الذي لم يكن قادراً على الخروج من الأزهر إلى العالم وقد نشأ المناضل الإصلاحية بديلاً عنه.

إنّ النصراني المترجم الذي يعيش في ذمة الإسلام وحمايته هي صورة التسامح حسب عبده، أمّا حسب أنطون فهي صورة الكاتب المضطهد. يقول عبده في رسالة التوحيد «مذاهب الفلاسفة تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن همهم الإتحصيل العلم وفاءً لرغبة العقل، أمّا الجمهور من أهل الدين كان يكتنفهم بحمايته.. لكنهم زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين.. فسقطت منزلتهم في النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة».

إنّ الفيلسوف إذاً يعيش تحت حماية الجمهور شرط أن لا يتدخل بالأمور الرئيسية في المجتمع، أي كمن فيلسوفاً واصمت، هذه هي قاعدة التسامح الإسلامي مع الفيلسوف. من هنا كان أنطون على حق في دفاعه عن ابن رشد فيما ناله من محن. فالعلمانية هي أيضاً دفاع عن حق الجميع في المساهمة في المجتمع وإلغاء

وعبده من خلال ابن حنبل. إن ما فات عبده هو التصور الحديث للدولة من جهة أنها توازن السلطات لمنع التسلط. وأنطون لم يقدم تصوراً واضحاً للدولة الحديثة فهي بنظره مؤسسة متعالية اجتماعياً وأيديولوجياً وذات دور سالب يقتصر على احترام الحريات الفردية.

لقد عبّر عبده من مشروع دولة الفقهاء إلى مشروع دولة الأخلاق الفطرية، وعبّر أنطون من أدب ماريّا الملوك إلى مشروع دولة الأنوار القائمة على الحرية.

لقد أسكت صوت أنطون لأن عبده كان يعتبر معركته الحقيقية مع رينان لا مع أنطون، وفاته أن أنطون هو الأقدر على محاوره الغرب ومواجهته، لأنه الأكثر قدرة على فهمه.

المراجع: بين أنطون في صورة يوحنا الدمشقي الذي يهاجم الإسلام باسم المسيحية، وبين أنطون في صورة رينان الذي يهاجم الإسلام باسم التقدم، ثمّة أنطون الحقيقي والذي هو صوت من الأصوات الممكنة للتعبير عن المستقبل، لقد حاول أن يكون رجل فكر مستقل عن الطوائف والمذاهب ومجادلاً عن رأي لا عن انتماء، ولو عاش بقية القرن العشرين لأدرك أن رجل الدين ليس الخطر الوحيد فهناك رجل الأيديولوجيا ورجل العروبة الذي يمجّد الماضي.

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) سورة الكهف، الآية (٢٩). ولكن أنطون يعلم إن الآية المنتقاة من الإنجيل لم تحل من دون سيطرة الكنيسة على العقول لمدة ألف سنة وأن الأطروحة العلمانية نشأت في أوروبا في صراع ضد الكنيسة والدين.

يواجه عبده مجتمع الفقهاء الذي لم يتخلّ قيد أنملة عن التشريعات المنافية لحريات العقيدة والتمسكة بديانة الجهاد، وأنطون يرفض الطائفية التي تغلق على الانتماء والهوية بتغليب الطابع الديني. خطا عبده خطوة باتجاه رفع القداسة عن السلطة السياسية في الإسلام ولكنه توقف عند هذا الحد، فيقول ماذا يفيد فصل السلطين الدينية والمدنية إذا كان دين الملك يقضي عليه بأحكام معينة، ولم يدرك أن السلطة الحديثة تقوم على التمييز بين شخص الحاكم والدولة ومؤسساتها فتغدو المعتقدات الشخصية للحاكم قليلة الأثر في إدارة الشأن العام. إن الفصل قد يمنع الدين من التسلط، لكنه سيسهل تسلط السياسة، فالاستبداد في التاريخ الإسلامي لم يكن بحاجة بالغالب إلى الدين كي يفصح عن وجهه الكريه، مثلاً ثلاثة من الأئمة الأربعة للمذاهب السنية قد نالهم الاضطهاد إضافة لأئمة الشيعة. كان أنطون يقرأ التاريخ الإسلامي من خلال ابن رشد

المراجع

- فرح أنطون، ابن رشد وفلسفته، تقديم طيب تيزيني، دار الفارابي، ط ٢، ٢٠٠١م.
- ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة: كريم عزقول، بيروت ١٩٧٧م.
- طيب تيزيني، على طريق الوضوح المنهجي، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩م.
- محمد حداد، في نشأة الجدل العربي حول العلمانية، مقالة، موقع إنترنت.
- عدد من مواقع الإنترنت المهتمة بالفكر العربي في عصر النهضة .



القرن الرابع عشر» (وقد كانت تونس قبل الاستقلال تستعمل التاريخ الهجري خوفاً من الذوبان في الاستعمار)، وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧م، وفيه ظهر شعر الشابي مع شعر اثني عشر شاعراً وتراجمهم، ثم ظهر الجزء الثاني في السنة الثانية، وضم شعر ثلاثة عشر شاعراً مع تراجمهم، وكان أبو القاسم آنذاك في الثامنة عشر من عمره، ثم زادت شهرته عندما اتصل بمجلة (أبولو) وبأسرتها في القاهرة وعرف شعره في بلاد المشرق، وقد أعد ديوانه ولكنه لم ينشر إلا بعد وفاته بواحد وعشرين عاماً سنة ١٩٥٥م وعليه صورته واختار له عنوان «أغاني الحياة»، وكان ينوي إرساله إلى أحمد زكي أبي شادي صاحب مجلة (أبولو) ليطلع في القاهرة مع مقدمة يكتبها أبو شادي كما فعل هو معه، فقد طلب منه أن يكتب له مقدمة ديوانه «الينبوع»، ومن الطريف أنه طبع في القاهرة في السنة التي توفي فيها أبو شادي سنة ١٩٥٥م، بعد هجرته إلى أمريكا.

وقد حرص الشابي على حذف ما رآه من دون المستوى من شعره، فقد أرسل إلى صديقه محمد الحليوي من مدينة «تورز» من بلاد الجريد بالجنوب التونسي وهي مسقط رأسه رسالة بتاريخ ١٩/١٢/١٩٢٣م، أي قبل وفاته بأقل من عام، يحدثه فيها

ومن بينها بلده، وقاده السياق السياسي الاجتماعي إلى أفكار نظرية وشعرية تجسدت في ديوانه الوحيد «أغاني الحياة» الذي يغني فيه مجد الحياة، وعلى الرغم من أنه لم يترك إلا ديواناً واحداً إلا أن شهرته طبقت الآفاق، وعمت أرجاء الوطن العربي والعالم، فقد كان لأشعاره التي تغنى فيها للحرية والحب والجمال صدى كبير في نفوس الجماهير العربية الظمأى إلى الحرية والاستقلال وسيادة النفس آنذاك.

وقد طبقت شهرة أبي القاسم الشابي الآفاق على الرغم من أنه لم يعيش سوى خمسة وعشرين عاماً، فقد مات في مثل هذا السن التي مات فيها الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد، ذلك الشاعر الذي قال فيه بديع الزمان الهمداني على لسان بطل المقامة القريضة: «هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دقائمه، ولم تفتح أغلاق خزائنه». هذان الشاعران كانا سواء في النبوغ المبكر، ولكن طرفة لم يترك من الشعر إلا ديواناً صغيراً من دون مستوى شهرته وشاعريته، ولم يترك نثراً، فهو كبقية الشعراء الجاهليين. أما أبو القاسم الشابي فقد ترك شعراً كثيراً بالنسبة لقصير حياته، وقد نشر بعضه في الصحف والمجلات، وفي الجزء الأول لكتاب «الأدب التونسي في

جمع آثاره شعراً ونثراً مع الوثائق المتعلقة به وبأدبه ونشرتها في ستة مجلدات فخمة.

كان الشابي عميق الإحساس بما يحيط به، وكان دائم التذوق، دائم الهيام والجري وراء صور الكون ومفاتيحه، وكانت الطبيعة ملهمته ونجواه، وسره ودينياه، والصدر الحنون الذي يلجأ إليه ويلوذ به كلما قست عليه الحياة. يقول الشابي: «كنت أقف أمام الزهرة، فكأنني أقف أمام عالم من الجمال والخيال والإلهام، أمام شيء مقدس يوحى بالبراءة والعطر والجمال». وهو في ذلك متأثر إلى حد بأدباء المهجر الذين اتخذوا من الطبيعة والغاب ملاذا لهم، يريحهم من حياة المدن الغربية المشغولة بالمادة، وعلى الأخص جبران وأبو ماضي، وأكثر ما تتمثل الطبيعة عنده في قصيدتين هما «تونس» و«من أغاني الرعاة» التي يقول فيها:

أقبل الصبح يغني

للحياة الناعسة

والربا تحلم في ظـ

ل الغصون المائسة

والصبا ترقص أورا

ق الزهور اليابسة

وتهادى النور في تـ

ك الفجاج الدامسة

ولم يكن الشابي يعتصر الشعر أو يطلبه، ولم يكن يرتجله في المناسبات، ولكنه كان

عن انشغاله بإعداد الديوان للنشر يقول فيها: «أما الآن فإنني أنتخب القصائد التي سأنشرها فيه، وأجمع تاريخها لأرتبها على حسبها، وإن قسماً كبيراً مما نشر لي لا أريد نشره لأنني أراه لا أهمية له، إما في روحه أو أسلوبه، ولأنني أرى فيه سذاجة كسذاجة الأطفال أبتسم الآن وأعجب لنفسي كيف سولت لي نشره في حينه، ولكن هي الأيام». وقد أضاف شقيقه محمد الأمين الشابي (ثاني وزير للتربية بعد الاستقلال ومقدم ديوانه) ثمانين قصائد من شعر الشابي إلى ديوانه، وإثر صدور الطبعة الثانية من الديوان عام ١٩٦٦م كتب مقالا نقديا أرشد فيه الدار التي نشرته إلى أماكن وجود إحدى عشر قصيدة تم إضافتها إلى الطبعة الثالثة الصادرة عام ١٩٧٠م، ثم توالى طبعات الديوان على ذلك الشكل إلى أن صدرت الأعمال الكاملة في خمسينية الشابي سنة ١٩٨٤م، وظلت الطبعة الأولى تصدر في القاهرة باستمرار باسم الطبعة الأولى وتحمل تاريخ ١٩٥٥م. وإثر انقضاء الأجل القانوني لسقوط حقوق التأليف سنة ١٩٨٤م في ذكرى مرور خمسين عاما على وفاة الشاعر، عمد العديد من دور النشر في تونس وخارجها إلى نشر ديوانه في طبعات متفاوتة القيمة والشكل، وقد قامت مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين بالعمل على

الأمل والنشاط والثورة على الجمود والركود
لبناء الجديد وحياة المستقبل، فهو دائم
في توجيه الأمة نحو الأمام، نحو إنسانية
راقية تسير إلى المجد، فهو تقدمي في
فنه ورسالته الفنية، وهو تقدمي في رسالته
الاجتماعية، يقف المواقف الشريفة، ولا
يثنيه شيء عن متابعة تبشيره وتوجيهه:

النور في قلبي وبين جوانحي

فعلام أخشى السير في الظلماء؟

وأنا الخضمُّ الرحب ليس تزيد

إلا حياةً سطوةً الأنواء

من جاش بالوحي المقدس قلبه

لم يحتفل بحجارة الفلتاء

لقد ابتلى الشابي برسالته فصبر وساس
جيله بكل حيلة شعرية ليصل بالأدب إلى
غاياته، عندما كان الشعب في غواية وسوء
قيادة، فهو ضمخ أكوابه وملأها بعصارة
نفسه، ثم قدمها إلى شعبه فأهرقها وداسها
أي دوس، ثم ألبس الشاعر ثوبا من الحزن،
وكلل رأسه بشوك الجبال:

أيها الشعب أنت طفل صغير

لاعب في التراب والليل مغس

أنت في الكون قوة لم تسسها

فكرة عبقرية ذات بأس

أنت في الكون قوة كبلتها

ظلمات العصور من أمس أمس

يتولد في نفسه، ويتنزل على لسانه تنزلاً،
ويستبد به استبداداً، ويأخذ عليه نفسه، حتى
لا يبقى شيء لما حوله، فيندفع في صوغ
قصيدته بيتا بيتا، يتهجد كل واحد بمفرده
في ليله وظلامه الدامس، من دون أن يشعل
ضوءاً، أو في ظل الخميعة، أو في كوخه
عشية، مستغرقاً فيما يتنزل، يرتله ترتيلاً
بشفتيه اللتين لا تخرجان صوتاً، ولا تفارقه
تلك الحال حتى يفرغ ما جاش به صدره
شعراً محكماً، ثم ينام كما لو أنهكه جهد
بدني مرهق، أو هو يدخل البيت فيرتمي
في أي مقعد يستجم ساعة، كأنما قد نزع
عن صدره عبئاً، وأحياناً ينظم القصيدة
كاملة في فكره ويحفظها، ثم يصبها على
الورق، وإذا شردت عنه الفكرة يترك مكانها
فارغاً حتى تعود إلى مقرها من قصيدته،
فالقصيدة عنده وحدة تامة لا تتجزأ، ولا
يجوز حذف شيء منها أو زيادة آخر، وكثيراً
ما كان يقبل اقتراحات أصدقائه البصيرين
بالشعر في تغيير كلمة.

وما ميز الشابي أنه يعيش بنفسه، والعقل
عنده رقيب، فهو يراقب نفسه بعقله الكبير،
ولم يكن ألمه يشغله، ولا يدعه يأخذ منه شيئاً،
لأنه يعتبر نفسه أقوى من الفرح، وأقوى من
الألم، وكان يؤمن بأن للشاعر رسالة يؤديها
لأمته، لا تقل عن رسالة العالم والقاضي
والزعيم، ورسالته كانت قيادة الأمة إلى

والشقي الشقي من كان مثلي**في حساسيتي ورقعة نفسي**

والملاحظ أن الشابي كان يؤرخ قصائده بالتاريخ الهجري، وقد ظهرت القصائد خالية من التاريخ في الطبعة الأولى من ديوانه، ثم ظهرت مؤرخة بالتاريخين الهجري والميلادي، وقد قام الشاعر محمود الباجي، وهو صديق الشابي، بمقارنة التاريخين وبملاحظة تلك التواريخ ظهر أنها تتقدم بيوم واحد عما عليه في الديوان المطبوع. لقد كان الشابي شاعرا نابغة منذ صغره، وقد ظهرت عليه علامات النبوغ في مطلع شبابه، وأقدم ما كتبه من شعر قصيدة على مجزوء الخفيف بعنوان «الغزال الفاتن» يقول في أولها:

بذرا الحب بذره**في فوادي فأورقا****بلحافظ فواتك****فجنى حظي الشقا****وسعى فيه مهره****عاديا، ثم أعنقا**

وأعنعق بمعنى سار عنقا، وهو نوع سريع من المشي، وفيه قال الشاعر القديم مرخما الناقة في النداء، وسليمان في البيت هو سليمان بن عبد الملك:

ياناق سيرى عنقا فسيحا**إلى سليمان فنستريحا**

وقصيدة الشابي «الغزال الفاتن» مكتوبة

بتاريخ ٧ رجب ١٣٤١هـ (١٩٢٣/٢/٢٣م)، أي عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، ومن شعره الذي كتبه في صباه قصيدة بعنوان «أيها الحب»، وهي على بحر الخفيف كتبها بتاريخ ٣٠ ذو الحجة ١٣٤٢هـ (١٩٢٤/٧/١٣م)، وهو في الخامسة عشرة من عمره وقد نشرها في كتاب زين العابدين السنوسي، ولم يضع القصيدة الأولى في ما اختاره لديوانه، ولكن شقيقه أضاف الثانية إلى الديوان ثم أضيفت الأولى إلى الطبعة الثالثة، وقد حذفت القصيدة الأولى من الطبعة التي أعدتها مؤسسة البابطين لأنها من دون مستوى شعره، وهذا بعض من قصيدة «أيها الحب»:

أيها الحب أنت سربلائي**وهمومي وروعتي وبلائي****ونحولي وأدمعي وعذابي****وسقامي ولوعتي وشقائي****أيها الحب أنت سر وجودي****وحياتي وعزتي وإبائي****يا سلاف الضوآد يا سم نفسي****في حياتي، يا شدتي، يارخائي**

هذان نموذجان من شعره المبكر الذي لم يرض عنه بدليل أنه حذفهما مما اختاره من شعره للنشر، ولو شئنا إنصافه لآخترنا من شعره كثيراً من النماذج الجيدة التي

كلها تحيا بقلبي حرة**غضة السحر كأطفال الخلود**

ثم نجد ستة أبيات بعدها تبدأ جميعها بقوله: «ها هنا»، وهذا يكون من التكرار الفني الذي يلجأ إليه الشعراء منذ المهلهل في رثاء أخيه كليب إلى كثير من شعراء هذا العصر.

لقد بدأت شهرة أبي القاسم الشابي في أيام الاستعمار الذي كان موضوعاً هاماً للإبداع، وكان الشابي صوتاً من أصوات التحرير والمناداة بالاستقلال والثورة على الظالم المستبد عدو الحياة، ولذلك كانت قصيدته «إرادة الحياة» نداءً للثورة على الدخيل، والسير في سبل النهضة والرقى وترك الخمول والخمود، وقد لقي شعره أذناً صاغية من المشاركة والمغاربة، فكان شعره صوت الحياة الحق، خاصة وأن هذا الشاعر قد وجد منبراً كبيراً رواده من أنحاء العالم العربي كافة، متمثلاً في مجلة (أبولو) التي كانت رئاستها الشرفية لشوقي ثم انتقلت إلى خليل مطران بعد وفاة شوقي سنة ١٩٣٢م.

وقد كانت أشعار أبو القاسم الشابي التي نشرت في تونس، والتي نشرت في مجلة (أبولو) بالقاهرة سبباً في شهرته الشعرية، وظل القراء يطالبون بنشر ديوانه، ويتحدثون عن مصير أعماله الأدبية، ويبالغون في

تعطي صورة حسنة تليق بسمعته الشعرية، مثل القصائد: البلد الصغير، النبي والهجرة، صلوات في هيكل الحب، الجنة الضائعة، إرادة الحياة، إلى الشعب، نشيد الجبار، فلسفة الثعبان المقدس، الغاب...، وقصائد أخرى بعضها طويل وبعضها قصير، وربما ذهبنا إلى حذف بعض البعض من القصائد المختارة السابقة فيها كثير من التكرار وما يشبه التكرار، فقد كان الشابي يكرر بعض الكلمات والتعابير ويبالغ في ذكر المتعاطفات التي ليس بينها سوى حرف عطف، وقد عاب هو نفسه ذلك على شعره، في إحدى رسائله إلى صديقه الحليوي عند حديثه عن قصيدة «قلب شاعر» التي يقول فيها:

كل ما هب و ما دب، وما

نام، أو حام على هذا الوجود

من طيور، وزهور، وشندي

وينابيع وأغصان تميد

وبحار، وكهوف، وذرى،

ويراكين، ووديان، وبيد

وضياء، وظلال، ودجى،

وفصول، وغيوم، ورعود

وثلوج، وضباب عابر،

وأعاصير، وأمطار تجود

وتعاليم، ودين، ورؤى،

وأحاسيس، وصمت، ونشيد

فقد نشرت كل آثاره، ولم يبقَ منها شيء في طي الكتمان. لقد رفع الشابي اسم تونس عالياً في عالم الشعر، وغنى أناشيد الحياة والخلود وأصبح لدى المثقفين رمزاً للشعر والشعراء وصاحب مدرسة أثرت في مختلف شعراء الجيل، واعترف له الكثير بهذا التأثير.

تقدير كمياتها وشكلها ومضمونها وأجناسها: شعرا ونثرا ومسرحية وأقصوصة.. الخ، وقد أثار كل ذلك جدلاً بين المثقفين منذ وفاته، أي قبل صدور الأعمال الكاملة للشابي، وقبل أن تنشر مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين أعماله الكاملة في ثلاثة مجلدات مع ثلاثة أخرى اشتملت على مصادر ما كتب عنه، وما نشر من آثاره، وأمّا الآن



ودبج العديد من المقالات نشرها في الصحف والمجلات العربية؛ توفي في بيروت ودفن بدمشق بتاريخ ١٤/٥/١٩٦٨م في سفح جبل قاسيون، وبناء على وصيته كتب على ضريحه بيت من الشعر من نظمه يقول فيه:

أُمُّ اللُّغَاتِ قَضِيَّتُ العَمْرَ أَخْدَمَهَا

فهي الشفيعه في غُضْران زلاتي

وقد أهدى مكتبته الزاخرة بأمهات الكتب القيمة والنادرة إلى مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق.

لقد تولى الأمير مصطفى الشهابي مناصب إدارية وسياسية وعلمية عالية منها:

وزارة المعارف عام ١٩٣٦م، محافظ حلب ١٩٣٧-١٩٣٩م، وزارة المالية والاقتصاد والإعاشة، محافظة اللاذقية ١٩٤٣م-١٩٤٥م، الأمين العام لرئاسة مجلس الوزراء، محافظ حلب مرة ثانية، محافظ اللاذقية مرة ثانية، وزارة العدل، عين وزيراً مفوضاً لسورية في مصر ١٩٥١، ثم سفيراً فيها، انتخب عضواً عاماً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٣٦م، وعضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية في مصر، وانتخب عام ١٩٥٩م رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق خلفاً لشاعر الشام خليل مردم بك، وظل رئيساً له حتى رحيله؛

الفتح الإسلامي بقيادة أبي عبيدة بن الجراح؛ إنه الأمير، سليل الأمراء مصطفى الشهابي الذي نهل حب الوطن والعروبة عن أخيه الشهيد (عارف الشهابي) أحد شهداء السادس من شهر أيار ١٩١٦م الذين أعدمهم جمال السفاح في بيروت في سبيل القضية العربية؛ لذا نشأ فقيدنا غيوراً محباً للعرب والقومية العربية والجهاد في سبيلهما، فكان من أفراد الرعيل الأول الذين عملوا على استقلال الأقطار العربية، فانخرط في بعض الجمعيات العربية السرية والعلنية التي قامت منذ أوائل القرن العشرين في دمشق والآستانة؛ وكان في ذلك يسير على خطى شقيقه الشهيد (عارف الشهابي) الذي قال في إهدائه معجم الألفاظ الزراعية أنه: «علمني أن أحب لغتنا الضادية، وأن أبذل جهدي في خدمتها».

تلقى مصطفى الشهابي علومه في دمشق، ثم استانبول، ثم رحل إلى فرنسا، وانتسب إلى مدرسة «غرينيون» وتخرج منها عام ١٩١٤م حاملاً شهادة مهندس زراعي، وبعد عودته لأرض الوطن تابع البحث العلمي مستفيداً من إتقانه الفرنسية والتركية بعد العربية، لم تشغله مناصب الدولة عن المطالعة والبحث والتأليف، نشر كثيراً من المصطلحات الزراعية، وألقى محاضرات كثيرة في دمشق والقاهرة وبيروت وبغداد،

- دار الهنا ١٩٥٦م - منشورات معهد الدراسات العربية في القاهرة، ج٢- نهضة مصر - القاهرة، ١٩٥٧م.

- القومية العربية- تاريخها وقوامها ومراميها- القاهرة ١٩٥١م- ١٩٦٦م.

- معجم المصطلحات الحراجية (بالإنكليزية والفرنسية والعربية) نقله إلى العربية، دمشق ١٩٦٢م يشتمل على ألف مصطلح.

- أخطاء شائعة في ألفاظ العلوم الزراعية والنباتية ١٩٦٣م.

- كتاب الشذرات، بيروت ١٩٦٦م.
- الرسالة النباتية، تضمنت أسماء عربية لنباتات زراعية، دمشق ١٩٣٢م.

- شارك في المعجم العسكري، وكان رئيساً للجنة التي نقلت ألفاظ المعجم الكندي العسكري إلى العربية، أصدره الجيش العربي طبع بدمشق ١٩٦١م على قسمين: فرنسي عربي، وإنكليزي عربي.

- نظر في كتاب (تطور الزراعة في الشرق الأوسط) لمؤلفه (كين) وأشرف على ترجمته إلى العربية التي طبعت في القاهرة ١٩٤٩م.

لقد اشتهر الأمير مصطفى الشهابي بغزارة علمه والدليل على ذلك كتبه العلمية في موضوع الزراعة ومصطلحاتها والمعاجم التي حوت ألفاظاً لنباتات ومصطلحات

وقد بنى داراً للكتب بمدينتي حلب واللاذقية حين كان محافظاً فيهما.

وقد صدرت له المؤلفات التالية:

- كتاب الزراعة العملية الحديثة، دمشق، مطبعة الاعتدال ١٩٢٢م، وطبع في سنة ١٩٣٥م.

- كتاب الأشجار والأنجم المثمرة، دمشق ١٩٢٤م.

- كتاب البقول، دمشق ١٩٢٧م.

- كتاب الدواجن، دمشق، المطبعة الحديثة ١٩٣٠م.

- مسك الدفاتر الزراعية بالطريقة البسيطة، دمشق ١٩٢٣م.

- معجم الألفاظ الزراعية. (فرنسي-عربي)، دمشق ١٩٤٣م وط ٢ في القاهرة ١٩٥٧م في ٧٠٠ ص، مع فهرس في مئة صفحة ومقدمة في (٢٢) صفحة- أصدرتها الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية (٩٠٠) لفظلة زراعية فرنسية ولاتينية مع مقابلها بالعربية.

-المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث (محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات- اللغوية والأدبية - في معهد الدراسات العربية في القاهرة، طبعت في المجمع العلمي العربي بدمشق، عام ١٩٦٥م، مطبعة الترقى.

-محاضرات عن الاستعمار ج١- مصر

الكتاب العلمي مثل الوصف الجميل الذي وصف به الجاحظ الكتاب:

«.. والكتاب وعاءٌ ملئٌ علماً، وظرفٌ خَشِيٌّ ظرفاً، وإناءٌ شَحَنٌ مزاحاً وجداً».

أما ما أتلفنا به فقيدنا الأمير مصطفى الشهابي من أدب أخذ فقد تمثل في محاضراته وأبحاثه التي كتبها في بعض الدوريات العربية، وخاصة بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجلتي «المقتطف» و«الهلال» في القاهرة، وقد تم جمع بعضها في كتابه «الشذرات». وهو مطبوع على حسب الأدب بشتى ألوانه، وقد قرأ الأدب العربي القديم، كما طالع ما أصدرته المطابع الحديثة من روائع الأدبين الفرنسي والعربي لكبار كتاب هاتين اللغتين، واعتبر من كتاب العصر المرموقين، ومن أحسنهم خبرة في شؤون الحكم والدولة، وقد ظهر إنشاؤه رفيع المستوى عالي الأسلوب، هاهو يصف مدينة دمشق التي ضمّه ثراها كما جاء في «الشذرات» قائلاً: «والتفتُ إلى دمشق، فإذا بها غرقى في خضم أخضر كأنها ياقوتة في نثير من الزمرد، والجامع الأموي يبرز عظيمًا جباراً بماذنه الشاهقة وقبته العالية».

وكما امتلك الأمير مصطفى الشهابي ناصية البيان الأدبي النثري، كذلك رزق موهبة القريض، وبذلك يكون قد اكتسب الأمانة بطرفيها السيادي والأدبي..

زراعية باللغة العربية والفرنسية والإنكليزية؛ وقد كتب الأديب الكبير الراحل الأستاذ عبّاس محمود العقاد بحثاً طويلاً إثر صدور «معجم المصطلحات الحراجية» الذي طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٢م. بعنوان «كتاب الشهر» ومما جاء فيه: (١)

«..وليس هذا المعجم، في الواقع، الجديد بالنسبة إلى العالم الباحث مؤلفه القدير، سواء في الكثير من مفرداته، أو في الطريقة العلمية التي يتوخاها عند نقل المصطلحات أو تعريبها أو وضعها بما هو معروف عنه من سنة المعرفة بعلمه، وفرط الغيرة على لغته، وحسن التصرف في أدائه لعبارته، وقد اطلعنا على هذه الطريقة من معجمه السابق للألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية، ووقفنا على شيء من تفصيلاتها التي يعرضها للمناقشة في جلسات المجمع اللغوي، وهو علم من أعلامه النابهين الذين يمحصون له أكبر العون في علم النبات خاصة، وفي غيره من العلوم على الإجمال».

وهذا يذكرنا بأديب الأمة العربية الكبير: أبي عثمان الجاحظ، الذي نظر كتباً كثيرة في العلوم وخاصة كتابه: الحيوان الذي حوى أبحاثاً نادرة وهامة بهذا الموضوع إلى جانب إضاءات أدبية رائعة جاءت بهذا

العصماء التي قالها في وصف القاهرة ومشاهدها وآثارها، فأحبنا أن نتحف بها قراء الهلال لأنها من عيون الشعر البليغ». والقصيدة طويلة (٤٥) بيتاً موزعة على المقاطع التالية:

تحية القاهرة- القناطر الخيرية- القلعة
-الذهبيات- حديقة الحيوان- حديقة
النبات- دار الكتاب- دار الآثار.

ونكتفي بذكر المقطعين الأول والأخير (تحية القاهرة) فقال مفتتحاً قصيدته:
(حنين إلى القاهرة):

يا ساكنين حمى الأهرام إن لكم
في القلب ذكرى نناجها فتحيينا
هلاً أحبتم أخوا ود يبثكم
من «قاسيون» تحيات المشوقينا
لله نيلكم المخضل جانبه
حاكت سوائله أخلاقكم لنا
فكم قطفنا جنى اللذات يانعة
من شاطئيه وكم رحنا وكم جينا
والزهري «القبة» الخضراء يُغبطننا
و«عين شمس» ترى صفواً تأخيننا
والطير قد رُفرت تشدو لنا طرباً
والروض قد أرقصت منها الأفانينا
لو لم تكن غادة «الزيتون» فاتنة
ما ضُمن الآي زيتوناً ولا تينا
إنها تحيات وأشواق حارة يبثها قلب
إنسان شاعر مفعم بحب العرب وديار

وقد اشتهر الأمير مصطفى الشهابي عالماً وأديباً ورئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق، ولم يعرف شاعراً، وذلك لعدم اهتمامه بتمية هذه الموهبة الجميلة التي برزت بشكل واضح عند شقيقه الشهيد (عارف الشهابي) الذي أبدع قصائد كثيرة مميزة عبّر فيها عن نضاله ونضال إخوانه الأبطال الذين قارعوا الحكم التركي الجائر والذين استشهدوا صباح السادس من شهر أيار لعام ١٩١٦م.

ولقد نظم الأمير مصطفى الشهابي الشعر في بعض المناسبات المعدودة، وأشهر قصائده هي: قصيدة (حنين إلى القاهرة) وقد نشرها في مجلة الهلال المصرية لصاحبها جورجى زيدان القاهرة عدد آذار (مارس) ١٩٣٥م، وقد استهلها المحرر بهذا المقطع الجميل:

«نشرت الهلال عدة مقالات للأمير مصطفى الشهابي حوت خطرات أدبية ونظرات اجتماعية كانت موضع إعجاب القراء، وبرهنت على أن العلم يغذي الأدب والأدب يستفيد من حقائق العلم. فالأمير عالم جليل في النبات والحيوان، وهو إلى ذلك أديب اتخذ الأدب هوى يميل بطبعه إليه، ومنةً يُسرّي بها عن نفسه. وربما كانت ناحيته الشاعرية مجهولة حتى عن الكثيرين من أصدقائه. وقد أسمعنا هذه القصيدة

يا ساكني مصر لا تنسوا مودتنا
 إنّ الوفاء لكم أضحي لنا ديننا
 أنتم بنو عمنا، فاجفوا بساحكم
 حمراء بالشر تغريكم وتغرينا
 الخلق والخلق والعادات تجمعنا
 والدين واللغة الفصحى وماضينا
 كما نشرت مجلة الهلال، عدد أيار
 (مايو) ١٩٢٥م قصيدة للأمير مصطفى
 الشهابي وهي بعنوان: (في وداع القاهرة)،
 وقد استهلّت المجلة هذه القصيدة بالمقدمة
 الجميلة التالية:

«زار القاهرة في شتاء هذا العام الجليل
 الأمير مصطفى الشهابي وقضى فيها
 أيام راحته السنوية بين أصدقائه وعارفي
 فضله من المصريين. وعند عودته إلى
 وطنه دمشق، ودع القاهرة وداعاً حاراً بهذه
 الأبيات الرقيقة التي تتم عن حبه لوادي
 النيل وشوقه إلى إخوانه المصريين تقتطف
 منها قوله:

أوأه يا نسمات النيل ساجيةً
 كم ضمك الصدرُ شهاقاً وزفّاراً
 وكم تعطرت بالريحانِ وامتزجتُ
 ريباك بالروضِ أفناناً وأزهاراً
 ما إن شقتك حتى خلتُ مُتعثاً
 ماء الحياة جرى في الجسم أنهاراً
 كما أنّ للأمير مصطفى الشهابي

العرب، ومن أجدر بالحب من عاصمة المعزّ
 لدين الله (القاهرة) إحدى كبرى عواصم
 العالم العربي ومن أكثرها رعاية ومودة
 لأبناء العروبة المخلصين والمجاهدين
 في سبيل نصره القضايا العربية، فقد
 استضافت (القاهرة) المجاهدين: الدكتور
 خالد الخطيب وخير الدين الزركلي وسامي
 السراج، ومحب الدين الخطيب وغيرهم،
 هذه المدينة التي تزخر بالأوابد التاريخية
 مثل الأهرام، والنيل العظيم، الذي طالما
 كان الأمير مصطفى الشهابي يتنزه على
 شاطئيه متنقلاً بين أحياء القاهرة الجميلة:
 القبة الخضراء، وضاحية «عين الشمس»
 التي تربعت على أرضها جامعها الشهيرة.
 ونقرا ما تختزنه ذاكرة الأمير مصطفى
 الشهابي من ثقافة قرآنية كريمة، بقوله:

لو لم تكن غادة «الزيتون» فاتنةً
 ما ضُمن الآي زيتوناً ولا تيناً
 إنّها أجمل تحية لحي الزيتون القاهري
 من شاعر عربي سوري جمع بين جنبه حب
 عاصمة العرب وحب الأدب.

ومن ثم يرسل الأمير مصطفى الشهابي
 تحية أخرى للقاهرة ذاكراً أوامر المودة
 والحب التي تجمع أبناء العرب إلى جانب
 القرابة بالنسب والدم والعادات والأخلاق
 العربية المستمدة من الدين الإسلامي
 الحنيف، واللغة العربية الفصحى، والتاريخ
 المجيد للأمة العربية التي تجمعنا فقال:

فيزداد المنظر جمالاً، ولا ينسى الأمير مصطفى الشهابي الجانب الوطني لهذه المدينة فعلى أرضها وفي معتقلاتها تم نفي أبطال ومجاهدين أشاوس دافعوا عن استقلال وطنهم (سورية) فلقوا التنكيل والاعتقال أمثال العلامة فارس الخوري، والقانوني البارز الأستاذ فوزي الغزي الذي كان في غاية التفاؤل والحبور - على الرغم من قساوة المنفى ما يتسوا من الفوز ونيل الحرية وهذا ما كان.

و ذات يوم زار الأمير مصطفى الشهابي المجلس النيابي السوري فلما رآه الشاعر «بدوي الجبل» وكان واحداً من النواب، نظم البيتين التاليين مداعباً، وبعث بهما إليه مع أحد الساعة:

ما قول مولانا الأمير بمجلس

جمع الغباء طريفه وتليده

وبسادة لولا السنون وحكمها

كانوا بقانون الرقيق عبده

فأجابه الأمير مصطفى الشهابي على

الفور بقوله:

الله يعلم أن شاعر شامنا

يُبيد من الرأي الحكيم سديده

هذي «النواب» لو تركن وشأنها

هدمت قديم بناتنا وجديده

مقطوعات شعرية قالها في مناسبات خاصة وعامة وقصائد جاءت ضمن محاضراته مثل (رحلة إلى دير الزور والجزيرة)، ومما جاء فيها قوله:..

هذه خلاصة ما دونته في تلك الرحلة، ولقد ودعت الجزيرة بالأبيات التالية: نظمتها في السيارة بين الرقة و حلب، وجاءت القصيدة بثلاثة عشرة بيتاً منها قوله:

يا وقفة عند المغيب بحسكة

والشمس تقذف نورها المنثورا

والماء في الخابور يشكو علة

والريح تَسْطُرُ في المياه سطورا

أذكرتني أسداً هنالك قلمت

أظفارها وقشاعماً وصقورا

وبعثت في النفس الأسى فتخيلت

«فوزي»^(٧) يحدث جاثماً مسرورا

متهللاً في نضيه متيقناً

من فوزه متفائلاً محبوراً

وكما وصف لنا الشاعر الأمير مصطفى

الشهابي حبه وأشواقه للقاهرة فإن حبه

لربوع وطنه الأم (سورية) لا يقل عن حبه

لقاهرة، وهذا أمرٌ طبيعي، هذا الحب الذي

يبديه الوطني الأمير مصطفى الشهابي

نحو حاضرة الجزيرة السورية (الحسكة)

التي يزينها ويسقي حدائقها نهر الخابور

المعطاء الذي تتعكس عليه شمس المغيب

وبعد تلك الإضاءات على مسيرة أمير
جمع أمانة الحسب والنسب والأدب تقدمها
لروحه الطاهرة عربون محبة ووفاء وهو
أحد رجالات أمتنا العظام، وإن أمة لا تنسى

أبناءها البررة لهي أمة حية، وكذلك حال
أمتنا العربية الخالدة الحانية على أعلامها
ومفكرها، وأبطالها الميامين.

الهوامش

- ١- مجلة «قافلة الزيت» التي تصدر في الظهران ع٣، المجلد ١١ تموز - آب ١٩٦٢م.
- ٢- فوزي الغزي، واضع أول دستور حديث لسورية.

المصادر والمراجع

- ١- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين- عبد القادر عيَّاش- دمشق، دار الفكر، ط(١)، ١٩٨٥م.
- ٢- حديث العبقریات، عبد الفني العطري- دمشق، دار البشائر، ط(١) ٢٠٠٠م.
- ٣- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج١٣، ج١، كانون الثاني، ١٩٣٣م.
- ٤- مجلة الهلال- جورجي زيدان- القاهرة، العددان: آذار(مارس)/ وأيار (مايو) ١٩٣٥م.



ينمّي مهاراته الاجتماعية، فالطفل الذي يبدو منشغلاً بلعبته، هو في حقيقة الأمر ينتبه جيداً للأطفال الذين يشاركونه المكان والدليل على ذلك أنّه يرمقهم بنظرة من حين لآخر.

ومن هذه الحقائق يتضح لنا أن الآباء لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً كثيراً في اختيار رفاق أطفالهم، وكل ما في استطاعتهم أن يقوموا به هو أن يقيموا في منطقة يوجد فيها أطفال آخرون تقرب سنهم من سن أطفالهم على قدر المستطاع، كما أنهم يستطيعون أيضاً اختيار مكان تتوافر فيه الشروط الملائمة للعب.

وسيقف الآباء عند هذا الحد إذا جاء دور اختيار الأطفال الذين سيكون لهم أثر في حياة أطفالهم، فشبّه الشيء منجذب إليه... وكل ما يجب أن يصنعه الأب حيال هذا الأمر هو أن يوجد لطفله مجموعة من الأصدقاء الذين سيشعر في وجوده بينهم بأنّه سعيد، وبأنّ في استطاعته أن يعبر عمّا في خاطره.

وقد يشكو الآباء أحياناً من وجود طفل في الحي لا يريدون أن يختلط أبناؤهم به، لئلاّ يكتسبون منه العادات القبيحة التي لا يرغبون بها.

ففي مثل هذه الأحوال يمكن لهؤلاء الآباء أن يمهّدوا لأطفالهم مجال اللعب في

جداً محدودة تماماً بالتجمعات القريبة منهم، إلاّ أنّه قد لوحظ أنّ الأطفال الأكثر ذكاءً والذين هم في سنّ واحدة يرتاحون إلى رفقة بعضهم بعضاً، أمّا أولئك الذين يتمتعون بذكاء متوسط فإنهم يتصادقون، في حين أنّ الأغبياء يلعبون مع أطفال يصغرونهم في السن إذا لم يجدوا أطفالاً في سنهم يلعبون معهم.

حيث يقول الخبراء إنّ الطفل يشعر بالميل إلى الارتباط بالأصدقاء من عمر عام أو عامين.. فعلى الرغم من جهل الطفل في هذه السن بمبادئ اللعب بين الصغار والتي تقوم على المشاركة وإعطاء الفرصة لكل واحد ليأخذ دوره في اللعب.. إلاّ أنّ لديهم القدرة على الارتباط فيما بينهم، مؤكّدين أنّه كلما بكرّ الطفل في تكوين الصداقات - وهذا بالطبع يتطلّب مساعدة من الأبوين - ازدادت ثقته بنفسه، وتكمن متعة الصداقة في هذه السن بالنسبة للطفل في اكتشافه وجود أناس آخرين قريبين منه بخلاف أبويه، إضافة إلى إحساسه بالإثارة لوجوده بين من هم في مثل سنّه ويستطيع الأبوان مساعدة طفلهما من خلال توفير الفرص التي تتيح له الالتقاء بمن هم في مثل سنّه، فعلى الرغم من أنّ شكل اللعب بين الأطفال في هذه المرحلة يتخذ طابعاً فردياً، حيث ينشغل كل واحد منهم بلعبة منفصلة، إلاّ أنّ مجرد وجوده مع أطفال في مثل عمره

والبراعة في إلقاء الكرة أو إمساكها.. يبيد أنه لا تلبث أن تظهر عليهم بالتدرج علامات تدل على الاهتمام والتفنى في اللعب، حتى إذا ما بلغوا مرحلة الصبا كان كل منهم قد تخصص في ناحية من نواحي لعب الكرة وامتاز بالبراعة فيها.

وتمّ دليل آخر على قوة الميل الاجتماعي لدى الأطفال، يتمثل لنا في كثرة الألعاب والمباريات المختلفة التي يساهمون فيها، وكذا في اهتمامهم بألعاب الجماعات.. وهم يجدون في وقتهم متسعاً لكل شيء إبان سني الدراسة، في حين أن اهتمامهم ينصرف فيما بعد إلى أمور أكثر أهمية وأعمق غوراً، فلا يجدون وقتاً يهبونه للألعاب المختلفة.. وقد لوحظ أن الطفل يشترك عادة، وهو في التاسعة من عمره، في أكثر من أربعين لوناً من ألوان اللعب، في حين أن القسم الأكبر من الوقت الذي يشغله هذا الطفل في الانهماك بهذه الألعاب يجعل في استطاعة الفتى ابن السادسة عشرة أن يساهم في نصف هذا العدد فقط من الألعاب.

ويبدأ الأطفال بتكوين جماعات متماسكة، أو نوادٍ أو فرقٍ من الأصحاب قبل أن يصلوا السنة التاسعة أو العاشرة من أعمارهم.. وتكون هذه الجماعات نواة لأنواع مختلفة من النشاط..

وتأمين مكان خاص للألعاب المنزلية من المسائل الهامة كي يتخذ الأطفال

المنازل، حتى تستطيع الأمهات الإشراف عليهم..

وإذا اتفق أن اندسّ بينهم طفل غير مرغوب به، أمكن للأمهات ردعه وردّه للصواب وإيقافه عند حدّه، لأنّ معظم الأطفال لا يتوانون عن بذل الجهد للإبقاء على الرفاق بدلاً من أن يُحرّموا من رفقتهم.

ففي سن مبكرة يبدأ الميل الاجتماعي القوي الذي يُحفّز الأطفال على الرغبة في رفقة الأطفال الآخرين بطرق شتى.. فقد لوحظ أولاً أنّ هذا الميل ينشأ في بداية اللعب التعاوني عندما يساهم الأطفال معاً في اللعب بأكوام الرمل أو التآرجح معاً، أو عندما يجدون رفيقاً يتبادلون معه أنواع اللعب في مرح وغبطة، تارة بأفكار من عندهم، وأخرى بأفكار رفقاتهم التي تتجاوب مع أفكارهم.. ويجد هذا الضرب من اللعب الأساسي مخرجاً له في ألعاب الدوائر أو الحلقات التي يلعب فيها كل طفل دوراً رئيسياً بالمناوبة.. ومنذ السنة الرابعة أو الخامسة وحتى السنة العاشرة من العمر يلعب الأطفال لعبة (الاستغماية) وغيرها من ضروب اللعب التي تستلزم نشاط الجماعة كلّها.. ومن هذا الوقت يصبح هذا التعاون ملحوظاً بشكل أوضح.

وعندما يلعب الأطفال الكرة في البداية فإنهم لا يكتسبون أيّ مقدار من الخبرة

أفرادها معارضة شديدة عند محاولتهم تحقيق رغباتهم، شدَّ أحدهم أزر الآخر، وتعاونوا للتغلب على هذه المقاومة وإرضاء رغباتهم.. وقد دلَّت الدراسة التي قام بها بعض الخبراء على أنَّ الإجماع يتركز بوضوح في حيِّ خالٍ من الحداثق أو الملاعب، ولا تصلح منازل الأطفال فيه للعب.. والأدهى من هذا أنَّ أيَّ نشاط يقوم به الأطفال - حتى مجرد لعبهم في الشارع - يُعدُّ ضاراً ومؤذياً.. وقلة الأحداث والجرائم في أطراف الحي - حيث تتوافر الساحات الفسيحة والحداثق - تدل دلالة حاسمة على العلاقة المباشرة بين السلوك وبين الإمكانيات الكافية للعب.

أمَّا الرغبات التي تتصرف إلى نواحي النشاط غير المرغوب بها فيمكن تلافيتها بإنشاء مهرجانات صغيرة للأطفال.. للبنين والبنات على السواء، لتدريبهم على النظام والطاعة.. وبهذه الوسيلة الموقّعة، مع قدر من الإشراف، سيجد الأطفال منفذاً لما يصادفونه من مضايقات في حياتهم اليومية، ودافعاً لهم للتحمليِّ بعادات التعاون مع الأصدقاء والولاء للجماعة.

ويفيد الباحثون الاجتماعيون أنَّ الصداقة تحسن حالة الأطفال النفسية.. والأساس في الصداقة الحقيقية.. العطاء والمشاركة والتواصل، والوفاء، إضافة

(الصبيبة خاصة) منه مسرحاً لألعابهم.. ولذلك فهم يشيّدون الأكواخ، ويحفرون الكهوف، ويجهّزون الدور الأرضي أو القبو بما يجعله صالحاً لأغراضهم.

ومع أنَّ الفتيات الصغيرات لايعتمدن على السرور المُستمد من ألعاب الجماعة إلاَّ أنَّهنَّ يُكوّنن أحياناً جماعات تكون قصيرة العمر عادة.

وتتبادر إلى أذهان الأطفال فكرة تكوين الفرق أو الجماعات -أو جماعات شغب في حالة الانحراف - حين تضيق بهم الأمكنة الطبيعية للعب، كالملاعب أو الأندية أو الحداثق.. وقد ذكّر أحد الخبراء الذين درسوا هذه الفترة من حياة الطفل بعناية واهتمام، أنَّ فكرة تكوين الجماعات هي (مجهود ذاتي يبذله الأطفال لخلق مجتمع، عندما يعوزهم المجتمع الملائم لهم...)، والفرقة الحقّة مؤسسة جماعية أكثر متانة من جماعة مكوّنة من الأطفال المتجاورين في السكن الذين يجتمعون معاً ليلعبوا الكرة أو ليصنعوا زورقاً أو ليلعبوا معاً أيَّ ضرب من ضروب اللعب.. فالفرقة تجتمع لإيجاد وسيلة لقضاء الوقت، ثمَّ لا تلبث أن تجدد ضروب النشاط المختلفة التي يمارسونها أساساً لتقاليد تدريجية تتطبع بها الجماعة، فتتشأ مثلاً عادة الولاء للجماعة واحترامها... حتى إذا ما تعارضت مصالح الفرقة مع مصالح المجتمع، وواجه

الأصدقاء.. في هذا العصر المادي، ولم يعد الأطفال يبحثون عن رفاقهم وأصدقائهم بل يبحثون عن أطفال تتطابق رغباتهم وأحوالهم الاجتماعية معهم ليتحقق معنى الصداقة الحقيقية وأهدافها بينهم.

وحول هذا الأمر أكد الباحثون أن الصداقة والعلاقات الاجتماعية الفاعلة لدى الأطفال، وتحدثهم مع الآخرين تبقى الدماغ لديهم نشطاً وتحافظ على وظائفه الحيوية والذهنية، وتحسن من الحالة النفسية لهم.. وأوضح هؤلاء أن ممارسة النشاطات الفكرية والذهنية كالقراءة ولعب الكرة والرسم والتعلم على الحاسب تنشط الوظائف الذهنية والإدراكية وتحفظها، ولاسيما في مرحلة المراهقة.. كما أن التحديث والدراسة مع الأصدقاء والأسرة والتفاعل في المجتمع الطفولي قد يكون فعالاً في ذلك أيضاً، وفي ضوء ذلك فقد أكد الخبراء ضرورة تشجيع أطفالنا على تنمية مهاراتهم الاجتماعية والذهنية والفكرية، إذ إن التواصل الاجتماعي له تأثير إيجابي في تحسين أداء الأطفال في دراستهم وتنمية قدراتهم العقلية ومواهبهم.. لذا لا بد من القول: إن العلاقات الاجتماعية الحالية لأطفالنا يجب ألا تكون قاصرة وهشة لذا فهي تحتاج إلى إعادة صياغة تربوية.. كي نحافظ عليهم.

وبهذا نخلص إلى القول إنه لا بد من

إلى وجود الثقة والاستغناء عن واحدة من هذه السلسلة تفقد الصداقة بين الأطفال مصداقيتها وقيمتها.

والصداقة تأتي ويشعر بها الطفل عندما يكون الصمت بين طفلين به راحة بالغة، وهناك فرق بين الصداقة والحب، فالحب أعمى لكن الصداقة عكس ذلك تماماً لأن الصداقة تكون بين يدي الطفل لكن لا يستطيع الوصول إليها بسهولة فهي «السهل الممتنع».

لكن يا ترى هل هذه القيم التي يتضمّنهما المعنى الحقيقي للصداقة لا تزال سارية المفعول بين الأطفال في زماننا هذا؟ والأمر يستدعي التساؤل مرةً أخرى: هل الصداقة التي نراها حالياً بين أكثر الأطفال قاصرة وفقدت براءتها لأن العوامل المادية طغت عليها والفوارق الاجتماعية شوّهت معناها؟، ولماذا لم نعد نرى تلك الصداقات التي كانت تربط بين الأطفال في حقبة سابقة؟؟

وهنا يجدر القول إن طبيعة الحياة غيرت معنى الصداقة الطفولية، حيث يشعر بعض الأطفال أن هناك فوارق مادية واجتماعية بينهم وبين بعض أصدقائهم، حيث يصعب عليهم رفقتهم والتحدث إليهم، كما أن القيم الحقيقية للصداقة الطفولية التي كانت سابقاً فقدت الكثير من صفاتها وحميميتها بين اللدات والأقران من الأطفال

الأسرار والاهتمام المتبادل والصداقة تعلم الطفل معنى التعاون والعمل الجماعي وفي الوقت نفسه تنمي روح المنافسة الإيجابية وتشجع على التقدم والتحسين كما أن للصداقة دوراً محورياً في حياة الطفل فهي تقوي شخصيته وتساعد على تطوير المقاييس الأخلاقية لديه مثل معاني المساواة والعدل والتعاون والمشاركة، أيضاً تعلمه الصداقة الأسلوب الأمثل في التعامل مع الآخرين ويجد الطفل في الصديق شخصاً قريباً إلى نفسه يمكنه أن يلعب معه ويتحاور معه على مستوى واحد إضافة إلى أن الصداقة تحرر الطفل من الأنانية وتعلمه التسامح والمصالحة مع الآخرين.

تشجيع الطفل على الاختلاط بحرية في تبادل الألعاب مع أولاد الجيران والمساهمة في النواحي المختلفة للنشاط المدرسي، والاشتراك في النوادي الرياضية مع الأصدقاء، والذهاب إلى المهرجانات الثقافية والمسرحية، وهي ميدان واسع لتعلم الاختلاط والحياة الجماعية.. كما يجب تشجيع الطفل على المطالعة بكثرة، كي يكتسب معرفة فيما يتعلّق بكيفية حياة الآخرين وطرق تفكيرهم وتصرفاتهم إزاء ما يعرض لهم من أمور.. حيث لا يمكن أن تقوم السعادة من دون الحياة الاجتماعية بحال من الأحوال.

ولأنّ علاقات الصداقة اختيارية فهي مبنية على الثقة والتسامح والمشاركة في

المراجع

- ١- نشأة الشخصية: ف. س. موخينا - دار التقدم موسكو ١٩٨٨ م.
- ٢- علم نفس الطفل: أ. أ. لوبليستكايا، ترجمة: د. بدر الدين عامود، د. علي منصور، منشورات وزارة الثقافة- دمشق.
- ٣- محاضرات علم النفس العام: د. ليلى داود، كتاب جامعي، دمشق.
- ٤- نمو الشخصية: جيروم كاغان، ترجمة: صلاح الدين المقداد، مراجعة د. عبد الحميد النشواتي.
- ٥- علم النفس التربوي: تأليف: الدكتور كمال بلان، إسماعيل ملحم، خالد عبد الرحيم، مطبوعات وزارة التربية دمشق ١٩٨٥ م.
- ٦- علم النفس الاجتماعي، مشكلات الطفولة، تأليف مارثين هربيرت، ترجمة: يونس عبد الحميد نشواتي.
- ٧- مشكلات الآباء والأبناء، مختار حمزة.
- ٨- الصحة النفسية، الدكتور نعيم الرفاعي.
- ٩- التوجيه والإرشاد النفسي، الدكتور حامد عبد السلام زهران.
- ١٠- علم نفس الطفولة والمراهقة، الدكتور مالك مخول، منشورات جامعة دمشق ١٩٨١-١٩٨٢ م.

- ١١- سلوك الطفل، ترجمة الدكتور فاخر عاقل، الطبعة الثانية ١٩٨٧م، تأليف د.فرنسيس ل. أيغود. لويز ب. أيمز.
- ١٢- علم النفس التربوي، د. علي منصور، ١٩٨٧م.
- ١٣- مشكلات الأطفال اليومية، للدكتور دوجلاس توم، ترجمة الدكتور إسحاق رمزي، دار المعارف بمصر، ط٥، ١٩٥٢م.
- ١٤- كل شيء يبتدئ من الطفولة، سرغي مخالکوف، ترجمة دار التقدم ١٩٧٨م.
- ١٥- مشكلات الأطفال والمراهقين وأساليب المساعدة فيها، تأليف شاليز شارليز، هوارد نلماد، ترجمة د. نسيمه داوود ود. نزيه حمدي، عمان ١٩٨٩م.
- ١٦- الصحة النفسية، دراسة فسيولوجية التكيف، نعيم رفاعي ١٩٨٤م.
- ١٧- مساعدة الأطفال على حل مشكلاتهم، روث سترانج، ترجمة صلاح الدين لطفي، إشراف الدكتور عبد العزيز الأوسي، مكتبة النهضة، القاهرة.
- ١٨- مشكلات الطفولة والمراهقة، عبد الرحمن عيسوي، دار العلوم العربية، بيروت ١٩٩٣م.
- ١٩- علم النفس الاجتماعي، أوتوكينبرغ، ترجمة حافظ الجمالي، أستاذ علم النفس الاجتماعي في جامعة دمشق ط/٢ ١٩٦٧م.
- ٢٠- لو تصغون لأطفالكم، عدد من المؤلفين، ترجمة: هيفاء طعمة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨١م.
- ٢١- كيف نربي أطفالنا: التنشئة الاجتماعية في الأسرة العربية، القاهرة، دار النهضة العربية إسماعيل، محمد عماد الدين، إبراهيم، نجيب السكندر، منصور، رشيد عام ١٩٧٤م.
- ٢٢- الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث، بييرداكو، ترجمة وجيه أسعد.
- ٢٣- النمو الروحي والخلقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب د. عبد الرحمن الفصيلة، العيسوي.
- ٢٤- القدوة ودورها في تربية النشء، بركيان بركي القرشي.
- ٢٥- موقع مجلة أزياء، شبكة الإنترنت، أهمية الصداقة عند الأطفال.



كيف تستخدم الصورة بالعلاج النفسي البدني؟



هبة الله الغلاييني



الصورة جزء حيوي من الطب، وجزء حيوي من التعامل مع الجسد، وكثيراً ما تحدث المعالجون، قديماً وحديثاً، عن القوة العلاجية للصورة والخيال، وقد قام الكهنة - السحرة، أو الشامانيون، الممارسون للتطبيب السحري، بمحاولة علاج كثير من الأمراض بواسطة الإيحاء والتلاعب بالصورة والخيال والخدع الإدراكية وما شابه ذلك.

✿ كاتبة ومرجمة.

والباراسمبتاوي من ناحية أخرى، وخاصة فيما يتعلق بالاستجابات إزاء الضغوط النفسية والجسمية والاجتماعية.

لا تلعب الصور فقط دور المحفز للانفعالات، بل إنَّها يمكن أن تستخدم في ضبط الانفعالات والتحكم بها. ويبدو أن كل أشكال العلاج النفسي تستخدم الصور بشكل أو بآخر، سواء أكان ذلك خلال التحليل النفسي من خلال التداعي الحر للصور والأفكار والذكريات، وتحليل الأحلام وتفسيرها، أم من خلال السيكودراما أو الأسلوب المسمى الصرخة البدائية Primal scream أو غيرها من الأساليب العلاجية.

ويسأل علماء نفس الجشطات مرضاهم أن يتصوروا أنفسهم في كل عنصر من عناصر الأحلام التي يذكرونها؛ وذلك حتى تظهر انفعالات لم يكن المريض واعياً بها من قبل (كراهية الأب مثلاً). والمناقشة المتكررة لمثل هذه الموضوعات المقلقة أو المسببة للاضطراب قد تجعل المريض يعتادها ويعتبرها أمراً عادياً، ومن ثم تقل حدتها وشدتها بالنسبة إليه.

كذلك يتحدث المعالجون عن أهمية سلوك اللعب الخيالي في الكشف عن الحالات الانفعالية والتحكم بها؛ فالصورة العقلية المصاحبة للغضب قد يصاحبها صور ترتبط بالشفاه المزمومة، في حين قد ينعكس الحزن في صور ذات ألوان قاتمة

ترتبط الصور والخيالات بنشاط النصف الأيمن من المخ، ويلعب النصف الأيمن من المخ دوراً مهماً في تكوين الصور عامة، ومنها صورة الجسد، وفي الحكم على الأشياء والموضوعات والمواقف، وفي التعامل مع الانفعالات والعواطف، وكذلك الضغوط النفسية والاجتماعية. وهذه العلاقة بين موضوع الصورة في المخ والمنطقة المرتبطة بالانفعالات فيه، علاقة مهمة جداً؛ وذلك لأن الكثير من الوظائف العصبية المرتبطة بالصحة والمرض تكون ذات منشأ يتعلق بالانفعالات ومن ذلك مثلاً: ضغط الدم، وزيادة هرمون الأدرينالين، وضعف الكفاءة المناعية... إلخ.

يرتبط النصف الأمامي المحمل بالصور من المخ على نحو وثيق بالجهاز الطرفي Limbic System، وهو الجهاز المسؤول عن تنشيط الانفعالات والتعامل معها، وكذلك يرتبط بالهيبوثلاموس والغدة النخامية في المخ، وهما من الأجزاء الحاسمة في الحفاظ على وظائف الجسم وتنظيمها، وكذلك في زيادة كفاءة جهاز المناعة الخاصة بالجسم، وقد كشفت بحوث هانز سيلاي H. Selye وغيره منذ خمسينيات القرن الماضي عن تلك العلاقات المهمة بين المحور الخاص بالهيبوثلاموس والغدة النخامية وهرمون الأدرينالين من ناحية، وبين الجهازين العصبيين: السمبتاوي

- سوداء وزرقاء، وحركات بطيئة، وعندما تكون الصور جزءاً من اللعب يمكن تحويل هذه الصور القادمة إلى صور داخلية سارة يمكن اللعب بها وتحويلها وتغييرها إلى صور أخرى مبهجة تنعكس بدورها على حالة الشخص ومعاناته.
- ولنتذكر الشاعر غير المشهور، جيليت بيرجيس، الذي ذهب مصادفة إلى محاضرة غيرت حياته، فقد طلب المحاضر بداية من الحضور أن يضحكوا، وكيف ضحك بيرجيس معهم، وكيف تحول الابتسام والضحك لديه إلى أداة فعالة في مواجهة ضغوط حياته، ثم كيف قام بعد ذلك -وهذا ما يهمنا هنا- بقطع صورة وجهه بيتسم من إحدى المجلات ثم وضعها على جدار في غرفته، وكيف أنه كان في كل مرة كان ينظر فيها إلى صورة ذلك الوجه الباسم، كان بيتسم أيضاً، ثم كيف أنه بدأ يجمع صوراً عدة لأشخاص بيتسمون ويضحكون فتجمّع لديه ما يشبه الكتاب (الألبوم) من هذه الصور، وعندما عرضه على إحدى الممرضات في أحد المستشفيات ضحكت، وأخذت الكتاب إلى الأطباء والمرضى فضحكوا. واستمر بيرجيس يجمع الصور الضاحكة ويشكل منها البومات يرسل بها إلى أصدقائه الذين يعانون متاعب وأزمات، وفي كل مرة كانت تصل إليه إفادات بأن أحوالهم قد تحسنت وهكذا يتبين لنا كيف يمكن أن تكون صور
- بسيطة كافية لعلاج حالات معقدة.
يلخص بلوتشيك العلاقات بين الصور العقلية والإدراكية والانفعالات على النحو التالي:
- ١- تمثل الصور جانباً مهماً من الخرائط العقلية التي تقوم بتشكيلها داخل عقولنا حول البيئة، والتي تجعلنا نتكيف مع هذه البيئة بأشكال أكثر كفاءة.
 - ٢- تعكس الصورة العقلية الحالات الانفعالية.
 - ٣- من الممكن أن تقوم الصور بتكثيف الحالات الانفعالية وزيادة شدتها.
 - ٤- من الممكن استخدام الصور في اعتياد بعض الحالات والانفعالات، أو التقليل من شدتها.
 - ٥- يمكن أحياناً استخدام الصور في مساعدة الفرد على إمكانية السيطرة على بعض المواقف الشاقة أو المسببة للإحباط أو الضغط النفسي.

الصور وعلاج القلق

تشتمل الأعراض الجسمية المميزة للقلق على حدوث استثارة في الجهاز العصبي. وخاصة زيادة التوتر العضلي، وزيادة التنفس، والرعدة، والتوتر الحركي، والعرق، والألم، والأوجاع الحقيقية في العضلات، وزيادة معدل ضربات القلب، والتبول المتكرر والأرق. في حين تتمثل العلامات الانفعالية في الشعور بالهم الدائم

وكذلك من المراجعات التي قام بها بلاتر وغيره من الباحثين لهذه الأساليب ومنها:

١- القرين The double:

يشتمل هذا الأسلوب على استخدام «أنا مساعدة» auxiliary ego كي تلعب الدور الخاص «بالأنا الأخرى» alter ego أو الذات الداخلية الخاصة بالمريض. وهو أسلوب يشابه ما كانت تقوم به الجراة «جيمني» في أحد أفلام والت ديزني، على نحو خاص، من وراء الشخصية الرئيسية كي تعبر عن الأفكار والمشاعر العميقة والمتعلقة بهذه الشخصية الرئيسية. فإذا كانت هذه الشخصية الرئيسية واقعة في براثن صراع محتدم بين «صوتين داخليين» أو أكثر (أي جوانب مختلفة من الشخصية)، فقد يجري الاعتماد في هذا الأسلوب على أكثر من «أنا مساعدة». ومن الممكن أن يقوم هؤلاء «القرناء المتعددون بالحديث اللفظي معبرين عن جوانب مختلفة من الصراع، وذلك من أجل مساعدة الشخصية الرئيسية على رؤية القضايا المختلفة بشكل أكثر وضوحاً. إن الأمر هنا شبيه بتقسيم شخصية المريض على نحو مقصود وفقاً للمسارات الخاصة بالهو id والأنا ego والأنا الأعلى superego أو أي نوع آخر من التقسيم المناسب، «وبشكل يمكن» من استحضار الضغوط المتصارعة، وعلى نحو سريع، إلى مستوى السطح، حيث يمكن

والخوف ونفاد الصبر والأفكار المتكررة المجترة، والقابلة للاستشارة، وانخفاض مستوى التركيز. ويمكن إحداث استجابات القلق هذه من خلال الحالات الفسيولوجية المستثارة بفعل مثيرات متخيلة، أو من خلال مثيرات بيئية فعلية.

وهكذا، فإن الصور ذات المعاني الخاصة يمكنها أن تستثير حالة من حالات القلق التوقعي Anticipatory Anxiety من دون وجود مثير فعلي مخيف. وهكذا يمكن إثارة الخوف من خلال إثارة القلق التوقعي أو الاستباقي بوساطة صور متخيلة، كما يمكن خفض هذا الخوف أيضاً من خلال الصور، التي تكون مصحوبة بتدريبات ما على الاسترخاء.

لقد أظهرت دراسات عدّة أهمية التفكير بالصورة في علاج الألم المزمن وكذلك اضطرابات القلق والضغط، ويقوم هذا على أساس توجيه الشخص الذي يعاني القلق، ودفعه إلى التفكير في صور مبهجة وسارة، والابتعاد في الوقت نفسه عن التفكير في الصور والأحداث غير السارة.

الأساليب السيكودرامية Psychodramatic

Techniques:

هناك عدد من الأساليب التي يمكن تبنيتها أو الاعتماد عليها داخل المسار الخاص بالعلاج السيكودرامي. والأساليب التي سنصفها مختارة من كتابات مورينو نفسه،

الرئيسي هذا على الرغم من أن هذا الأسلوب قد يكون قاسياً ويحتاج إلى نوع خاص من المعالجة الحكيمة.

٣- النجوى The soliloquy:

خلال أسلوب النجوى هذا يظل الحدث الخاص بالدراما صامتاً لفترة من الوقت، خلالها يكون الشخص الرئيسي مستغرقاً في حالة من البوح أو الكشف عن أفكاره ومشاعره العادية للجمهور وللممثلين الآخرين المشاركين معه. إنه يلتفت برأسه ويتكلم على انفراد كأنه يخاطب نفسه، ومن خلال نغمة صوتية مختلفة أكثر همساً، يعبر عن مشاعره الداخلية في ضوء علاقتها بالحدث المسرحي الذي يقع الآن، ويقال إن هذا الأسلوب مفيد في إيصال المشاعر التي تستثيرها أحداث معينة وهي مشاعر قد لا تكون قابلة للملاحظة إذا لم يستخدم هذا الأسلوب. وهناك فرع أو شكل خاص من هذا الأسلوب وهو المسمى «سروكلم Walk and Talk» وخلالها يقوم المخرج بقيادة الشخص الرئيسي في الدراما بعيداً عن الحدث المسرحي، وهو الحدث الذي يظل «متجمداً» وذلك كي يستكشف هذا الشخص مشاعره بعد ذلك، على نحو أكثر عمقاً.

٤- المونولوج The monologue:

المونولوج هو نجوى ممتدة، يضطلع خلالها الشخص الرئيسي بكل أدوار

الوصول إلى قرارات مناسبة حول السلوك في المستقبل.

أحياناً قد يكون هناك قرين ما منسوب دوره إلى أشخاص آخرين مشاركين في الدراما. فقد يكون القرين هو الشخص المساعد الذي يقوم بدور الأب أو هو المخرج ذاته. بل إن أحد أفراد الجمهور قد يُعطى الدور الخاص بقرين ما. فمثلاً إذا كانت «الدراما» قد وصلت إلى مرحلة العجز عن التقدم من خلال استغراقها في حالة من الإطناب العقلي الباعث على الضجر، فإن القرين الموجود بين الجمهور قد يقف فجأة وراء الجمهور ويقول بصوت مرتفع: «أنا أشعر بالملل»، «أنا أريد لهذا الأمر أن ينتهي». ويكون الأمل عندها معقوداً على أن مثل هذا التدخل قد يحفز استجابة ما يمكنها أن تثري الفعل الدرامي بعد ذلك.

٢- الانعكاس المرآوي Mirroring:

يتمثل أحد الاستخدامات الخاصة بأسلوب القرين في توفير نوع من «المردود» للشخصية الرئيسية في الدراما، من خلال الانعكاس Reflecting، أو الإظهار الحرفي مرة أخرى لأوضاعه الجسمية وإيمائاته وتعبيراته، أو المحاكاة الخاصة لتعليقاته اللفظية أو لنغمات صوته. ووفقاً لما قاله مورينو وأتباعه، فإن هذا الأسلوب قد يكون مفيداً على اعتباره وسيلة لاستثارة الدوران البنائي، ومن ثم التغيير لدى الشخص

نظرتهم الخاصة، إلى حياته هو شخصياً، ويكون الأمل معقوداً هنا على أن مثل هذا الاستبصار قد يؤدي إلى تغييرات إيجابية في الاتجاهات والسلوك.

وفي الواقع، يعد هذا الأسلوب إجراءً تدريبياً، خاصاً على تقمص دور الآخرين، مما يزود المرضى بتفهم أفضل لمواقفهم الخاصة من بعض القضايا أو الأمور.

وهناك مبرر آخر لاستخدام أسلوب «عكس الدور»، ويتمثل هذا المبرر في أن هذا الأسلوب قد يفتح طريقاً يُزال من خلاله «الانسداد» الموجود في السيكدوراما، وهو الانسداد الذي قد يرجع إلى وجود «أنا مساعدة» تقوم بتمثيل الدور الخاص بأحد الأفراد الآخرين ذوي الدلالة على نحو سيئ. فمن خلال قيامه هو نفسه على نحو مؤقت بهذا الدور الخاص بآخرين، قد يقوم الشخص الرئيسي بتصحيح مناسب، مع إحداث أقل ضرر ممكن في السيكدوراما، ويمكن أن يستخدم أسلوب «عكس الدور» أيضاً من خلال شخصية رئيسية معينة لتوضيح الطريقة التي يريد هو نفسه أن يعامل بها بوساطة شخص آخر، وإن لم يشر من خلال ذلك، إلى الحل الممكن للصراع.

٦- أسلوب الغيبة أو النميمة The

behind back technique

يرتبط بأسلوب عكس الدور ذي الإجراء

الممثلين الآخرين، ويغير موضعه على خشبة المسرح على نحو يتفق مع تغير هذه الأدوار. ويصل هذا الأسلوب إلى درجة العرض الموجه أو المتحرك ذاتياً والخاص بإنسان واحد one-man show. وقد يكون هذا الأسلوب مفضلاً بالنسبة إلى المرضى الذين يجدون أن التلقائية الخاصة بالأدوات المساعدة قد تكون مثيرة للاضطراب الشديد لديهم، أو بالنسبة إلى هؤلاء الذين يصرون على ضرورة أن يُعاد التمثيل الدقيق لسيناريو الخاص بهم على نحو طقسي، ووفقاً لتذكرهم له في ضوء خبرتهم الأصلية الخاصة.

٥- قلب الدور أو عكسه Role Reversal:

هناك أسلوب آخر أحياناً ما يستخدم في السيكدوراما، ويشتمل هذا الأسلوب على تبادل الأدوار بين الأفراد خلال بعض الفواصل التمثيلية الحاسمة. فمثلاً قد يطلب من أحد الأزواج أن يقوم بالدور الخاص بزوجته، بينما قد يقوم من كان يؤدي دور الزوجة بدور الزوج، أو أن يطلب منالابن قد يطلب منه فجأة أن «يشب عن الطوق» ويقوم بدور الأم وهكذا. والفوائد المفترضة من وراء هذه الإجراءات متمثلة في جعل الشخص الرئيسي يرى وجهة نظر الأشخاص الآخرين ذوي الدلالة أو

لأغراض خاصة نحو الأساليب التالية: عرض الهلوسة والحلم *dream and hallucination Presentation* (أي تمثيل التخيلات الجوهرية لدى الشخصية بحيث يجري إيصالها على نحو بصري مرسوم للآخرين، بدلاً من مجرد الوصف اللفظي لها). وإسقاط المستقبل *future projection*، وفيه يصور المريض في شكل درامي ما يعتقد أن المستقبل يخبئه له. ودراما التتويج *hypnodrama*، وهي شبيهة بالفقرات التي تقدم في قاعات الترفيه في الملاهي الليلية). والصدمة السيكودرامية *shock Psychodramatic*، وتشتمل على الاستدعاء أو التذكر المعتمد على الذكريات المؤلمة على أمل التخلص من الأثر المعوق على الشخصية.

على كل حال فإن استخدام الفنون عامة، ومنها فنون الصورة، في العلاج النفسي والجسمي هو من الموضوعات النامية الآن بشدة، وهي تحتاج بمفردها إلى كتاب مستقل.

الذي يشتمل على قيام الشخصية الرئيسية بإعطاء ظهرها للآخرين و«الاستماع» أو التصنت على ما يقولونه عنها في غيابها. فإذا لم يسيطر الغضب الشديد أو لم تستول حالة من الشعور الحاد بتهديد الذات على هذه الشخصية، فإن هذا الأسلوب قد يمنحها استبصاراً كمنظور أو وجهة نظر الآخرين، إن هذا الأسلوب قد يمثل طريقة متممة بالفاعلية في اكتشاف المرء جوانب القوة وجوانب الضعف الخاصة به كما يراها الآخرون، أي طريقة لتحريض المريض المكبوت أو المكبوح انفعالياً نحو التعبير التطهيري عن انفعاله الانتقامي أو الثأري إزاء من يسخرون منه أو يغتابونه. أو قد يعد هذا الأسلوب وسيلة للمواجهة مع المخاوف «الاضطهادية»، حول ما قد يقوله الآخرون حول هذا الشخص.

٧- أساليب أخرى:

من بين الأساليب الأخرى المستخدمة في لعب الأدوار والتي أحياناً ما تستخدم

المراجع

- حياة الصورة وموتها، ريجيس دوبريه، ٢٠٠٢م، ترجمة: فريد الزاهي - الدار البيضاء.
- الصورة الفنية، جابر عصفور، بيروت: دار التنوير.
- العملية الإبداعية في فن التصوير، شاكر عبد الحميد شاكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٠٩.
- ماكينة الإبصار، بول فيرليو، ٢٠٠١م، دمشق، دار المدن.



أساليب التحقيق كيف بدأت.. وإلى أين وصلت



منيب هائل اليوسفي

وعلى هذا الأساس أخذ الإنسان يفكر بطريقة توصله لمعرفة الجاني، ليلقى الجزاء وحده، وكانت الوسائل في العصور الأولى بدائية لا تخرج عن الوهم الخرافي، ولعله أشبه شيء بما كانت تفعله قبائل (الكاي) في أفريقيا، إذ إنها كانت تضع حشرة في فم القتيل، فإذا خرجت من فمه وحطت على أحد المحيطين به كان هو الفاعل، أي القاتل المجرم، وعلى هذا الأساس كان يدعى لتحقيق هذه المسرحية الخرافية كل أفراد القبيلة، فإذا ما تخلف

يذكر لنا التاريخ أن الباحثين عن الجريمة والمجرمين لم يكونوا بحاجة إلى إجراء تحقيق أو سلوك أسلوب علمي لمعرفة حقيقة الجريمة أو الوصول إلى الجاني الفعلي، لأن معرفة الجاني وتوقيع العقاب عليه، كان متروكا للآلهة، وكانوا يتصورون أن الجزاء هو الزلزال أو المرض الفتاك، هذا ما روته لنا الكتب التاريخية القديمة، وما حفلت به معظم الكتب السماوية المقدسة.

ومع تطور الزمن ساد مفهوم عام لدى الناس قوامه (كل امرئ بما كسب رهين)

✽ محام وكاتب وباحث في الشؤون القانونية.

لقد تصفحنا أخبار الأمم الغابرة، والحضارات المندثرة، فلم نجد للعدل ميزاناً استقام إلا في ظل العرب ولم ندرك العدل القائم على الرحمة وبعد النظر، إلا من عهد العرب وحسي أن أسرد على سبيل المثال وليس الحصر القصة التالية: دخلت امرأة على الخليفة عمر بن الخطاب تصرخ وتقول وتدعي أن شاباً من الأنصار قد اغتصبها، والحقيقة هي أن هذه المرأة كانت تهيم حباً في هذا الشاب، وقد راودته مرارا عن نفسه، فأبى وتعفف، ولم يسفها، فما كان منها إلا اللجوء إلى الحيلة، فأخذت بيضة وألقت بظفريها وصبت البياض على ثوبها، وبين فخذها، فسأل الخليفة عمر النساء، فقلن له إن بيدنها وثوبها أثر (المني) فهم الخليفة عمر بعقوبة الشاب الذي بدأ يستغيث ويقول: يا أمير المؤمنين تثبتت من أمري، فو الله ما أتيت فاحشة، وما هممت بها، فلقد راودتني عن نفسي، فاعتصمت، فما كان من الخليفة عمر إلا أن كلف علياً بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بالتحقيق، فنظر سيدنا علي إلى المرأة، ودعا بماء حار شديد الغليان وصبه على ثوبها، فجمد البياض، ثم أخذه، فاشتمه وذاقه، وأدرك الحقيقة، فطرد المرأة وزجرها.

بهذه الطريقة الفنية العلمية توصل الخليفة عمر إلى معرفة الحقيقة، واكتشاف غوامض الجريمة، بل كان أوّل من

أحد منها عن الحضور، مال إليه الشك والريبة وحامت حوله الشبهات.

ثم تطورت هذه الأساليب البدائية إلى أخرى تماثلها، كالحس آنية محماة بالنار، فإن اجتازها المتهم بشكل طبيعي ثبتت براءته، وهناك أساليب أخرى، لا مجال لحصرها أو تعدادها، لأنها أصبحت نوعاً من التقاليد والعادات، التي ترافق حياة كل أمة أو قبيلة.

غير أن أسبق الأمم وأعرقها في مضمار إحقاق الحق وإقامة العدل وتوزيع الحقوق هي الأمة العربية التي استتارت بهدي القرآن الكريم وسارت على سنن وتشريعات محمد (صلى الله عليه وسلم).

لقد وضع العرب المسلمون تشريعات، وشرعوا قوانين أصبحت مع مرور الزمن، قواعد أساسية لعلوم الحقوق على اختلافها، بل وغدت المعين، الذي لا ينضب والينبوع الذي لا يجف، والذي نهلت منه كافة الأمم المتقدمة في عصرنا الحضاري الحديث.

وإذا ذهبنا إلى حد (الجزم والتأكيد) بأن العرب هم أوّل أمة في التاريخ، أدخلت البحث العلمي، والتحقيق العادل النزيه الدقيق على أصول كشف الجريمة، والتوصل إلى هوية الجاني، فإننا لن نكون مغالين أو متعصبين لقوميتنا العربية، ولتراثنا الإنساني الخالد، لأننا نستقرئ التاريخ ونأتي بالأحداث من نبعها العلمي الصافي البعيد عن التزييف.

فقد هذا المبدأ أهم غاياته وأهدافه، وضعت قيمته الحقوقية أمام قوس العدالة، وكذلك في منطوق الرأي العام، وقد تجلت هذه الأوضاع الفاسدة في أوروبا إبان القرن الثامن عشر للميلاد، وسقطت نظرية الاعتراف سيد الأدلة.

غير أن البحث عن طرق علمية كفيلة باكتشاف الجريمة والوصول إلى فاعلها بقي مستمراً قائماً، متجنباً الوسائل البدائية في التحقيق وانتزاع الاعتراف معتمداً على وسائل أكثر تطوراً وحادثة ولاسيما في ميداني علم النفس الجنائي ولغة الجسد التي كرس العلماء جهودهم الحثيثة لتفسيرها وتحليلها وأخترع من أجل ذلك الكثير من الآلات لقياس آثار الانفعالات حتى وصلوا في النهاية إلى جهاز أطلقوا عليه تسمية جهاز كشف الكذب أو ما يسمى بجهاز البوليجراف، وهو جهاز يقوم على حقيقة فيزيولوجية وهي أن أجزاء الجسم المختلفة تخضع من حيث حركتها إما للجهاز العصبي الإرادي أو للجهاز العصبي الذاتي، فما كان خاضعاً للجهاز العصبي الإرادي يستطيع تحكيم الإرادة في حركته بالأطراف والأعين والجفون والشفاه وغيرها مما تتبع حركته رغبة الشخص وإرادته، وما كان خاضعاً للجهاز العصبي الذاتي يكون في حركته مستقلاً عن الإرادة كعضلات القلب والغدد وغير ذلك من عضلات الأحشاء

أدخل البحث العلمي على أسلوب اكتشاف الجريمة.

لقد كان العرب أول أمة في التاريخ جعلت البينة الشخصية (أي الشهادة) أساساً لتشخيص الجريمة والدلالة على المجرم، وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة، نقول إن الأمم الغابرة سبقت الإسلام في هذه المضمار كالآشوريين والكلدان والفراعنة والحاموريين أصحاب شريعة حمورابي، إلا أن الإسلام أوجد لكل هذه التشريعات قواعد وأسساً ومنطلقات علمية وعقلية ثابتة.

لقد اشترط الفقه لصحة الشهادة وجود شاهدين، ممن تقبل شهادتهما، ومع ذلك فقد عجزت الشهادات، بتعريفها وحدودها، عن أداء رسالتها في هذا المضمار، ومع ذلك فقد تطور العقل الأساسي وتنوع العمل الجنائي، في محاولة الخداع والتضليل وارتكاب الجريمة بين طيات الظلام حيث لا شاهد إلا الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا الأساس، اتجه العقل للأخذ بمبدأ الاعتراف، حيث التعبير الحقوقي الشهير (الاعتراف سيد الأدلة) وكانت أول دولة أخذت به بعد العرب هي انكلترا.

ولكن سرعان ما تحول هذا المبدأ عن غاياته، ومقاصده المثلى السامية، إلى الانزلاق في هوة انتزاع الاعتراف بأساليب العنف والتعذيب والتكيل والإرهاب، وبذلك

تتوهج ويطلب من الشخص المراد اختبار صدقه أن يمر بلسانه عليها فإن احترق لسانه كان مذنباً، وإن لم يحترق كان بريئاً، وكان الاعتقاد بالبراءة أو الإدانة يأتي نتيجة هذه التجارب مرتكزاً على أسباب غيبية كالقول بأن الله يحمي البريء من احتراق لسانه ولكن الحقيقة العلمية هي أن عدم احتراق اللسان مرجعه وجود اللعاب الذي يحميه من الاحتراق.

وقد أخذ، وخاصة في ميدان علم النفس التجريبي، في صنع أجهزة لقياس آثار الانفعالات حتى وصلوا في النهاية إلى جهاز كشف الكذب الذي يقيس في وقت واحد تغيرات التنفس وضغط الدم وإفراز العرق. ولاستعماله يجلس الشخص المراد اختباره على مقعد وتثبت على صدره أنبوبة لتسجيل التنفس ويربط بذراعه جهاز لتسجيل ضغط الدم ويوضع كفاه على رفاقتين من المعدن لتسجيل إفراز العرق عن طريق تمرير تيار كهربائي ضعيف، ويشرح للمختبر كيف يعمل هذا الجهاز وماذا يسجل، ثم تلقى عليه أسئلة ليتبين أثر الإجابات البريئة في تنفسه ونبضه وإفراز عرقه حتى يقارن فيما بعد بأثر الأسئلة الحرجة، ويحصل الخبير بعد ذلك على نتائج الاختبار التي تسجلها مؤشرات متصلة بهذه الأجهزة.

ويراعى وضع أسئلة الاختبار في

الداخلية، ومن ناحية أخرى فإن الانفعالات النفسية المختلفة لها آثار جسدية تختلف باختلافها، فإن كان باستطاعة الشخص أن يتحكم بأعضائه المتمتعة بالحركة الإرادية فيمنع عنها آثار الانفعال، فليس باستطاعته أن يمنع الأعضاء ذاتية الحركة من التأثير بالانفعال.

ينبني على ذلك، أنه إذا أمكن قياس هذه التغيرات اللاإرادية استطعنا أن نتبين وجود الانفعال مهما كان الشخص حريصاً على إخفاء ظواهره.

فإذا سألنا الجاني عن أمر له صلة بالجريمة، فقد ينفي علمه به ولكننا نقف (بوساطة القياس) على ذلك الانفعال الذي أثاره سؤالننا مهما أفلح في إخفاء الآثار الظاهرة للانفعال كالارتجاف والشحوب.

والفكرة في حد ذاتها قديمة بل موغلة في القدم، فقد لجأ القدماء إلى وسائل للتحقيق مرتكزة إلى هذه الحقيقة وإن اتخذت مظهراً خرافياً، ومن ذلك كما أسلفت سابقاً تجربة حفنة الأرز لدى الصينيين القدماء إذ يطالب المتهم بأن يلوك في فمه حفنة من الأرز لبعض الوقت فإذا وجدت بعد ذلك مختلطة باللعاب كان بريئاً وإذا وجدت جافة ثبتت إدانته، ومثل ذلك تجربة البشعة التي مازالت أثارها قائمة لدى بعض الأعراب في مصر، وهي عبارة عن قطعة من المعدن يحميها المبعش على النار حتى

الإنكار؟ وكيف يمكن معرفة كيفية القتل؟
وسلاحه ومكان الجثة؟ عند ذلك وجهت إليه
مجموعات عدة من الأسئلة كل مجموعة
منها تشمل احتمالات عدة لظرف معين من
ظروف الجريمة فوجهت إليه مجموعة من
الأسئلة المتصلة بطريقة القتل: هل المجني
عليه أُغرق؟ هل أُطلق عليه الرصاص؟ هل
درس له السم؟ هل خنق؟ فأظهر الجهاز أنه
كذب عندما أجاب بلا على السؤال الخاص
بإطلاق الرصاص فرجح أن المجني عليه
قد مات رمياً بالرصاص، وقد عثر على
مسدس مخفي تحت مقعد السيارة.

ثم أقيمت عليه مجموعة من الأسئلة
لمعرفة كيفية التصرف بالجثة: هل أحرقت؟
هل أقيمت في اليم؟ هل دفنت؟ فظهر من
آثار انفعالاته التي سجلها الجهاز أنه كذب
عندما أجاب بلا عن السؤال الأخير، كما
أمكن بالطريقة نفسها التوصل إلى مكان
دفن الجثة حيث ظهر أنها في مقبرة، ولما
كان مكان المقبرة مجهولاً فقد جيء له برسم
للولاية قسم إلى أقسام وأشير له إلى كل قسم
منها مع سؤاله، إن كان الدفن قد حدث به،
فلما سجل الجهاز آثار الاضطراب وعلامات
الكذب عند الإجابة بلا على وجود المقبرة
بأحد هذه الأقسام، جيء برسم آخر لهذا
القسم مقسم إلى عشرة أقسام، وهكذا جيء
برسم بعد رسم حتى انحصرت المنطقة في
ميل ونصف ميل مربعين، وعدا عن ذلك

صيغة تكون الإجابة عليها بنعم أو لا، أي
إنها لا تتطلب إجابة طويلة فمثلاً إذا كان
الاتهام في سرقة من مسكن، فإنه يلقي على
المتهم أسئلة كالاتية:

هل سرقت سيارة؟ هل خطفت حافظة
نقود؟ هل سرقت من مسكن؟ هل زورت
وثيقة؟ هل داهمت إنساناً في الطريق؟ إلى
غير ذلك، ويطلب منه أن يجيب عن هذه
الأسئلة بنعم أو لا.

فاذا أجاب مثلاً (وكان هو السارق)
فإن الجهاز سيسجل تغيرات التنفس والنبض
وإفراز العرق عند إجابته بلا عن السؤال
المشير إلى التهمة، وهو هنا السؤال الخاص
بالسرقة من مسكن ثم تمضي الأسئلة
مجموعات على هذا الوضع. ونذكر فيما
يلي قضية (ذكرها جورف) أوضح فيها
جهاز كشف الكذب كل ما كان يكتنفها من
غموض فقد حدث أن اختفى أحد التجار
في ظروف غامضة ولم يعثر له على أثر،
ثم أقيمت القبض على شخص قد شوهد مع
المختفي لآخر مرة، كما وجد حائزاً لسيارة
هذا الأخير، وباستجوابه أنكر أي صلة له
بمصير التاجر المختفي فتقرر اختباره
بجهاز كشف الكذب.

وعلى جهاز كشف الكذب وبسؤاله
وتسجيل آثار انفعالاته تبين أنه كاذب في
إنكاره لجريمة القتل، ولكن كيف السبيل
إلى إثبات الاتهام عليه وهو مصرّ على

وحتى إذا لم يكن هناك عائق يحول من دون ذلك، فإن الوسيلة في حد ذاتها معبأة ومليئة بعوامل الخطأ والفسل، فمن ناحية الانفعالات التي تهدف إلى رصد آثارها والحكم على أساسها بصدق المتهم أو كذبه قد يكون منشؤها أمراً آخر غير الكذب أو الشعور بالإثم المتصل بالجريمة موضوع التحقيق، كأن تكون متصلة بفعل آخر أو جريمة أخرى ارتكبتها المتهم.

ومن ناحية أخرى - إذا كانت هذه الوسيلة تفضح نية الخداع لدى المتهم وتكشف كذبه فإنها لا تنفع إذا كان المتهم نفسه مخدوعاً فيما يفتي به، فإذا أجاب المتهم أو الشاهد واختبر بهذا الجهاز، إجابات خاطئة مع اعتقاده بصحتها، فإن الجهاز لا يسجل عليه الكذب أي إن هذه الوسيلة عاجزة عن الوقوف على حقيقة مطلقة.

ويختلف التدليل بجهاز كشف الكذب عن التدليل بالتحليل العقاري في شيء هام، فإن الدليل في هذا الأخير هو الأقوال نفسها التي تصدر عن المتهم سواء أكانت اعترافاً صريحاً أم أقوالاً أخرى تساعد على إدانته، في حين لا ينطق المتهم عند اختباره بجهاز كشف الكذب بغير (لا) أو (نعم) ويكون الاستدلال عندئذ (في غير حالة إقدام المتهم على الاعتراف بعد اختباره أو أثنائه) ويرتكز على تقرير خبير الجهاز

فقد قام المتهم فحطم الجهاز وجعله غير صالح للاستعمال.

وبالفعل ومن خلال البحث في المقبرة الكائنة بهذه المنطقة وجدت جثة القتيل، ويقال في مزايا استعمال هذا الجهاز أنه أداة لكشف الكذب أدق من مجرد الاعتماد على الفراسة والملاحظة بغير أجهزة، وهي سلاح ذو حدين، كما إن استعماله يضيق من دائرة الاتهام وبذلك يبعد الشبهة عن الأبرياء من أول الأمر، فضلاً عن أنه يجوز الاستعانة به في غير الشؤون الجنائية لفحص كل شخص يراد تكليفه بعمل يستدعي الثقة به، والواقع إن نجاح الجهاز مرتكز أولاً على الخبير الكفء لإجراء هذه التجارب وتفسير نتائجها، فإن هذا الواجب المزدوج يستدعي إلماماً كافياً بعلم النفس ووظائف الأعضاء وخبرة طويلة بالتحقيق والاستجواب فضلاً عن صفات من الصبر والمزاج المعتدل والذكاء والثقة بالنفس والشخصية الدمثة المحببة.

ومع كل ذلك فإن الجهاز لا يصلح في كل الأحوال، فهو لا يصلح إذا كان المتهم مصاباً بحالة عصبية أو عقلية أو كان مصاباً بمرض في القلب أو في الجهاز التنفسي، كما أن الاضطراب الشديد والخوف من احتمال الخطأ أو من مجرد الاتهام أو من أسئلة شخصية محرجة حميمية قد يعرض الاختبار كله للفشل.

يسجلها هذا الجهاز كدليل في المحكمة، ورفض طلب المتهم الذي يعرض اختباره أمام المحكمة بهذا الجهاز.

إنَّ هذا الجهاز في نظر القضاء الأمريكي لم تصبح له قيمة علمية توحى بقدر كافٍ من الثقة في دقة ما يسفر عنه من دلالات، ولكن ذلك لا يعني إبطال هذه المحاكم للوسيلة نفسها، فإن ما قد يسفر عنه الجهاز من نتائج يسوغ الالتجاء إليه في مراحل التحقيق السابقة على المحاكمة. ومن ثم فإن اعتراف المتهم نتيجة اختباره بهذا الجهاز لا يعد باطلاً لأنه لا يستند إلى إجراء باطل في ذاته، على شرط أن لا يكون الاعتراف نفسه مشوباً بما يبطله، كتهديد المتهم أو إكراهه أو خدعه قبل أو أثناء أو بعد الاختبار، وهو ما يطلق عليه تعبير وسائل الدرجة الثالثة.

فإذا انتقلنا إلى القانون السوري لا نجد مانعاً قانونياً من الالتجاء إلى هذا الجهاز ولا يُعرف ما يتعين معه إبطال الاعتراف المترتب على استعمال الجهاز لمجرد الالتجاء إلى هذه الوسيلة، ولا يمكن أن تقارن هذه الحالة بحالة الالتجاء إلى العقاقير في الاستجواب، إذ تؤثر هذه العقاقير في الوعي والإرادة، بينما لا يهدف الجهاز إلى غير قياس الآثار الفسيولوجية للانفعالات التي تمر بالمتهم أثناء الاختبار.

الذي يفحص النتائج ويدرس الإجابات ثم يدلي برأيه فيما إذا كان المتهم صادقاً أو كاذباً.

ويقفز للذهن هنا وجه التشابه الكبير بين استعمال جهاز كشف الكذب واستخدام الكلب البوليسي، فما لم يصدر من المتهم اعتراف نجدنا إزاء قرينة مبناها أن الكلب تعرّف على رائحة المتهم أو أن الجهاز (طبقاً لتفسير الخبير) قد سجل علامات تدل على كذب المتهم، وهنا نتساءل: هل يكذب جهاز كشف الكذب؟

إنَّ هذا الجهاز لا يعمل وحده، بل إنه بغير الخبير المتمكن المتمرس لا يساوي شيئاً، ومع ذلك فإنه يتبين لنا عموماً من واقع تجارب طويلة مع أدق الأجهزة وأكفأ الخبراء، أن هناك دائماً نسبة الخطأ تدور حول الخمسة في المئة، إضافة إلى نسبة تتراوح بين خمسة وعشرين في المئة يكاد يستحيل فيها على الخبير البت فيما إذا كان المتهم صادقاً أم كاذباً.

إذن، فنحن إزاء وسيلة محاطة نتائجها بغير قليل من الشك، وسيلة قد لا يراها البعض أفضل من الالتجاء إلى حاسة الشم لدى الكلب البوليسي مع افتراض أمانة الخبراء في كل منهما، وهذا ما دعا المحاكم في أمريكا (حيث يشيع استعمال هذا الجهاز في التحقيق أكثر من أي بلد آخر) إلى رفض السماح بتقديم النتائج التي

يعبر عما يريد أن يعبر عنه من مكونات نفسه وإخفاء ما يشاء، فكل مساس به (ومن ذلك إحاطته بهذه المراسد التي يتكون منها الجهاز) يعد إخلالاً بهذا الحق، ولا بد (من ثم) من موافقة المتهم.

ولا يخشى في هذه الحالة من تلاعب جهة التحقيق في شرط موافقة المتهم والادعاء بموافقته على خلاف الواقع، كما هو الأمر بالنسبة للتحليل العقاري، فإن موافقة المتهم طوال إجراء التجربة لا يستغنى عنها، إذ يستطيع المتهم أن يلوذ بالصمت عن (لا) و(نعم) أو أن يتعمد الحديث أو يصم أذنيه لإفساد التجربة، هذا إن لم يقدم على تحطيم الجهاز.

ويبدو مما تقدم أن مصل الحقيقة وجهاز كشف الكذب ليسا شيئاً واحداً ينظر إليهما نظرة واحدة، فأولهما ردة لاريب فيها، إلى عهد التعذيب وإن كان عذاباً من غير ألم، أما ثانيهما فما زال أسلوباً طفلاً من الناحية العلمية يحبو ويتعثر وليس جديراً بعد بالاعتماد عليه كدليل رشيد.

ولكن إذا كان استعمال الجهاز قانونياً في ذاته فإنه مازال (كما قدمنا) قاصراً من الوجهة العلمية بحيث لا يمكن الاعتماد على التفسير الذي يقدمه الخبير لنتائج الاختبار في الحكم بالإدانة، وإلا كان التسبب قاصراً ومبطلاً للحكم، مثل الاستناد إلى تعرف الكلب البوليسي فحسب أو (مع بعض الفارق) مثل الاستناد إلى شهادة منوم مغناطيسي من عملية تتويم، فإن الأسباب في جميع هذه الأحوال لا تؤدي إلى المنطوق عقلاً ومنطقاً، ويبقى السؤال: هل يجوز للمتهم قانوناً أن يرفض اختباره بجهاز كشف الكذب؟

قد يرى البعض أنه لا يجوز له قياساً على إيقاف المتهم في طابور العرض القانوني، ولأن الجهاز لا يتعرض له بشيء، بل يقتصر على تسجيل آثار انفعالاته التي تعرض له في التحقيق، ولكن القول باختبار المتهم على الرغم من أنه إخلال بحق الصمت للمتهم.

ومقتضى هذا الحق هو ترك المتهم

المصادر

- ١- المجلة الجنائية الحكومية.
- ٢- كتاب الجريمة والمجتمع (زكريا إبراهيم).



عندما يشهد الغرب للشرق



ملاقيوس جبرائيل جغنون



حين يشهد شرقيٌّ للشرق بسبق علمي أو إنجاز حضاري تاريخي ما، فإن أول ما يتبادر إلى بعضنا، نحن الشرقيين، في سياق رد فعل لا إرادي، أو لنقل، «لا واعي»، وقبل التمحيص في صدقية هذه الشهادة أو حقيقتها، هو قولنا: «وشهد شاهد من أهله»، بمعنى أن أول رد فعل لنا هو الشك في مصداقية هذه الشهادة بغض النظر عما إذا كانت هذه الشهادة في مكانها الصحيح أم لا. وإني، شخصياً، أرى في هذا الموقف الابتدائي نوعاً من «الريبة» skepticism أو «الشك المنهجي» الذي يمكننا رده، على

بأمة وكاتب ومؤرخ سوري.

الشرقيين بالشرق، وهذا ما نرجوه وما نصبو إليه في المحصلة. علماً بأننا لا نقصد بالشرقيين من كان منهم من العرب فقط، بل من أهلوا شَرْقَنَا العربي ونَشِطُوا فيه وَقَدَّمُوا إسهامات في ميادين العلم عموماً والفلك خصوصاً.

تأتينا هذه الصورة/ الشهادة من الفنان الألماني الشهير جداً والذي ينتمي إلى أواخر عصر النهضة الأوروبية. إنه ألبرخت دورر Albrecht Dürer (١٤٧١-١٥٢٨). ونختصر التعريف به بأنه من أصل هنغاري وُلِد في مدينة نورنبرغ وجال في بال في سويسرا وستراسبورغ في فرنسا وفي العديد من مدن إيطاليا ثم عاد إلى نورنبرغ مسقط رأسه عام ١٤٩٥م حيث نشط بها واشتهر وأنجزَ العدد الأكبر من لوحاته وأعماله ثم عاود زيارة إيطاليا بين عامي ١٥٠٥ و١٥٠٧م رجع بعدها إلى مدينته المحببة نورنبرغ ليكمل بقية حياته فيها. وكانت للفنان اهتمامات أخرى أبرزها علم الرياضيات حيث وضع أطروحته المتعارف على أنها أول كتاب رياضيات يطبع ويُشر بالألمانية (١) ما يضعه في مصافِّ أهم رياضيي عصر النهضة الأوروبية (الرينيسانس). كما اهتم اهتماماً واضحاً بعلم الفلك لا يقل عن اهتمامه بالرياضيات. وتشهد على هذا الاهتمام الأخير الصورة التي تشكل محور حديثنا والتي كان قد رسمها عام ١٥١٥م.

مستوى لا وعينا على الأقل، إلى أنه ليست كل الشهادات التاريخية الشرقية المنشأ لأسبقيات الشرق كانت في مطارحها السليمة، وإن كانت كذلك في عدد وفير منها.

ونحن، إذ نرتاب هكذا ارتياب، فإننا معذورون في ذلك. «فنحن في الشرق...»، هكذا يردد لسان حال بعض الغلاة من الشرقيين، «كُنَّا أول من... وأول من... وأول من...» ولا داعي هنا إلى إيراد الأمثلة. فشهادة الشرقي بالشرق «مطعون بها»، عند المتبصرين منا نحن الشرقيين، للوهلة الأولى. وأنا، إذ ذاك، أرى في أن يكون أحدنا مرتاباً skeptical في البداية أمراً مبرراً وإيجابياً إذا ما اقترن ارتيابه لاحقاً بالتحقق من خلال البحث والتمحيص والتدقيق والمراجعة إلى حين نفي الشيء أو إثباته حسب الحال. وذلك من شأنه أن يجنبنا ما ينطوي عليه التسليم بتلك الشهادات على علاقتها، دونما تدقيق ولا تمحيص.

هذا عن شهادات الشرقيين للشرق. ولكن ماذا عن شهادات الغربيين للشرق؟

الصورة وواضعها:

من المقدمة أعلاه، مهَّدنا السبيل لمثال سنتحدث عنه من شهادات الغربيين للشرق، أو بعبارة أخرى، شهادات الآخر بالشرق «من غير أهله» وأقصد من غير الشرقيين. وسيمنحنا هذا المثال ثقةً أكبر، بشهادات

البواسل أو الحيوانات أو الأشكال لكي تساعده على التذكار».

«ترجع تسمية الأبراج السماوية إلى عام ٣٧٠ قبل الميلاد في اليونان حيث قام بطليموس بوصف ٤٨ برجاً نجماً في كتاب «المجسطي». وأطلق اليونان والعرب على النجوم الثابتة أسماء ما زالت سارية حتى يومنا هذا».

«قام البريشت دورير بتصميم الخريطتين المعروضتين لسماء النجوم الشمالية والجنوبية. وتظهر على الخارطة الشمالية الأبراج التالية:

التاج الشمالي Corona Borealis
وهرقل وكاسيوبيا وبيرسیوس مع رأس الغورغون والعرجي Auriga وحامل الأفاعي Ophiuchus والأفعى والسهم Sagitta والنسر Aquila والدلفين Delphinus والمهر Equuleus والحصان الطيار Pegasus وأندروميديا وأخيراً المثلث».

«وتحيط بأبراج النجوم هذه الأبراج السماوية الاثنا عشر، وهي:

«الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت».

كان ذلك وصفاً للمحتويات الفلكية للنقش».

وصف عام للصورة ومحتواها الفلكي:

نقتبس هنا مما جاء في التعليق على الصورة (التي تمثل رسماً محفوراً على الخشب) المنشورة في كتاب Schätze der Astronomie «كنوز علم الفلك» الصادر عام ١٩٨٣م عن المتحف الوطني الألماني في مدينة نورنبرغ Germanisches Nationalmuseum, Nürnberg:

ورد على الصفحة ٣ من الكتاب المذكور ما يلي:

«الموضوع: خريطة السماء الشمالية المُزَيَّنة بالنجوم.

الصياغة: حفر على الخشب.

المقاس: ٤٣٠×٤٣٠ ملم.

الرسام: ألبرخت دورر

Albrecht Dürer (١٤٧١ - ١٥٢٨)».

التاريخ: ١٥١٥م.

الرمز: (St. N. ١٢. ٣٦٢)».

«ترينا خارطة السماء الشمالية المزينة بالنجوم أبراج النجوم الثابتة التي تبقى آلافاً من السنين، بغض النظر عن تحركات بسيطة، محافظة دائماً على مواقع معينة بالنسبة إلى بعضها البعض، هذا بعكس الكواكب السيارة والنجوم المُدَنَّبة التي تغير مواقعها.

ولقد قام الإنسان من قديم الزمان برسم الأبراج لكي يتمكن من التمييز بين النجوم حيث أطلق عليها أسماء بعض الرجال

ولكن أين هي الشهادات للشرق؟

حتى الآن استعرضنا الجانب الفلكي من النقش، وسننتقل الآن إلى الجانب البشري، أو الإنساني منه حيث ثبَّتَ الفنان العالم أربع شهادات تتجلى بكل وضوح ثلاث منها لعلماء فلك من الشرق.

يتابع المصدر المشار إليه التعليق على محتوى الصورة بما يلي:

«وتظهر العذراء بصورة ملاك بينما رُسِمَتْ بالزاوية صور أربعة من كبار علماء الفلك وهم:

الشهادة الأولى: وتتمثل بصورة العالم الفلكي التي تشغل الزاوية السفلية إلى يمين القارئ، وهو Azophi Arabus^(٢) حسبما هو مدون بالأحرف اللاتينية فوق رأس العالم الذي يعتمر كوفية في إشارة صريحة إلى انتمائه «العربي». ويمكننا ترجمة الاسم هذا إلى العربية بـ«الصوفي العربي» وبالتالي فإنه يمكننا مماهاته بعالم الفلك الذي اشتهر باسم «الصوفي» (وقفنا على ترجمة له في الحاشية^(٣) أدناه) ويعلق المصدر: الأساس الذي اقتبسنا الصورة منه مُعَرَّفًا بالصوفي على أنه «الذي قام في بغداد بالقرن العاشر الميلادي بتصحيح جدول النجوم اليوناني وبتأليف كتالوج نجمي مهم».

الشهادة الثانية: تشغل الزاوية السفلية

اليسرى للوحة وتخص هذه المرة من يشير إليه المصدر بشكل يفاير ما جاء على الصورة موضوع بحثنا باسم Marcus Manilius^(٤) ويعرفه المصدر بأنه: «شاعر روماني في عصر أوغسطس، يُعتَقَدُ أن أصله من سورية^(٥) قام بشرح تأثير بعض النجوم على الكائنات الحية بشكل مسهب وذلك في قصيدته التعليمية الفلكية (أسطرونوميكون)».

الشهادة الثالثة: تشغل الزاوية العلوية

اليمنى للوحة وتخص من هو بحق أشهر الفلكيين التاريخيين، ألا وهو بطليموس المصري واضع المؤلف المعروف «المجسطي» الذي ارتبط اسمه به والذي لا يقل شهرة عنه. ويُعَرَّفُنا الكتاب به على أنه: «كلاوديوس بطليموس (١٥٠م تقريباً) والذي يعتبره «هيبارخوس النيقى»^(٦) أكبر علماء الفلك والرياضيات والجغرافيا في العصور القديمة. عاش بطليموس في الإسكندرية وأشهر مؤلفاته «المجمع الكبير لعلم الفلك» أو الـ megalë syntaxis tēs astronomias ē (إي ميغالي سنْتَكَسِيسِ تِيسِ أَسْترونومياس) الذي عُرِفَ بعد ترجمته عام ٨٢٧م إلى اللغة العربية باسم «المجسطي»».

الشهادة الرابعة: لا تخص علماء المشرق

بل «أراطوس كيليكس» الشاعر الإغريقي

علماء الفلك ينتمون إلى المدينة المصرية والعربية على خريطة دورر إنَّما يدل على تأثير هذه الحضارة على أوروبا ومدى قيمتها بالقرن السادس عشر.

الذي قام بتأليف الشعر الفلكي «فينومينا» في القرن الرابع الميلادي. ويختتم واضع الكتاب الحديث عن خارطة السماء الشمالية للفنان «دورر» بقوله: «لاشك أن وجود ثلاثة من أشهر



الهوامش

١- اسم الكتاب بالألمانية:

Unterweisung der Messung mit dem Zirkel und Richtscheit.

أي «تعليم القياس بالفرجار والمسطرة».

٢- إن قراءتنا للكتابة اللاتينية على شكل Azophi Arabus التي أوردناها أعلاه نعتقد أنها الصواب للقراءة الخاطئة التي أورها واضع كتاب «كنوز علم الفلك» على شكل Acophi Arabsu مكررة ثلاث مرات باللغات الثلاث التي صدر بها الكتاب. (المهندس ملاتيوس جفنون).

٣- هو أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الرازي المعروف بالصوفي. وُلِدَ في مدينة الري جنوب شرقي طهران في سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) وتوفي سنة ٣٧٦هـ (٩٨٦م). وهو أحد مشاهير علماء الفلك في القرون الوسطى، وكان من كبار منجمي عضد الدولة البويهية. وقد وصفه «سارتون» بأنه من أعظم فلكيي الإسلام. وللصوفي كتب عدة هامة في الفلك هي:

• كتاب الكواكب الثابتة المعروف أيضا باسم «الكواكب الثمانية والأربعين». وهو كتاب مصور يتضمن رسوماً للنجوم والكواكب التي تنتظم في تشكيلات على هيئة الإنسان أو الحيوان أو أشكال أخرى. وفيه وصف كامل ومفصل لكواكب السماء مع تبيان أماكن النجوم ومواقعها في الترتيب العام للكواكب الثمانية والأربعين بما فيها البروج الاثنا عشر. وقد ألف الصوفي كتابه هذا هدية إلى الحاكم البويهية عضد الدولة (٩٤٩-٩٨٢م) الذي كان يولي علم الفلك والفلكيين عناية خاصة، وابتنى مرصدا في شيراز.

• كتاب الأرجوزة في الكواكب الثابتة.

• كتاب التذكرة.

• كتاب مطارح الشعاعات.

• كتاب رسالة في الإسطرلاب.

• كتاب المدخل في الأحكام، أو المدخل إلى علم النجوم وأحكامه.

• كتاب العمل بالإسطرلاب.

• أخذنا هذه النبذة التعريفية بالصوفي عن كتاب: «أعلام الفلك العرب في القرن الثالث-الرابع الهجري» (ص-٢٦ و١٢٧) للدكتور علي حسن موسى من منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية للعام ٢٠٠٢م. (المهندس ملاتيوس جفنون)

٤- يبدو أن ثمة التباسا حول اسم هذا الفلكي، ففي حين أن البرخت دورر يورد اسم هذا العالم الفلكي على شكل M. Mamlius، ولعله الأكثر صوابا، فإن مصادر أخرى تورده على أشكال أخرى متعددة. وكان هذا شاعرا وفلكيا عاش في القرن الأول الميلادي. ولعل أهم أعماله قصيدته الشعرية التي تقع في خمسة مجلدات تحت اسم Astronomicum أي «الفلكية»، وكان رجلا على قدر عظيم من المعرفة حسبما توحى مدونته الشعرية المذكورة. (انظر Wikipedia). (المهندس ملاتيوس جفنون)

٥- ليس مستغربا أن العديد من مشاهير السوريين حملوا أسماء رومانية أو «مرومنة» في الدور الروماني بالنظر لحيازتهم على المواطنة الرومانية. ونذكر هنا الإمبراطور العربي سوري الأصل «فيليبوس العربي» والمعمار الدمشقي الشهير «ابولودورس الدمشقي» والملكة التدمرية «زنوبيا» كامثلة سريعة. ولم تسلبهم هذه الأسماء انتماءهم القومي.

٦- ورد الاسم في المصدر على شكل «هيبارش» من دون الإشارة إلى أن أصله من مدينة نيقية. وهو نفسه هيبأرخوس النيقى. (المهندس ملاتيوس جفنون).



دور الصحافة اليومية في تشكيل الوعي الثقافي الاجتماعي



عبد الباقي يوسف

اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية وثقافية تؤسس لجرائدها اليومية، وهي تُضاف إلى الصحافة المستقلة وتسمى إلى شيء من التنوع في صفحاتها.

الصحافة اليومية واستقطاب الأعلام

المميزة:

تُعرف الصحيفة اليومية بصحفيها، وبكتاب أعمدتها وزواياها، وكلما استقطبت الصحيفة أعلاماً جريئة مستقلة تتمتع بشعبية واسعة، كلما تضاعف قراء هذه الصحيفة واتسعت رقعتها، وكلما اقتصرت

أصبحت الصحافة اليومية جزءاً من حياة المجتمع بشرائحه ومستوياته كافة، الاجتماعية والثقافية والفكرية والأيدولوجية.

وحيث إنَّها وجبة متنوعة يومية، فقد اكتسبت جمهوراً واسعاً يتابعها بشكل يومي وشيئاً فشيئاً تتحول هذه الصحيفة إلى رفيقة العمر بحيث بات يُعرف أن فلاناً من الناس يداوم على قراءة الصحيفة الفلانية.

أمام هذا الانتشار الواسع للصحيفة اليومية، بدأت أحزاب ومنظمات ومؤسسات

✽ أديب سوري .

حمامة محملة بالرسائل

استطاعت الصحيفة اليومية أن تستقطب جمهوراً واسعاً إلى ثقافة الصحافة والإعلام، وأسست لحالة تفاعل عامة مع مختلف الأطياف الفكرية والأيدولوجية.

ما يميز الجريدة اليومية أنها كل يوم تتحول إلى حمامة متجددة تخلق في كل البيوت والخيم والحافلات والمحلات العامة والخاصة، ولايفتح كل هؤلاء أبوابهم لها إلا إذا حملت لهم كل يوم معارف جديدة لم تحملها في اليوم السابق، وعلى هذا فإن هذه الحمامة تبني علاقتها المتينة مع أولئك الذين ينتظرون دخولها إليهم كل يوم، وإذا صادف وتأخرت يسألون عنها، وإن غابت لتستريح في عشاها يوماً أو يومين فإنهم يفتقدونها ويشعرون بنقص ما.

عند ذلك لا يكون أمامهم إلا أن يذكروا أمجاد هذه الصحيفة ودورها المميز في حياتهم، فهاهو صاحب المقهى الذي يقول بأنه لا يقرأ شيئاً سوى هذه الصحيفة فقط منذ أربعين سنة، وهو يتمتع بثقافة واسعة في مختلف مجالات الحياة بفضل قراءته لهذه الجريدة، وقد أتاحت له أيضاً أن يقرأ بعض الكتب ويجعل في بيته مكتبة صغيرة عندما كانت تعرض بعض الكتب القيمة وتجعله يتجه إلى المكتبة ليشتري الكتاب. وعندما يتحدث معك تشعر بأنه يتمتع بثقافة عالية وهو بالفعل لم يقرأ شيئاً غير

على أقلام ثابتة مكررة من دون تجديد، لبثت باردة لا يقرأها أحد، بل حتى الذين يضطرون للاشتراك القسري بها نتيجة عملهم في إحدى فروع مؤسساتها، فإنهم يجلبونها للاستخدام المنزلي. وهكذا تصدر هذه الصحيفة الميتة كما لو أنها لاتصدر، إنها تصدر بشكل روتيني فقط كي يتقاضى موظفوها استكتاباتهم ورواتبهم من دون أن تحرك هذه الصحيفة ساكناً ومن دون أن تجذب أي شريحة جماهيرية.

الصحيفة اليومية النافذة هي تلك الصحيفة التي تثير قضايا هامة تكون على تماس مباشر مع إيقاع الحياة اليومية لأكبر شريحة من الناس، وبذلك تلقى صفحاتها إقبالاً واسعاً في الترجمة إلى معظم لغات العالم، فما تنشره هذه الصحيفة اليوم يكون حديث الساعة في العالم برمته.

وهي صحيفة متجددة تستقطب وتستكتب أبرز الشخصيات الفعالة في المجتمع والمشهد السياسي والفكري.

الصحيفة اليومية الناجحة هي تلك التي تتحول بالنسبة لمختلف شرائح الناس إلى جزء هام من النشاط اليومي، وهي التي تنجح في أن توسع من فضاءات قرائنها وتستقطب كل يوم المزيد من المقبلين عليها الذين يقتنونها لأول مرة.

أنهم ينتظرون تلك الحمامة الطليقة الثرية التي تأتي كل يوم بالياسمين والريحان والأنغام والكلمات العذبة.

لقد أسهمت المكتبة بفعالية لتكون جسراً وسيطاً بين القارئ والصحيفة اليومية، ولذلك تجعل اشتراكات شهرية لزيائنها، تضع لهم جرائدهم جانباً عندما يتأخرون، وأحياناً ترسلها إلى مكاتبهم أو بيوتهم.

جرائد كثيرة تصدر عن هيئات وتنظيمات وأشخاص وهي جرائد تعتمد على منسوبها ومريديها بالدرجة الأولى، وثمة جرائد مختصة مثل الجرائد الإعلانية، والفنية، والسياسية، والأدبية، وهي كذلك تعتمد على الفئة التي تخاطبها والتي لها علاقة مباشرة مع هذا الاتجاه أو ذاك، وفي جميع الأحوال فإن مثل هذه الصحف لا يكون بوسعها أن تخترق كل الأماكن العامة والخاصة كالصحيفة اليومية الشاملة التي تتمتع بشعبية واسعة دون غيرها.

مقومات الصحيفة اليومية الناجحة

ثمة صحيفة هزيلة متواضعة، وثمة صحيفة قوية نافذة، وفي جميع الأحوال إن المصداقية هي عنوان لصحيفة ناجحة بامتياز، حتى تغدو الصحيفة الأكثر شهرة، والأوسع انتشاراً،

أو لأقل الصحيفة /العلاقة/ التي أحياناً يقترن اسمها باسم بلدها والتي تراها في كل مكان.

هذه الصحيفة، ولذلك لاستغرب عندما يقول لأجيريه: /اجلب لي جريدة... وإن لم تجدها لاتجلب غيرها/. وعندما تسأله عن سبب حرصه على هذه الصحيفة من دون غيرها يقول لك: /إنها عشرة عمر/.

لقد تحولت قراءة هذه الصحيفة اليومية بالنسبة إليه إلى شريك حياة وعشرة عمر، فقد بنى معها علاقة حميمة بحيث بات يستمتع بتقليب صفحاتها، والأكثر من ذلك، فهو يتدرج في تلقيها، يبدأ بالصفحات الخفيفة المنوعة، ثم ينتقل إلى الصفحات التي تحمل دراسات جادة بشكل متدرج.

ثنائية الصحيفة والمكتبة

المكتبة هي بيت الصحيفة، وهي التي تعرضها في واجهتها، ولولا وجود المكتبة لما كان بوسع الناس الحصول على صحيفتهم اليومية بيسر.

عندما تذهب إلى المكتبة لشراء جريدتك اليومية المفضلة وقد تأخرت، ترى السبّاك، والحلواني، والفاكهاني، وترى الممرضة و«الكوافيرة»، والطبيب، والمعلم والمحامي، والموظف، والمختار، والكاتب يترددون إلى المكتبة وينظرون إلى ساعاتهم بانتظار وصول جريدتهم المفضلة هذه ولا يذهبون إلى بيوتهم على الرغم من الاتصالات التي تستعجلهم للذهاب إلى الغداء.

الاجتماعي، فقد يحدث أن يدخل شخص مكتبة فلا يطلب جريدة بعينها، بل يقول: أريد جريدة فيها كلمات متقاطعة وأبراج. أو يدخل شخص فيقول: أريد جريدة فيها صفحة شكاوى أو رياضة أو ثقافة.

وإذا وجد هذا الشخص ضالته في جريدة، فإنه يبقى يداوم على قراءتها لتكسب الجريدة قارئاً جديداً.

هنا يمكن القول إن الملاحق الأسبوعية المتنوعة تسهم بفعالية عالية في انتشار الصحيفة وشهرتها، وكذلك الكتب التي تهديها الجريدة كل شهر لقراءها.

أهمية دور رئيس التحرير

يقترن نجاح أي صحيفة يومية بما يتمتع به رئيس تحريرها من أفق منفتحة، فهو يمتلك صلاحيات لتطوير وتقديم الصحيفة التي يتولى رئاسة تحريرها، كما يمكنه أن يأتي على أمجاد هذه الصحيفة ويجعلها في حالة تراجع وخسران لكتابها، ولشرائح جمهورها معاً.

خلال كل تلك السنوات من علاقاتي مع صحف يومية كتبت فيها بشكل خاص في صفحاتها الثقافية تبين لي أن رئيس التحرير يلعب دوراً بارزاً وأولياً في سعة انتشار جريدته، وقد يصدف أن تُصاب جريدة /بنكسة/ جراء وجود رئيس تحرير متواضع في علاقاته وثقافته وموهبته الصحفية، فتخسر الجريدة أعداداً كبيرة

لكن ما الذي يجعل من الصحيفة اليومية العادية من دون غيرها تتمتع بهذه الخصوصية الكبرى وتكون صحيفة /عملقة/ تخترق كل الأماكن؟

خلال سنوات طويلة وأنا أقرأ الصحف اليومية في أي دولة أكون متواجداً فيها، وأرى صحفاً تتمتع بالإقبال الجماهيري من دون غيرها.

أرى أفواج الناس تنهال على صحيفة أكثر من سواها، وهذه الصحيفة على الأغلب تتمتع بميزة الشمولية، فهي تقدم أكبر قدر من الأخبار المحلية من مختلف المحافظات، ويتمتع مراسلوها وكتابها بالمصداقية والجرأة التي تجعلهم أحياناً يتعرضون لمساءلات، وهنا يكون مراسل الجريدة في المحافظة هو سفيرها الذي بمقدوره أن يزيد من شعبية صحيفته، كما بمقدوره أن يخفض من شعبيتها.

ثم تأتي هذه الصحيفة الشاملة لتقدم أخباراً تهتم الفئات الدنيا من الناس وخاصة تلك التي تحدث تحت قبة البرلمان، وكذلك تقدم صفحات رياضية واقتصادية وثقافية وتحليلات سياسية محلية و مترجمة وقضايا فكرية، إلى جانب استقطاب فئات الشباب وتخصيص زوايا وصفحات لمواهبهم، وتخصيص شيء للمرأة، والمطبخ، والأزياء، والتسالي، والأبراج، وشكاوى الناس، والحوادث، واليانصيب، وصفحات التواصل

كلمة ختام

الصحيفة المميزة هي تلك التي تتجح في أن تلخص لك أخبار البلاد والعالم المختلفة فتجعلك تقلب صفحاتها الثرية بنشوة وتحيل العالم كله إلى مدينة صغيرة تجعلك تمشي في شوارعها شارعاً شارعاً وزقاقاً زقاقاً مع كل صفحة وعمود. استطاعت الصحيفة اليومية أن تتحول إلى ركن أساس من أركان حياتنا اليومية المعاصرة على الرغم من الانفتاح التقني وقنوات التواصل الاجتماعي ومقومات الحياة الحديثة.

ليس بوسع أحد أن يستغني عن قراءة الصحيفة اليومية، أعني هنا تحديداً الورقية، إذ ليس بوسع التقنيات الإلكترونية أن تغني عن صدور الصحيفة اليومية بشكها التقليدي الورقي، وهي لا تزال تستقطب أطياف الناس وتدخل مختلف البيوت والمكاتب والوزارات وقصور الحكم في العالم.

من قرائها اليوميين وتتحول من جريدة ساخنة إلى جريدة بها برود مثلها مثل أي جريدة عادية وجودها كمثل عدم وجودها، وهنا ترى أفواج قراء هذه الجريدة تتجه إلى غيرها وهم يتأسفون على أيامها الخوالي. إن شخصية رئيس التحرير يمكن لها أن تجعل من أي صحيفة عادية صحيفة أولى في البلاد عندما يتمتع بانفتاح علاقاته المتنوعة وبكفاءة عالية في هذه المهنة فيعتبر صدور أي عدد بمثابة صدور كتاب له، إنه يتابع عمله ويقف على رأس عمله ويترك الأفاق مفتوحة لأي تطوير أو تحديث أو إضافة ويشعر بمسؤولية تاريخية خلال هذه الفترة التي يشغل فيها هذه المهمة الإعلامية الكبرى، إنها تتحول إلى تاريخ شخصي ومجد شخصي له وهكذا فنحن نقول: إن الأعداد التي كانت في عهد فلان من هذه الصحيفة، وكم كانت هذه الصحيفة مشرقة وواسعة الانتشار في عهد فلان.



إدارة الجودة الشاملة.. المبادئ والأسس والأدوات

*
د. حسان القيسي

الضبط والدقة في عمل الأشياء. ويمكن القول: إن إدارة الجودة الشاملة هي التطوير المستمر للعمليات الإدارية وذلك بمراجعتها وتحليلها والبحث عن الوسائل والطرق لرفع مستوى الأداء وتقليل الوقت لإنجازها بالاستغناء عن جميع المهام والوظائف عديمة الفائدة وغير الضرورية للعميل أو العملية، وذلك لتخفيض التكلفة ورفع مستوى الجودة مستندياً في جميع مراحل التطوير إلى متطلبات واحتياجات العميل.

المفهوم

تعرف «إدارة الجودة الشاملة» بأنها النهج الذي يقصد من ورائه تحسين

أصبح مفهوم إدارة الجودة الشاملة من المفاهيم الرنانة في عالم اليوم، ومفهوم إدارة الجودة الشاملة يعتبر من المفاهيم الإدارية الحديثة التي تهدف إلى تحسين وتطوير أداء أي مؤسسة أو منشأة بصفة مستمرة من خلال الاستجابة لمتطلبات العميل (السوق)، والجودة تعني الدرجة العالية من النوعية أو القيمة وإتمام الأعمال الصحيحة في الأوقات الصحيحة وتلبية احتياجات وتوقعات العميل لمعقولة، والجودة هي الريادة وتعني

السبق في الاستجابة لمتطلبات العميل، وهي الامتياز ويعني الإتيان من ناحية

*
ناقد وباحث سوري.

التطور التاريخي لإدارة الجودة

الشاملة

لقد تطور مفهوم الجودة الشاملة من خلال تطور حركة الاهتمام بالجودة في بعض الدول المتقدمة كالولايات المتحدة وقد قسمت إلى أربع فترات تاريخية: الفحص، ثم الرقابة الإحصائية على الجودة، ثم ضمان الجودة أو تأكيد الجودة ثم الإدارة الإستراتيجية للجودة.

١- التفتيش والفحص: كانت مرحلة

التفتيش والفحص تتم باستخدام الوسائل الفنية في بداية القرن الثامن عشر خاصة عند ظهور نظام الإنتاج الكبير، وعادة تتم متابعة الجودة أثناء عملية الإنتاج ذاتها، حيث كان التركيز في قياس الجودة محصوراً في عملية الفحص، حيث يتم استبعاد المعيب منها وكان الفحص عشوائياً استناداً إلى التقديرات الإحصائية وانحصرت مسؤولية الرقابة على الجودة في مدير الجودة وكانت عملية التفتيش والفحص لأغراض الجودة فقط. كذلك لم يتم الاهتمام بمعرفة وإرجاع أسباب العيوب وتتبعها ولم تخلُ المنتجات من العيوب في هذه المرحلة وكان في تلك الفترة مفهوم الجودة يدور حول مطابقة المواصفات فقط حيث يتم تصميم المنتج وفقاً لما يريده المنتج وليس وفقاً لما يريده العميل.

الجودة والأداء بما يلبي توقعات العملاء أو يتجاوزها، ويمكن تحقيق ذلك من خلال دمج جميع المهام والعمليات ذات الصلة بالجودة في جميع أقسام الشركة. وتعنى «إدارة الجودة الشاملة» بالتدقيق في تدابير الجودة الكلية التي تستخدمها المؤسسة، بما في ذلك إدارة تصميم الجودة وتطويره ومراقبة الجودة وصيانتها وتحسين الجودة والتأكيد عليها. كما تأخذ «إدارة الجودة الشاملة» بعين الاعتبار جميع تدابير الجودة المتبعة بالنسبة لجميع المستويات، بما يشمل جميع موظفي المؤسسة أو المنشأة. وتوصف «إدارة الجودة الشاملة» بأنها فلسفة إدارة متكاملة، تهدف إلى تحسين جودة المنتجات والعمليات بصورة متواصلة، كما يشجع استخدامها على الصعيد العالمي. وتسير «إدارة الجودة الشاملة» بناءً على فرضية أنّ جودة المنتجات والعمليات تقع مسؤوليتها على عاتق كل من له علاقة بإنشاء المنتجات أو الخدمات التي تقدمها المؤسسة أو استهلاكها. وبعبارة أخرى، تستفيد «إدارة الجودة الشاملة» من وجود الإدارة والقوى العاملة والموردين وحتى العملاء، بغرض تلبية توقعات العملاء أو تجاوزها.

- الاهتمام بدراسة تكلفة الجودة والقرار الاقتصادي بتحديد مستوى الجودة.
- مدخل الرقابة الشاملة على الجودة هو النواة الحقيقية لحركة إدارة الجودة الشاملة التي يتم تنفيذها الآن.
- الاهتمام بقياس درجة الاعتمادية للسلع المكونة من أكثر من جزء عند تصميم المنتج.

- الجودة عند اختفاء نسبة الميعب. ويعتمد نظام التأكيد على منع وقوع الخطأ سواء في تصميم المنتج أو في تصميم العمليات. وتحقيقاً لمسار الإنتاج من دون أخطاء يتبنى تأكيد الجودة استخدام ثلاثة أنواع من الرقابة وهي:

- الرقابة الوقائية: وتعني متابعة تنفيذ العمل أول بأول لاكتشاف الخطأ قبل وقوعه والعمل على منع حدوثه.

- الرقابة المرورية: وتعني فحص المنتج بعد انتهاء كل مرحلة تصنيع للتأكد من مستوى الجودة بحيث لا ينتقل المنتج تحت الصنع من مرحلة إلى أخرى إلا بعد فحصه والتأكد من جودته، وهذا يساعد على اكتشاف الأخطاء عند وقوعها ومعالجتها فوراً.

- الرقابة البعدية: وتعني التأكد من جودة المنتج بعد الانتهاء من تصنيعه وقبل

٢- مراقبة الجودة: وهي مرحلة استخدام بعض الأساليب الإحصائية وتم استخدامها في بداية القرن العشرين، وكان ذلك بداية لوجود قسم مستقل للرقابة على الجودة يعتمد على استخدام الأساليب الإحصائية. ويقصد بمراقبة الجودة مجموعة الأنشطة والأساليب التي تستخدم لإتمام متطلبات الجودة، حيث يتم تسجيل وتحليل وكتابة التقارير المتعلقة بالمعلومات المتصلة بالجودة على اعتبار أن هذه المعلومات تمثل الأساس عند اتخاذ القرارات المرتبطة بالجودة، وعلى الرغم من أن مراقبة الجودة أكثر تطوراً من مجرد مدخل للفحص وأن التقدم في إدارة الجودة جعل الاعتماد على مراقبة الجودة غير كافٍ لتحقيق التحسن المستمر.

٣- تأكيد الجودة: تعرف عملية تأكيد الجودة بأنها نشاط يستهدف تقديم أدلة إثبات لترسيخ وتأكيد الثقة بين جميع الأطراف المعنية وأن عملية الجودة تتحقق بالفعالية المطلوبة، ولكل طرف من الأطراف التي تساهم في بناء ثقة بجودة السلعة أو الخدمة وقد بدأت بأن يتعرف العميل على السلعة بنفسه من خلال فحص السلعة بجواسه واختبار صلاحيتها بفكرة الرقابة الشاملة. ويمكن تحديد ملامح تلك المرحلة بالآتي:

أهمية إدارة الجودة الشاملة

إنَّ الهدف الأساسي من تطبيق برنامج إدارة الجودة الشاملة في المنشآت هو تطوير الجودة للمنتجات والخدمات مع تخفيض التكاليف والإقلال من الوقت والجهد الضائعين لتحسين الخدمة المقدمة للعملاء وكسب رضاهم، وذلك من خلال:

- خلق بيئة تدعم وتحافظ على التطوير المستمر.
- إشراك جميع العاملين في التطوير والتنمية.
- متابعة وتطوير أدوات قياس أداء العمليات.
- تقليل المهام والنشاطات اللازمة لتحويل المدخلات من المواد الأولية إلى منتجات أو خدمات ذات قيمة للعملاء.
- إيجاد ثقافة تركز بقوة على العملاء.
- زيادة الكفاءة بزيادة التعاون بين الإدارات وتشجيع العمل الجماعي.
- تحسين الربحية والإنتاجية.
- تعليم الإدارة والعاملين كيفية تحديد وترتيب وتحليل المشاكل وتجزئتها إلى مشاكل أصغر حتى يمكن السيطرة عليها.
- تدريب الموظفين على أسلوب تطوير العمليات.
- تقليل المهام عديمة الفائدة وزمن العمل المتكرر.

انتقاله إلى يد المستهلك وذلك ضماناً لخلوه من أي خطأ أو عيب.

يتضح مما تقدم أنَّ هذه الأنواع الثلاثة من الرقابة تتكامل مع بعضها البعض من أجل الوصول إلى إنتاج من دون أخطاء، ويمكن القول أن تأكيد الجودة أصبح أحد الإستراتيجيات الأساسية التي تقوم عليها إدارة الجودة الشاملة.

٤- إدارة الجودة الشاملة: ويرمز لها بالرمز (T.Q.M)، وقد ظهر هذا المفهوم بعد عام ١٩٨٠م ومازال مستمراً حتى الآن وسبب ظهوره هو تزايد شدة المنافسة العالمية واكتساح الصناعة اليابانية أسواق البلدان النامية كافة، إزاء هذا الوضع قامت الشركات الأمريكية بتطوير وتوسيع مفهوم إدارة الجودة الإستراتيجية بإضافة جوانب أكثر شمولاً وعمقاً واستخدمت أساليب متطورة في مجال تحسين الجودة والتعامل مع الزبائن والموردين وتفضيل أساليب تأكيد الجودة لتصبح أسلوباً رقابياً إستراتيجياً على الجودة الإستراتيجية، ويلاحظ أنَّ إدارة الجودة الشاملة هي امتداد لإدارة الجودة الإستراتيجية ولكن إدارة الجودة الشاملة أكثر عمقاً وشمولية من إدارة الجودة الإستراتيجية.

- التحسين المتواصل: يتعين على المؤسسات العمل باستمرار على تحسين إجراءات التصنيع والجودة.
- ثقافة المؤسسة: ينبغي لثقافة المؤسسة أن تستهدف تطوير قدرة الموظفين على العمل معاً بغرض تحسين الجودة.
- انخراط الموظفين: ينبغي تشجيع الموظفين على العمل بصورة استباقية لتحديد المشكلات المتعلقة بالجودة ومعالجتها.

مميزات إدارة الجودة الشاملة

- تقليل الأخطاء الشائعة داخل المؤسسة.
- تقليل الوقت اللازم لإنهاء المهام والمسؤوليات.
- الاستفادة المثلى من الموارد الموجودة في المؤسسة.
- تقليل عمليات المراقبة المستمرة من دون جدوى.
- زيادة رضا المستفيدين.
- زيادة رضا العاملين من إداريين وفنيين في المؤسسة.
- تقليل الاجتماعات واللجان غير الضرورية.
- تحديد المسؤولية وعدم إلقاء التبعات على الآخرين عند حدوث أي أمر غير مبرر.

- زيادة القدرة على جذب العملاء وتقليل شكاوهم.
- تحسين الثقة وأداء العمل للعاملين.

مبادئ إدارة الجودة الشاملة

- يمكن تعريف «إدارة الجودة الشاملة» بأنها إدارة المبادرات والإجراءات التي تهدف إلى إنجاز عملية توصيل المنتجات والخدمات عالية الجودة. ويمكن تحديد عدد من المبادئ الأساسية عند تعريف «إدارة الجودة الشاملة»، ومن ذلك:
- الإدارة التنفيذية: ينبغي أن تكون الإدارة العليا بمثابة المحرك الرئيس لإدارة الجودة الشاملة، وأن تعمل على خلق بيئة تضمن نجاحها.
- التدريب: ينبغي أن يحصل الموظفون على تدريب منتظم على طرق الجودة ومفاهيمها.
- التركيز على العملاء: يتعين على التحسينات المدخلة على الجودة زيادة رضا العملاء.
- صنع القرار: ينبغي أن تتخذ القرارات المتعلقة بالجودة على أساس القياسات التي تمّ التوصل إليها.
- المنهجية والأدوات: يضمن استخدام المنهجية والأدوات الملائمة تحديد حالات عدم التوافق مع المواصفات، وكذلك قياسها والتعامل معها بصورة متسقة.

تحسين جودة الأداء وبراغي الارتقاء بقدرة العاملين على استيعاب مفاهيم الجودة وإجراءات التغيير.

- دعم وتأييد الإدارة العليا لبرامج إدارة الجودة الشاملة: من أهم العوامل التي تساعد على التطبيق الناجح لإدارة الجودة الشاملة هو دعم تأييد الإدارة العليا لها، الذي ينبع من اقتناعها وإيمانها بضرورة التطوير والتحسين المستمر وتعبير عن ذلك بالإعلان عن رغبتها في تطبيق إدارة الجودة الشاملة أمام جميع المستويات الإدارية والعاملين بها واتخاذ الخطط والبرامج التي تكفل تنفيذ ذلك، وتوفير جميع الإمكانيات البشرية والمادية اللازمة لعملية التطبيق، وتحديد السلطات والمسؤوليات وإيجاد الخطوط الفاصلة بينها.

- اختبار القيادة المناسبة لأعمال إدارة الجودة الشاملة: إن القيادة الملائمة لأعمال إدارة الجودة الشاملة داخل المؤسسة وخارجها هي القيادة القادرة على العمل بروح الفريق والتي تجاهد من أجل توفير ودعم مناخ يسود فيه العمل الجماعي المنسق، وتولي اهتماماً متوازناً بالعنصر البشري والجانب الهيكلي في التنظيم وتحرص على غرس القيم الإيجابية في العلاقات داخل المؤسسة.

- تقوية الولاء للعمل والمؤسسة.

- بناء وتعزيز العلاقات الإنسانية والاجتماعية.

- تحسين بيئة العمل بتوفير الخدمات كافة.

- تحديد أنماط قيادية مناسبة لنظام إدارة الجودة الشاملة.

- تأسيس نظام معلوماتي دقيق لإدارة الجودة الشاملة.

أسس إدارة الجودة الشاملة

يتطلب تفعيل فلسفة إدارة الجودة الشاملة داخل مؤسسة ما سواء أكانت سلعية أو خدمية توافر عدة أسس ومبادئ تتناسب وتتكامل فيما بينها لتحقيق أهداف المؤسسة المباشرة منها وغير المباشرة، وذلك على المدى القريب والبعيد، والتي تتمثل في النهوض بمستوى الأداء داخل المؤسسة (المديرون والعاملون) وخارجها (الجمهور المتعامل معها)، وهذه الأسس هي:

- التخطيط السليم: تعتمد إدارة الجودة الشاملة في المقام الأول على تفكير إداري حديث يقوم على التخطيط السليم الذي يحقق الأهداف المرجوة للمؤسسة، ويدفع إلى رفع سوية السبب في وجودها في إطار إمكانياتها المتاحة (البشرية والمادية) من خلال برنامج زمني يتميز بالمرونة لإجراءات

الجودة الشاملة بجميع الأفراد المشاركين في العملية، بما فيهم المديرون التنفيذيون في الإدارة والقوى العاملة والعملاء، والاعتراف أيضاً بأنهم يستطيعون المشاركة في التوصل إلى حلول ثنائية مفيدة.

عناصر إدارة الجودة الشاملة

أجريت دراسة على مجموعة من المؤسسات تعمل في مجال الخدمات واستطاعت تلك الدراسة التوصل إلى مجموعة من العناصر الهامة التي تؤدي إلى تحقيق الجودة الشاملة للخدمات التي تقدمها المؤسسة مما يمكنها من التمييز في أداء تلك الخدمات ويمكن إيجاد تلك العناصر فيما يلي:

١- **العنصر الأول:** بحوث عن السوق والعملاء: إن تحقيق الجودة الشاملة الجدية يتطلب الفهم الواضح والدقيق لحاجات العملاء وذلك عن طريق:

- **بحوث السوق:** وهي دراسات منتظمة لهيكل السوق الذي تخدمه المؤسسة وحركته وهذا يستلزم التحديد الدقيق للسوق وتحليل التركيبة السكانية وتحديد الأهداف الرئيسية والحيوية التي يجب أن تسعى المؤسسة لتحقيقها إضافة إلى تحديد قدرات المنافسين.

- **بحوث إدراكات العملاء:** وهي معرفة توقعات وأفكار العملاء تجاه الخدمة وكذلك

- **انتقاء العنصر البشري والارتقاء بأدائه:** العنصر البشري يشكل مطلباً هاماً نحو تطبيق إدارة الجودة الشاملة داخل المؤسسة، الأمر الذي يستوجب أن يكون محل عناية واهتمام في جميع النواحي الخاصة به ابتداء من وضع نظام الاختيار والتعيين وشغل الوظائف وتقييم الأداء وبرامج التعليم والتدريب المستمر للمستويات كافة وفقاً لنوعية المهارات والمعارف السلوكية اللازمة لكل مستوى، فضلاً عن تهيئة العنصر البشري في المؤسسة على مختلف مستوياته نفسياً لفهم وقبول مفاهيم وممارسات إدارة الجودة الشاملة ومردودها الإيجابي على العنصر البشري والمؤسسة.

- **شمولية الأداء والجودة معاً:** لما كانت الجودة الشاملة لا تتحقق بمجهود وإمكانات فرد واحد ومجموعة محدودة من الأفراد وأنها لا تقتصر على عملية أو مرحلة محددة من مراحل إنتاج وتقديم السلعة أو الخدمة كان من الضروري أن تتضافر جهود العاملين في المؤسسة كل في نطاق اختصاصه لتحقيق الجودة المنشودة في كل مراحل إنتاج وتقديم ما تنتجه المؤسسة وفي فروعها كافة.

- **اتخاذ القرارات بناء على الحقائق:** تتبع المؤسسات التي تعتمد على منهج الجودة الشاملة على تطبيق منهج هيكلي لحل المشاكل كفرص لتحسين الأداء، ويعترف منهج إدارة

٣ - **العنصر الثالث:** تدريب العاملين: تبذل المؤسسات المتميزة مجهودات وإجراءات منظمة لتعليم العاملين كل سر عن العملاء مثل مفهوم الجودة وخدمة العملاء، وتلعب طرق التعليم والتدريب والاتصالات دوراً رئيسياً في مساعدة كل موظفي المؤسسة على تفهم احتياجات العملاء وتوقعاتهم، والمهمة الأساسية التي يعود إلى تحقيقها كل تلك الجهود السابقة الذكر تبذلها المؤسسة حتى تتجح في مواجهة المنافسة في السوق عن طريق الالتزام بروح الخدمة والمحافظة على القيم والمعتقدات التي جعلها حقيقية، وبالتالي يمكن أن تصل إلى الأداء الخدمي المتميز بمهارة فائقة وبث مفهوم القيمة للعملاء لجميع العاملين في المؤسسة.

٤ - **العنصر الرابع:** تحسين العمليات: يجب على المؤسسة أن تقدم أفضل الخدمات إلى عملائها وأن تضع التحضيرات الإجرائية التي تؤدي إلى التطوير والتحسين المستمرين للجودة، وتوفير الوسائل التي تمكنها من أداء العمل بشكل مرض لكل من العاملين والعملاء.

٥ - **العنصر الخامس:** التقييم والقياس والتغذية المرتدة: إن توافر نظام المعلومات المتكامل عن العاملين يضمن حصوله على التغذية العكسية عن أدائهم، ومن جانب آخر ضرورة توفير التشجيع والدعم اللازمين من

تجاه المؤسسة واكتساب العامل أو الموظف للعوامل الرئيسية التي تحدد إدراك العميل للخبرة الكلية للخدمة التي يحصل عليها من المؤسسة، وتلك البحوث تساعد المؤسسة في الوصول إلى مجموعة المعايير التي تحكم وتؤثر على اختيار وتفضيل العملاء في التعامل مع المؤسسة أو في التوجه إلى منافس آخر، وهذه المعايير ما هي إلا توقعات العملاء عن الخدمة المقدمة.

٢ - **العنصر الثاني:** تكوين الإستراتيجية: ويمكن تعريف إستراتيجية الخدمة بأنها صيغة مميزة لتقديم الخدمة وهذه الإستراتيجية ترتبط ارتباطاً وثيقاً باقتراحات مختارة بعناية فائقة وتمثل قيمة العميل وتساعد على إرساء تنافسية أكبر وتتضمن معايير الإستراتيجية الفعالة للخدمة مايلي:

- نقل مفهوم مهمة المؤسسة إلى جميع العاملين في المؤسسة حتى يمكن وضعها موضع التنفيذ.

- التركيز على القيم الجوهرية للخدمة وهي تمثل أعلى قيمة للعميل.

- إظهار المؤسسة بصورة مميزة أمام العملاء في مواجهة المؤسسات المنافسة الأخرى.

- التميز بالبساطة وسهولة الصياغة بحيث يسهل شرحها للعاملين.

٢ - صياغة الرسالة: والهدف منها تحقيق الوضوح والإجماع كشرط رئيسي لأي مؤسسة أو مشروع إضافة إلى الموافقة على القيم والمبادئ التي سيتم الالتزام أو التقيد بها .

٣ - عوامل النجاح الحاكمة: وتعمل على تحديد الأهداف التي تعتبر حاكمة لإنجاز الرسالة وهذا التحديد يساعد على تحديد عدد قليل من القضايا الحاكمة في أي نشاط .

٤ - أهداف الجودة: والهدف منها التحديد الواضح للأهداف الخاصة لأي مبادرة لتحسين الجودة .

٥ - المعيار الأساسي النموذجي: والهدف منه تمكين المؤسسة من مقارنة الأداء المتحقق مع أداء المؤسسات الأخرى والمساعدة في وضع الهدف وتجاوز أي عقبات .

٦ - تحديد العملية: يحتمل أن تكون أداة تحديد العملية أكثر أدوات الجودة أهمية، فهذه الأداة تمكن من تحديد متطلبات العميل لأي عملية، ولهذا فإن الموافقة على هذا التحديد وتوثيقه يعتبر الخطوة الأولى لأي عملية لتحسين الجودة، كما إن هذا التحديد يمكن من الموافقة على متطلبات الموردين لضمان الجودة .

٧ - نموذج العملية: وتعتبر هذه الأداة بمثابة تطوير لأداة تحديد العملية (رقم

جانب الإدارة، وكل ذلك يساهم في تحسين أداء الموظف ومعرفته الكاملة بجوانب ضعفه قبل معرفة جوانب قوته، وهذا ينعكس في النهاية على رضا العميل الداخلي والخارجي، ويمكن للعامل من خلال ما سبق ذكره أن ينجح في إبراز قيمة الخدمة لدى العميل وتستطيع المؤسسات الخدمية عندئذ الربط بين فرص التقدم المستقبلي للموظف وبين الحاجة لإبراز قيمة الخدمة للعميل وتحقيق أعلى معدلات الرضاء له .

أدوات إدارة الجودة الشاملة

لقد تمّ تصميم مجموعة من الأدوات بحيث تكون مهمة تلك الأدوات تحسين العمليات من أجل إنتاج أو تقديم خدمات ذات جودة عالية. إن نقطة البداية لأي عملية تحسين للجودة تبدأ أولاً بالتحديد لكل من الأهداف والعملية المطلوب تحسينها والأدوار والمسؤوليات والموارد والخطة قبل أي نشاط آخر ومن ثم الإدارة المستخدمة في تحسين الجودة أو العمليات، وفيما يلي نعرض أهم هذه الأدوات:

١- الوصف الذهني (إشارة الأفكار): والهدف منها محاولة الوصول إلى أكبر عدد من الأفكار الإبداعية في ظل بيئة مشجعة ومفيدة وتشمل جميع فريق المؤسسة .

للمساعدة على تقليل الانحراف والوصول في النهاية إلى منع تكاثر الأخطاء أو العيوب وتعتبر هذه الأداة من الأدوات المتقدمة.

إنَّ تطبيق مفهوم إدارة الجودة الشاملة في المؤسسة أو المنشأة يستلزم بعض المتطلبات التي تسبق البدء بتطبيق هذا البرنامج في تلك المؤسسة حتى يمكن تهيئة العاملين لقبول الفكرة، ومن ثم السعي نحو تحقيقها بفاعلية، وحصر نتائجها المرغوبة. إنَّ نظام الجودة الشاملة نظام عالمي يمكن تطبيقه في كافة المؤسسات والمنشآت، سواء في القطاع العام أو الخاص، غير أنه يحتاج إلى دقة في التنفيذ وتهيئة المناخ المناسب لتفعيله، ناهيك عن النفقات الكثيرة التي تحتاجها المؤسسة أو المنشأة أثناء عملية التطبيق، وخاصة فيما يتعلق بتوفير البيئة المتميزة من مبانٍ ومرافق وتدريب للكوادر البشرية وتجهيزات وإنشاء المعامل والمختبرات وأجهزة الحاسوب وكل ما يتعلق بعملية الجودة الشاملة، وكل ذلك ينبغي توفيره حتى تحصل المؤسسة أو المنشأة على مواصفات قياسية للجودة الشاملة.

ولا يعني ذلك أن نتخلى كلياً عن البحث عن مصادر أخرى يمكن أن توصلنا إلى تحقيق بعض جوانب الجودة الشاملة،

(٦)، وتستخدم هذه الأداة لتحليل العمليات الأكثر تعقيداً وتمثل فوائد نموذج العملية فيما يلي:

- تحقيق الاتصال والفهم المشترك.
- إلقاء الضوء على العلاقات بين العملاء الداخليين والعملاء الخارجيين والموردين.
- التمكن من التحديد الدقيق للمتطلبات.

- المساعدة في تحديد تكلفة الجودة.
٨ - خريطة التدفق: والهدف منها المساعدة في إلقاء الضوء على تتابع العمليات المتعلقة بنقاط اتخاذ القرارات الرئيسية.

٩ - رسم الشجرة البياني: تجزئة القضية المعقدة إلى العناصر المكونة لها وكذلك إبراز سلسلة الأثر والنتيجة بشكل بسيط من خلال الرسم البياني (لماذا)، ويستخدم الرسم البياني (كيف) لإظهار كيف أنَّ المهمة المعقدة يمكن تجزئتها إلى أنشطة يمكن إدارتها بسهولة.

١٠ - تكاليف الجودة: وتعمل على توجيه عملية تحسين الجودة لضمان الحصول على الحد الأقصى للفائض المالي من الاستثمار في عملية التحسين.

١١ - الضبط الإحصائي للعملية: والهدف منه إمكانية التنبؤ بالعملية وذلك

الشاملة ومعاييرها هو مفتاح النجاح لأي مؤسسة أو منشأة، وعلى أي مدير أن يحرص على تطبيق مبادئ إدارة الجودة الشاملة في موقع عمله، ليضمن استمرارية نجاح المؤسسة، وبقاءها في المنافسة بين المؤسسات الناجحة والمنتجة.

ومن هذه المصادر: تدريب كل العاملين في المنشأة، تهيئة مناخ العمل، مشاركة الجميع في تفعيل دور المنشأة والارتقاء بها، وعلى الإدارة العليا أن تركز على القيادة العملية، وتكثف الإدارة قدوة يحتذى بها لكل المستويات الإدارية. إن الالتزام بالجودة



حل لغز الإكليل الشمسي



ترجمة: محمد الدنيا

ظلَّ عملاق، قرص غامض بقطر يزيد على ألف كيلومتر على سطح الشمس، في وسط غليان الغازات المؤيَّنة، قبل أن يختفي بعد بضع دقائق.. لم يلتقط أي مقراب هذه الظاهرة من قبل، فما هي؟ سعى الباحثون، بلا جدوى، بوساطة حواسيب عملاقة، لتحديدها من خلال معادلات، إلى أن تبلورت منذ بضعة أشهر في ثلاثة أبعاد تحت أعين المقراب Solar Dynamic Observatory (SDO) التابع لوكالة الفضاء الأمريكية.

كانت رؤية هذا الشيء في خضم نشاطه

تبدو المسألة بسيطة تماماً، مع ذلك بقيت لغزاً بالنسبة لعلماء الفيزياء الفلكية منذ أكثر من ثلاثين سنة: لماذا جو الشمس أشد حرارة من سطحها؟ أخيراً، أعطت الصور السالبة التي التقطتها المقاريب سيناريو موثوقة. في صميم اللغز: ثلاث ظواهر فيزيائية فلكية مجهولة كلياً..

يتتبع علماء الفلك هذه المسألة منذ عام ٢٠٠٩م. وبعد دراسة صور الشمس الأخيرة التي التقطها المقراب Swedish Solar Telescope المنصوب في جزر الكناري، لفت انتباههم ظاهرة غير معهودة: ظهور

✿ أديب و مترجم سوري.

في الواقع، كانت القياسات واضحة منذ عام ١٨٦٩م: تصل حرارة الإكليل الشمسي، هذه الهالة الأثيرية التي تتجسد حول نجمنا خلال الكسوفات، إلى ملايين عدة من الدرجات... بينما لا تكون الحرارة على السطح «سوى» ٥٦٠٠ درجة. «تأتي طاقة الشمس كلها من التفاعلات النووية الجارية في مركزها. إنها هي التي تغذي الطبقات الداخلية المختلفة بالحرارة...»، يشرح «إريك بوشلن» Eric Buchlin، من معهد أورساي للفيزياء الفلكية الفضائية بباريس. وهكذا، نلاحظ أن حرارة النجم تتخفض بشكل مستمر كلما ابتعدنا عن مركزه وأن كثافة البلازما تتضاءل: ننتقل بالتدرج من عجيبة لزجة مسخنة حتى ١٢ مليون درجة في مركز الشمس إلى سائل خفيف حرارته ٥٦٠٠ درجة، على مسافة أبعد بـ ٧٠٠٠٠٠ كم. وتصبح البلازما عندئذ شفافة وتتخذ شكل غاز هيدروجين وهليوم خفيف. نحن هنا على سطح النجم.. وفي قلب اللغز: كان يجب أن تستمر الحرارة في الانخفاض حتى تصل إلى ٢٠٠ درجة تحت الصفر السائدة في فراغ الفضاء. إلا أن ما يحدث هو العكس تماماً: تزداد الحرارة فجأة، لتبلغ أكثر من مليون درجة عبر بضعة مئات من الكيلومترات! كيف يمكن للحرارة، التي لا يمكن أن تنشأ إلا عن مركز الشمس، أن تصبح بهذه الشدة في جوها؟ بأية آليات

مذهلة: لف الشيء في لحظة واحدة خيوط حقل مغنطيسي يسبب إعصاراً معقداً. وعند قاعدته، تنفصل موجاتٌ غازية مؤيَّنة عن سطح الشمس بتأثير جاذبية هذه الشبكة المغنطيسية التي لا تقاوم وتدور حول نفسها حتى تصل إلى سرعة ١٠٠٠٠ كم/سا. وخلال بضع عشرات من الثواني، يصل هذا المخلوق، الشيء، إلى ذروة روعته: إعصار بارتفاع آلاف عدة من الكيلومترات يبتلع بضمه الشره، بحجم قارة أرضية، مئات مليارات من الكيلومترات المكعبة من الغازات المسخنة إلى أكثر من مليون درجة. ثم، بعد بضع دقائق...ينتهي كل شيء. ثم يغمى على المخلوق الوحش فجأة، وتبسطن دواماته المغنطيسية. وتتشتت حرارته في جو الشمس. ومن هذا المخلوق العابر، من هذا الإعصار العملاق، لا يبقى سوى هالة منتشرة من الحرارة.

حركات حقل مغنطيسي دوامية لا

تقاوم..

ربما يكون قد اتضح بذلك لعلماء الفلك جانب هام من لغز استعصى عليهم حله طوال أكثر من قرن من الزمن، لغز يشبه سؤالاً سهلاً: لماذا الإكليل الشمسي، هذا الجو المؤلف من غازات مؤيَّنة، حارق إلى هذا الحد بدلاً من أن يكون ببرودة الفضاء أو على الأقل ذا حرارة مثيلة لحرارة الشمس نفسها، أي بضعة آلاف من الدرجات؟

المشحونة بالبلازما إلى تتبّع خطوط الحقل المغنطيسي بشكل لا سبيل إلى مقاومته. وكان من المنطقي أن نفكر بأن الحقل المغنطيسي الشمسي، الذي نعرف أنه شديد جداً، يسيطر على كل ديناميكية المادة... وأن بإمكانه إذاً أن يتحكم بنقل الطاقة على شكل جسيمات مشحونة»، يشرح «سباستيان غالتييه» Sébastien Galtier الذي يُمنّج تسخن الإكليل في معهد أورساي للفيزياء الفلكية.

وبقي أن يتم التيقّن من صحة الفرضية عبر الكشف عن الآليات المغنطيسية التي تحكم نقل الطاقة. لزم من أجل ذلك وجود قياسات... وفي الواقع، كانت الشمس منذ عشرين سنة الهدف الدراسي للعديد من المقارِب. «كان ذلك قد بدأ في نهاية تسعينيات القرن الماضي مع المقرب الفضائي» سوهو «SOHO. واستناداً إلى الصور التي التقطها، انتقلنا من رؤية خطية إلى رؤية بثلاثة أبعاد. ولأوّل مرة، تمكنا من تفصيل حركات البلازما في العمق»، يقول «غويوم أولانبييه». جاءت بعد ذلك المقارِب STEREO و SORCE و RHESSI و Koronas و Hinode و SDO.. حلقت عشرة مسابير باتجاه مدارات شمسية المركز، بينما كان هناك، على الأرض، ثلاثون مقرباً تصوّب كاشفاتها باتجاه النجم، لرصد أدنى زوبعة في بلازما

غامضة يمكن للطاقة أن تتوجه حتى تصل إلى الإكليل؟

منذ عقود من الزمن والمسألة تشغل بمفردها غالبية الاختصاصيين؛ «بل هي إحدى المسائل الكبرى للفيزياء الفلكية؛ إذ تختبئ خلف هذا اللغز أسئلة كثيرة: لماذا الوسط بين النجمي حار جداً في بعض الأماكن؟ وكيف تتحكم الحقول المغنطيسية بانفجارات النجوم؟ وعلى نحو أكثر أساسية، كيف تسخن البلازما؟»، يضيف «غويوم أولانبييه» Guillaume Aulanier، من مرصد باريس.

تتالت الفرضيات منذ مئة سنة. وتوقع علماء الفلك في البداية أن تكون هناك موجات صوتية توجه بلازما الغازات المؤيئة وتمكنها من الوصول إلى الإكليل وتسخينه. لكن للأسف، الموجات الصوتية غير قادرة على اجتياز منطقة العبور التي تفصل سطح الشمس عن جوها.

«لوحظ أن الموجات الصوتية تنحرف هنا كما لو أنها تغير وسطها، بنتيجة الاختلاف الحراري في هذه المنطقة»، يفصّل «إريك بوشلن». ثم، وخلال سبعينيات القرن العشرين، الفكرة التي فرضت نفسها والتي تفيد بأن حامل الطاقة لا بد أن يكون هو الحقل المغنطيسي القوي السائد على سطح الشمس. «المغنطيسية والكهرباء مترابطتان: تميل الجسيمات

هذه الظواهر يتمكن من ذلك، على الورق، لكن مكتشفها كانوا يشكون بأن تكون كافية من الناحية العملية»، يوضح «سباستيان غالتيه».

... وتغذي مخلوقات هائلة

ولكن، خلال الأشهر الأخيرة من العام ٢٠١٢م، كشفت ثلاثة فرق مختلفة، كل منها بمفردها، عن مخلوق فيزيائي فلكي جديد يبدو أنه يحل اللغز أخيراً. «أول هذه المخلوقات مذهل... من حيث صفه: عبارة عن خيوط مادية بقطر ١٠٠ كم تقذف باستمرار غازات حارة عند قاعدة الجو الشمسي. عندما اكتشفناها، فوجئنا جداً. كانت تقع عند حدود ميز المقرب. استعرضنا الصور عدة أيام قبل أن نصدق وجودها...»، يقول «هايشنغ جي» Haisheng Ji، عالم الفيزياء الفلكية في Purple Mountain Observatory في الصين، حيث جرت الأبحاث. درس الباحثون بعدئذ آليات الظاهرة ورأوا أنها خيوط ربما كانت تتولد من حلقات حقول مغناطيسية صغيرة تتشكل على سطح الشمس بنتيجة عدم تجانس البلازما الشمسية.

وكشفت الدراسة الثانية عن ظاهرة مشابهة ولكن على نطاق أوسع وفي مناطق معينة، مضطربة بالثورانات الشمسية. وبعد تفحص قاعدة إحدى هذه الثورانات، وجد فيها باحثون من جامعة «كامبردج»، من

وأصغر دوامة في حقله المغناطيسي. «هذه فترة مثيرة جداً بالنسبة للفيزياء الشمسية. نعيش عصرًا ذهبياً في الرصد»، يقول بحماس «دورجش تريباتي» Durgesh Tripathi اختصاصي الشمس في جامعة «كامبردج».

كان يجب أن نتوقع ذلك، فهذه القوة العظيمة سرعان ما تمخضت عن سيل من المعطيات وتمخضت عن عدد ضخم من القياسات التي استعان بها الاختصاصيون فوراً على أمل حل اللغز الشهير. وبدأت عناصر حل اللغز تتجمع. ففي عام ٢٠٠٢م، التقطت إشارة وأبل من حلقات مغناطيسية على مقربة من ثورانات شمسية بدت أنها تنشر الطاقة تدريجياً. وفي عام ٢٠٠٧م، اكتشف وجود تذبذبات مغناطيسية: موجات تسمى «الفن» Alfvén قادرة على عبور منطقة النقل الحراري وتوجيه الجسيمات المشحونة نحو الجو الشمسي.

وفي عام ٢٠١١م، اكتشف فريق أمريكي أن الحقل المغناطيسي على السطح يمكنه تشكيل أنابيب تصب الغازات الحارقة بشكل مستمر في الإكليل الشمسي. وكان علماء الفيزياء الفلكية منكبئين على النمذجة، مع كل اكتشاف لآلية جديدة، ويضعون ميزات طاقة آملين أن يكون هذا المخلوق المغناطيسي قوياً بما يكفي لنقل كامل الطاقة اللازمة لتسخين الإكليل. «كان بعض

واحدة مسؤولة بمفردها عن تسخن الإكليل الشمسي، غير أنهم توصلوا في نهاية المطاف إلى مخطط تفسيري عام: يبدأ كل شيء في الحركات الاضطرابية للبلازما، تحت السطح تماماً. ومصدر الطاقة هو الحقل المغنطيسي الشمسي، الذي يفتح، حسب التواءاته وتلافيفه، قنوات في المستويات كلها تتدفق البلازما من خلالها.

أخيراً، ربما تكون تلافيف الحقل المغنطيسي، التي تطلق الأعاصير، مسؤولة عن تشكيل خيوط دقيقة عند قاعدة الجو ويمكنها أن تتمخض عن تيارات صاعدة.... «لا نعرف بعد الآلية المسيطرة: ما نزال في مرحلة الدراسات التركيبية الأولى الهادفة إلى الفرز بين هذه الآليات المختلفة وربطها كي نعطي تفسيراً كاملاً. طبعاً! أساس الفيزياء هنا: لدينا فكرة جيدة حول كيف تجري الأشياء».

أين تذهب الطاقة بعد ذلك؟

ولكن، يبقى شيء هام مجهول: كيف تتبدد الطاقة بعد ذلك في الجو الشمسي؟ «هذا هو السؤال الباقي بلا إجابة»، يؤكد «إريك بوشلن». هناك في الوقت الحاضر نمطان من الظواهر التي تمّ تعيينها؛ إمّا أنّ الطاقة تتحرر عندما تتكسر خطوط الحقل المغنطيسي فجأةً بنتيجة شدة حركاتها الدوامية، قبل أن تحتشد من جديد على

خلال المقرب Hinode، تيارات بلازمية ترتفع بسرعة ١٠٠ كم/سا في الإكليل.

«عملنا على المعطيات، ولكن إذا كان تفسيرنا دقيقاً، فذاك يشبه رؤية سطح الشمس وهو يتبخّر!»، يقول بحذر «دورجش تريباتي»، الذي شارك في عمليات الرصد. أخيراً، وعبر ظاهرة أضخم أيضاً، كان هناك المخلوق الذي وضع يده عليه الفريق النرويجي، أي تلك الأعاصير العملاقة التي تخلط البلازما الشمسية وتقل طاقتها إلى كل مكان في الإكليل. «شاهدنا في البداية أقراصاً بلازمية في حالة دوران فوق السطح تماماً. ولكن لم نكن نعرف بالفعل ما ننظر إليه. وتوجب علينا انتظار نتيجة عمليات محاكاة رقمية وعمليات رصد جديدة كي نربط هذه الظواهر السطحية بأعاصير على ارتفاعات عالية»، يقول «إيامون سكوليون» Eamon Scullion، أحد المكتشفين، من جامعة «أوسلو». وهكذا شرح الباحثون بالتفصيل ١٤ إعصاراً وحسبوا الطاقة التي تنقلها إلى الإكليل. «كان ذلك أكثر ما أذهلنا. أفادتنا عمليات المحاكاة التي أنجزناها بأنه يوجد بشكل دائم ١٠٠٠٠ إعصار على سطح الشمس تنقل بمفردها ما يكفي من الطاقة كي نفسر بشكل كامل تسخن الإكليل!»، يقول «سفن ودميير» Sven Wedmeyer، أحد مدراء الأبحاث.

يشك معظم الباحثين بأن تكون ظاهرة

هذا فضلاً عن أنَّ الصعوبات هي من النوع النظري أيضاً، لأنَّ الغازات المؤينة بهذا المستوى تتحرك ليس بشكل سائل بل كمجموع جسيمات مشحونة لا يمكن وصفها دون التعرض للفيزياء غير الخطية للبلازما، الموضوع الذي أتعب المنظرين.

وحتى لو حل لغز الإكليل، ستبقى الشمس محتفظة بأسرار كثيرة أخرى، منها مثلاً، كيف تتمكن الشمس من مسارعة رياحها إلى هذه الدرجة؟ تُظهر القياسات أنَّ هذا التدفق من الجسيمات، التي تنفصل باستمرار عن الجو الشمسي، تتبدد في الفضاء بسرعة ٤ مليون كم/سا، بينما يجب أن لا تتجاوز بضعة مئات من الآلاف من الكيلومترات في الساعة وفقاً لنماذج عمليات المحاكاة المنجزة! ويشتهر علماء الفيزياء الفلكية بأنَّ للحقل المغنطيسي دوراً راجحاً هنا أيضاً ولكن لم ينجحوا في الكشف عن آلية عمله. وقد يتمكن المسبار Solar Orbital، من وكالة الفضاء الأوروبية، والذي سيرصد قطبي النجم، حيث الرياح الشمسية هي الأشد، من الحصول على عناصر إجابة عام ٢٠١٨. «هذا هو الموضوع الذي سيشتغلنا خلال السنوات العشرين القادمة»، حسب توقعات «سباستيان غالتييه».

نحو أكثر استقراراً: كانت «عودة الترابط المغنطيسي» هذه قد لوحظت في المختبر منذ عام ١٩٩٧؛ وأمَّا أن تكون ناجمة عن ظواهر اضطرابية على مستوى صغير: يمكن للاحتكاكات بين الموجات المغنطيسية أن تحرك جسيمات البلازما مثلما يحرك التيار الكهربائي، الذي يسري في مصباح هالوجيني halogène، الجسيمات الغازية التي يحتويها. ويمكن لهذه الآليات أن تتوافق:

«تبدو النماذج أنَّها تدل على أنَّ عودة الترابط المغنطيسي هي التي تسود في المناطق الهادئة من الشمس؛ ويحل مكانها الاضطراب على المستوى الصغير في المناطق النشطة»، يوضح «غويوم أولانبيه».

ينبغي القيام بعمليات رصد جديدة لحسم هذه المسألة، ولكن لا شيء يؤكد بأن هذه العمليات ستكون ذات يوم في متناول المقارِب. «مقاييس هذه الظواهر هي من رتبة بضعة عشرات من الأمتار، بينما الميَّز الأقصى لمقارِبنا هو من رتبة مئة كيلومتر. هناك مشروعات قيد الإنجاز اليوم لبلوغ الميز المطلوب، غير أنَّها لن تصل إلى هذا المستوى التفصيلي»، حسب عبارة «إريك بوشلن».

المصدر

Science & Vie الفرنسية

الأشعة المؤينة.. ماهيتها وطرق الوقاية من مخاطرها



وهذان وهذان



تعد الأشعة المؤينة المستخدمة في الطب سلاحاً ذا حدين لها منافعها مثلما لها أضرارها، فهي أداة هامة في التصوير الشعاعي والمعالجة الشعاعية والطب النووي ولكنها تستطبع أن تحدث في الجسم المعرض لها أذية إشعاعية ما لم تستخدم بشكل آمن وسليم.

مفهوم الأذية الإشعاعية وآلية حدوثها
تعرف الأشعة المؤينة على أنها طاقة متقلبة (Energy in Transit) على

بإمك سوربي.

الحررة التي تنتقل وتتحرك داخل الخلية لتتسبب التفاعلات الكيميائية وإحداث الأذية.

تحديد شدة التأثيرات البيولوجية

تخضع درجة الأذية الإشعاعية لجملة من العوامل تصنف تحت عنوانين أساسيين هما: أ- الإشعاع، ب- النسيج والأعضاء.

أ- الإشعاع: عندما تمر الأشعة المؤينة خلال نسيج ما فإنها تفقد فيه طاقتها بشكل جزئي أو كلي مسببة أذية إشعاعية تتعلق شدتها بمقدار الطاقة الممنوحة لهذا النسيج ومقدار التعرض الإشعاعي أو مقدار الجرعة الإشعاعية الممتصة، وتجزئة الجرعة حيث تقوم الخلايا بترميم نفسها من جديد.

ب- النسيج والأعضاء: بعد اكتشاف الأشعة بفترة قصيرة، لاحظ العلماء أنها تؤثر على الخلايا الحيوانية والنباتية، وتتابع الدراسات في هذا المضمون مؤكدة أن استجابة الخلايا (حساسيتها تجاه الأشعة) لنوع معين من الإشعاع تخضع لطبيعة تلك الخلايا ولأطوار حياتها ولمكوناتها، ولدرجة الحرارة فيها.. فتزداد حساسيتها بزيادة نشاطها الانقسامية، فخلايا نقي العظام والخلايا التناسلية وخلايا الدم والخلايا

شكل موجات كهرومغناطيسية كالأشعة السينية وأشعة غاما، أو على شكل جسيمات متناهية في الصغر كالإلكترونات والبروتونات وجسيمات ألفا، وتشترك جميع هذه الإشعاعات بصفات عدة أهمها: اختراق الأجسام الصلبة والسائلة والغازية وقدرتها على إثارة وتأيين ذرات وجزيئات المواد التي تخترقها وذلك بمنحها كمية معينة من طاقتها الإشعاعية. تستطيع هذه الطاقة الممنوحة لخلايا الجسم تشريد مكوناتها وتمزيق الروابط فيها وتنشيط التفاعلات الكيميائية بين جزيئاتها وذراتها فتفقد الجزيئات الأصلية ومنها الـ DNA جوانب من هويتها الأصلية على الأقل أو قد تنتج مركبات جديدة داخل الخلية، وهذا يعني فقدان بعض الوظائف وظهور نشاطات جديدة داخل الخلية، تسمى هذه التغيرات الخلوية الناتجة عن التعرض الإشعاعي، بالأذية الإشعاعية Radiation Damage or Effect التي قد تؤدي إما إلى الموت أو إلى إنقاص العمر. في حقيقة الأمر تؤثر الأشعة على خلايا الجسم بطريقتين:

١ - طريقة الفعل المباشر: Direct

Action حيث تنتج الأذية الإشعاعية هنا عن التفاعل المباشر للأشعة مع البنى العضوية.

٢ - طريقة الفعل غير المباشر

Indirect Action وذلك بإحداث الجذور

تظهر على الجسم المعرض ذاته فتدعى بالتأثيرات الجسدية، أو قد تظهر على الأجيال التالية فتدعى بالتأثيرات الوراثية. وتستطيع الأشعة المؤينة إحداث الأذية في الجسم بأشكال مختلفة، منها:

١ - إحداث أو تحريض السرطانات: إن الأورام السليمة يمكنها أن تتحول إلى خبيثة بتعرضها للإشعاع كما أن الهرمونات الطبيعية يمكنها تطوير عوامل مسرطنة لدى تعرضها للإشعاع المؤين.

٢- قتل الخلايا وتقصير العمر والموت: يعتقد البعض أن تقصير العمر ناجم عن تسريع الشيخوخة aging، بينما يعتقد آخرون أن تقصير العمر يحدث نتيجة تسريع ظهور أو نشوء الأورام.

٣- تغيير الجينات (المورثات) وإحداث التشوهات والطفرات.

٤ - إضعاف الخصوبة والعقم المؤقت أو الدائم حسب مقدار الجرعة.

٥ - تخلف عقلي عندما يتعرض الجنين للإشعاع المؤين.

٦ - تصلب العدسة العينية.

ومن الطبيعي أن الأشعة المؤينة ليست العامل الوحيد الذي يؤثر سلباً على صحة وسلامة الإنسان، فهناك عوامل فيزيائية وكيميائية وفيروسية وبيئية وغذائية أخرى

القاعدية للبشرة هي خلايا نشطة كلها وتتأثر بالإشعاع أكثر من الخلايا العصبية والعضلية الوظيفية، فالجرعة الكافية لقتل النوع الأول تتراوح بين ١ إلى ٢ غراي Gy بينما تحتاج إلى بضع مئات من الغراي لقتل النوع الأخير، إضافة إلى عوامل أخرى، منها:

١- السن: إن خلايا الجنين (نشطة) وأكثر تأثراً بالإشعاع من خلايا جسم الأطفال.. إلخ ومع تقدم الإنسان بالسن تزداد مقاومة الخلايا للإشعاع إلى أن يصل إلى مرحلة متأخرة في السن، عندها لا يستطيع الجسم تحمل العوامل الفيزيائية عامة.

٢- درجة الحرارة العضوية: يتأخر حدوث الأذية الإشعاعية في الدرجات المنخفضة من الحرارة.

٣- الشدة النفسية: لاحظ العلماء أن الحيوانات المخبرية التي تعاني من شدة نفسية Stress تموت قبل غيرها إثر تعرضها الإشعاعي للجرعة نفسها.

التأثيرات البيولوجية الضارة للإشعاع

المؤين

قد تظهر التأثيرات البيولوجية الناتجة عن التعرض الإشعاعي في غضون ساعات أو أيام وقد تمتد إلى سنين، ويمكن لها أن

كثيرة، ففي دراسة حول العوامل المسببة

للموت نتيجة الإصابة بالسرطان تبين أن
الدخان يمثل ٣٠٪ من الحالات والتلوث
يمثل ٢٠٪ منها بينما المهن الأخرى ٤٠٪
والأدوية والإجراءات الطبية فقط ١٪ من
هنا يمكن أن نقدر كم هي ضئيلة مساهمة
الإشعاع طبيًا في إحداث السرطانات، مع
ذلك يجب أن يكون توجهنا نحو منع الإصابة
ما أمكن.

٢- الأمثلة Optimization: بعد

تبني العمل الشعاعي يجب اتباع أفضل
وأدق التقنيات والطرق الممكنة لتحقيق
وتنفيذ العمل بعد أخذ الظروف الاقتصادية
والاجتماعية والفنية والعلمية بعين الاعتبار
وذلك لتخفيض الجرعة الإشعاعية إلى
الحد الأدنى.

٣- تطبيق حدود الجرعة

Application Of Dose Limits:

تحدد المقادير الأعظمية للجرع الإشعاعية
المسموح بها من قبل الحكومات بعد
الاسترشاد بنصائح الهيئات والمنظمات
الدولية المختصة وأهمها الهيئة الدولية
للووقاية من الإشعاع International
Commission on Radiological
Protection / ICRP .

ليس المهم عدم تجاوز حدود الجرعة
فقط وإنما محاولة تخفيضها إلى أدنى
حد معقول من الناحية العملية وهذا يسمى
بمبدأ ALARA. أي (As Low As
Reasonably Achievable) .

الفلسفة الحديثة للوقاية الإشعاعية

أضحت الأشعة أداة هامة وفعالة في
التصوير الشعاعي العادي وفي المعالجة
الشعاعية والطب النووي والأبحاث الطبية
وتعقيم الأدوات الجراحية وغيرها، وتعتمد
الفلسفة الحديثة للوقاية الإشعاعية من
أجل الاستفادة القصوى للأشعة مع تجنب
مخاطرها على الأسس الثلاثة التالية:

١- المبررات الإيجابية Justificatios:

أي إنه لدى التخطيط للقيام بأي عمل
شعاعي (أو حتى عند التفكير به) يجب
مقارنة حسنات ذلك العمل مع سيئاته،
منافعه مع مضاره، فوائده مع أخطاره، ولا
يجوز اتخاذ القرار بتبني أي عمل شعاعي
(سواء أكان بناء منشأة أو افتتاح قسم أو حتى
إجراء صورة أو جلسة معالجة) ما لم تكن

لجدران الغرف والحواجز والستائر وحاويات تخزين المنابع والسيرنجات التي تستخدم في حقن المواد المشعة، ودرجات التطهير، والزجاج المرصص.. الخ. إنَّ سماكة ونوعية هذه الحواجز الواقية تعتمد على شدة النشاط الإشعاعي والطاقة الشعاعية والمسافة بين المنبع ومنطقة بناء الحاجز والشدة الشعاعية المستخدمة خلال فترة العمل.

٤ - المراقبة الإشعاعية للعاملين وبيئة العمل للتأكد من الممارسة السليمة لدى تداول المنابع المشعة وسلامة نظام وجو العمل وتقييم مدى تعرض الأشخاص وتحديد مناحي التعرض، وذلك باستخدام أجهزة قياس مناسبة.

٥ - صيانة الأجهزة والمعدات دورياً وإجراء عمليات ضبط الجودة الروتينية (اليومية منها والأسبوعية) محلياً في أقسام المخابر الشعاعية التي تستخدم أجهزة الأشعة السينية أو منابح مشعة أي في مجال التصوير الشعاعي والمعالجة والطب النووي - وهذا يتطلب تدريب الكادر الهندسي والفني في كل مركز تدريباً جيداً، أمَّا الدراسات المعمقة في مجال ضبط الجودة فيمكن أن تتم من قبل جهات علمية مختصة مثل هيئة الطاقة الذرية. حيث

ولكنها في أغلب الأحيان أقل بكثير من الحدود العظمى المسموح بها، ولكن إذا ما حدث خلل فني أو خطأ شخصي قد يحدث تعرض زائد وخطير للعاملين وللمرضى، ولمواجهة مثل هذه الحالات (والأفضل منع حدوثها) يجب أن نتسلح جيداً بالعلم والمعرفة والوعي قبل ممارسة العمل الشعاعي، وأن نتحمل مسؤولية تأهيل وتدريب الآخرين عندما نتمكن من ذلك، وأهم المعطيات والإجراءات التي تمكنا من جني ثمار الأشعة في مجال الطب من دون خطر أو تعرض زائد غير ضروري، هي:

أ - تخفيض التعرض الناجم عن المنابع الخارجية External Sorces:

١- يلجأ الطبيب إلى إجراء الدراسات والفحوصات الشعاعية فقط في الحالات الضرورية جداً وبعد فشل التشخيص أو المعالجة بالطرق السريرية والمخبرية والدوائية الأخرى، أو عندما تكون هذه الإجراءات الشعاعية هامة جداً في تأكيد النتيجة الطبية.

٢ - تخفيض زمن التعرض والنشاط الإشعاعي إلى الحد الأدنى المقبول والابتعاد عن مصدر الإشعاع ما أمكن.

٣ - تأمين درع الوقاية المناسب والكافي من الأشعة الأولية والمنتشرة

٩ - عدم السماح لذوي ومرافقي المرضى بالبقاء داخل غرف الأشعة أو الوقوف بجانب المخابر الحاوية على مواد نشطة إشعاعياً، أو الدخول إلى القطاع المحظور، كما يمكن استعمال أجهزة التثبيت اللازمة عندما لا يكون المريض متجاوباً أثناء الفحص الشعاعي.

١٠ - إيلاء المرأة في سن الإنجاب اهتماماً خاصاً - وبشكل خاص خلال فترة الحمل - ولا يجوز أن تتعرض لأية جرعة إشعاعية تفوق الحدود المسموح بها.

ب - تخفيض التعرض الناتج عن المصادر الداخلية Internal Sources:
أفضل طريقة للوقاية من الأشعة الناتجة عن المواد الداخلة إلى الجسم هي تجنب دخولها إليه. ولتحقيق هذا الهدف نتبع مايلي:

١ - منع تناول الطعام أو الشراب أو التدخين أو تطبيق مواد التجميل داخل مخابر الطب النووي والمخابر الأخرى التي تستخدم النظائر المشعة.

٢ - ارتداء المعاطف والقفازات البلاستيكية المخبرية لدى مداولة المصادر المشعة وذلك لمنع تلوث الجسم، وحفظ هذه الألبسة في أماكن خاصة بها قبل وبعد الاستعمال.

تفيد اختبارات ضبط الجودة في تخفيض الجرعة الإشعاعية للعاملين والمرضى، وفي تحسين وتطوير العمل من جهة وتخفيض التكاليف من جهة أخرى.

٦ - الممارسة السليمة والتي تأتي نتيجة لتلقي العلوم الطبية والصحية والعلوم الشعاعية (الطبية والوقائية) ونتيجة لتدريب منهجي سليم وجيد. وهنا ندرك أهمية الدورات العلمية والتدريبية للعاملين، وأهمية التعليم الأساسي للعلوم الشعاعية في الجامعات والمعاهد المتوسطة للدارسين في هذا الحقل.

٧ - الانتقاء المناسب للنظائر المشعة ولعوامل التعريض، واستخدام المرشحات والمصافي ومحددات الساحة، وتطبيق وسائل الوقاية (واقية المناسل للمريض مثلاً)، وارتداء اللباس الواقي (قفازات رصاصية بلاستيكية - صدرية بلاستيكية رصاصية.. إلخ) والاختبار المناسب لدرئيات التقوية ودرئيات التنظير مع السعي الدائم نحو المحافظة على النوعية والجودة ومراعاة التكاليف.

٨ - منع إجراء التنظير الإشعاعي إلا من قبل الأطباء الأخصائيين وفي حالات الدراسة الوظيفية أو الحركية وخلال العمليات الجراحية، ولا يجوز للفنيين إجراء التنظير مهما كانت الأسباب.

٨ - لدى التعامل مع النظائر المشعة الغازية أو الطيارة (مثل محاليل اليود المركزة) يجب أن يتم العمل في حجرة مزودة بساحبة أبخرة، ويجب أن تحفظ وتخزن مثل هذه المواد ضمن الحجرة نفسها.

٩ - يجب المحافظة على أماكن العمل وبيئة العمل نظيفة ومرتبّة كما يجب التخلص من الأدوات الملوثة فوراً وبشكل سليم.

١٠ - يجب التأكد من خلو مفاتيح الإنارة، وأزرار الأجهزة وأقفال الأبواب والنوافذ وغيرها من أي تلوث مشع.

١١ - عدم استخدام الأواني والحاويات والأدوات ذات الحواف الحادة أو المسننة أو المكسورة لما يكمن فيها من خطر جرح أو قطع في نسيج الجسم وبالتالي السماح للمواد المشعة بالعبور خلالها إلى داخل الجسم.

١٢ - لا يجوز ترك المواد المشعة بشكل سائب في مخابر الأشعة إذ يجب تخزينها دائماً ضمن المستودع الخاص بها عندما لا تكون قيد الاستخدام، ويجب إقفال هذه المستودعات جيداً وحمايتها أمنياً من السرقات أو وقوع الحرائق.

١٣ - التصميم المناسب للمخابر التي ستستخدم المواد المشعة، بحيث تكون

٣ - منع تخزين المواد الغذائية في أماكن تخزين المواد المشعة مثل الثلاجة أو دروج الخزن.. إلخ، وكما لا يجوز استخدام مخازن المواد المشعة كأماكن لتخزين أشياء أخرى كالقرطاسية أو المحارم أو الشراشف.

٤ - عدم استخدام الممصات التي تعمل بوساطة الفم.

٥ - يجب على العاملين غسل أيديهم جيداً بعد مداولة أو استخدام المواد المشعة في المغاسل والمصارف المخصصة لهذا الغرض.

٦ - يجب إجراء الكشف الإشعاعي اللازم قبل الدخول أو الخروج من مخابر الطب النووي (والمخابر الأخرى التي تستخدم نظائر مشعة) للتأكد من خلو اليدين والقدمين وباقي أجزاء الجسم من أي تلوث إشعاعي محتمل وذلك باستخدام أجهزة قياس نووية.

٧ - يجب أخذ الحيطه من ألا تكب أو تتشر أو تذر أو تبخر المواد المشعة المستخدمة، ويجب وضع وسادات ماصة للسوائل تستطيع امتصاص المادة المشعة إذا ما خرجت بشكل غير سليم من الوعاء الخاص بها وذلك لمنع انتشار التلوث على مسافات أو في حجوم أكبر.

النظير المشع وشكله الكيماوي ونشاطه الإشعاعي في زمن وتاريخ معينين.

٤ - عدم ترك المواد المشعة سائبة من دون مرافق أثناء نقلها ضمن المشفى، وتأمين تدريع مناسب وكاف لتلك المواد أثناء حركتها داخل المشفى وذلك بغية حماية الشخص الذي يرافق عملية النقل والآخرين.

٥ - حفظ سجلات المواد المشعة التي يجب أن تتضمن ما يلي: اسم النظير المشع ورقم عينته وتاريخ إنتاجه وتاريخ وصوله ومقدار نشاطه الإشعاعي إضافة إلى حركة تلك المواد داخل المشفى والكميات المستخدمة منها والأشخاص الذين يستلمونها وأغراض الاستخدام.. وهي جميعها معلومات هامة جداً فيما يتعلق بالوقاية الإشعاعية.

٦ - إجراء الكشف الإشعاعي بشكل دوري أو كلما دعت الحاجة عند الشك بوجود تلوث (مهما كان صغيراً) وذلك من قبل شخص مؤهل علمياً وعملياً واستخدام أجهزة قياس مناسبة.

د - التخلص من النفايات المشعة في مخابر الطب النووي:

النفاية المشعة هي كل مادة أو أداة أو جسم دخلت إليه مادة مشعة، فالسيرنغات

المخابر الحارة Hot Labs ومستودعات المواد المشعة بعيدة عن الممرات والمكاتب ومناطق العمل الأخرى ويجب أن تكون سطوح المخابر مصقولة وغير ماصة للمواد وخالية من التشققات والتصدعات، وأن تكون رفوف المخابر متينة ومناسبة لحمل الحاويات والواقيات الرصاصية الثقيلة.

١٤ - توافر الملاقط وأدوات التحريك والأجهزة المساعدة الأخرى، والتي يجب أن تخزن في أماكن خاصة بها ويجب ألا تخلط مع مثيلاتها التي تستخدم في المخابر العادية غير الحاوية على نظائر مشعة.

ج- حركة المواد المشعة داخل

المشافي:

١ - يجب تخزين المواد المشعة في المستودعات الخاصة بها فور وصولها إلى المشفى ومباشرة بعد التأكد منها وتوسيمها.

٢ - يجب وضع المواد المشعة ضمن حاويات ذات جدران مضاعفة، جدرانها الخارجية متينة من ناحية أنها تستطيع احتواء التسرب (الذي قد يحدث نتيجة لتمزق أو تشقق الجدران الداخلية).

٣- توسيم الجدارين الداخلي والخارجي للحاوية الواقية بوضوح، ويجب تدوين اسم

ولعاب تكون ملوثة بالنظير المشع فإنه يجب على العاملين ارتداء اللباس الواقي لدى معالجة ومداواة المرضى.

٣ - إنجاز جميع أعمال التمريض بدقة وعناية وسرعة.

٤ - إجراء الكشف الشعاعي على الشراشف والمناشف واللباس قبل إرسالها إلى الغسيل.

٥ - استخدام الأواني والأدوات القابلة لتلخيص منها (سكاكين - شوكة) وجمعها مع المواد الملوثة واعتبارها نفاية مشعة.

٦ - منع زيارة المريض خلال الأربع والعشرين ساعة بدءاً من إعطائه المادة المشعة، ثم التقيد بالزيارات فيما بعد ذلك ولا يسمح للحوامل والأطفال زيارة مرضى المعالجة بالمواد المشعة إطلاقاً.

٧ - لا يجوز تخريج المريض من المشفى إلا بعد هبوط الفعالية الإشعاعية داخل جسمه إلى الحدود المسموح بها.

٨ - بعد تخريجه من المشفى على المريض التقيد بما يلي خلال فترة يحددها الفريق الطبي:

- أ - تجنب القيام بالرحلات والسفر الطويل عندما يستخدم وسائل نقل عامة.
- ب - تجنب الحضور إلى الأماكن العامة مثل الملاعب والنوادي والمطاعم.

والكسوف والمحاليل وغيرها كلها يمكن أن تتلوث بمادة مشعة أو أكثر وبالتالي تتحول إلى نفايات، يتم التخلص من النفايات عادة وفق التقنيات الثلاث التالية:

١ - تمديد dilute وتشتيت disperse الكميات القليلة من المواد المشعة (الغازات إلى مسالك التهوية والسوائل إلى مصارف المياه).

٢ - تخزين المواد والأدوات الملوثة حتى تتفكك وتهبط الفعالية الإشعاعية إلى حد مقبول (تقريباً ١،٠٪ من الفعالية الابتدائية) وهذه التقنية تفيد في حال التلوث بالمواد المشعة قصيرة العمر (أقل من بضعة أسابيع).

٣ - تركيز Concentration ودفن bury المواد والأدوات الملوثة وهي الطريقة العملية الوحيدة التي تفيد في التخلص من النفايات الملوثة بمواد مشعة طويلة العمر النصفية.

هـ - الإجراءات الواجب اتخاذها بعد إعطاء مواد علاجية مشعة للمرضى:

- ١ - وضع المريض في غرفة خاصة، ويجب أن يوسم سرير المريض بصيغة العلاج وباسم المادة المشعة.
- ٢ - نظراً لأن مفرزات الجسم من عرق

الإشعاعية الممتصة ١ RAD = Q (R) ١
 ١ بحيث Q معامل يتعلق بطبيعة الجسم.
 ٣ - الريم REM وهي وحدة التأثير
 البيولوجي الناجم عن الإشعاع بحيث أن:
 $1 \text{ REM} = 0.01 \text{ R}$. Q٢ وأن Q٢ هو
 معامل يتعلق بطبيعة الأشعة.
 ب - الوحدات الحديثة:

١ - الغراي (GY) (Gray): ١ Gy =
 ١٠٠ RAD
 ٢ - السيفرت (Sv) (Sievert): ١ Sv =
 ١٠٠ REM

ج - وحدة قياس النشاط الإشعاعي
 الكيوري Curie:
 $1 \text{ Ci} = 3.7 \times 10^{10} \text{ dps}$
 حيث إن dps: هي عملية تفكك (تفتت)
 بالثانية - أي بيكريل.

ج - تجنب التماس لفترة طويلة مع أي
 شخص في البيت.
 د - عدم العودة إلى العمل إلا بإذن
 رسمي من الجهة المشرفة على العلاج.
 ٩ - التأكد من خلو كل غرفة يغادرها
 المريض من أي تلوث وإزالة التلوث إن وجد،
 قبل قبول مريض آخر في الغرفة نفسها.

ملاحظة:

• نشير فيما يلي إلى وحدات قياس
 الأشعة المؤينة:
 أ - الوحدات القديمة:

١ - الرونتجن (R) (Roentgen) هي
 وحدة التعرض الإشعاعي ومقدارها:
 $1 \text{ R} = 2.58 \times 10^{-4} \text{ C/kg}$
 ٢ - الراد (RAD) (Radiation)
 Absorbed Dose وهي وحدة الجرعة



الكلوروفيل تكون مرتبطة في مركز التفاعل بالبروتينات بطريقة منظمة ومحددة تسمح باستثمار الطاقة بفاعلية، واعتبرت المرة الأولى التي ينجح فيها أخصائيو الكيمياء الحيوية بالتعرف بشكل كامل على تجمع للبروتينات داخل الغشاء، وهو ما سيساعدنا على فهم طبيعة بروتينات غشائية أخرى للكثير منها وظائف حيوية (بيولوجية) هامة، وإضافة إلى هذا فإن معرفة تفصيلية بمركز التفاعل مترافقة مع تقدمات جديدة في ميدان الهندسة الوراثية لها أن تمكنا من تصميم أنظمة تخليق ضوئي جديدة تجعل المحاصيل الزراعية أكثر إنتاجية.

وكان البيوكيميائيون المهتمون بالتخليق الضوئي قد فتشوا عن نموذج تكون فيه الآليات الجزيئية بسيطة نسبياً، ووجدوا نموذجهم المنشود في مجموعة صغيرة من بكتريا التخليق الضوئي، حيث تشبه كل جرثومة مفردة في حجمها حجم صانع الكلوروفيل، أي بيئة التخليق الضوئي الموجودة في خلية النبات، وتنفذ هذه الجراثيم صيغة متخصصة من التخليق الضوئي، وخلافاً للطحالب والنباتات فإنها لا تنتج الأوكسجين، ويوجد جهاز بسيط

بكل ما لديهم من جهد لحل لغز التجمعات الجزيئية التي هي في أساس عملية التخليق الضوئي، ذلك أن عملية التخليق الضوئي أو التركيب الضوئي هي العملية التي تحول الماء وثاني أوكسيد الكربون إلى أوكسجين وسكريات باستخدام الصبغ الكلوروفيلي الأخضر وطاقة الشمس، وتوفر هذه العملية لكثير من العضويات الدقيقة طريقة واضحة لاقتناص الضوء أولاً ثم تحويله إلى طاقة كيميائية للخلايا الحية، وتعتمد هاتان العمليتان على نظام لجمع الضوء في الخلية وتمرير الطاقة إلى بنية متخصصة تسمى مركز التفاعل.

وفي النباتات يوجد نظام جمع الضوء ومركز التفاعل، وكلاهما ملفوفة بدقة داخل صانع الكلوروفيل أو صانع اليخضور (الكلوروبلاست)، وحتى وقت قريب لم نكن نعرف إلا القليل عن كيفية عمل جهاز التخليق الضوئي هذا، أما الآن فقد برز إلى الوجود المنظور المثير لفهم هذه العملية بأبعادها الثلاثة. وقد أوضحت مجموعة من العلماء الباحثين (من معهد ماكس بلانك في ألمانيا) في بكتريا التخليق الضوئي بنية مركز التفاعل وبينت كيف أن جزيئات

وتحتوي كل عضويات التخليق الضوئي على مراكز تفاعل، سواء كانت هذه العضويات عبارة عن بكتريا أم طحالب أم نباتات، ويحتوي كل مركز تفاعل على مقدار قليل لا تزيد نسبته عن ١٠٪ من مجموع الصبغ الكلوروفيلي في بنية التخليق الضوئي، ويتألف المركز من ثلاثة أو أربعة بروتينات وأربعة جزيئات كلوروفيل إضافة إلى العديد من الجزيئات الأخرى، وتشبه مراكز التفاعل في بكتريا التخليق الضوئي تلك الموجودة في النباتات إلى حد بعيد كما أظهرت دراسات الخبراء حول مراكز التفاعل البكتيرية، وهو ما يوحي بأن هذه العضويات البدائية نسبيا قد طورت مركبا فعلا من الكلوروفيل والبروتين والذي حافظت عليه النباتات. وكانت قصة مراكز التفاعل قد بدأت في ثمانينيات القرن الماضي عندما أعلن مجموعة من الخبراء من جامعة كاليفورنيا أنهم عزلوا «مركز تفاعل» من بكتريا التخليق الضوئي، وكان هؤلاء يبحثون عن أصغر كمية ممكنة من البروتين والكلوروفيل يمكنها أن تحول الفوتون إلى إلكترون، وقد واجهت النواحي التجريبية صعوبات في تكرير وتصفية

للتخليق الضوئي في مناطق متعرجة من غشاء الخلية، وتقع هذه البنية عبر الغشاء المصنوع من طبقتين من جزيئات طويلة تسمى «فوسفوليبيدات»، ولكل جزيء قسم دهني نابذ للماء (ليبيد) متصل بقسم محب للماء (فوسفات) يتجه نحو الخارج باتجاه المحيط المائي على جانبي الغشاء، وتقوم شبكة مؤلفة من مئات عدة من الجزيئات البكتريوكوروفيلية المرتبطة ببروتينات بحصد فوتونات الضوء، وهذا يوفر مساحة سطحية واسعة لامتصاص الضوء بشكل فعال، وتقوم البروتينات المتوضعة في الليبيدي بالإبقاء على هذه الجزيئات في مواقع محددة، وتتوالى سلسلة من التفاعلات بين الجزيئات البكتريوكوروفيلية بتحويل الطاقة الناجمة عن امتصاص الضوء باتجاه مجمع مركزي للأصبغة والبروتينات هو مركز التفاعل، وهنا يقوم جزيئان بكتريوكوروفيليان يسميان «الزوج الخاص» بامتصاص ما يكفي من الطاقة لإطلاق إلكترون يخرج عبر مركز التفاعل من خلال سلسلة من الأصباغ الأخرى، وتؤدي هذه العملية إلى انفصال الشحنة الكهربائية التي توفر طاقة كيميائية للخلية.

مما سمح لهم باستتباط التوالي المطابق للأحماض الأمينية التي تشكل البروتين، وجاءت السلسلة الشاملة تحتوي على نوعين من المناطق: الأول يميل إلى الارتباط مع الليبيدات النابذة للماء في الغشاء، والثاني يميل إلى الالتصاق بالمحيط المائي خارج الغشاء، وأظهر هذا العمل أن امتدادات كثيرة للبروتين تعبر الغشاء. وعلى العموم فقد ظهر أن الطريقة الأفضل للحصول على صورة واضحة للبنية الإجمالية لمركز التفاعل هي استخدام رسم البلورات بأشعة إكس، والواقع أن البنى المنتظمة، مثل بلورة البروتين، تكسر أشعة إكس بطريقة معينة، ويحتوي نمط الانكسار على معلومات تعطينا فكرة عن مواقع الذرات في البروتين.

شكل مركز التفاعل

والآن كيف هو شكل مركز التفاعل وماذا يشبهه؟ إنه عبارة عن كتلة مدورة مدفونة في غشاء سماكته بين (٤ - ٤,٥) نانومتر (النانو متر عبارة عن جزء من ألف مليون من المتر)، ويطل هذا الجسم على الوسط المائي من الجهتين، وهناك ثلاثة مكونات أو وحدات فرعية يرمز إليها بالحرف (H - ثقيلة) و (M - وسط) و (L - خفيفة)

المستخرج الحاوي على مركز تفاعل، إذ أن على الخبير أن يستخدم منظفاً لتحرير المركز من غشاء الليبيد ومن البروتينات الأخرى، وكان الخبراء قد نجحوا في استخدام منظف خاص هو أوكسيد الغاز الأميني ثنائي الميثيل، وكانوا قد جربوا منظفات عدة ولكن من دون نجاح.

وفي نهاية ثمانينات القرن الماضي كانت مجموعة الأبحاث في العالم تدرس مراكز التفاعل موظفة سلسلة التقنيات البيوكيميائية والفيزيائية في تحليل البروتينات والأصباغ وتحديد بنيتها وتوجهها، وظهر الأصباغ تحتوي على أربعة جزيئات بكتريوكوروفيلية وجزيئين من البكتريوفايوفيتين المماثل للكلوروفيل في البنية ولكن من دون ذرة مغنيزيوم مركزية وذرة حديد وذرتي كوينون، واستخدم الباحثون ومضات قصيرة من أشعة الليزر لكي يحددوا طيفياً معدلات التحول الإلكتروني والمسافات بين الأصباغ. كما قام الباحثون بعزل الموروثات (الجينات) المسؤولة عن تركيب جزء من البروتينات، ثم تابع الباحثون الأسس المكونة للحمض الريبسي النووي منقوص الأوكسجين (DNA)،

مدهش لتشكل الفرعين (A) و(B)، وبهذا فإن مقطعا عرضيا للمجموعة يمكنه أن يكشف تنظيما بالغ التشابه لـ (M و L)، وتتصل اثنتان من المناطق اللولبية في كل من (L و M) في مركز المجموعة، وقد تمَّ العثور على العوامل المشاركة عند السطح البيئي، ولمثل هذا الترتيب أن يعني ضمناً أنه يمكن للإلكترونات التي تقودها عملية جمع الضوء أن تتابع مسارها عبر واحد من الفرعين (A) أو (B)، وأمّا الواقع فإنَّ المركز يستثمر واحداً من هذين الفرعين فقط هو الفرع (A).

وقد طرح العلماء افتراضاتهم حول الأسباب التي تدعو الفرع (A) وحده للمشاركة في التخليق الضوئي، فبالرغم من التناظر الشكلي للمجموعة (L، M) تبقى هنالك فوارق كبيرة في البيئة التي تحيط بالبروتينات في الفرعين، وأكثر من هذا فإن مواقع المجموعات الكيميائية المسماة «أذنان الفيتال» والملتصقة بالبكتريوكولوروفيل ليست متناظرة كذلك، وهذه الأذنان أطول من عرض البكتريوكولوروفيل ويمكنها أن تلعب دوراً في نقل الإلكترونات من صبح إلى آخر.

يتشكل المركز منها، وقد وضع العلماء هذه الأسماء الرموز استناداً إلى الطريقة التي تنتقل فيها الوحدات الفرعية في حقل كهربائي، وهي التقنية المسماة «الرحلان الكهربائي»، ويحتوي كل من هذه الوحدات على ٢٦٠ و٣٠٧ و٢٨١ حمضاً أمينياً على التوالي، وبشكل إجمالي فإنَّ للمجموعة وزناً جزيئياً هو في حدود ١٠٠ ألف دالتون (دالتون: وحدة الكتلة الذرية وتساوي ١/١٢ كتلة ذرة كربون)، ومازال من غير الواضح ما الذي تفعله الوحدة الفرعية (H)، إذ إنه يمكن للباحث أن يبعد (H) عن (M) و(L) من دون التأثير على الأصباغ الكلوروفيلية، وخلافاً لـ (M و L) اللتين لكل منهما خمس مناطق لولبية نابذة للماء، فإنَّ لـ (H) منطقة واحدة فقط إضافة إلى منطقة محبة للماء تغطي رأس (M و L) على الجهة الثانية من الغشاء المواجهة لداخل الخلية، أي الجهة السيتوبلازمية.

وتلتصق كل «المساعدات» أو العوامل المشاركة، الخاصة بالمجموعة (أربعة بكتيريوكولوروفيلات، واثنان من البكتيريوفايوفيتينات، واثنان من الكوينونات وذرة حديد) بـ (M و L) بتناظر

إلى BpHA (أي جزيء Bph في الفرع A من مركز التفاعل)، وأما الانتقال إلى جزيء الكوينون الأول QA الذي يبعد ١,٣ نانو متر فيستغرق مدة أطول، حوالي ٢٠٠ بيكو ثانية، ثم يمر الإلكترون من QA إلى QB، أي إلى جزيء الكوينون في الفرع B خلال ٢٠٠ بيكو ثانية، ويبعد أحد هذين الجزيئين عن الآخر ١,٨٥ نانو متر، وليس من الواضح ما الذي تفعله ذرة الحديد، فهي ملتصقة بالأحماض الأمينية المسماة «هستيدين» والموجودة في المنطقة المركزية من L، M وقد تلعب دورا بنويا في ربط إحدى هاتين الوحدتين الفرعيتين بالأخرى.

حركة الإلكترونات

ويحصل نقل آخر للإلكترون خارج مركز التفاعل وداخل مجموعة بروتين أخرى تحتوي على عوامل مشاركة مشابهة كالكوينون والحديد والدموية (haem)، وهذا الصبغ الأخير الشبيه بالكلوروفيل والذي يحتوي على الحديد بدلا من المغنيزيوم يرتبط بأحد البروتينات ليشكل سيتوكروم، ولا يستغرق حصول هذه الأحداث أكثر من أجزاء من ألف من الثانية. وعلينا أن لا ننسى هنا الشحنة

ويكون تدفق الطاقة، سواء في مركز التفاعل أم في نظام جمع الضوء، غاية في السرعة، وتنتقل طاقة الفوتونات بين المثات من جزيئات الكلوروفيل، بما في ذلك شبكة جمع الضوء في عشرات من البيكو ثانية (جزء من مليون مليون من الثانية)، ويمكن لمعدل السرعة داخل مجموعة من جزيئات البكتريوكلورو فيل في وحدة واحدة لجمع الضوء أن يكون أقل من بيكو ثانية، وأما انتقال الطاقة إلى مجموعة مجاورة فقد يستغرق ٣٠ بيكو ثانية.

وأخيراً فإنَّ الانتقال من نظام جمع الضوء إلى مركز التفاعل يستغرق ٥٠ بيكو ثانية، وبافتراض أن الطاقة تستغرق وقتاً أطول للانتقال بين الصباغ نظراً لكونها أكثر تباعداً، فإنه يمكننا أن نستنتج أن زمناً بطيئاً يبلغ ٥٠ بيكو ثانية قد يعكس المسافة بين أقرب جزيء بكتريوكلوروفيلي جامع للضوء، وبين زوج خاص (Bchl) داخل مركز التفاعل، والواقع إن هذه المسافة يجب أن تبلغ ما لا يقل عن ٣ نانو متر.

وأما الزوج الخاص الذي يكون قد امتص فوتونا، فيطلق إلكترونات بسرعة فائقة، وبعد ٤ بيكو ثانية فقط يكون الإلكترون قد وصل

تأثيراً كبيراً على مرور الجزيئات من الخلايا إلى خارجها وبالعكس.

وبهذه المعلومات التفصيلية حول بنية مركز التفاعل وطريقة تنقل الإلكترونات داخله قد نستطيع توليد مراكز تفاعل جديدة في البكتريا، ومن ثم في النباتات مستخدمين الهندسة الوراثية، ثم يكون باستطاعتنا - مثلاً - أن نصمم مبيدات أعشاب جديدة مفصلة على المقاس لمنع نمو الأعشاب الضارة من دون التأثير على المحصول، وهناك العديد من مبيدات الأعشاب التجارية الهامة التي تعمل بواسطة منع التخليق الضوئي، وهي ترتبط بمركز التفاعل بدلا من الكوينون مما يعرقل تنقل الإلكترونات في مركز التفاعل فتموت الأعشاب ولكن المحصول يتأثر أيضاً. وعلى العموم فإنه سيكون علينا أن نهندس المحصول وراثياً بحيث تصبح مراكز تفاعله مقاومة لمبيدات الحشرات. ومن المحتمل أن تكون مراكز التفاعل في النباتات مماثلة تماماً لتلك الموجودة في البكتريا، وبهذا تكون بكتريا التخليق الضوئي عبارة عن نماذج مثالية لدراسة تأثيرات مبيدات الأعشاب على مراكز التفاعل المعدلة

الكهربائية الإيجابية أو «الثقب» المتروك في الزوج الخاص $(Bchl)_2$ الذي يرمز إليه الآن بـ $(Bchl)_2$ بعد أن فقد إلكترون واحد، والذي يسد هذا الثقب هو إلكترون يأتي من سيتوكروم آخر، ويستغرق الانتقال زمناً يمتد إلى مئات الميكروثواني، ويحصل بنفس المعيار الزمني لانتقال الإلكترون من كوينون إلى آخر، ويمتلك مركز التفاعل في البكتريا سيتوكروما واهباً للإلكترون كمكون متكامل أو وحدة فرعية، في حين أن السيتوكروم في النباتات يكون مفصلاً وبالتالي فإنه يبعد فوراً عن مركز التفاعل. ومركز الفاعل الضوئي هو البروتين والغشائي الوحيد الذي تمكن البيوكيميائيون من التعرف إليه بشكل كامل، وربما كانت هناك بروتينات غشائية أخرى تتمتع بمظاهر بنيوية وتنظيمية مشابهة لمركز التفاعل، ويمكن لهذه المجموعة أن توفر معلومات متعلقة بتفاعلات بيولوجية هامة أخرى. والواقع أنه تحصل في الغشاء وداخل الخلايا تفاعلات أساسية مولدة للطاقة مثل تلك المتعلقة بالتنفس، وكذلك فإن البروتينات الموجودة في الغشاء تمارس

مفيدة تزيد من تعدد مزاياها، فهي مثلاً تلجأ إلى التنفس من أجل النمو مستخدمة الأوكسجين لإطلاق الطاقة المخزونة داخل الجزيئات العضوية، وهذه الطريقة الإضافية للنمو تسمح للعلماء بمعالجة خواص مراكز التفاعل من دون الخشية من تأثيرات هذه التغيرات على عملية التخليق الضوئي.

وراثياً، وقد أصبح من السهل جدا عزل ومعالجة المادة الوراثية لهذه البكتيريا، وقد تم التعرف على الكثير من مورثات (جينات) التخليق الضوئي، فنحن نعرف - مثلاً - أن مورثات كثيرة تتجمع معا في نقاط صغيرة تساوي جزءاً ١٪ تقريباً من الكرموزوم البكتيري، وكذلك فإن لهذه البكتيريا خواص



مع:

الباحث الدكتور سليم بركات

* حوار: محمد خالد الخضر



الدكتور سليم بركات.. باحث في علوم الفلسفة والسياسة، اعتمد في دراساته البحثية على الدليل والمنهج والتطبيق، محاولاً أن يصل إلى الحقيقة حتى لو كانت صعبة، كما بحث في أسس القومية العربية عبر تطلعاته وتطلعات شرائح شعبية كثيرة، وحول ما ذهب إليه كان لنا معه الحوار التالي:

- أنت تتناول في البحث قضية معينة في إطار فلسفي أو سياسي، وهذا نمط بحثي مرتبط بواقع مختلف عن البحوث الأخرى.. ما هو البحث برأيك في إطار ما

تذهب إليه؟

* أديب وصحفي سوري.

- كيف يكون البحث وفق الاتجاه الذي**تعمل عليه كباحث سياسي وفلسفي؟**

• .. يحتاج البحث الفلسفي إلى قراءة المدارس والمنطلقات كافة التي سبقت البحث المنشود، ومن ثم يجب أن تكون هناك عملية ربط عبر المراحل التي مرت بها الفكرة التي يبنى عليها البحث، ولاسيما أن الفلسفة كثيراً ما يكون فيها إشكاليات معينة موجودة في المجتمع، والبحث فيها يؤدي في كثير من الأحيان إلى صدام فكري، وهذا أمر نسبي يعتمد أحياناً على طريقة فريدة في البحث، يعمل فيها شخص واحد، وثمة طريقة أخرى يعتمد فيها البحث على فريق معين وفق الدراسات المعاصرة التي أصبح فيها العمل في البحث الواحد يقوم على فريق عمل، وفي النتيجة لا بد من الوصول إلى ما هو مقنع للفكرة التي يدور حولها هذا البحث.

- أنت تعمل في البحث الفلسفي والسياسي**هل هناك اختلاف بينهما؟**

• .. إنَّ البحث الفلسفي يعتمد على العقل والموضوعية ويهدف إلى الحقيقة، كما أنه يخاطب العقل معتمداً على وقائع وركائز، وهذه بعد ذاتها تختلف عن طريقة البحث السياسي بصفته يعتمد على التحليل والتطورات الناجمة عن الأحداث، إضافة إلى الوثائق المثبتة، حتى يكون مقنعاً، وهذا

• .. البحث هو أن يتناول الباحث قضية معينة بصفتها قضية حق لمن يطلع ويقراء، ومن المفترض أن يكون هذا البحث مرتبطاً بواقع معين، سواء أكان هذا الواقع فكرياً أو سياسياً أو فلسفياً أو غير ذلك، لأنَّ هذا الموضوع البحثي سيصبح ملكاً للجميع، ومن المفترض أيضاً أن يمتلك الأسس والأدوات المنطقية كافة التي تقوم بحمايته كقضية تخص الإنسان بشكل عام وهي معرضة للمناقشة والمداولة.

- لقد قلت إن البحث هو قضية تحتاج

إلى أسس وهذه الأسس تحتاج إلى مراجع هل برأيك قد يصل البحث إلى مستوى الإبداع والابتكار أم إنه مقتصر على ما هو موجود في المراجع حيث يعتبر الوصول إلى تلك المراجع هو جهد بحثي؟

• .. من الطبيعي أن يكون لكل بحث مصادره ومراجعته التي تغنيه وتؤدي إلى إثبات حقائقه ومرتكزاته العلمية والتاريخية، ولكن في النتيجة يجب أن يصل الباحث إلى رأي خاص، يضيف به شيئاً عما كان عليه، وبالقدر الذي يكون هذا الجديد مدهشاً ومختلفاً يكون قد وصل الباحث إلى ابتكار أكثر تطوراً مما كان البحث عليه، وغير ذلك يكون البحث قد تراوح في حالة النقل والنسخ والتصوير وهذا مغاير للأسس العلمية والنتائج المنطقية التي يسمى البحث من خلالها.

لمدارس أخرى، فظلت تدور في فلك أيديولوجيات معينة، وهذه الأيديولوجيات لا تنتمي إلى فكر عربي، وهذا يؤدي إلى ضياع النظرية السياسية في الوطن العربي، وإن امتداد الأفكار الأخرى كالليبرالية والاشتراكية مثلاً، لا يعني امتلاك نظرية سياسية أو فلسفية، وما هو موجود كامتداد لتلك النظريات يعتبر أمراً سهلاً، وعلينا أن ندرك أن النظرية السياسية شيء، والكلام في السياسة شيء آخر، فهما معنيان مختلفان، وإن الذي فصل بين السلطات في الماضي هو أرسطو، وهذه النظرية تمتد حتى الآن، كما أن الماضي يدل على أن شريعة حمورابي هي التي نظمت الخلاف الاجتماعي في المحاكمة وأوجدت قضية المساءلة والدفاع عن النفس، وهذا يندرج في إطار النظريات لا في إطار الحديث في شأن سياسي قد يأخذ عشرات المعاني وكلها لا تؤدي إلى شيء منطقي أو واقعي.

- إذا كانت لا توجد مدارس فلسفية

عربية كما تقول فما قولك في وجود ابن خلدون كمثال وقد تجد آخرين أليس ابن

خلدون عربياً؟

• .. أجل إن ابن خلدون هو عربي، وكان يطمح إلى نشوء دولة اجتماعية يسودها فكره ومنطقاته الفلسفية والاجتماعية كما أنه يمتلك نظرية في السياسة مبنية

يؤكد أنه لا يمكن أن يكون بحثاً ما لم يمتلك حقيقة أو معلومة تؤدي إلى نتيجة وهذه الحقيقة هي أهم ما يكون في البحث.

- وماذا عن البحث الأدبي؟

• .. هذا غالباً ما يختلف عن الاثنين، فهو بشكل أو بآخر يخاطب المشاعر أو الوجدان والعواطف، وقد يلعب الباحث دوراً رئيساً في مناقشته وإن كان قد يحتاج في كثير من الأحيان إلى منهج وأسس يعتمد عليها وصولاً إلى نتيجة تختلف في طريقة المخاطبة والتلقي.

- ماذا عن المدارس الفلسفية في عصرنا

الراهن؟

• .. إن المدارس الفلسفية قائمة ومتوافرة ومتطورة أيضاً، كالمدرسة البراغماتية والواقعية والفوضوية والماركسية، وهناك مدارس أخرى فهي منذ نشأتها وتناولها للفكر الفلسفي والسياسي، ارتكزت على تشعبات وتطورات امتدت حتى يومنا هذا، وهي تحمل كثيراً من الأفكار والتحويلات أيضاً إلا أنها ظلت محافظة على منهجها الذي جعلها تستقطب كثيراً من الفلاسفة والمفكرين.

- ألا يوجد فكر فلسفي سياسي عربي؟

• .. في عصرنا الراهن تراجعت الدراسات الفلسفية والسياسية عند العرب مما جعلها تقتصر على أن تكون امتداداً

واني وإن كنت الأخير زمانه**لآت بما لم تستطعه الأوائل**

الإ أن الواقع العربي ترك هذه الموروثات من دون اجتهاد وتمحيص ودراسة وبحث.

- ما رأيك بما يدور على الساحة الثقافية

العربية وهل يوجد بحث فلسفي أو سياسي أم لا؟

• .. إن ما يدور على الساحة الثقافية العربية أصبح واهياً، لأنه افتقد كثيراً من الأسس الثقافية وابتعد عن الاطلاع والمناقشة، ومحاولة معرفة ما يعرفه غيرنا من الأمم الأخرى، حتى إن العرب الآن لم يحاولوا أن يأتوا بشيء من الماضي، ليعملوا على تجاوزه على الرغم من وجود قدرات عقلية وثقافية قد تصنع المعجزات لو تمكنت من أخذ دورها.

أمّا فيما يخص البحث الفلسفي أو السياسي فأنا لم أجد حتى الآن إلا مشاريع فلسفية، وهذه المشاريع ليست في إطار النجاح، لأنّ البحث الفلسفي يحتاج إلى حرية حتى ينتمي إلى هذه التسمية فهو يصدّم بمعوقات كثيرة وشاقة بحجة تحريم نظرياتها، فهي لا تدخل مناهج عدد كبير من الجامعات العربية، فالسعودية مثلاً لا تدرس الفلسفة لأنها تصطدم بمنظومتها الدينية لذلك ستبقى ضمن المحاولات ما لم يحقق العرب ثقافات علمية ودينية حقيقية

على حالة العمر، إذ اعتبر أنّ عمر الدولة كعمر الأشخاص، فالدولة تبدأ بتكوين معين وتنتهي بالصراع على المكاسب، لتبدأ دولة أخرى بعصبية جديدة إضافة إلى نظريات أخرى اجتماعية وفلسفية وسياسية في حياة ابن خلدون، إلا أن هذه الظواهر التي أراد لها أن تكون، لم تجد لها من يعمل عليها كمدرسة في عالمنا العربي كما لم تجد من يفكر بتطويرها فأنا لا أنكر وجود فلسفة أو سياسة في حياة العرب سابقاً كما أن هناك فلسفة في الشعر والأدب، ولا يمكن لنا أن ننكر فلسفة أبي العلاء المعري التي كانت معجزة استثنائية خارقة كونها جمعت بين الحكمة والفلسفة والتظهير والشعر والعاطفة والثقافة الاجتماعية، فكانت قصائده تعتمد على المنطق والدلالة والصورة فقد تمكن من جعل العاطفة في خدمة الفكرة، كما أن بعض الكتب التي كتبها أبو العلاء المعري لا تقل في مستواها عن الكتب والمؤلفات والنظريات التي جاء بها الغربيون وسواهم، ولو وجد في عالمنا العربي باحثون يعملون فيما أتى به أبو العلاء المعري من نظريات ومدارس وأفكار لتجاوزت كثيراً المدارس الأوروبية وغيرها، لأن المعري طرح ما لم يستطع طرحه سواه وهذا ما عبر عنه في قوله:

الموقف، لا لبس فيه، ولا تغيير، وهذا ما كانت تسعى إليه سورية، منذ عام /١٩١٤م/ إلى يومنا هذا، حيث كانت تسمى بلاد العرب.. فالعروبة نبتت في سورية وانطلقت عبر التاريخ، ولا يمكن أن تجد عروبة من دون سورية.

-.. هل هناك مقومات أخرى للقومية

العربية؟

• .. إنَّ من أهم المقومات التي يمكن أن تساهم بأي نوع من أنواع الوحدة، هو أن يعاد للقضية الفلسطينية وجودها، فهي التي يمكن أن تلهب المشاعر، وهي قضية عربية بامتياز، وإن عودتها يوجج القضايا العربية الأخرى، فيعاد العمل على عودة الأجزاء الأخرى المغتصبة من الوطن العربي، وفي النتيجة مثل هذا الأمر، يمكن أن يجعل العرب مجتمعين في كثير من الحالات والقضايا.

- .. ألا يوجد من يطرح عبر قراءات

ودراسات فكرية وسياسية المنظومات التي يمكن أن تؤدي إلى عودة التفكير بقوة لمواجهة هذا التشتيت وهذا الضياع.

• .. يمكن وبكل سهولة لأننا أمة مرت بمراحل لا يمكن أن ينكرها التاريخ، فكان أجدادنا سادة الأرض، فمننا من كان عالماً، ومننا من كان فليكياً، ومننا من كان قائداً تاريخياً فذاً، ولكن عندما وصل الأمر

تجعلهم يحطمون الأطارات الضيقة التي تحرمهم من كثير من التحولات المتطورة، التي لا تخالف المنطق ولا تخالف الدين الحقيقي.

- أنت تناولت كثيراً من القضايا القومية

وذهبت إلى طرح أفكار تخص المشروع القومي العربي.. ما هي رؤيتك في ظل ما يجري من تحولات؟

• .. يجب أن يكون هناك مرجعية عربية تساهم في إنشاء مشروع قومي عربي، وهذا المشروع يشمل الوطنيين قاطبة، بما فيهم من العلمانيين والتمدين من دون الخلط بين الدين والسياسة، وعلينا أن نبحث في تجاربنا الوجدانية، مثل وحدة سورية ومصر، ووحدة سورية ومصر وليبيا، وسورية والعراق، ووحدة المغرب العربي، والصندوق التتموي العربي، وإذا أردنا أن نضرب مثلاً، فإن تسمية الجامعة العربية، تعبر وترمز للوحدة، إلا أن مرجعيتها ليست عربية، ولو كانت عربية، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم.

- .. ما هي الرؤية التي تراها في تحقيق

الوحدة في ظل هذه المعطيات الصعبة؟

• .. يمكن وهذا صحيح أن تكون هناك وحدة فيدرالية، كاتحاد عمال العرب، أو اتحاد المهندسين العرب، أو الأطباء العرب، شرط أن تكون فعالة وذات موقف، وهذا

في قسم الفلسفة -جامعة دمشق.
- أستاذ الدراسات العليا في قسم
الفلسفة.

من مؤلفاته..

- ١- الفكر القومي وأسس الفلسفة عند
زكي الأرسوزي.
- ٢- مفهوم الحريات في الفكر العربي
الحديث.
- ٣- التفكير الاجتماعي عند العرب.
- ٤- فلسفة الحضارة والتاريخ.
- ٥- علم الاجتماع السياسي.
- ٦- دراسات في الفكر العربي الحديث
والمعاصر من جزأين.
- ٧- في الفكر السياسي المعاصر.
- ٨- الوحدة السورية المصرية. مراجعة
نقدية لتجديد الفكر القومي العربي.
وله العديد من البحوث والدراسات
المنشورة في الدوريات والصحف.

إلى عصرنا الراهن، تبعثرت الأمور من
يدنا، وتشتتت أذهاننا، ولا ينقصنا إلا بعض
اليقظة، والعمل على ثقافة حقيقية، تحقق
الرؤية العادلة للأشياء، وتؤدي دوراً شاملاً
يتمكن من استقطاب الأجيال ووضعهم أمام
واجباتهم، وبذلك يتحقق كثير من ركائز
اليقظة.. فليس معقولاً أن ينتهي الاحتلال
والاستعمار في أنحاء العالم كافة، وتظل
الأمة العربية تعاني من أنواعه، وترزح تحت
نيره.

لذلك لا بدّ من النظر في حال أجيالنا
وتحمل صعوبة الموقف الذي لا يكلفنا إلا
قليلاً من الصبر ثم يؤول الأمر إلى مكانه
الحقيقي.

لمحة عن مؤلفات الباحث الدكتور سليم

بركات..

- عضو اتحاد الكتاب العرب.. جمعية
الدراسات والبحوث.
- أستاذ الفكر العربي الحديث والمعاصر

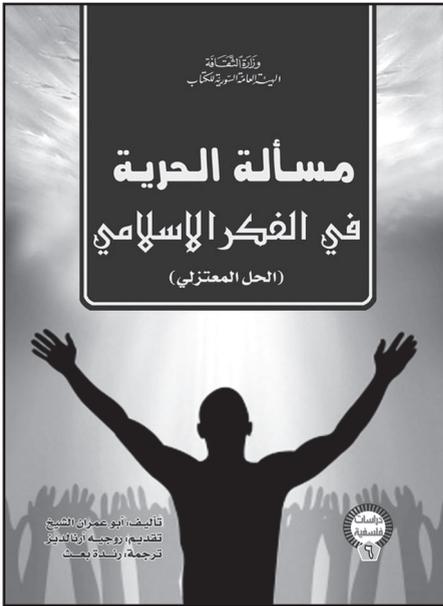




مسألة الحرية في الفكر الإسلامي (الحل المعتزلي)



عرض وتقديم: منهل الغضبان



الفكرية والعقائدية في طرح السؤال التالي ونقيضه عبر معرفة ما إن كان الإنسان حرّ التصرف.. واعتباره حينذاك مكلفاً، أم أن

مسألة الحرية في الفكر الإسلامي و«الحل المعتزلي» بدأها الباحث أبو عمران الشيخ مع «التبويه» الذي جعله توطئة لكتابه هذا، والذي يشير فيه إلى لب المشكلة عبر اصطدام فلسفة المعتزلة بمسألة مركزية في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي بماهية علاقة القدرة الإلهية بحرية البشر؟

وبالتساؤل عن علاقة الإنسان بأفعاله؟ في ظل أزمة أخذت تعصف بالوعي المجتمعي إثر التباينات التي ظهرت بين مناصري النظام السياسي القائم آنذاك وبين خصومه.. لم تتوقف المناظرات حينذاك، وسرعان ما تحولت إلى مواقف مذهبية.. أخذت تبحث عن مبرراتها

صحفي سوري. ❁

- ربيعة «أنت الذي تزعم أن الله يُعصى كرهاً؟».

وقريباً من هذه المناظرة التي أخذها الباحث من كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه.. يتسقط مناظرة ثانية من كتاب «ظهر الإسلام» لأحمد أمين، بين القاضي عبد الجبار أحد شيوخ المعتزلة في القرن الخامس الهجري والإسفراييني أحد شيوخ الأشاعرة الذين عاصروه.

- قال الإسفراييني «أيشاء ربنا أن يُعصى؟»

- فقال عبد الجبار «أفرايت إن مَنَعَنِي الهدى وقضى عليّ بالردى، أحسن إليّ أم أساء؟».

- فقال الإسفراييني: «إن كان منعك ما هو لك فقد أسأ، وإن منعك ما هو له فيختص برحمته من يشا».

ويقابل الباحث بين رؤية القدرين (المجبرة) لمسألة الاختيار باعتبار أن الإنسان ليس حراً، لأنَّ القدرة مُلكٌ لله وحده، وبين وجهة نظر المعتزلة التي اعتبرت أن الله حرٌّ في أن يفعل الحسن والقبيح، وكذلك الإنسان حرٌّ أيضاً، وتبرير المدرستين لرؤيتهما قرآناً الأولى التزمت بظاهر النص القرآني فيما الثانية عملت العقل تأويلاً وتفسيراً وقياساً وبرهاناً واجتهاداً في مورد النص من دون أن يقتصر

الله وحده يتمتع بالقدرة وعندها تصبح حرية الإنسان وهماً؟!!

ويشير روجيه أرناالديز بتقديمه لهذا الكتاب الذي ترجمته إلى العربية «رندة بعث» ويقع في ٤٦٤ صفحة - إلى أن الباحث عمران الشيخ أظهر بماذا وكيف كان القرآن، ولا يزال المصدر الأساسي للتفكير، مفنداً أطروحة بعض المستشرقين الذين اعتقدوا أنهم اكتشفوا تأثيرات خارجية أتت من اللاهوت المسيحي، مؤكداً أنها «وُجدت في العصر الذي انتشرت فيه التصورات المعتزلية ومناظراتهم..» مع الأديان والإثنيات الأخرى لافتاً إلى آراء المؤلف المحققة في أن معطيات الوحي القرآني كافية تماماً لتفسير النظرية المعتزلية مبرزاً ما هو إسلامي في طرح المشكلات وأساليب المحاجرة دون أن يفرق في نزعة المقارنة المحفوفة بالمخاطر..

ويورد الباحث مناظرة جرت في القرن الثاني الهجري بين غيلان الدمشقي أحد أوائل القدرين أي (مناصري حرية الاختيار) وبين رجل يدعى ربيعة من أتباع «الجبرية» لإعطاء فكرة دقيقة عن المواقف المتناقضة في ذلك العصر:

- غيلان «أنت الذي تزعم أن الله يحب أن يُعصى؟»

وقد تتجاوز ملاحظة «المؤلف تلك» الفلاسفة الكلاسيكيين إلى سواهم من فلاسفة العصور الحديثة والمعاصرة (كانط، هيغل، ماركس ولوكييه..) الذين درسوا الحرية وساهموا في صياغاتها إلا أن بحوثهم تلك تعتبر متأخرة قروناً عدة عن تلك النقاشات والدراسات التي تناولت مسألة الحرية لدى الفلاسفة والمتكلمين العرب بين القرن الثامن والثاني عشر الميلادي..

لعل هذا الكتاب جاء ليجسر الهوة المعرفية التي تغاضى عنها الغرب منغلقاً على دراسة فلسفاته ماعدا قلة من باحثيه جذبهم سحر الشرق كغولد تسهير الهنغاري الذي انتهى نشاطه في مطلع القرن العشرين، والذي استأنفها من بعده الفيلسوف الفرنسي «لويس غاردييه» المواصل لعمل بدأه منذ عشرين عاماً— إلا أن أبحاث هؤلاء الاختصاصيين تعد مراجعاً لبعض المهتمين من دون أن تشكل ثقافة واسعة تتخلص من المقولات التي وسمت الثقافة العربية الإسلامية بالجبرية والقدرية من دون أن تطّلع على حيوية المدرسة المعتزلية التي تصدت لمسألة الحرية وأعملت العقل تأويلاً واجتهاداً في استنباط الأدلة من النص القرآني المقدس الذي استبطن في آياته معاني الحرية وقوة

اهتمام المعتزلة على ضمان حرية الإنسان المتأفزيقية، فأرادوا أن يبرهنوا على تمتعه بحرية خلاقة ومحسوسة يتمكن معها من الفعل على نحو مستقل ومسؤول وكامل لذا لم يقرّوا أطروحة السلطة الأموية التي زعمت أن الله هو الذي منحها السلطة، في حين استولت عليها بالقوة، وسلكت سلوكاً قمعياً وظالماً.

وبناء عليه لا يمكن أن يكون الله ظالماً، ولا أن يأمر بالشرّ معتبرين أن السلطة السياسية مكلفة بأفعالها مثلها في ذلك مثل الإنسان الذي يستحق بارتكابه المعصية.. والاحتماء بالقدر، أو بأمر الله هو موقف مضلل..

وبلغت الباحث للباحث للأهم وراء هذا البحث والجهد المبذول في إنجازه لاكتشافه الانغلاق الأوروبي على مناقشة مسألة الحرية داخل كياناتها من دون أن تبدي اهتماماً بدراسة هذه المسألة خارجها.. على الرغم من الأعمال اللافتة التي قام بها علماء كثيرون شدوا الانتباه لحضارات الشرق الأقصى (الهند، الصين، إيران، والشرق الأدنى عموماً..) إذ توقفت كراسات تاريخ الفلسفة والدراسات التخصصية عند عقائد المفكرين الأوروبيين الذين غدّاهم الموروث الهليني والتقاليد اليهودية والمسيحية..

وللسير في مسألة الحرية ومعها في هذا الكتاب لأبد من الوقوف على الشروط التاريخية التي ولدت فيها «مذاهب الرأي تلك» لفهم نشوء تلك الأفكار ومضامينها وما تأثرت به عبر سيرورتها..

لقد طُرحت مسألة القدر وحرية الاختيار منذ القرن الأول للهجرة إذ روي عن عائشة زوج النبي أثناء موقعة الجمل (٣٦هـ/٦٥٦م). بأنها وجدت نفسها متورطة في الأحداث من دون رغبة منها وكان هدفها أن تصلح بين المؤمنين لا أن تقسمهم.. فصرّحت أن ما حدث «هو قضاء وأمر» وبعد انتهاء الفتنة وانتصار الأمويين، ذكر أنصارهم القدر لتبرير هيمنتهم.. فحاربوا «مذهب الجبر» بهدف شرعنة سيطرتهم على السلطة.

وتؤكد المصادر أن معبد الجهني هو أول منظر أبدى رد فعل منهجي على تلك القدرية السياسية الدينية التي أكدها الأمويون وحلفاؤهم..

وتأتي ولادة مدرسة المعتزلة مع معبد الجهني الذي احتج على النظرية الجبرية إذ كان أول مناصر للقدر (أي بحرية الإرادة) وقد تطور هذا المصطلح حيث كان يعني القدرة الإلهية التي يخضع لها الإنسان، إذ كان القديرون تسليميين، فكانوا لا ينسبون قدرة إلا إلى الله، في حين كان الإنسان

الاختيار في العلاقة بين الخالق والمخلوق وبين الخليقة بأجناسها وألوانها وطبقاتها مادياً وروحياً، مما يؤسس لعدالة اجتماعية منبعثة من عدالة إلهية طالما انشغل بها المعتزلة بالاستدلال النقلي والعقلي..

ويورد الباحث باعثاً آخر دفعه لمتابعة بحثه هذا هو.. راهنية الفكر المعتزلي في تجريد الثقافة العربية الإسلامية لتأثير الحل المعتزلي تأثيراً عميقاً في التيارات الفكرية سواء تعلق الأمر بالمجادلة العقيدية (الكلام) أم بالفلسفة ذات الاستلهام الهيليني، أم بالتصوف الصراطي لاحظاً مواقف تلك المدارس من مذهب المعتزلة، ومنهجه المطبق طوال القرون الماضية، حيث تغذت النقاشات والمناظرات من موضوعات ذلك المذهب إقراراً أم رفضاً على الرغم من الانتصار النهائي للأشعرية فقد بقي الاعتزال حياً في مختلف أوساط الأمة منذ القرن (الرابع الهجري) العاشر ميلادي.

وكان قد تجدد الاعتزال في مطلع القرن التاسع عشر، واستلهمه المجددون أمثال «جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده ومحمد إقبال» لصياغة مذهبهم عن الحرية الإنسانية، واستتارة حركة تحويل للمجتمع الإسلامي بهدف إدماجه في تيار الحضارة العالمية بعد قرون من الانحطاط.

شيوخهم: «أنَّ المعتزلة شيعة معتدلون». وقد أولى المعتزلة أهمية كبيرة للمشكلات السياسية التي عالجوها تحت عنوان «الإمامة» إذ شجّبوا فكرة الإمام المعصوم، والوراثي، وفنّدوا حجج الشيعة الإمامية.. وبهدف ممارسة السلطة ممارسة شرعية ينبغي أن تنطبق على الإمام بعض الشروط الضرورية فهو مكلف تماماً بأفعاله، ولا يجب أن يكون معصوماً وكونه يُنتخب انتخاباً حراً لا يستطع أن يزعم ممارسة سلطة غير منازع فيها.. الأمة هي التي تسيطر على الإمام، وتضع حداً لسلطته عند الحاجة.

لا يمكن تعيين الإمام وراثياً، إنه من فعل الأمة حسب أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) «عليكم بالسواد الأعظم» «لا تجتمع أمتي على الضلالة.. إلخ».

ويفرد الباحث فصلاً لمنهج المعتزلة الناجم عن المذهب حيث يرون أن البشر الواعين جميعاً ممن يتمتعون بقدرات ذهنية يتقاسمون العقل تقاسماً متساوياً وكان بشر بن المعتز نظم قصيدة في مدح العقل يقول فيها:

لله در العقل من رائد

وصاحب في العسر واليسر

وحاكم يقضي على غائب

قضية الشاهد للأمر

عندهم مجرداً من أيّ مسؤولية.. لكن قد اتخذت كلمة «قدر» لاحقاً دلالة مختلفة، فأصبحت تطلق على قدرة الإنسان المعترف به بوصفه الفاعل المكلف بأفعاله.. وانتهى الأمر بهؤلاء القديريين إلى مناصرين لحرية الإرادة التي بقيت ملتصقة بهم.

وقد أتت تسمية المعتزلة حسب هذه الرواية: . يذكر أن واصل بن عطاء كان في حضرة معلمه الحسن البصري حين طرح أحدهم سؤالاً حول وضع «مرتكب الكبيرة، فتكلم واصل قبل شيخه، وأعلن أن صاحب الكبيرة ليس كافراً كما يؤكد الخوارج، ولا منافقاً مثلما علمه البصري، ولا مؤمناً مثلما يزعم المرجئة، إنه فاسق وينبغي عقابه على الإثم الذي ارتكبه، وهذا الإثم لا يبعده عن الأمة إذا تاب، وهو بالتوبة يستحق عفو الله.

انفصل بعد ذلك واصل وقسم من مريديه عن البصري الذي أعلن قائللاً «اعتزل عنا واصل».

ثم اتخذ واصل ومريده موقفاً من مشكلات زمنهم، وأدانوا عثمان وعلياً، مثلما أدانوا مناصيرهم إلى حد الطعن بشهادتهم.

وقد رفض المعتزلة استخدام العنف، وظلوا على ارتباط وثيق بالهاشميين (آل النبي) بناء على إعلان «الخياط» أحد

العقلي أنه يجنب شطط منهجي الحرفيين والمجازيين استناداً إلى براهين وحجج متماسكة.

واعتمد المعتزلة منهجاً جدلياً قادراً على تقديم البرهان وإقناع الخصوم أو إخراجهم.. بداية يتم إخضاع النقاش والجدال للمعرفة.. من لا علم له لا يحل أن يجادل بل الواجب أن ينظر ويتعلم..

ويرون أن السؤال له أربعة أقسام لا يقع فيها صدق ولا كذب لأنها استخبار عن ماهية المذهب، والدليل، والعلة، وعن تصحيح العلة، وذلك نهاية فصول النظر، واستقرار صحة الدعوى وفسادها ويختم المعتزلة منهجهم بالتحليل النقدي الذي يطبق على النص القرآني وعلى الأحاديث النبوية والآراء والمعتقدات.

انتهاء بإدانة المعتقدات الخاطئة والتطير بإخضاعها للتحليل النقدي ودراسة النصوص، ما يفسح المجال أمام الاجتهاد الذي يبعدها عن التقليد، والأحكام المسبقة ويسمح باكتشاف حلول جديدة للمشكلات المطروحة ما يفترض البحث والحزم لدى غياب النص القرآني أو النبوي.

ويعقد الباحث فصلاً حول الحرية والمسؤولية يناقش فيه مسائل عدة بدءاً «بالعقل والأخلاق» اللذين توليها المعتزلة

ويرى المعتزلة أن المعرفة العقلية واجبة لأنها تؤسس للتكليف.. ولا يمكن إعلان شخص عاصياً إن لم يتمتع بكمال العقل، وأن معرفة الله وهي الشرط الأبرز في التكليف لا تتأثر إلا بحجة العقل، وكل من يبتعد عن العقل يبتعد عن الشرع، ومما يؤسس لجهد التفكير والبحث عند مؤلفي المعتزلة هو التوافق بين العقل والشريعة.

وشجبت المدرسة المعتزلية المنهجين الحرفي والمجازي.. فالدحض للمنهج الحرفي درءاً للانغماس في التشبيهية حيث زعم أصحاب هذا النهج أن الله يشبه المخلوقات وأنه يمتلك الحساسية والفكر والإرادة، بل مضوا إلى حد القول: «إن الله يمتلك أعضاء لفهمهم الآيات فهماً حرفياً «يُدُّ اللهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (سورة الفتح/ الآية ١٠).

كما عارض المعتزلة المنهج المجازي لدى الصوفيين الذين اعتبروا النصوص المنزلة رموزاً من المناسب حلها، وتعنى في الوقت ذاته معنى ظاهراً، ومعنى خفياً وميز الصوفيون بين الشريعة والحقيقة، على أن الشريعة تستند إلى المظهر وإلى حرفية النصوص، في حين تستند الحقيقة إلى الباطن وقد خشى بعض شيوخ المعتزلة أن يُفقد الإيمان عبر التأويل.

ورأى المعتزلة في منهج التأويل

في مقابساته من أحد أصدقائه تحديد وظيفة العقل الأخلاقية.. العقل هو الذي يوصف فعلاً معيناً بأنه حسن، وفعلاً آخر بأنه قبيح، الأول مباح والثاني منهي عنه.. إذا لم يلعب العقل دوره على نحو طبيعي يفرق الإنسان في الجهل والعنف ولا يعود يتميز عن الحيوان..

لكن هل يكفي العقل من أجل التحسين والتقيح خارج أي شرع..

ويرصد الباحث التحول في عقيدة المعتزلة بين العقل والإيمان فيقتبس من القاضي عبد الجبار قوله: حين نفع لا تكون الدواعي الإلهية ماثلة أمامنا إذ إننا نجعلها.. ويتساءل كيف يستطيع من لا يعرف النهي والنهي معرفة قبح الظلم؟

فيجيب: من الضروري إذا أن يفكروا ويعقلوا بأنفسهم فيستطيعون حينئذٍ تمييز الخير من الشر (ص ٢٩٥).

ويعمل أبو بكر الرازي على المصالحة بين الفلسفة والنبوة بإسناده النبوة إلى المعجزات التي تتجاوز قوى الإنسان المعتادة.. فالنبوة لاتمثل هبة خاصة يمكن اكتسابها، إنما مزودة بقدرة على التخيل تسمح بإقامة علاقة مع الوحي الإلهي..

ويعلي الرازي مرتبة الفيلسوف فوق مرتبة النبي بحجة أن الأول يستخدم العقل

اهتماماً كبيراً بوصف العقل لديها مصدر الحياة المعنوية الذي يتم من خلاله التمييز بين الخير والشر، والذي يسمح بالسعي إلى الأفعال الحسنة، وتجنب الأفعال القبيحة، والذي يربط به السلوك الأخلاقي ارتباطاً وثيقاً كون التفكير يؤسس المسؤولية بناء على المعرفة، إذ لو منع الإنسان عن النظر لما حسن تكليفه بالمعرفة لأن تكليفه بها تكليف مالا يُطاق على حد رأي القاضي عبد الجبار..

ويرى المعتزلة أن القانون الأخلاقي مؤسس على العقلانية.. كونه غير متأت من سلطة اعتبارية أو غريبة، لأن الله لا يحدد قيمة فعل من دون سبب مشروع لقد سمح له بالاختيار الحر بين الخير والشر وزوده لهذه الغاية بأداة مناسبة هي العقل.. فيما شيوخ السلفية لا يستطيعون إقرار مثل هذا التصور من دون أن يشير النص المنزل إلى ذلك فهم يربطون السلوك بالله وحده يستطيع إباحة ما يريد أو النهي عنه..

أما بالنسبة إلى المعتزلة فالعقل عندهم هو المصدر الأول للأخلاق يتوصل من خلاله إلى القانون الأخلاقي مباشرة. عبر جهد العقل الذي يميز الخير من الشر، ويدرك التزامات ينبغي الوفاء بها..

ويطلب المعتزلي أبو حيان التوحيدي

ويختم الباحث بالتأكيد على راهنية الاعتزال والآفاق المستقبلية التي يمكن أن يفتحها ويرى زهدي جار الله في كتابه «المعتزلة» أنهم أوجدوا علم الكلام وكانت غايتهم استعمال العقل في الدفاع عما جاء به النقل ثم ابتعدوا عن تلك الغاية وصاروا يشتغلون في التوفيق بين النقل والعقل.. وقال: إِنَّ النِّظَامَ قَدْ أَقْرَبَ أَنَّ العَقْلَ يَسْتَطِيعُ التَّشْكِيكَ فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَإِنَّ المَعْتَزِلَةَ صَمَّمُوا قَانُونًا عَقْلِيًّا وَحَصَرُوا النِّقْلَ بِالنُّصُوصِ الَّتِي يَصْعَبُ عَلَى العَقْلِ فَهْمُهَا.. ويدحض الباحث هذا الرأي منوهاً بالعقلانية التي بقيت خاضعة للوحي وبأن التأويل لا يستطيع أن يناقض النص القرآني لافتاً إلى ما منحه مذهب المعتزلة من مكانة كبيرة للعقل والجدل، مشيراً إلى إنصاف غولد تسهير وتقديره للعقلانية المعتزلية بقوله: نحن لا نستطيع تجاهل ما كان للنشاط المعتزلي من أثر خلاصي.. ومساهماتهم في إبراز قيمة العقل حتى في مسائل الإيمان وعلى الرغم من جميع المصاعب وكل ضروب التجريح انتصر حق العقل نتيجة نضالاتهم على نحو متفاوت حتى في الإسلام الصراطي. أمّا على الصعيد العقيدي فإنهم أكدوا حرية الضمير مستدلين بالنص القرآني (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (سورة الكهف/ الآية ٢٩)..

فيما الثاني يستخدم المخيلة والرموز، كذلك يربط الفلسفة والدين بالحدس والفيض، ويبقيان في الوقت عينه متأخرين عن وسيلة التوصل إلى المعرفة..

ويشير إبراهيم مذكور في كتابه «الفلسفة الإسلامية» إلى عدم رفض المعتزلة لهذه النظرية الفلسفية عن النبوة لأنها تستند أساساً إلى العقل، وقد عرفوا كيف يصلحونها مع المعطيات المنزلة وفقاً لما جاء في المجلد الثاني من الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي. ووفق التوحيدي أيضاً حاول الفيلسوف المقدسي العملية نفسها التي قام بها الفارابي.. والمقدسي كان جزءاً من المجتمع السري «الأخوان الصفا» بالنسبة للمقدسي للفلسفة أولوية على الدين إذ يقول:

إن الشريعة طب المرضى، والفلسفة طبّ الأصحاء. والأنبياء يطببون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم.. أمّا الفلاسفة فهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعترهم مرض، فبين مدبّر المريض ومدبّر الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف (ص ٣٠٤).

ويستدرك المقدسي القول «لكن الفلسفة معترفة بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدة للفلسفة!!

حياة أخلاقية مستقلة، وأكد على مقتضيات العدل والحرية عبر منهجيته وحسه البحثي سامحاً بجهد ذهني مستدام يتأسس على تفاؤل معقلن، وعلى ضرورة وجود فعل متماسك بانفتاح الاعتزال على الثقافات الأجنبية في زمنه، وحرصه بالحفاظ على أصالته عبر تطوير.. يتجاوز التباينات العميقة في أنظمة العصر.

لا يمكن للإنسان أو لله إكراه الضمائر، الكافر حرّ مثله مثل المؤمن، ومن دون هذه الحرية التامة والكاملة يصبح التكليف غير موجود، وتصبح كل حياة أخلاقية أصيلة مستحيلة. وفي تجاوز تلك الانتقادات التي وُجّهت للمعتزلة يرى الباحث أبو عمران الشيخ عدم التشكيك في الإضافات الإيجابية التي قدمها الاعتزال، فقد منح الإنسان معنى





رئيس التحرير

الثقافة ومفهوم الحوار

في عالم اليوم، شعوب فقدت الرؤية، أو خلت من الثقافة، فلم تعد تجد لذاتها معنى إلا في السيطرة والانتفاخ، وشعوب تفتش عن نفسها خارج نفسها، تبهرها زينة الجبار، تتعثر بين الشخصية والتقليد، تشعر بما يهددها، ولا تعرف ماذا تريد..

الشعوب التي كانت لها رؤية هي نفسها أنت بالعلم وسارت فيه شوطاً بعيداً، وهي نفسها تقاعست عن العلم إذ أفلتت الرسالة من يدها، لذا ترى العلم يكاد ينحصر اليوم في الأشياء، وترى علوم الأشياء تكاد تنحصر في التكنولوجيا، كأنهم يودون لو توقن أنهم بلغوا الأوج في المعرفة ولا يجدون لذواتهم معنى، من لم يجد في ذاته معنى التمس المعنى في المال والجاه والسيطرة فكان التماسه عبثاً وزاده ذلك فراغاً على فراغ فأمسى نغصاً موتوراً، يبدو عزيزاً فخوراً، فهو يغلو في البذخ والعنترة، كلما أحس بأن أجله قريب..



الثقافة نظرة إلى الوجود، تعالج الطبيعة تحليلاً وعملاً حتى تجد في الحياة معنى وتدل على الأهداف.. الثقافة كيفما نظرت إليها ألفتها شركة في الروح، فهي عدوى ومساهمة وتربية بين أفراد الجماعة الواحدة في كل أطوارها، وهي انتقاء فردي من قبل شخص بعينه يستفهم آثار التاريخ ليعرف نفسه والإنسان ومعنى الحياة والمصير..

تاريخياً.. الثقافة تكمن في إعداد الإنسان المدرك لحقيقة وجوده، والواثق بقدرته على التغيير نحو الأفضل.. الثقافة تمثل خيارات في سلم قيم لها أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والإعلامية والبيئية والسياسية.. والثقافة أشمل من التعليم، الذي يمكن أن ينظر إليه على أنه جزء من الثقافة بحكم أنها تحوي كل ما يتصل بالعلوم والفنون والآداب، إضافة إلى القيم والاتجاهات والعادات والتقاليد وغير ذلك من الضوابط التي توجه سلوك الإنسان في مجتمع من المجتمعات.

من يسترجع مفهوم الثقافة، يدرك جيداً، كم تغير هذا المفهوم حتى عند كبار الأدباء والمفكرين والباحثين، ومنهم عميد الأدب العربي د. طه حسين، الذي لم يميز في كتابه الشهير «مستقبل الثقافة في مصر» بين الثقافة والحضارة بل خلط بينهما، ونظر للثقافة نظرة الحالم «اليوتوبي» صاحب المشروع الإصلاحية، ومنهم من لفت النظر إلى أن الثقافة لا يمكنها أن تلعب دوراً إلا إذا استندت إلى المعرفة العلمية، و«المثقف» لا يستطيع الإتيان بالمعجزات اعتماداً على قدرته الشخصية.. وفي المفهوم أيضاً الثقافة بطبيعتها تنزع للتجاوز والاختلاف حتى مع ذاتها، وقد نجح «هربرت ماركوز» في كتابه «الثقافة والمجتمع» في تحليل مفهوم العلاقة بين الثقافة والسلطة، حيث طالب الثقافة أن تلعب دور الوسيط والممهد لإقامة علاقات سليمة مع السلطة، أساسها الحوار وليس الصدام..

في الحوار يكون كل طرف مقيداً بالطرف الآخر، وأول هذه القيود، هو القيد المعرفي، بمعنى أن الحوار لا يمكن أن يستمر إلا إذا كانت عناصره تعرف بعضها

معرفة جيدة.. لأبد لكل طرف أن يعرف عن الآخر قيمه، ومعاييره وتوجهاته وأهدافه وتقاليدِه وتاريخه.. أي ثقافته.. لقد اشتدت الحاجة إلى الحوار نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية العالمية التي نعيشها، فالحاجة إلى الحوار تشتد كلما كان الطرف الآخر أكثر اختلافاً، والكلمة الطيبة هي أساس الحوار..



كان سقراط أول من استخدم الحوار، كأداة للوصول إلى الحقيقة، ولقد جعله بحثاً مشتركاً بينه وبين محاوريه، بمعنى أنه لم يكن يلعب دور الأستاذ صاحب السلطة المرجعية، بل دور المحاور الذي يجيد طرح الأسئلة.. المعين على توليد الحقائق مع هؤلاء المتحاورين، ومعنى ذلك أن الحوار عند سقراط كان آلية لتحقيق الطرح الجذري، وإعادة النظر، ونقد المألوف المستقر من المفاهيم كخطوة لإعادة بنائها، وعلى الرغم من أن سقراط، كثيراً ما كان يلجأ للتهكم، إلا أن العلاقة الأساسية التي كانت تربط بينه وبين محاوريه في الحوار، هي علاقة الحب.. فالحب هو الوسيط الجدلي الوحيد بين الأطراف..

ما يحدث اليوم في كثير من أصقاع العالم، يثبت بما لا يقبل الشك، أن الحوار أصبح إحدى حقائق عالمنا المعاصر وأن الإنسانية لا يمكن أن تكون إلا في تغليب الحوار على العنف والصدام، وليكون الحوار مفيداً، يجب اعتباره مرآة، وليس ساحة سجال..





من إصدارات وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب

الغانصون

كتاب يحتوي مسرحيات ثلاث يهديها المسرحي عبد الفتاح رواس قلعه جي إلى قدره ومعشوقته «حلب الشهباء» التي يراها وهي تحتضر، وتُدفن حيةً تحت ركام أزمة عبثية، وفتنة عاهرة، وزمن رديء أرعن - حسب الإهداء - معتبراً أن ما تنتظره ليحمل إلينا الخلاص يكمن فينا، كمثل الصويفي الذي يسعى لمحبه، منتظراً جلاء الحجب عنه، ومحبه كامن فيه.



رحلة في اللانهاية

صدر العدد (١١٩) من سلسلة آفاق ثقافية تحت عنوان «رحلة في اللانهاية» للباحث كمال القنطار، يقع الكتاب في ٤٣١ صفحة من القطع الوسط وفي ثمانية فصول الأول والثاني منها يبحثان في جذور اللانهاية في الوعي الإنساني، واللانهاية في الوجود الكوني فيما الفصول الأربعة التي تليهما تبحث في الفردوس الأبدي، وفي الفردوس في الديانات التوحيدية والفردوس الأزلي المفقود وفي حلم الفردوس الهابط إلى الأرض، ويختم بفصلين يتناولان إكسیر الأبدية والخلود في الدنيا.



تاريخ جبلة وأثارها

يتطرق الباحث إبراهيم خير بك عبر دراسته تاريخ جبلة وأثارها إلى معلومات هامة جغرافياً ومناخياً وجيولوجياً إضافة إلى معلومات إدارية وسكانية وثقافية تلقي الضوء على ماضي جبلة وحاضرها الموثق فوتوغرافياً، لآثارها وأوابدها التاريخية بالوقت الذي توثق به الصورة معالمها الحضارية المعاصرة ولم يفت الباحث أن يدرس تاريخ جبلة ومعاني أسماء أهم القرى في تلك المنطقة وتطور المخططات العمرانية، متتبعاً التلال الأثرية ومواقعها في سهل جبلة.



قراءة جديدة في.. ابن زيدون

قراءة جديدة في «شعر ابن زيدون» للدكتور وهب رومية رابطاً من خلال بحثه هذا بين شعر ابن زيدون وشخصيته ومجمعه، كون الظاهرة الشعرية عنصر في بنية محيطة على الرغم من أنها بنية مستقلة استقلالاً نسبياً.. فجاء هذا الكتاب ضمن سلسلة آفاق ثقافية ملتزماً معايير وروايات تجيب عن سؤال: كيف نقيم شعر ابن زيدون؟



